فلسطين في عهد العثمانيين (١)

من مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي
إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي

الدكتور عبد الكريم رافق

- مولود في إدلب ١٩٣١.
- أستاذ تاريخ العرب الحديث والمعاصر في جامعة دمشق منذ عام ١٩٧٤.
- دكتور في تاريخ العرب الحديث من جامعة لندن ١٩٦٣.
- عمل سابقاً أستاذاً محاضراً في الجامعة الأردنية ١٩٦٩ ـ ١٩٧١ وفي الجامعة اللبنانية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤. وعمل أستاذاً زائراً في جامعة بنسلفانيا ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ وفي جامعة شيكاغو ١٩٨١ ـ ١٩٨٣ وفي جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس ربيع ١٩٨٤.
- من مؤلفاته: بالعربية: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦ ـ ١٧٩٨، العرب والعثمانيون، ١٥١٦ ـ ١٩١٦، غزة: دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث. وبالإنكليزية: ولاية دمشق ١٧٢٣ ـ ١٧٨٣، وعدة بحوث نشرت في مجلات علمية وفي أعمال المؤتمرات الدولية التي ألقيت فيها.

فلسطين في عهد العثمانيين (١)

من مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي

الدكتور عبد الكريم رافق

● مولود في إدلب ١٩٣١.

● أستاذ تاريخ العرب الحديث والمعاصر في جامعة دمشق منذ عام ١٩٧٤.

● دكتور في تاريخ العرب الحديث من جامعة لندن ١٩٦٣.

● عمل سابقاً أستاذاً محاضراً في الجامعة الأردنية ١٩٦٩ ـ ١٩٧١ وفي الجامعة اللبنانية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤. وعمل أستاذاً زائراً في جامعة بنسلفانيا ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ وفي جامعة شيكاغو ١٩٨١ ـ ١٩٨٣ وفي جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس ربيع ١٩٨٤.

● من مؤلفاته: بالعربية: **بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦ ـ ١٧٩٨، العرب والعثمانيون، ١٥١٦ ـ ١٩١٦، غزة: دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**. وبالإنكليزية: **ولاية دمشق ١٧٢٣ ـ ١٧٨٣**، وعدة بحوث نشرت في مجلات علمية وفي أعمال المؤتمرات الدولية التي ألقيت فيها.

المحتويات

الفصل الأول

الإطار الإداري والسياسي لفلسطين

شهدت فلسطين، في مطلع هذه الفترة (١٥١٦ – ١٨٠٠م) انتهاء الحكم المملوكي فيها وانضواءها، مع بقية بلاد الشام ومعظم أقطار الوطن العربي، ضمن الدولة العثمانية التي حكمتها قرابة أربعة قرون. وتعرضت فلسطين في نهاية الفترة إلى حملة نابليون بونابرت التي هزمت فيها، وبذلك حمت فلسطين بقية بلاد الشام من خطر تلك الحملة التي كانت بداية عهد جديد من التوسع الاستعماري الأوروبي الذي استشرى بعد ذلك بدافع من الثورة الصناعية وما اقتضته من توسع.

وبين بدء الحكم العثماني ومجيء الحملة الفرنسية شهدت فلسطين تطورات هامة بفعل عوامل محلية وعثمانية ودولية. وكان بعض هذه التطورات جزءاً من ظاهرة أعم شملت بلاد الشام والأقطار العربية بعامة، وكان بعضها الآخر مقتصراً على فلسطين بما لها من خصوصية جغرافية وبشرية واقتصادية، وبالتالي سياسية.

والسؤال الذي يطرح بادىء بدء هو: كيف سقطت فلسطين وبقية بلاد الشام بأيدي العثمانيين؟ أو بمعنى آخر: ما هي العوامل التي مكّنت العثمانيين من هزيمة المماليك الذين كانوا يحكمون بلاد الشام ومصر؟

شهدت المناطق الواقعة إلى الشمال والشرق من بلاد الشام والعراق، باتّجاه جنوب الأناضول وشرقه، منذ مطلع القرن السادس عشر، تزايد الصراع على النفوذ بين ثلاث قوى: الدولة العثمانيّة المتمركزة في استانبول والتي مدّت سلطتها على البلقان والأناضول خلال قرنين من الحروب والتوسّع، والدولة الصفوية الناشئة القائمة في تبريز والتي أخذت تحاول التوسع بدورها وتستقطب من حولها القبائل التركمانية التي تُعد عماد قوّتها، ثم السلطنة المملوكية الهرمة التي كانت تحكم من القاهرة وتعاني الكثير من عوامل الضعف.

وكانت الموقعة الفاصلة الأولى بين هذه القوى المتصارعة تلك التي حدثت بين الدولة العثمانية، بزعامة السلطان سليم الأول، والدولة الصفوية، بزعامة الشاه إسماعيل، في جالديران، قرب تبريز، في ٢ رجب ٩٢٠هـ / ٢٣ آب/أغسطس ١٥١٤م. وانتصر العثمانيون بسبب فعالية السلاح الناري الذي أتقنوا استخدامه ضد القوات الصفوية المؤلفة بغالبيّتها من التركمان الفرسان. وبعد عامين هزم العثمانيون المماليك في موقعة حاسمة في مرج دابق، قرب حلب، في ٢٢ رجب ٩٢٢هـ / ٢٣ آب/أغسطس ١٥١٦م. وكان ذلك نهاية السلطنة المملوكية التي استمرت منذ عام ١٢٦٠م وانهارت في مطلع عام ١٥١٧م باحتلال العثمانيين مصر.

والأساس في العَداء بين العثمانيين والمماليك هو طموح العثمانيين في التوسع في العالم العربي الإسلامي لموازنة توسّعهم في أوروبا وللسيطرة على مراكز الخلافة السابقة في دمشق والقاهرة وبغداد، وللوصول حتى المغرب الأوسط غرباً والحجاز واليمن جنوباً والخليج العربي شرقاً، وبذلك يتحكّم العثمانيون بالموارد الاقتصادية في هذه البلاد، وبخاصة طرق القوافل التي تربط بلاد الشام بمصر والخليج العربي وما وراءه بالبحر الأبيض المتوسط. وباستثناء الخطر البرتغالي الداهم الذي تَهدَّد مداخل البحر الأحمر والخليج العربي لفترات قصيرة في أوائل القرن السادس عشر، لم تنافس أيّة دولة أوروبية العثمانيين في احتلال المشرق العربي. واقتصر جهد الدول الأوروبية المطلّة على المتوسّط على الاحتفاظ بالجزر الشرقية وأهمها قبرص، وعلى الصراع مع غزاة البحر العثمانيين عند سواحل المغرب العربي. وكانت الدول الأوروبية الكبرى في وسط أوروبا وغربيّها تتصارع فيما بينها، ويتحالف بعضها مع العثمانيين ضد البعض الآخر، كما كانت دولها المطلّة على المحيط منشغلة بالاكتشافات الجغرافية وتأسيس الامبراطوريات. وكان يمزّق بعضَها في الداخل الخلافُ بين الملكية والإقطاع، وكذلك الخلاف بين البروتستانتية والبابوية.

ولم يكن بإمكان السلطنة المملوكية الثبات في وجه

العثمانيين، فوراء هؤلاء انتصارات كبرى وتقاليد عسكرية راسخة واستخدام فعّال للسلاح الناري الذي غيّر الخريطة السياسية للمنطقة نظراً لكره الفرسان الصفويين والمماليك استخدامه. أمّا المماليك فقد اقتصروا إلى حد كبير على اعتماد الفروسية التقليدية في القتال وكانت ميادينها قد تهدّمت ونظم تدريبها قد انهارت، وبخاصة لأن السلطنة المملوكية لم تتعرّض إلى غزو خارجي منذ تأسيسها باستثناء غزو كل من غازان وتيمورلنك لبلاد الشام في مطلع القرنين الرابع عشر والخامس عشر على التوالي. وممّا زاد في الانهيار المملوكي شحّ في المماليك المستوردين من القفقاس بسبب هجرة أسر بكاملها من هناك إلى السلطنة المملوكية، وكذلك بسبب كثرة الطواعين في مصر في القرن الخامس عشر، التي أصابت بخاصة القادمين الجدد غير المتأقلمين بمناخ مصر. كما أن تشرذم المماليك وتوزّعهم بين كتل متنافسة بحكم طبيعة أصولهم وتدريبهم لحساب السلطان الحاكم والأمراء وانتظامهم في الجيش المملوكي قد أوجد بينهم تنافساً شديداً بلغ حد خيانة عدد من أمراء المماليك لسلطانهم وانتقالهم للقتال إلى جانب العثمانيين في موقعة مرج دابق. وفضلاً عن ذلك فإنّ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨م قد حرم السلطنة المملوكية من موارد اقتصادية هامة نتيجة تناقص التجارة عبر مناطقها بين الشرق الأقصى وأوروبا.

لم يلقَ العثمانيون، بعد انتصارهم في معركة مرج دابق، مقاومة مملوكية في بلاد الشام، فقد انسحبت القوات المملوكية المتمركزة في المدن الشامية باتّجاه مصر، لذلك سهل على العثمانيين احتلالُها. وحين عزم العثمانيون التوجه إلى مصر أرسل المماليك حملة ضدّهم اصطدمت بهم عند خان يونس (فلسطين) في ١٦ ذي القعدة ٩٢٢هـ / ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٥١٦م، وقد هُزم المماليك واتجه العثمانيون لاحتلال مصر.

ولم يدافع الشعب في بلاد الشام عن المماليك بسبب سوء حكمهم له، كما أنه لم يقاوم العثمانيين الأقوياء. وكان في الواقع يستبدل حاكماً غير عربي بحاكم آخر غير عربي، ولم يكن له خيار في ذلك. ومع هذا فقد استغلت عدّة قوى محلية انتقال السلطة من المماليك إلى العثمانيين، وقامت لتفرض نفوذها سواء في الأرياف أو في المدن. ففي الأولى هدّدت القبائل البدوية طرق المواصلات والأمن بعامّة، وتوقّفت قافلة الحج الشامي إلى الحجاز إلى أن أقام العثمانيون النظام. كما ثار بدو آل الحنش في منطقة البقاع الاستراتيجية والغنية. وتكتّل كذلك شباب الأحياء، الذين أشار إليهم الإخباريون من الأعيان باسم الزُّعران، في المدن واستغلوا حروب العثمانيين مع المماليك في مصر فأخذوا زمام المبادرة في يدهم، كما حدث في دمشق مثلاً، وتحرّكوا ضد الذين ظلموا الشعب بالتعاون مع المماليك وضد العثمانيين.

وبالرغم من انتصار العثمانيين النهائي على المماليك في مصر واستتباب الأمر لهم، وبخاصة في المدن، بقيت بؤر المقاومة قائمة في الأرياف بزعامة الأعيان التقليديين وزعماء البدو. وسنشير لاحقاً إلى ثورات عدد من هؤلاء في فلسطين وكيف تعامل العثمانيون معهم.

ونلاحظ في تاريخ فلسطين في العهد العثماني ثلاث فترات موزّعة تقريباً بحسب القرون الثلاثة التي ندرسها. ففي القرن السادس عشر برزت مراكز قوى مبعثرة في فلسطين تمثّلت بزعامات محلية ذات مرتكزات بدوية وإقطاعية، وقد وازنت الدولة العثمانية فيما بين هذه الزعامات واستغلّتها كأدوات في الحكم وفي تصريف الشؤون الإدارية المحلية. ثم تبدأ فترة جديدة في فلسطين في القرن السابع عشر تتمثّل بانتقال زمام المبادرة السياسية من القوى المحلية فيها إلى قوى خارجها؛ ففي النصف الأول من هذا القرن يفرض أمير جبل لبنان فخر الدين المعني الثاني نفوذه، ثم حكمه، على أقسام هامة من فلسطين ويضعف أو يطيح بعدد من زعاماتها المحلية. وحين قضت الدولة العثمانية عليه في عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م حدث فراغ سياسي لا في جبل لبنان فحسب وإنما في مناطق فلسطين التي التزمها فخر الدين وسيطر عليها. وحاولت الدولة العثمانية أن تملأ هذا الفراغ، في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي Köprülü، بين عامي ١٠٦٧ ــ ١٠٨٧هـ / ١٦٥٦ ــ ١٦٧٦م، بتقوية نفوذها في المنطقة عن طريق والي دمشق ووالي صيدا العثمانيين بعد أن أنشأت في هذه الأخيرة ولاية في عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م. ثم تعود المبادرة من جديد إلى فلسطين في الفترة الثالثة، في القرن الثامن عشر، حين ظهرت فيها أول إمارة عربية شبه مستقلة هي إمارة الزيادنة التي اشتهرت في ظل أبرز أمرائها ظاهر العمر.

ولفهم هذه التطوّرات السياسية، وما يرتبط بها من تطورات اقتصادية، في الفترات الثلاث، يجب أولاً أن نحدد الإطار الجغرافي لفلسطين، حيث تمت هذه التطورات، ثم نعرّف الواقع الإداري العثماني فيها من حيث ارتباطها بولايتي الشام وصيدا ومن حيث التقسيمات الإدارية فيها. وخير تعريف لإطار فلسطين الجغرافي الذي تعارف عليه العرب هو الوصف الذي ينقله كل من الرحالة الشيخ عبدالغني النابلسي الدمشقي (١٠٥١ ــ ١١٤٤هـ / ١٦٤١ ــ ١٧٣١م) والرحالة الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي

الدمياطي (١١٠٥ ـ ١١٧٩هـ / ١٦٩٣ ـ ١٧٦٥م) عمن سبقهما من الكتّاب العرب. فقد ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته إلى القدس في عام ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م التي يسميها **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**[١] ما يلي:

«وأما حدود الأرض المقدسة كما ذكره الحنبلي في تاريخه[٢]: فمن القبلة أرض الحجاز الشريف يفصل بينها جبال الشورى وهي جبال منيعة بينها وبين أيلة نحو مرحلة. وسطح أيلة هو أول حد الحجاز وهي من تيه بني إسرائيل وبينها وبين بيت المقدس نحو ثمانية أيام بسير الأثقال ومن الشرق من بعد دومة الجندل بريّة السماوة، وهي كبيرة ممتدة إلى العراق ينزلها عرب الشام، ومسافتها عن بيت المقدس نحو مسافة ايلة. ومن الشمال ما يلي المشرق نهر الفراة [كذا] ومسافته عن بيت المقدس نحو عشرين يوماً بسير الأثقال، فيدخل في هذا الحد المملكة الشامية بكاملها. ومن الغرب بحر الروم وهو البحر المالح. ومسافتـه عن بيت المقدس من جهة الرملة نحو يومين، ومن الجنوب رمل مصر والعريش ومسافته عن بيت المقدس نحو خمسة أيام بسير الأثقال، ثم يليه تيه بني إسرائيل وطور سيناء».

ويقول النابلسي في مكان آخر من **الحضرة الأنسيّة**[٣]: «ومسافة فلسطين طولاً من رفح إلى حد اللّجّون للراكب المجدّ يومان وأمّا سير الأثقال فأكثر من أربعة أيام وعرضها من يافا إلى



خريطة الأراضي المقدسة وجوارها (رسم ن. كروتش ١٦٦٩)

أريحا مسافة يومين». وعلى هذا نميّز في تقدير المسافات بين نوعين من السير: سير الراكب المجد وسير الأثقال. وسير الأثقال يستغرق من الوقت تقريباً ضعف سير الراكب المجد.

وقد وصف مصطفى أسعد اللقيمي في مخطوطة **لطايف أنس الجليل في تحايف القدس والخليل**[٤]، الذي لخّص فيه، كما يقول، **مؤلّف إتحاف الاخصا في فضايل المسجد الأقصى** للسيوطي[٥] **ومؤلّف الأنس الجليل**.. لابن الحنبلي[٦] ـ وصف حدود فلسطين التي سمّاها «حدود الأرض المقدسة»[٧]، وهو تعبير متعارف عليه عبر العصور، ومن خلالها وصف «حدود بيت المقدس» وكذلك حدود «عمل» المدن الرئيسية في فلسطين. وقد جاء وصفه حول حدود فلسطين مشابهاً لوصف الشيخ عبد الغني النابلسي الوارد قبلاً[٨].

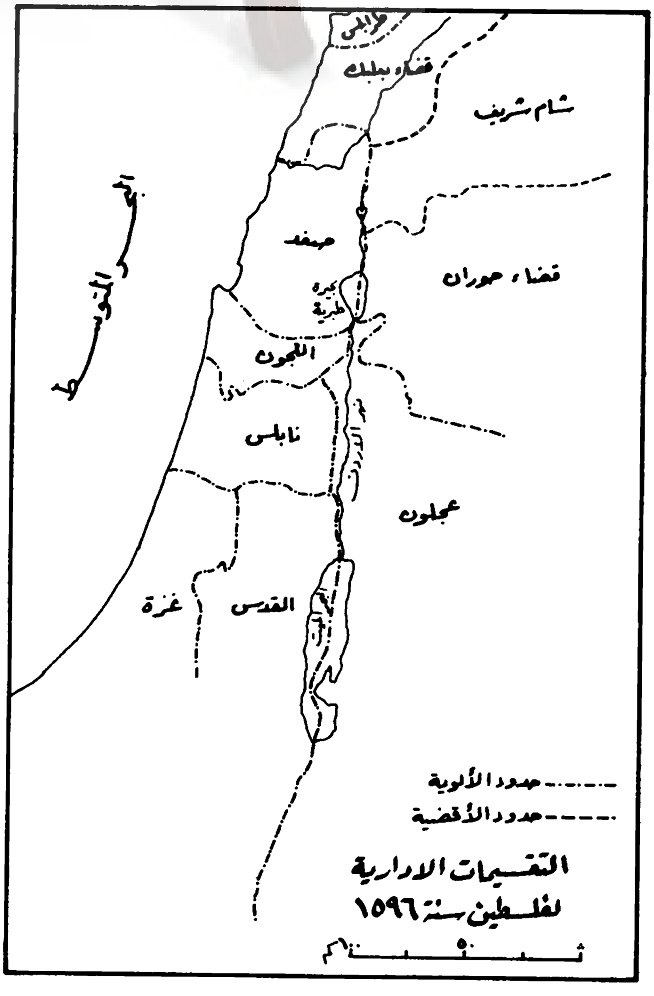
تبعت فلسطين إدارياً ولاية الشام (شام شريف)، وهي واحدة من ثلاث ولايات أنشأها العثمانيون في بلاد الشام بُعَيد فتحهم لها، والولايتان الأخريان هما حلب وطرابلس، وكان هذا التقسيم بخطوطه العامة استمراراً للتقسيم الإداري في عهد السلطنة المملوكية. وضمت فلسطين خمسة صناجق أو ألوية هي: القدس وغزة وصفد ونابلس واللجون. والصنجق وحدة إدارية، ضمن الولاية، وتشتق التسمية من العلم (في التركية صنجق وبالعربية لواء) الذي يُحمل أمام حاكمه، ومن هنا عرف الحاكم بلقب صنجق بك بالتركية وأمير لواء بالعربية، وعرفت المنطقة التي يحكمها بالصنجق أو اللواء. (ولم يشذّ عن هذه التسمية سوى مصر حيث عرف الصنجق بك بالكاشف ومنطقته بالكشوفية وهذا استمرار للتعابير المملوكية). أما الصناجق الأخرى التي تألفت منها ولاية الشام فكانت صنجق عجلون وصنجق الكرك مع الشوبك، في شرق الأردن، وصنجق تدمر، وصنجق صيدا مع بيروت الذي يتبعه أمير الشوف وهو في الوقت نفسه أمير جبل لبنان.

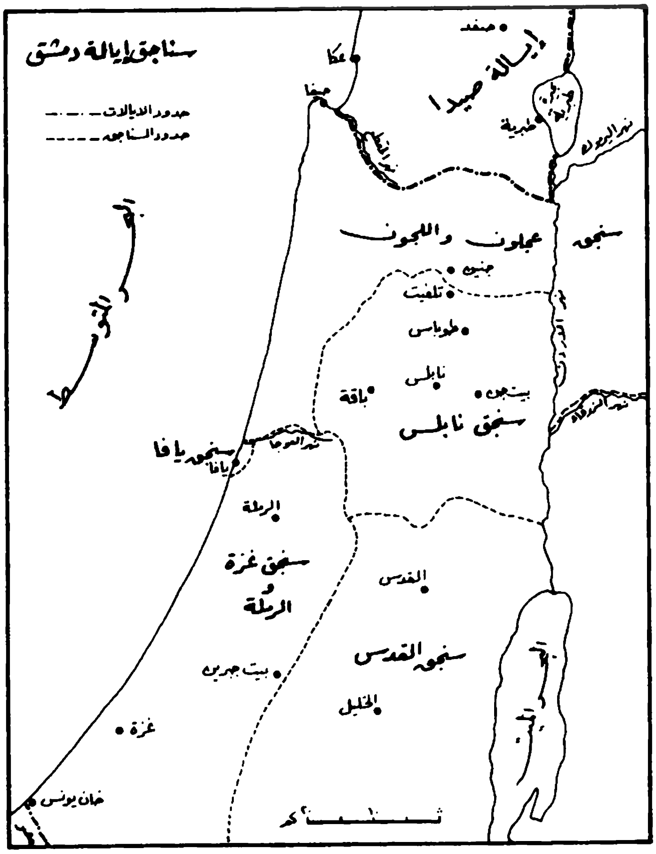
ويقسم الصنجق أو اللواء إلى عدد من النواحي التي تضم واحدتها عدداً من القرى، ويسمى الصنجق عادة باسم «عاصمته»، وهي المدينة الكبرى فيه مثل صنجق القدس وغزة ونابلس وصفد. أما لواء اللّجون فلم يُسَمّ نسبة إلى مدينة لأنه استُحدث بخاصة لأسرة طراباي، وأبناؤها من زعماء بني حارثة[٩] التي كانت تتصرّف بالمنطقة كإقطاع[١٠]. وقُسّم لواء القدس، في القرن السادس عشر، إلى ناحيتين تضمّان معاً ١٨٤ قرية، ولواء غزة إلى ناحيتين تضمان معاً ٢١٠ قرى. وتختلف أعداد النواحي والقرى من وقت إلى آخر، فمثلاً في إحصاء عام ١٥٣٣ ـ ١٥٣٩م ضمّ لواء نابلس ٢٧٦ قرية تقلّص عددها إلى ٢٢٦

أو ٢٢٧ في إحصاء عام ٩٥٥ - ٩٥٦هـ / ١٥٤٨ - ١٥٤٩م[١١]. ولم تكن التقسيمات إلى صناجق نهائية إذ كثيراً ما كان يلغى صنجق ما، أو يدمج بآخر، أو يؤسس صنجق جديد. ففي عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، مثلاً، سلخ صنجق صفد وصنجق صيدا مع بيروت عن ولاية الشام وشكّلا معاً ولاية رابعة في بلاد الشام هي ولاية صيدا. وكان الهدف من ذلك إحكام الرقابة على جبل لبنان بعد ثورة أميره فخر الدين المعني الثاني والقضاء عليه، ومن شأن ذلك أن يقلّص نفوذ والي الشام، بعد أن تحداه فخر الدين عسكرياً، ويتيح له الفرصة للتفرغ لمشاكل أخرى أكثر إلحاحاً في الولاية وخارجها. وقد تمّ هذا الإجراء إبان حكم الوزراء العظام من آل كوبريلي الذين أعادوا إلى الدولة هيبتها، وبخاصة في القضاء على مراكز القوة التي تحدّت العثمانيين في الولايات[١٢].

ومما يلفت النظر في تقسيم فلسطين إلى خمسة صناجق أو مراكز إدارية في حين أن بقية ولاية الشام، قبل عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، كانت تضم على اتساعها أربعة صناجق فقط، أن ذلك تمّ بغية إحكام الرقابة فيها نظراً لأهمية فلسطين بالنسبة للطرق الرئيسية التي تربط دمشق بمصر والحجاز. فقرب فلسطين من الطريق السلطاني الذي كانت تتبعه قافلة الحج الشامي المتجهة من دمشق إلى الحجاز والتي كانت تضمّ حوالي عشرين ألف حاجّ سنوياً زاد من أهميتها الأمنية بالنسبة لهذه القافلة لأن عدداً من القبائل الموجودة فيها أو القريبة منها كان يهدّد طريق الحج. كما أن قافلة الحج هذه، حين يتهددها خطر البدو في طريق العودة من الحجاز، كانت تحوّل طريقها السلطاني، في الغالب بعد منزلة ذات حج، إلى غزة حيث تسير على الطريق التجاري بين مصر ودمشق وهو أكثر أمناً. وفي هذه الحالة تعود القافلة إلى دمشق بواسطة ما اصطلح على تسميته بالطريق الغزاوي.

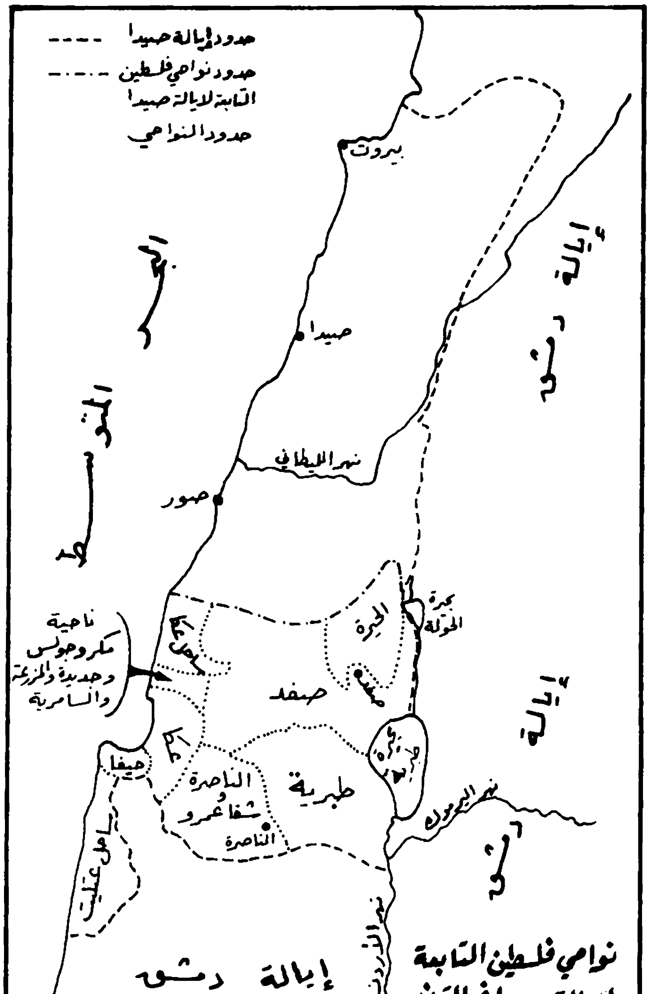
وكان الطريق التجاري، عبر فلسطين، الذي يربط دمشق والمناطق إلى الشمال منها بمصر، هو طريق القوافل الرئيسي قبل استخدام البواخر وشيوع النقل البحري في القرن التاسع عشر الذي أفقد هذا الطريق البرّي كثيراً من أهميته حتى بالنسبة لدمشق التي أصبحت البضائع تنقل إليها ومنها عبر بيروت بطرق برية وحديدية حديثة. ونظراً لأهمية الطريق التجاري عبر فلسطين





قبل ذلك عمدت الحكومة العثمانية إلى تقوية سلطتها في فلسطين لحماية الطريق ببناء الحصون والقلاع وإقامة الحاميات العسكرية فيها. كما بنت فيها المنازل (جمع منزلة)، أو الخانات (وهي محطات لراحة المسافرين) على الطرق الرئيسية، وكانت في الغالب محصّنة هي الأخرى للدفاع عنهم. ومن المواقع التي وجدت فيها المنازل أو الخانات التي ذكر استخدامها في فلسطين في فترة بحثنا، بالرغم من تهدم بعضها، نذكر: جسر بنات يعقوب، جب يوسف، المنية، عيون التجار، نابلس، اللجون، قاقون، بيت جبرين، خان يونس، والعريش.

وكانت مواسم الحج والزيارة إلى القدس والخليل وغيرها حافزاً بدورها إلى تكثيف المراكز الإدارية والنقاط الأمنية في فلسطين لتأمين سلامة المسافرين، ومن الحصون والقلاع التي شيدت أو رممت، في النصف الثاني من القرن السادس عشر لهذه



الغاية، ما نجده في المنية، عيون التجار، جنين، قاقون، القلنسوة، رأس العين، خان يونس والعريش. ووجدت قلعة أيضاً في قرية بيت جبرين على الطريق بين الخليل وغزة[١٣].

وقد حرص العثمانيون، لتحقيق الأمن في فلسطين، على الإكثار من المراكز الإدارية (الصناجق) نظراً لكثرة الزعماء المحليين فيهـا، وهم بمعظمهم من أصـول بدويـة وبعضهم من بقايـا المماليك. وكان من شأن هذه المراكز الإدارية أن تُحكم الرّقابة على الزعماء أو أن تقربهم من السلطة بتعيينهم حكّاماً عليها. وكان عدد من هؤلاء الزعماء قد وطّدوا سلطتهم إبّان الحكم المملوكي[١٤]، وحين أتى العثمانيون اعترفوا بسلطتهم وعينوا بعضهم حكّـام صناجق وملتزمين للضرائب لأنّ القضاء عليهم سيكلف الدولة جهداً، كما أنّ الفراغ الذي سيخلفونه سيوجد مشكلة أخرى للدولة، لذا أدخلت بعضهم ضمن الجهاز الإداري، كصناجق وملتزمين، للحصول على دعمهم لهـا وجعلهم يدفعـون إليها عائدات الضرائب في المناطق التي يسيطرون عليها. ومما ساعد على كثرة وجود هؤلاء الزعماء في فلسطين طبيعتها الجغرافية التي تتداخل فيها الجبال والأودية والسهول والأنهار، وقربها من مكان تدفق القبائل من الجزيرة العربية، وكذلك محاذاتها للبادية التي سيطرت عليها القبائل الكبيرة ودفعت بالقبائل الصغيـرة إلى الأطراف فتسربت إلى فلسطين حيث وطّدت زعاماتها على مرور الزمن مستفيدة من تنوع تضاريسها، مما أوجد، بنتيجة ذلك، مشاكل بشـرية وأمنيـة فيها. وستتّضـح طبيعة هـذه المشاكـل ومظاهرها ونتائجها في الفترات التاريخية الثلاث التي سندرس تاريخ فلسطين من خلالها.

تبدأ الفترة الأولى بالفتح العثماني لفلسطين، بعد معركة مـرج دابق واحتـلال قـوات السلطان سليم الأول دمشق في ١ رمضان ٩٢٢هـ / ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٥١٦م. فقد أرسل في ١٧ رمضان / ١٤ تشرين الأول/أكتـوبر من العـام نفسه حملة تأديبية ضد محمد بن سعيد الغزاوي الأمير البدوي في منطقة عجلون. وتلا ذلك في ١١ شوال / ٧ تشرين الثاني/نوفمبر، من العام نفسه، إرسال قوّات ضد المدن الفلسطينية لطرد المماليك منها[١٥]. ولم تلقَ القوات العثمانية مقاومة من قبل الشعب الذي كان يرغب بالتخلص من ظلم المماليك. وقد استسلمت صفد للسلطان سليم وهو في دمشق، ودخلت القوات العثمانية غزة والقدس. وكانت المعركة الأخيرة بين العثمانيين، بقيادة الوزير سنان باشا، والمماليك بقيادة جان بردي الغزالي، والي حماة سابقاً، عنـد خـان يـونس في ١٦ ذي القعـدة ٩٢٢هـ / ١١ كـانـون

الأول/ديسمبر ١٥١٦م. وانتصر العثمانيون وأسروا الغزالي. ويبدو أنه تمكن من الفرار أو سُهِّل له ذلك لأنّه انضم إلى العثمانيين بعد قليل وأطلعهم على الخطط العسكرية لطومان باي السلطان المملوكي الجديد وأشار عليهم بأحسن الطرق للتغلب على المماليك. وكافأ العثمانيون الغزالي على مساعدته لهم بتعيينه والياً على دمشق في صفر ٩٢٤هـ / شباط/فبراير ١٥١٨م.

وحدث أثناء التوسع العثماني في فلسطين ومصر أن انتشرت الشائعات في فلسطين وبلاد الشام عن هزيمة العثمانيين في خان يونس وفي الريدانية. وكانت ردود فعل الأهلين قوية ضد الحكام الجدد من العثمانيين. وردّ العثمانيون بالبطش بالمتمردين كما حدث مثلاً في غزة حين قتلوا ألفاً من سكانها بعد أن ثار هؤلاء عند سماعهم بشائعة هزيمة الغزالي للعثمانيين في معركة خان يونس وقتلوا أربعمائة من العثمانيين. وحدث مثل ذلك في الرملة وغزة[١٦]. وفي دمشق تحركت العامة، الذين عرفوا بالزعر، ضد العثمانيين لدى سماعهم بهذه الشائعة إلى أن وردت أخبار انتصار العثمانيين على المماليك في الموقعتين، وعندها خضعوا لهم[١٧].

أبقى العثمانيون عدداً من الأمراء المحليين في فلسطين وغيرها وكان هؤلاء قد اعترفوا بالسلطة العثمانية وتعهّدوا بإقامة الأمن وجباية الضرائب. ومن هؤلاء طراباي بن قراجا المعروف بأمير الدربين، أي طريق (درب) دمشق ــ القاهرة، المارّ بجسر بنات يعقوب وخان المنية، وعيون التجار وقاقون ورأس العين والرملة فغزة، وهو المعروف منذ القديم باسم الطريق البحري Via Maris[١٨]، وطريق عكا ــ جنين ــ نابلس ــ القدس. وكان طراباي أحد زعماء منطقة نابلس الذي أعلن خضوعه للسلطان سليم الأول العثماني فاعترف به أميراً في منطقة اللجون. وبقيت أسرة طراباي تحكم صنجق اللجون حتى الربع الأخير من القرن السابع عشر[١٩].

وشنّت السلطات العثمانية حملات تأديبية، بين فترة وأخرى، ضد أي أمير محلّي في فلسطين تمرد على الدولة، كما فعلت مثلاً حين أرسلت، إبّان ولاية الغزالي على الشام، حملة ضد أحد أمراء نابلس الذي ثار على العثمانيين بعد عزلهم له فأخضعته ومؤيّديه[٢٠]. وكان زعماء منطقة نابلس في طليعة الثائرين على الحاكم مهما كانت هويّته. ففضلاً عن الثورة السابقة ضد الغزالي والعثمانيين ثار بعضهم مع الغزالي حين أعلن ثورته ضد العثمانيين في ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م. وأيّد الغزالي في ثورته كذلك حاكما صفد والقدس[٢١].

وحين بطشت الدولة العثمانية بالغزالي وقضت على ثورته في ٢٦ صفر ٩٢٧هـ / ٥ شباط/فبراير ١٥٢١م لم تفعل مثل ذلك بمؤيديه من زعماء فلسطين وغيرها لأنّ هؤلاء يمثلون زعامات تقليدية لها قواعدها الشعبية والقبلية، واتبع العثمانيون تجاه هؤلاء الزعماء سياسة القوة حيناً، عن طريق تشديد قبضتهم ببناء القلاع والحصون وإقامة الحاميات العسكرية وشنّ الحملات، وشراء دعمهم بالمناصب أو الأعطيات، أحياناً أخرى. وكثيراً ما عيّنت هؤلاء الزعماء ملتزمين للضرائب الميريّة (بالأصل أميرية أي التي تعود للأمير الحاكم أي الدولة) في مناطقهم، وأحياناً منحتهم إقطاعات من نوع الخاص (يزيد دخله في السنة على مائة ألف أُقجة أو اسبر وهي الوحدة النقدية الفضية في الدولة العثمانية آنذاك[٢٢]. ويأتي الخاص في سلّم الإقطاع قبل الزعامة التي يتراوح دخلها بين ٢٠,٠٠٠ و ٩٩,٩٩٩ أقجة، ويأتي في الأدنى التيمار «الإقطاع العسكري» ويقل دخله عن ٢٠,٠٠٠ أقجة). وأتى هذا الإقطاع للأمراء بموارد مالية هامة. وفي الحالين كان والي دمشق ــ بصفته محصل الأموال الميرية في صناجق ولايته ــ المسؤول الأعلى عن جمع هذه الأموال منهم. لذا اضطُر إلى قتالهم في حال تخلّفهم عن دفع الأموال الميرية. وذكر أنّ حاكم صنجق غزة تمتع بواردات هامة من إقطاعه الخاص الملحق بمنصبه وقد تجاوزت هذه الواردات مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ أقجة. وتمتع بالمقابل بسلطة سياسية متميّزة دون غيره من حكام صناجق فلسطين وهو الأمر الذي غالباً ما أوصله إلى رتبة حاكم ولاية[٢٣]، مثل ولاية دمشق[٢٤].

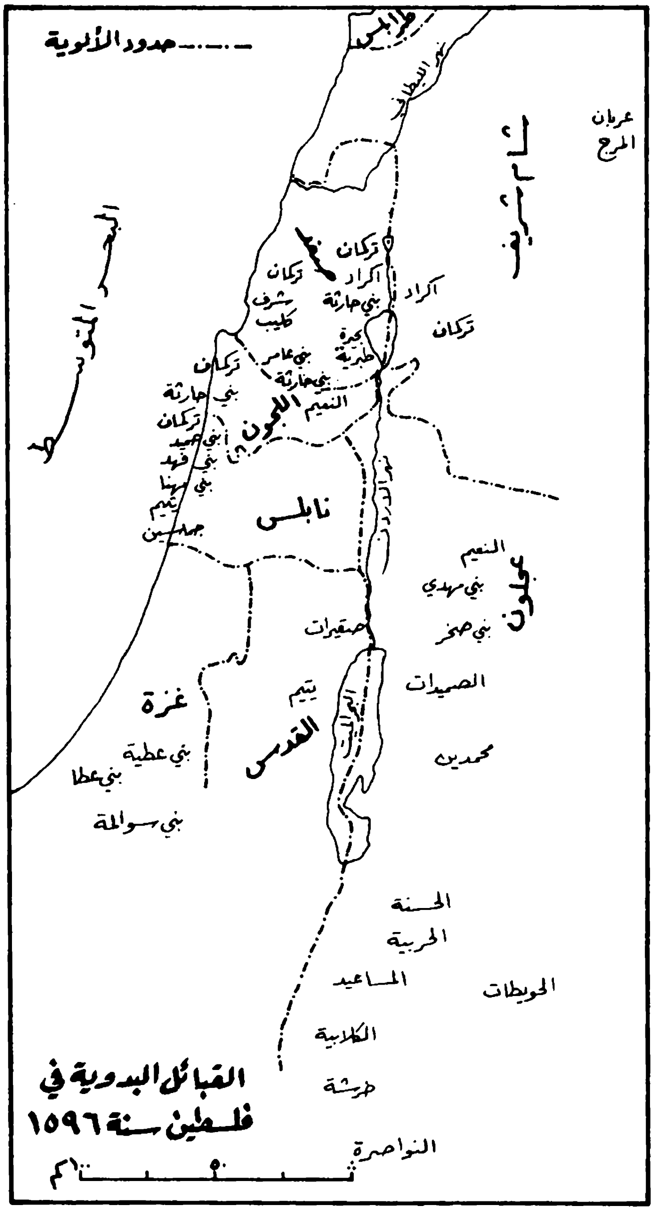
وعيّنت الدولة زعماء فلسطين الذين كانوا حكّام صناجق فيها أمراء لقافلة الحجّ الشامي ــ وكانت هذه القافلة إحدى قافلتين رئيسيتين في الدولة العثمانية، والأخرى هي قافلة الحج المصري ــ. واهتم السلطان العثماني بتأمين سلامة قافلة الحج إلى الحجاز لما لذلك من أهمية دينية بخاصة أنه لقّب حامي الحرمين الشريفين. وضمّت قافلة الحج الشامي، التي كانت تتجمع في دمشق كل عام، حوالي عشرين ألف حاج. وكانوا ينطلقون منها في شوّال ويعودون إليها في صفر. ويتمثل الخطر الرئيسي على القافلة في اعتداء البدو عليها. لذا عمدت الدولة إلى شراء ولاء بعض القبائل الكبرى التي تسيطر على طريق الحج بالمال لتأمين سلامة القافلة وعرف هذا المال بحق الطريق. وكان يدفع على شكل صرّة لذا عرف بالصرّة أو الصرّ. ويدفع أمير الحج إلى البدو نصف هذا المال في طريق الذهاب إلى الحجاز والنصف الآخر في طريق العودة. ويقوم البدو، مقابل هذا المال، بالعمل كأدلاّء للقافلة في الصحراء وبتأمين سلامتها. وتكون كل قبيلة مسؤولة

عن الحاجّ في المنطقة التي تسيطر عليها. وإذا ما امتنع أمير الحج عن دفع الصرة للبدو، وبخاصة في طريق العودة حيث يأمل بأخذها لنفسه، يقوم هؤلاء البدو بمهاجمة القافلة. وهذا ما يفسّر كثرة هجوم البدو على القوافل أثناء عودتها. كما أنّ القافلة تكون، أثناء العودة، محملة بالبضائع مما يغري البدو أيضاً على مهاجمتها.

ومما يجدر ذكره أنّ قافلة الحج كانت قافلة تجارة في الوقت نفسه إذ التحق بها الكثير من التجار حاملي البضائع للاستفادة من الناحية الأمنية التي تتوفر لقافلة الحج. كما أن الحجاج أنفسهم كانوا يحملون كثيراً من البضائع معهم. واشتملت هذه البضائع، بصورة رئيسية على البنّ من مخا في اليمن، والمنتجات النسيجية والتوابل والعطور من الشرق الأقصى، وكانت تنقل إلى الحجاز بمناسبة موسم الحج. وفي حين كانت الدولة تخطب ودّ القبائل الكبيرة كانت تعمد إلى استعمال القوة ضد القبائل الصغيرة التي كانت تردّ على ذلك بمهاجمة القافلة، كما حدث مثلاً في عام ١٧٥٧ حين هاجمت قبائل بني صخر والسردية وبني كليب وبني عقيل قافلة الحج الشامي بين تبوك وذات حجّ وأبادتها بكاملها تقريباً. وجاء هذا الهجوم في أعقاب عزل أسعد باشا العظم عن ولاية دمشق، وكان قد شدّد قبضته على هذه القبائل أثناء ولايته وفرض عليها الضرائب، في حين أنّه تقرّب إلى القبائل الكبيرة من العنزة وبني حرب التي تسيطر على طريق الحج واشترى رضاها بالمال. لذا أقامت الدولة القلاع والحاميات على طريق الحج، في المنازل التي تتوقّف فيها القافلة، لحمايتها وحماية برك الماء التي تستقي منها. وضمّت هذه المنازل المواقع التالية: المزيريب، المفرق، الزرقاء، البلقاء، القطرانة، الحسا، عنزة، معان، ظهر العقبة، جغيمان، ذات حج، القاع، تبوك، مغاير شعيب، الأخضر، المعظم، دار الحمرا، مدائن صالح، العلا، المطران، بئر الزمرد، شعب النعام، هدية، الفحلتين، وادي القرى، الجرف، ثم المدينة. واتخذت بعض هذه المنازل تسميات أخرى أقلّ شهرة(٢٥).

ويُعزى تعيين الزعماء المحليين من حكّام الصناجق في فلسطين أمراء لقافلة الحج الشامي إلى مقدرتهم على تأمين سلامة القافلة بسبب معرفتهم الوثيقة بالمنطقة وعلاقتهم الحسنة بالقبائل التي قد تشكّل الخطر الرئيسي على القافلة، وبخاصة لأنّ بعض هؤلاء الزعماء من أصول بدوية. كما أن تعيين بعض هؤلاء الزعماء حكّام الصناجق أمراء للقافلة يؤمّن تغطية بعض نفقاتها من الضرائب التي يقومون بجمعها من مناطق صناجقهم بصفتهم ملتزمين للضرائب فيها. واستلزمت إمارة الحج استخدام قوات عسكرية إضافية لتأمين حمايتها بحيث اقتضى ذلك نفقات إضافية. وكان حاكم الصنجق أمير الحج يأتي إلى قبة الحج (المعروفة بقبة يلبغا) خارج دمشق، من جهة الميدان، بعد بوابة الله (أو باب الله لأنه يؤدّي إلى الأماكن الدينية في القدس والحجاز) لتسلّم القافلة وقيادتها. وكان يعود بها إلى المكان نفسه دون أن تدخل قوّاته إلى دمشق، وبذلك تحاشت هذه المدينة فوضى وجود القوات فيها.

وقد عُين على إمارة الحج الشامي في شوال ٩٢٦هـ / أيلول/ سبتمبر ١٥٢٠م، عشية ثورة الغزالي في دمشق، حاكم غزة جان بلاط(٢٦). واستمر بعد ذلك تعيين حكّام صناجق فلسطين وهم



من الزعماء المحليين أمراء للحج الشامي. وعين أحياناً إلى جانبهم موظفون عثمانيون من حكّام الولايات. واهتم ولاة دمشق بصفتهم السلطة العليا في الولاية بتأمين سلامة الحج وذلك بتقديم الدعم العسكري إلى أمير الحجّ إذا ما احتاج إلى ذلك(٢٧). وفي حوالي ٩٧٧هـ / ١٥٧٠م عيّن قانصوه بن مساعدة الغزاوي، حاكم الكرك ثم عجلون، أميراً على قافلة الحج الشامي، وبقي يتولّى هذا المنصب مدة خمسة عشر عاماً. ويقول عنه نجم الدين الغزي الدمشقي، الذي ترجم لأعيان عصره، «وكان من يحجّ في زمانه يستريح في سفره، وكانت العرب تطيعه وتخافه فيحصل للحجّاج الأمن والراحة»(٢٨). وبلغ من أهمية قانصوه هذا وولائه للعثمانيين أن عهد إليه فرمان سلطاني في ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م بحماية صناجق غزة ونابلس والقدس(٢٩).

واشتهر في إمارة الحج الشامي بعد ذلك الأمير البدوي منصور بن فريخ أمير البقاع، وقد حاز على ثقة العثمانيين فعيّنوه حاكماً على صنجق نابلس، كما التزم منهم جمع الضرائب الميرية في صفد وعجلون، وعيّن على هذه المناطق أبناءه وأتباعه. وعين منصور في الوقت ذاته، مرتين أميراً على الحج الشامي (٩٩٨ ــ ٩٩٩هـ / ١٥٩٠ ــ ١٥٩١م). وبلغ من ازدياد نفوذ منصور وغناه أنه بنى داراً كبيرة في دمشق إلى جانب عدة أبنية في البقاع. وأثار هذا النفوذ مخاوف السلطات العثمانية فانقلبت ضده، وشجعت ابنه قرقماس ضده وصادرت أمواله، ثم قتلته بمساعدة عدوّه الأمير فخر الدين المعني الثاني، أمير جبل لبنان، وذلك في ١٣ ربيع الأول ١٠٠٢هـ / ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٥٩٣م. وقضت على مقاومة أفراد أسرته في العام التالي(٣٠).

واستفاد من النقمة على منصور بن فريخ الأمير أحمد بن الأمير قانصوه بن مساعدة الغزاوي، حاكم صنجق عجلون، الذي خلف أباه في حكم هذا الصنجق في ١ محرم ١٠٠٠هـ / ١٩ تشرين الأول/اكتوبر ١٥٩١م. وتقلّد إمارة الحج الشامي لفترة قصيرة إذ انقلبت عليه الدولة في ١٠٠١هـ / ١٥٩٣م فثار عليها وتوفي بعد حوالي سنتين من ذلك(٣١). واستفاد كذلك من القضاء على آل فريخ عدد من الأمراء المحليين في فلسطين الذين وسّع آل فريخ نفوذهم على حسابهم. ومن هؤلاء، فضلاً عن الأمير أحمد بن قانصوه: الأمير أحمد بن رضوان، حاكم غزة، الذي توفي في عام ١٠١٥هـ / ١٦٠٦ أو ١٦٠٧م(٣٢)، والأمير طراباي، حاكم اللجون، الذي تولى حكومة صنجق اللجون في بلاد حارثة (جبل الكرمل والمنطقة في جنوبه) وخلفه بعد وفاته في ١٠١٠هـ / ١٦٠١ أو ١٦٠٢م ابنه الأمير أحمد، الذي عرف بالحارثي نسبة إلى قبيلة بني حارثة. وكانت حيفا تابعة له أيضاً. وكان أحمد هذا حاكماً على صفد قبل أن يخلف أباه في حكم اللجون. وقد توفي في عام ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م بعد أن قارب الثمانين من عمره. وخلفه في حكومة اللجون ابنه زين المتوفى عام ١٠٧٠هـ / ١٦٦٠م ثم ابنه الثاني محمد الذي توفي في ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م. واستمرّت هذه الأسرة في حكم اللجون، وكان مركزها جنين، حتى عام ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م حين خلفها موظف عثماني هو أحمد باشا الترزي(٣٣).

واشتهر كذلك من الأمراء المحليين في فلسطين الأمير فرّوخ بن عبد الله حاكم نابلس وأمير الحج الشامي، وكان في الأصل من مماليك الأمير بهرام، أخي الأمير رضوان حاكم غزة سابقاً. واستمر في إمارة الحج حتى وفاته في عام ١٠٣٠هـ / ١٦٢١م(٣٤). وكانت إمارة الحج الشامي تنتقل من أمير إلى آخر من هؤلاء الأمراء المحليين حسب قوتهم ورضى الدولة عنهم.

وقد تعرّض الأمراء المحليون هؤلاء إلى ضغط الأمير فخر الدين المعني الثاني (٩٩٩ ــ ١٠٤٥هـ / ١٥٩٠ ــ ١٦٣٥م) الذي ازدادت قوته ونفوذه كأمير لجبل لبنان وزعيم للحزب القيسي، وتطلّع إلى التوسع في فلسطين. وقد شنّ فخر الدين ثلاث هجمات ضد أمراء فلسطين وهزم فيها جميعاً في البدء. وكان على رأس مقاوميه الأمير أحمد بن طراباي الحارثي أمير اللجون. وكانت أشهر المواقع بين الطرفين في يافا حين نهد تحالف ضم الأمير أحمد بن طراباي وحسن باشا حاكم غزة والأمير محمد بن فروخ حاكم نابلس إلى صدّ قوات الأمير فخر الدين وهزمها وألحق بها خسائر فادحة(٣٥). وتعود أسباب النزاع بين الأمير فخر الدين وأمراء فلسطين هؤلاء إلى لجوء الأمير يوسف باشا سيفا والي طرابلس إلى حيفا التي كان يحكمها الأمير أحمد بن طراباي وذلك في عام ١٠١٥هـ / ١٦٠٦م. وكان يوسف باشا سيفا هذا العدو اللدود لفخر الدين ولحليفه الأمير علي باشا جانبولاد والي حلب الثائر على الدولة العثمانية وترأس القوات العثمانية التي أمرت بمحاربتهما(٣٦). كما أن فخر الدين الذي ازدادت سلطته بعد أن استولى على منطقة البقاع الغنية كان يطمح في مدّ نفوذه على مناطق فلسطين.

تبدأ الفترة الثانية من تاريخ فلسطين في القرن السابع عشر بسيطرة الأمير فخر الدين المعني الثاني على أجزاء هامة منها، وقضائه على عدد من زعمائها المحليين أو إضعافه لهم. وأعقب ذلك في النصف الثاني من القرن السابع عشر تشديد قبضة الدولة العثمانية في المنطقة ككل في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي.

كان تدخّل فخر الدين في فلسطين، أول الأمر، جزءاً من الصراع على النفوذ في المنطقة مع العثمانيين. وقد حاول ولاة دمشق الذين تزعموا المعارضة العثمانية لفخر الدين معاداة زعماء فلسطين المؤيّدين لفخر الدين وتشجيع منافسيهم. ففي عام ١٠٢١هـ / ١٦١٢م مثلاً طرد أحمد باشا الحافظ والي دمشق الأمير حمدان بن أحمد بن قانصوه، حاكم عجلون والكرك، المؤيد لفخر الدين، وأقام مكانه الأمير فروخ بن عبد الله الذي عين، فضلاً عن ذلك، حاكماً على نابلس وأميراً على قافلة الحج الشامي. وطرد كذلك أمراء آخرين مؤيدين لفخر الدين بين بدو حوران. وردّ فخر الدين بأن أعاد الأمراء المطرودين إلى أماكنهم في العام التالي. وحين اشتكى والي دمشق إلى استانبول من أعمال فخر الدين أُمِر بالزحف ضده. وأيّد العثمانيين من زعماء فلسطين الأمير فروخ حاكم نابلس والأمير أحمد بن طراباي حاكم اللجون وغيرهما. وخشي فخر الدين عاقبة ذلك فهرب إلى إيطاليا حيث أمضى خمس سنوات ميلادية (١٠٢٢ ــ ١٠٢٨هـ / ١٦١٣ ــ ١٦١٨م)(٣٧). وذكر أنّ الدولة العثمانية أقامت ولاية في صيدا في عام ١٠٢٣هـ / ١٦١٤م تتألف من صنجق صيدا مع بيروت وصنجق صفد لإحكام الرقابة على المعنيين. ولكن لا دليل على استمرار هذه الولاية فيما بعد إلى أن قامت فعلاً في عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م في عهد آل كوبريلي(٣٨).

وما إن عاد فخر الدين من إيطاليا في عام ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م، بوساطة مؤيديه، حتى بدأ بالتوسع من جديد. فسيطر في عام ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م على صناجق صفد ونابلس وعجلون وعيّن عليها أبناءه ومساعديه. ومما ساعد فخر الدين على ذلك انتصاره الحاسم على والي دمشق مصطفى باشا في عنجر في عام ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م. وتزعم المعارضة لفخر الدين أحمد طراباي زعيم منطقة اللجون، ودارت المعارك العسكرية بينهما سجالاً. وأثبتت القوات البدوية بإمرة أحمد طراباي ومؤيديه صلابة في المقاومة تجاه فخر الدين وقواته المرتزقة من السكبان(٣٩).

وعمد السلطان مراد الرابع (١٠٣٣ ــ ١٠٥٠هـ / ١٦٢٣ ــ ١٦٤٠م)، إثر احتلال الصفويين لبغداد في عام ١٦٢٣م، إلى الاعتراف بسلطة فخر الدين فولّاه على بلاد عربستان، من حدود حلب إلى حدود العريش، لقاء دفع الضرائب وإقامة الأمن. ولعلّ المقصود بعربستان المناطق التي يسكنها البدو (العرب). وأخذ فخر الدين يبني القلاع لتحصين هذه المنطقة، وازداد اعتداده بنفسه فاتخذ بمبادرة منه لقب سلطان البر، وبدأ بمعارضة المصالح العثمانية. وخشي السلطان مراد الرابع من استفحال ضرره وهو يقارع الصفويين فعزم على البطش به أولاً. وهزمه عسكرياً في ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م، ثم قتله في ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م(٤٠).

أدّى القضاء على فخر الدين المعني الثاني الذي رفع من هيبة الإمارة في جبل لبنان وضمَّ إليها الساحل اللبناني والبقاع ومدّ نفوذه على القسم الشمالي من فلسطين، إلى حدوث شبه فراغ سياسي في المنطقة التي كان يسيطر عليها. وأتت السلطة العثمانية في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي لتملأ هذا الفراغ. وانعكس ذلك بصورة خاصة على تبدل هوية أمراء الحج الشامي. وقد سبق القول ان هؤلاء كانوا يعينون بمعظمهم من بين الأمراء المحليين حكام صناجق فلسطين نظراً لتمكنهم من توطيد سلطتهم محلياً، وقدرتهم على تأمين سلامة قافلة الحج من البدو، ومشاركتهم في تمويل هذه القافلة من العائدات الميرية لمناطقهم التي كانوا يجمعونها بصفتهم أصحاب إقطاعات أو ملتزمين. وفضلاً عن ذلك عين حكام الصناجق هؤلاء أمراء على القافلة التي كانت تخرج من دمشق لملاقاة قافلة الحج وهي في طريق العودة. وعرفت قافلة الملاقاة هذه بالجردة، وكانت تحمل في الأساس المؤن للقافلة العائدة من الحجاز ولكنها اضطرت للتسلح لحماية نفسها وحماية قافلة الحج أيضاً(٤١).

وبعد أن أضعف فخر الدين المعني أمراء فلسطين ــ حكام الصناجق فيها، ازداد نفوذ زعماء انكشارية دمشق وبدأوا يبرزون كمنافسين في تولي إمارة قافلة الحج الشامي. وحين يعين أحدهم أميراً على قافلة الحج كان يعين في الوقت نفسه حاكماً على صنجق أو أكثر من صناجق فلسطين، على غرار الأمراء المحليين، والهدف في ذلك ملء الفراغ في السلطة الحاصل في فلسطين، وتأمين تمويل القافلة من الضرائب المحلية فيها، وكذلك إبقاء القوات التي يستخدمها أمير الحج لحماية القافلة بمنأى عن دمشق. وكأمثلة على هذا التداخل في هوية أمراء الحج الشامي بين بقايا الأمراء المحليين في فلسطين والمنافسين الجدد من الانكشارية نذكر شغل إمارة الحج في معظم الفترة بين ١٠٣١ و١٠٤٨هـ / ١٦٢١ و١٦٣٩م من قبل محمد بن فروخ حاكم القدس ونابلس الذي حلّ في ذلك مكان أبيه. ويعلّق المحبّي على ذلك بقوله: «أرهب العربان وكبر صيته واشتهر خبره وبقي في الإمارة مدة ثماني عشرة سنة وشهرته تتضاعف وأخباره تتزايد وبلغت رهبته في قلوب العربان إلى أنهم إذا أرادوا يخوّفون أحداً فإنهم يقولون: ها ابن فروخ أقبل فتتلوّى قوائمه»(٤٢). وشغل ابناه علي وعسّاف من بعده إمارة الحج: الأول لسنة، والثاني لسنوات. وقد عين لإمارة

الحج ولحكومة نابلس في آن واحد في عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣ ــ ١٦٤٤م الأمير حسين بن الأمير حسن الغزي، وكان أبوه حاكماً على غزة. وعندما توفي خلفه ابنه حسين في حكومتها «وأطاعته العربان وأصبح ركناً ركيناً» على حدّ تعبير المحبّي(٤٣). وقد عين ابن الأمير حسين هذا، ويدعى إبراهيم، على حكومة القدس. ثم أقامه والده مكانه في حكومة غزة وتسلّم هو حكومة نابلس وإمارة الحج مدة سنتين. وتُوفي إبراهيم في عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠ ــ ١٦٦١م في البقاع في خدمة الوالي العثماني أحمد باشا وكان متوجهاً لقتال الدروز. ووُشي بالأمير حسين لدى الدولة فقتلته في استانبول في عام ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢ أو ١٦٦٣م(٤٤). ويدلّ هذا المثال على انتقال زمام المبادرة في السلطة في فلسطين إلى الدولة التي فرضت هيبتها على الزعماء المحليين في عهد مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي.

ومن زعماء الانكشارية الذين عيّنوا، إلى جانب بقايا الأمراء المحليين، أمراء لقافلة الحج الشامي، نذكر سنان، أحد كبار انكشارية دمشق، الذي ولّي في سنتين متتاليتين، ١٠٥٩ و ١٠٦٠هـ / ١٦٤٩ و ١٦٥٠م، أميراً على الحج وحاكماً في الوقت نفسه على نابلس، وقد خضع لسلطة الدولة التي نقلته من وظيفة إلى أخرى(٤٥)، وعين في عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٥ ــ ١٦٦٦م الأمير عساف بن فروخ أميراً لقافلة الحج. وكان آخر أمراء أسرة فروخ الذين عينوا لهذا المنصب، وشغل إمارة الحج لآخر مرة في عام ١٠٧٩هـ / ١٦٦٩م(٤٦). وعُيّن من بعده في عامي ١٠٨٠ و ١٠٨١هـ / ١٦٧٠ و ١٦٧١م الأمير موسى الشهير بابن تركمان، وهو من أعيان الجند الشامي وكان حاكماً على بلاد عجلون، أميراً على الحج الشامي. وقتله أمير بدو آل رشيد في حوران أثناء عودته من الحج ونهبت القافلة(٤٧).

ونظراً لازدياد نفوذ انكشارية دمشق وتسرب السكان المحليين إلى صفوفهم حتى عرفوا باليرلية (المحلية) وتحدّيهم للدولة بمشاركتهم في ثورة والي حلب حسن باشا في عام ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م، بطشت الدولة بزعمائهم في عام ١٠٧٠ ــ ١٠٧١هـ / ١٦٥٩ ــ ١٦٦٠م وأقامت فرقة انكشارية سلطانية عرفت بالقابي قول Kapi-Kulu (عبيد الباب، أي السلطان) إلى جانبهم في دمشق(٤٨). وقد أثّر هذا الأمر على تعيين الانكشارية حكاماً على صناجق فلسطين وأمراء على الحج الشامي. وبذلك غدا الانكشارية، مثل بقايا الأمراء المحليين، عاجزين عن مقاومة سلطة الدولة المتزايدة في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي. فعمدت الدولة إلى تعيين موظفين أمراء للحج الشامي وحكّاماً في فلسطين في الوقت نفسه. ومن أمثلة ذلك تعيين أحمد باشا الترزي حاكماً على صنجقي اللجون والقدس في أعقاب انتهاء حكم أسرة طراباي في اللجون في حوالي عام ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦ ــ ١٦٧٧م، وعين في الوقت نفسه أميراً على الحج الشامي(٤٩). وفي عام ١٠٩٨هـ / ١٦٨٦ ــ ١٦٨٧م عيّن أحمد باشا ابن والي دمشق أميراً للحج وأعطي بهذه المناسبة حكم القدس(٥٠).

يتبين من الأمثلة السابقة تعيين خليط من الموظفين والانكشارية والأمراء المحليين أمراء للحج وحكاماً محليين، في الوقت ذاته، في صناجق فلسطين. وأدّى هذا التنوع في هوية أمراء الحج إلى عدم استقرار في علاقاتهم مع البدو، بخاصة لأن الموظفين والانكشارية المعينين لسنة أو نحو ذلك كانوا يمتنعون عن دفع القسط الثاني من الصرة إلى البدو في طريق العودة مما جعل هؤلاء يهاجمون بكثرة قافلة الحجّ بشكل لم تعرفه حين كان معظم أمرائها من الزعماء المحليين في فلسطين ذوي الأصول البدوية وأصحاب الدراية في التفاهم مع البدو والذين كانت لهم مصلحة في استمرار حكمهم محلياً عن طريق تأمين سلامة القافلة وبالتالي إرضاء الرأي العام الديني.

وقد سبق القول انه حين عين حاكم أحد صناجق فلسطين أميراً على قافلة الحج الشامي كان يأتي وقواته إلى قبة الحج، خارج دمشق، لاصطحاب القافلة إلى الحجاز وإعادتها إلى هناك، وبذلك سلمت دمشق من تعديات القوات المرافقة له. وحين ازداد تعيين الموظفين، ومنهم بعض ولاة دمشق، أمراء على الحج الشامي دون أن يعينوا حكاماً على صناجق فلسطين أقامت القوات المرافقة لهم في دمشق وقاست المدينة من وجودهم ومساوئهم الشيء الكثير مما حفز أحد كبار علمائها الشيخ مراد المرادي، جدّ صاحب سلك الدرر، بأن يطلب من السلطان العثماني، كما يقول محمد خليل المرادي، «برفع إمارة الحاج عن دمشق وعَوْدها إلى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد، كما كان الأمر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك. فإن دمشق من حين صارت إمارة الحاج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدائد بها حتى ان الجد اجتمع بالمرحوم السلطان أحمد بن محمد خان في أحد رحلاته في دار المملكة قسطنطينية وذكر له ذلك فقبل منه رجاه ورفعها عن دمشق، وكانت منذ سنين لم ترفع، ووجّهها للشريف يحيى بن بركات المكّي بمنصب القدس لأنه كان موجوداً حينئذ في الروم بعد خلعه عن شرافة مكة المكرمة، فذهب المذكور في تلك السنة أميراً للحج، وارتفع عن أهالي دمشق في تلك السنة الظلم والعساكر

والبغي والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج. ثم إن الشريف يحيى المذكور سها سهوة بأذيّة بعض الحجاج وبغي العرب، فلما أُخبرت الدولة العلية بصنيع الشريف يحيى عزل من ذلك وأعيدت إمارة الحج إلى دمشق كما كانت، وهي إلى الآن»[٥١]. وكانت إمارة الشريف يحيى للقدس ولقافلة الحج الشامي في عام ١١٠٢هـ / ١٦٩٠ ـ ١٦٩١م. وقد عزل إثر مهاجمة البدو للحج بسبب إهماله. وأصبحتِ دمشق منذ هذا التاريخ مركز أمراء الحج، ولكن لم يعين ولاتها باستمرار، إثر ذلك، أمراء للحج. ونستدل من هذا أن حكام فلسطين المعيّنين أمراء للحج في السابق قد وفّروا على دمشق الكثير من الفوضى والاضطرابات التي قامت بها القوات المرافقة لأمير الحج، كما زادوا من سمعة السلطان الدينية بتأمينهم سلامة القافلة.

وإزاء ازدياد هجمات البدو على قافلة الحج في الوقت الذي انتهى فيه حكم الوزراء الأشداء من آل كوبريلي في ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م، وتعرضت فيه الدولة إلى خسارة مناطق هامة في البلقان افتتحتها قبل أكثر من ثلاثمائة سنة (معاهدة كارلوفيتز Treaty of Karlowitz ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٦٩٩م) أصبح السلطان أكثر حرصاً على سمعته الدينية، وبخاصة تأمين سلامة قافلة الحج، بعد أن تعرضت سمعته العسكرية إلى الكثير من الضعف. لذا عهد إلى ولاة دمشق باستمرار منذ ١١٢٠هـ / ١٧٠٨م بإمارة الحج. وترتب على ذلك تطورات هامة في المنطقة لأن والي دمشق أصبح يدور بنفسه، فيما عرف بالدورة، على صناجق فلسطين ليجمع منها الضرائب في كل سنة لتمويل قافلة الحج. وكان يقوم عنه بهذه المهمة في السابق حكام صناجق فلسطين / أمراء الحج. كما أن إقامة القوات المرافقة للقافلة في دمشق، ومعظمها من المرتزقة، عرّض أمنها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية إلى كثير من الاضطرابات. يضاف إلى ذلك أن غياب والي دمشق / أمير الحج مع القافلة مدة أربعة أشهر (بين منتصف شوال ومنتصف صفر)، فضلاً عن شهر آخر في الدورة، شغله عن أمور ولايته وأتاح المجال لأكبر زعيم محلي في فلسطين وهو ظاهر العمر الزيداني أن يبرز ويشتهر لأكثر من خمسين عاماً في القرن الثامن عشر.

تتميز الفترة الثالثة من تاريخ فلسطين في القرن الثامن عشر بظهور إمارة الزيادنة في منطقة الجليل. وقد بلغت هذه الإمارة أوج سلطتها وامتدادها وتحديها للسلطات العثمانية في عهد ظاهر العمر الذي حكم منذ الثلاثينات (م) وحتى وفاته في ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م. وقد استقطب الفعاليات السياسية في بلاد الشام الجنوبية بكاملها وطغى على حكم ولاة الشام وصيدا وكذلك أمراء جبل لبنان. ويمثّل ظاهر العمر بحق ذروة النفوذ العربي في فلسطين الذي كان مبعثراً في القرنين السابقين بين عدد من الأمراء الذين اشتهروا كل في منطقته.

وقد تضافرت مجموعة من العوامل الخارجية والداخلية التي مكّنت الزيادنة من توطيد سلطتهم واستمرار إمارتهم تلك الفترة الطويلة. فعلى الصعيد العثماني كانت الدولة تعاني الكثير من انحطاط سلطتها في الخارج وفي الداخل. فقد تصدّى لها، في القرن الثامن عشر، أعداء أشداء في الشمال والشرق. وكان أعداؤها الأشداء في القرنين السابقين هم آل هابسبورغ Hapsburg حكام الامبراطورية الرومانية المقدسة المتمركزة في فيينا وقد ألّبوا الأعداء ضدها وحالوا دون توسعها في غربي أوروبا، كما حصلوا على تنازلات كثيرة منها. وتبرز في القرن الثامن عشر روسيا كأشد أعداء الدولة العثمانية وبخاصة في عهد القيصر بطرس الأكبر Peter the Great (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥م) والقيصرة كاترين الثانية Catherine II (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦م) التي طبقت سياسة «الاستبداد المستنير» وزادت من قوة روسيا القيصرية. ففي عهد الأول احتلت القوات الروسية في حوالي ١٧٢١م المناطق المنتجة للحرير، شمالي فارس. فتأثرت من جراء ذلك مدينة حلب التي كان يصدّر هذا الحرير بواسطتها إلى أوروبا. وفي عهد كاترين الثانية دخلت روسيا في حرب ضروس مع الدولة العثمانية (١١٨٢ ـ ١١٨٨هـ / ١٧٦٨ ـ ١٧٧٤م) التي خرجت منها خاسرة وتخلت بنتيجتها لروسيا عن شبه جزيرة القرم التي يسكنها أتراك مسلمون. وكان هذا ضربة كبيرة لنفوذ السلطان العثماني لأنّ القرم ضمّت سكاناً من الأتراك المسلمين. واستغلّ علي بك الكبير (المملوكي)، حاكم مصر آنذاك، هذه الحرب فتحالف مع ظاهر العمر، واحتلت قواتها دمشق في ١١٨٥هـ / حزيران/يونيو ١٧٧١م، وأيدهما الأسطول الروسي في المتوسط الذي قصف ميناء بيروت بغية تحطيم السفن العثمانية وأنزل فيها قواته في ٢٢ ربيع الأول ١١٨٦هـ / ٢٣ حزيران/يونيو ١٧٧٢م دعماً لعلي بك وظاهر العمر[٥٢].

وشهدت الجبهة الفارسية، في القرن الثامن عشر، تجدد القتال بين العثمانيين والحكام الأفغانيين الذين سيطروا على إيران بعد القضاء على الصفويين. وكان أشهر هؤلاء الحكام نادر شاه الذي أطاح بالصفويين وحكم بين عامي ١١٤٩ و١١٦٠هـ / ١٧٣٦ و١٧٤٧م، وكريم خان زند الذي حكم بين عامي ١١٨٨ و ١١٩٣هـ / ١٧٧٤ و ١٧٧٩م، وقد هدّدا الحكم العثماني في العراق[٥٣].

وانعكست هزائم العثمانيين والتحديات التي لاقوها في الخارج على بنية الدولة العثمانية فتقلّصت هيبة السلطان وتصارع على النفوذ في استانبول كل من الصدر الأعظم والكزلار آغا رئيس النساء والحريم وبإمرته خصيان في قصر السلطان. وأثّر استقطاب السلطة هذا في استانبول على الحكم في الولايات حيث أيّد كل طرف مرشحيه فيها. وأدّى انحطاط السلطة العثمانية ككل، في القرن الثامن عشر، إلى ظهور أسر محلية حاكمة في عدد من الولايات العربية وغير العربية، مثل آل العظم في الشام والزيادنة في فلسطين. كما ازداد نفوذ القبائل البدوية مثل العنزة الذين خرجوا آنذاك من الجزيرة العربية وتوغّلوا في بادية الشام، وكذلك الإمارات البدوية الحاكمة على أطراف الخليج العربي. وظهرت الدولة السعودية الأولى آنذاك تتحدّى العثمانيين بسبب رعايتهم التطرف الصوفي وعدم كفاءتهم في الدفاع عن دار الإسلام. كما برز المماليك في مصر وأصبحوا حكامها الفعليين، وسيطر المماليك في العراق، وقد استأثر بحكم بلاد الشام الجنوبية التي ضمّت ولايتي صيدا ودمشق المملوك أحمد باشا الجزار ومماليكه، ودام حكمه بين ١٧٧٥ و١٨٠٤م وخلفه مملوكه سليمان باشا العادل حتى عام ١٨١٨م(٥٤).

أما العوامل الداخلية التي ساعدت على ظهور الزيادنة في فلسطين واشتهارهم فيها فقد تعدّدت هي الأخرى: ففي جبل لبنان ضعفت سلطة الأمراء في أعقاب القضاء على فخر الدين المعني الثاني وعاد الصراع القيسي ــ اليمني إلى الأوج. ورغم هزيمة اليمنية، ومعظمهم من الدروز، في موقعة عين دارة (لبنان) في عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م، ولجوئهم إلى جبل حوران، الذي عرف بهم بعد ذلك، فإن الأمراء الشهابيين الذين حلّوا محلّ المعنيين في عام ١١١٠هـ / ١٦٩٧م قد أُضعِفوا، طيلة القرن الثامن عشر، بالصراع بين حزبي الجانبلاطية والأرسلانية ــ اليزبكية. واستقطب هذا الصراع في منطقة الشوف زعماء الشيعة في جبل عامل. وهكذا أتاح هذا التمزُّق السياسي في جبل لبنان الفرصة لظاهر العمر لأن ينمّي قوته بمعزل عن أي ضغط من جبل لبنان.

ومما ساعد الزيادنة أيضاً في توطيد سلطتهم انشغال ولاة دمشق بمرافقة قافلة الحج الشامي وبإقامة الأمن في دمشق حيث كثرت الفئات المتصارعة. وقد اهتمّ بعض الولاة في إثراء أنفسهم وتعميق نفوذهم المحلّي كما فعل آل العظم وبخاصة أسعد باشا العظم بحيث مكّن ذلك ظاهر العمر من تحدّيهم وتنمية قوته دون خوف منهم.

وتفسّر هذه العوامل كيف أمكن للزيادنة أن يظهروا في الزمن الذي ظهروا فيه وهو القرن الثامن عشر. وفي الواقع كانوا جزءاً من ظاهرة عامة في النفوذ المحلّي شملت الولايات العربية وغيرها آنذاك كردّ فعل على انحطاط الدولة العثمانية.

أما لماذا ظهر الزيادنة في فلسطين وفي جليلها بالذات فذلك يعود أيضاً إلى وجود قبائل صغيرة فيها دعمت الزيادنة عن طريق التحالف والتزاوج. ونظراً لأن إقامة إمارة الزيادنة وتحصّنها في القلاع وتحديها العسكري للولاة العثمانيين يقتضي تطوير طاقاتها العسكرية واستخدام الجيوش المحلية والمرتزقة للدفاع عنها، فإن الإمكانات الاقتصادية المتاحة لهذه الإمارة تصبح ذات أهمية كبيرة. وقد أفادت فلسطين آنذاك من اهتمام الفرنسيين المتزايد بالمتاجرة معها بعد أن أصيبت تجارة حلب بضربة كبرى في أعقاب احتلال روسيا للمناطق المنتجة للحرير في شمالي فارس. وكانت فرنسا قد طوّرت تجارتها مع بلاد الشام الجنوبية منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر بفضل السياسة الاقتصادية لكولبير Colbert الذي كان وزير الدولة لشؤون البحرية في عهد الملك لويس الرابع عشر. ويتمثل هذا الاهتمام الفرنسي بإقامة نوّاب قناصل في عكا ويافا والرملة في مطلع القرن الثامن عشر فضلاً عن القنصلية الفرنسية القديمة والرئيسية في صيدا. ووجدت منتجات فلسطين من القطن بأنواعه والحبوب، والقِلي (مادة تستعمل في صناعة الصابون) سوقاً رائجة لدى التجار الفرنسيين كما سنرى في الفصل الرابع من هذه الدراسة. وقد أفاد ظاهر من هذا الاهتمام الاقتصادي الفرنسي بفلسطين، ومن شراء الفرنسيين لمنتجاتها بالسعر الذي يحدّده، ومن احتكاره لبعض المنتجات فجمع ثروة كبيرة مكّنته من تحصين عكا، وبقية قلاعه، ومن استئجار جنود مرتزقة للدفاع عن إمارته.

وقبل دراسة حكم ظاهر العمر يجدر التعرف على الطريقة التي برز بواسطتها أسلافه من الزيادنة ومهّدوا السبيل له. فهم لم يبدأوا سلطتهم من خارج المؤسسة العثمانية الحاكمة أو بالرغم منها، وإنما برزوا من خلالها كملتزمين للضرائب في منطقة صفد ــ طبرية. وكانوا بذلك استمراراً لظاهرة قديمة تمثّلت بالأمراء السابقين الذين عهدت الدولة إليهم بجمع الضرائب كملتزمين ثم عيّنتهم حكاماً محليين. وينتسب الزيادنة إلى زيدان، ولكن المؤسس الفعلي لسلطتهم هو عمر بن صالح، والد ظاهر، ومن هنا تسمية هذا الأخير ظاهر العمر. واختلفت المصادر حول أصلهم، وقيل انهم بدو وأشراف(٥٥). وقد برزوا في الإدارة العثمانية كملتزمين للأموال الميرية منذ أواخر القرن السابع عشر.

وبالنظر لاضطراب المصادر المحلية واللبنانية والدمشقية المعاصرة حول أصل هذه الأسرة ونشأتها لأنها كتبت عن الزيادنة بعد اشتهار ظاهر العمر فقد عبّر عن هذا الاضطراب محمد خليل المرادي صاحب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر حين ترجم لظاهر مكتفياً بالإشارة، بصورة عامة، إلى أسلافه بقوله: «وكان والده وجدّه وأعمامه حكاماً بصفد وعكا ويعرفون بني زيدان وهم حمولة كبيرة»[٥٦]. وقد أجمع الاخباريون أن عمر الزيداني، والد ظاهر، عيّن من قبل الأمير بشير الأول الشهابي، أمير جبل لبنان، ملتزماً في منطقة صفد لأنه قيسيّ مثله وبسبب زعامته المحلية، وكان ذلك في عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م، وعين الأمير بشير ابن أخيه الأمير منصور حاكماً على صنجق صفد ومسؤولاً عن الملتزم عمر الزيداني. ومما يجدر ذكره أنّ صنجق صفد كان تابعاً لولاية صيدا منذ أن تأسست هذه الولاية في عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، وفي عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م عهد والي صيدا إلى الأمير بشير الأول الشهابي بحكومة صفد ليضمن دعمه في قمع الشيعة الثائرين في بلاد بشارة[٥٧].

وحين توفّي عمر الزيداني في عام ١١١٥هـ / ١٧٠٣م لم يكن لظاهر من العمر سوى أربعة عشر عاماً ـ إذا أخذنا بترجيح توفيق معمّر لولادته في عام ١١٠١هـ / ١٦٨٩م[٥٨] ـ طلب اخوة ظاهر الأكبر سناً، كما تجمع المصادر، من والي صيدا أن يصدر الالتزام على قريتي عرابة والدامون باسم أخيهم الأصغر ظاهر ربما بسبب الخلاف فيما بينهم حول من يعين ملتزماً. وأيضاً ـ كما ذكر ـ للاختباء وراء ظاهر الصغير في حال تأخرهم في دفع الضرائب[٥٩]. ثم أصبح الزيادنة مسؤولين عن الالتزام تجاه والي صيدا مباشرة بعد إلغاء مسؤولية الأمير الشهابي عن منطقة صفد.

أخذ ظاهر في توطيد سلطته في منطقة صفد ـ طبرية لحسابه منذ أوائل الثلاثينات من القرن الثامن عشر. وتلاحظ ثلاث فترات في حكمه: الأولى فترة توطيد سلطته ومقاومة حملات والي دمشق ضده حتى عام ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م حين توفي والي دمشق سليمان باشا العظم وهو يحاصر ظاهر في طبرية، والثانية حين بلغت سلطة ظاهر الأوج بين عامي ١١٥٦ و ١١٧٤هـ / ١٧٤٣ و ١٧٦٠م، والثالثة بين عام ١٧٦٠م ومقتله في عام ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م، وقد شهدت هذه الفترة اشتداد ثورات أبنائه عليه، ومحاولات والي الشام عثمان باشا الكرجي إخضاعه، ثم تحالف ظاهر مع علي بك الكبير (المصري) واحتلالهما دمشق في عام ١١٨٥هـ / ١٧٧١م.

عمد ظاهر في الفترة الأولى، منذ أوائل الثلاثينات حين كان يحاول توطيد سلطته وتوسيع المناطق التي يستولي عليها، إلى التحالف مع الزعماء المحليين الرئيسيين. وضمّ هؤلاء عدداً من القبائل، مثل بني صخر وبني صقر والسردية، الذين تزوج ظاهر منهم ليرسّخ تحالفه معهم. وقد أفاد بادىء الأمر من هذا التحالف بسبب دعم القبائل له. ولكن سنرى لاحقاً كيف أصبح لهذا التحالف جانب سلبي إذ أخذ أبناء ظاهر الذين عيّنهم حكاماً على المناطق التي استولى عليها، بالتنافس فيما بينهم. وزاد من ذلك كون هؤلاء الأبناء يتحدّرون من أمهات ينتسبن إلى القبائل المتنافسة فيما بينها. وكان أشهر زعماء البدو الذين تحالف معهم ظاهر هو رشيد الجبر الذي لقّب بأمير مشايخ عرب صفد. وقد أيّد ظاهر ليوازن به تحالف منافسه ابن ماضي، زعيم منطقة نابلس، مع والي صيدا. ورحّب ظاهر بدوره بالتحالف مع رشيد الجبر للقضاء على منافسيه[٦٠]. وكان بدو بني صقر الذين تحالف معهم ظاهر يقيمون آنذاك في صنجقي اللجون وصفد. ولكن ظاهر في محاولته إقامة الأمن، كما تعهّد لوالي صيدا، اصطدم مع حلفائه الخارجين على القانون وفي طليعتهم بنو صقر. فتحوّل هؤلاء عن التحالف معه إلى دعم أعدائه، آل ماضي وآل جرّار، زعماء منطقة نابلس الموالين لوالي دمشق المسؤول عن مناطقهم. وقد قدّم لهم هذا الوالي الدعم حين حاول ظاهر الاعتداء عليهم[٦١].

واحتاط ظاهر للأخطار المحيطة به فقام بتحصين قلعة طبرية وتقوية دفاعاته فيها. وقد قاد سليمان باشا العظم والي دمشق حملة ضده في عام ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م، بالتعاون مع بني صقر، بسبب اعتداء ظاهر على أراضي آل ماضي وآل جرّار في منطقة نابلس، وأسر صالح أحد اخوة ظاهر وشنقه في دمشق[٦٢].

وحين عين سليمان باشا العظم للمرة الثانية على ولاية الشام، في الفترة بين عامي ١١٥٤ و ١١٥٦هـ / ١٧٤١ و ١٧٤٣م، استأنف حملاته العسكرية على ظاهر العمر الذي كان يتحصّن في قلعتي طبرية ودير حنا. وبالرغم من أنّ ظاهر، بحكم المناطق التي يلتزم ضرائبها، كان مسؤولاً عنها أمام والي صيدا فإنّ والي دمشق، منذ أن عين ولاة دمشق أمراء على الحج الشامي في ١٧٠٨م وعين أحد واليـي صيدا أو طرابلس أميراً على الجردة التي تلاقي قافلة الحجّ، حرص أن يكون أمير الجردة وهو والي صيدا أو طرابلس أحد أقربائه المباشرين لتعزيز التعاضد والدعم بينهما. وكان يشغل ولاية صيدا إبّان حكم سليمان باشا العظم في دمشق ابنا أخيه وهما إبراهيم باشا وأسعد باشا اللذان حكماها على التوالي. لذا ألقيت مسؤولية والي صيدا في مقاومة ظاهر العمر على

والي دمشق وبخاصة، لأن هذا الوالي ـ أمير الحج كان حريصاً على تأمين سلامة قافلة الحج بتأمين دفع ظاهر وغيره من الملتزمين المحليين في ولاية صيدا، الضرائب إلى واليها ليتمكن من تسيير قافلة الحج. يضاف إلى ذلك اعتداءات ظاهر المتكررة على منطقة نابلس التابعة لوالي دمشق.

شنّ سليمان باشا العظم حملة ضد ظاهر في ٣ رجب ١١٥٥هـ / ٣ أيلول /سبتمبر ١٧٤٢م بمناسبة خروجه في الدورة لجمع الضرائب من الملتزمين في ولايته لتمويل قافلة الحج. وفشل سليمان باشا في احتلال قلعة طبرية، حيث تحصّن ظاهر، بالرغم من الدعم الذي أتاه من عدد من الزعماء المحليين المعادين لظاهر. ولكن قوات هؤلاء الزعماء التي بدت كبيرة كان يعوزها التنسيق والانضباط والولاء للهدف. كما أن القوات المرتزقة المرافقة لظاهر عاثت في المناطق المجاورة لطبرية وقد أثار هذا الأمر سكانها ضدها، وتعذّر حفظ الأمن على الطرق الرئيسية بسببها. ودام حصار طبرية حوالي ثلاثة أشهر، ولكن أمكن لظاهر أن يتلقى المؤن. وحين حان موعد خروج قافلة الحج الشامي رفع سليمان باشا الحصار وعاد إلى دمشق لقيادة القافلة[٦٣].

استغل ظاهر انسحاب سليمان باشا ليقوي نفسه عسكرياً وسياسياً. ونظراً لعلاقاته مع التجار الفرنسيين، وبالتالي القنصل الفرنسي في صيدا الذي يرعى أمورهم، طلب ظاهر من القنصل الاتصال بالسفير الفرنسي في استانبول لدعم موقفه لدى السلطات العثمانية فيها وردع والي دمشق عن معارضته. وتردد السفير في دعم ظاهر بسبب سمعته في استانبول كثائر، ولأنه لم يوطّد سلطته بعد للتعامل معه كأمر واقع، وكذلك لأنّ لفرنسا مصالح هامة في ولايتي صيدا ودمشق تقتضي منها التعامل مع السلطات الشرعية فيهما. وكان التجار الفرنسيون متّهمين بتموين ظاهر بالذخيرة والسلاح. ولذلك نصح السفير ظاهر بأن يقيم له وكيلاً في استانبول يرعى مصالحه[٦٤].

شن سليمان باشا حملة ثانية على ظاهر في جمادى الثانية ١١٥٦هـ/آب/أغسطس١٧٤٣م بدعم من القوات العثمانية في المنطقة بناء على أوامر السلطان. وغيّر سليمان باشا في حطته العسكرية إذ توجه للاستيلاء على قلعة دير حنا حيث تحصّن أخ لظاهر يدعى سعد. وكانت قلعة دير حنا أقل تحصيناً من طبرية، والهدف من مهاجمتها إحراز كسب سهل على الزيادنة لتحطيم معنوياتهم من ناحية، ولقطع الاتصال مع طبرية من ناحية أخرى. ولكن سليمان باشا توفّي في قرية لوبية، قرب طبرية، حوالي ٤ رجب ١١٥٦هـ / ٢٤ آب/أغسطس ١٧٤٣م، وبذلك فشلت الحملة[٦٥]. وكان ذلك انتصاراً كبيراً لظاهر العمر الذي انصرف إلى توسيع مناطق نفوذه بمعزل عن أيّ تهديد من قبل والي الشام أسعد باشا العظم الذي خلف عمّه سليمان باشا وحكم قرابة أربعة عشر عاماً. كما أن والي صيدا لم يقم بأي تهديد ضده.

تبدأ مرحلة جديدة بالنسبة لازدياد نفوذ ظاهر العمر في أعقاب وفاة عدوّه اللدود سليمان باشا العظم الذي حاصره مرتين وفشل. وشهدت هذه الفترة نشاطاً كبيراً في التجارة تجلّى بتسويق المحاصيل (وبخاصة القطن) التي تنتجها المناطق التي يحكمها ظاهر، ونشط كذلك التجار الأوروبيون وعلى رأسهم الفرنسيون في التعامل التجاري مع ظاهر. واستخدم ظاهر عائدات هذه التجارة لتمويل مشاريعه في التوسع ولتطوير دفاعاته وقوته العسكرية[٦٦].

وقد أعطى والي صيدا في عام ١١٥٩هـ / ١٧٤٦م التزام عكا إلى ظاهر فتضايق التجار الفرنسيون لأنّ ظاهر أصبح يتحكّم بأحد الموانىء الرئيسية في فلسطين وبأهم مركز للتجارة الفرنسية فيها. وأقام الفرنسيون، تبعاً لذلك، نائب قنصل فيها. وسبق للانكليز أن أقاموا نائب قنصل في عكا لرعاية مصالحهم التجارية ومصالح هولاندا والبندقية أيضاً. ومارس ظاهر الابتزاز على التجار الأجانب في عكا، وانفرد بتحديد سعر القطن بنفسه دون مشاركتهم في ذلك خلافاً للعادة المتبعة قبلاً. ولم تجدِ محاولاتهم ولا محاولات نواب قناصلهم في الشكوى ضده لدى سفرائهم في استانبول ذلك لأن ظاهر كان يرعى مصالحه في استانبول بواسطة وكلاء له هناك، من ناحية، ولعدم اهتمام سلطات استانبول بشكاوى السفراء من ناحية أخرى[٦٧]. وكانت استانبول منشغلة بقضايا أكثر إلحاحاً، كما أنها وجدت أن ظاهر قد وطّد سلطته وأن القضاء عليه سيكلف الدولة مجهوداً كبيراً. وحرص ظاهر، من ناحيته، على تحسين علاقاته مع السلطات العثمانية بدفع أموال الميري بانتظام[٦٨]. كما أنه قبض على عدد من زعماء الانكشارية اليرلية (المحلية) في دمشق الذين لجأوا إليه إثر بطش أسعد باشا بهذه الطائفة العسكرية المتمردة في عام ١١٥٩هـ / ١٧٤٦م. وقتل ظاهر بعضهم وأرسل رؤوسهم إلى استانبول للتدليل على طاعته[٦٩].

وكان موقف اللامبالاة الذي وقفه أسعد باشا العظم والي الشام طيلة سنوات ولايته الأربع عشرة من ظاهر قد أفاد هذا الأخير إلى درجة كبيرة ومكّنه من بناء قوته بمعزل عن أي ضغط خارجي. وبالرغم من أن أسعد باشا قاد عدة حملات ضد دروز جبل لبنان فإنه لم يقم بأية حملة ضد ظاهر. ويفسر ذلك بعدة أسباب منها نجاح الحملات ضد الدروز الذين كانوا كطائفة

منتشرين في منطقة واسعة مما يسهّل مهاجمتهم. كما أن أسعد باشا تقصّد مهاجمتهم أثناء الحصاد للاستيلاء على محاصيلهم بغية الإثراء. أما ظاهر فكان يمثّل أسرة حاكمة متمركزة في عدد من القلاع وأن الهجوم عليها لن يكون سهلاً. كما أن الخسارة أمامها ــ ومثال سليمان باشا عم أسعد باشا في فشله أمام قلاع ظاهر ماثل للأذهان ــ ستلحق ضرراً كبيراً بسمعة أسعد باشا وتهدد بقاءه في الحكم وبالتالي مخططاته المستقبلية في الإثراء وتعميق نفوذ أسرته. كما أن أسعد باشا وجد أن استانبول غير جادة في قتال ظاهر بسبب مشاغلها. لذا آثر أسعد باشا التعايش مع ظاهر.

أما وأن الأمور كانت تسير لصالح ظاهر فقد اضطر الفرنسيون إلى مصالحته، ووقعوا معه في عام ١١٦٦هـ / ١٧٥٣م اتفاقية تنظّم التجارة بين الطرفين[٧٠]. وكانت سلطات استانبول ومنها الصدر الأعظم والدفتردار ورئيس الكتّاب، قد كتبوا إلى ظاهر يوصونه خيراً بالتجار الفرنسيين. وكانت مصلحته الاقتصادية أيضاً تقتضي معاملتهم بالحسنى.

وإزاء هذا التحسن في مواقف سلطات استانبول ودمشق وصيدا والفرنسيين من ظاهر فقد مدّ نفوذه والتزامه ليشمل مدينة يافا التابعة لوالي دمشق. وأشار ظاهر إلى ذلك في رسالة وجّهها إلى وزير الدولة الفرنسي لشؤون البحرية بتاريخ ٨ رجب ١١٦٧هـ / ١ أيار/مايو ١٧٥٤م ذكر له فيها أن يافا أصبحت تحت سلطته[٧١]. ويشير عبّود الصباغ (قريب إبراهيم الصباغ مستشار ظاهر) إلى أن أسعد باشا العظم منح التزام حيفا إلى ظاهر[٧٢]. وضم ظاهر بدوره مناطق أخرى تابعة لوالي دمشق إلى التزامه، وبالتالي حكمه، منها عدة قرى في منطقة نابلس وبلاد حارثة وجبل عجلون[٧٣]. ولكن عكا كانت أهم كسب حصل عليه بالرغم من أن مسؤولية الدفاع عنها كانت كبيرة. ومما يدل على أهميتها بالنسبة لظاهر أنها برزت في الألقاب التي اتخذها، مثل ضابط عكا وبلادها، أو ضابط عكا وبلاد الجليل. واستخدم ظاهر هذه الألقاب في مراسلاته وبخاصة مع السلطات الفرنسية في باريس[٧٤].

ويشير الرحالة الإيطالي الأب جيوفاني ماريتي Abbé Giovanni Mariti الذي زار عكا في النصف الأول من عام ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م والتقى بظاهر أنّ ظاهر يسرّ بالألقاب التالية: شيخ أو حاكم عكا، أمير الأمراء، سيد الناصرة وصفد، أمير وسيد جميع الجليل. ويخاطبه الأوروبيون بصاحب السمو. ويذكر ماريتي أيضاً: أن ظاهر يمكنه تجنيد اثني عشر ألف فارس وأنّ لديه باستمرار خمسة آلاف فارس يحملون الرماح والبنادق وألفاً من المشاة معظمهم من المغاربة[٧٥].

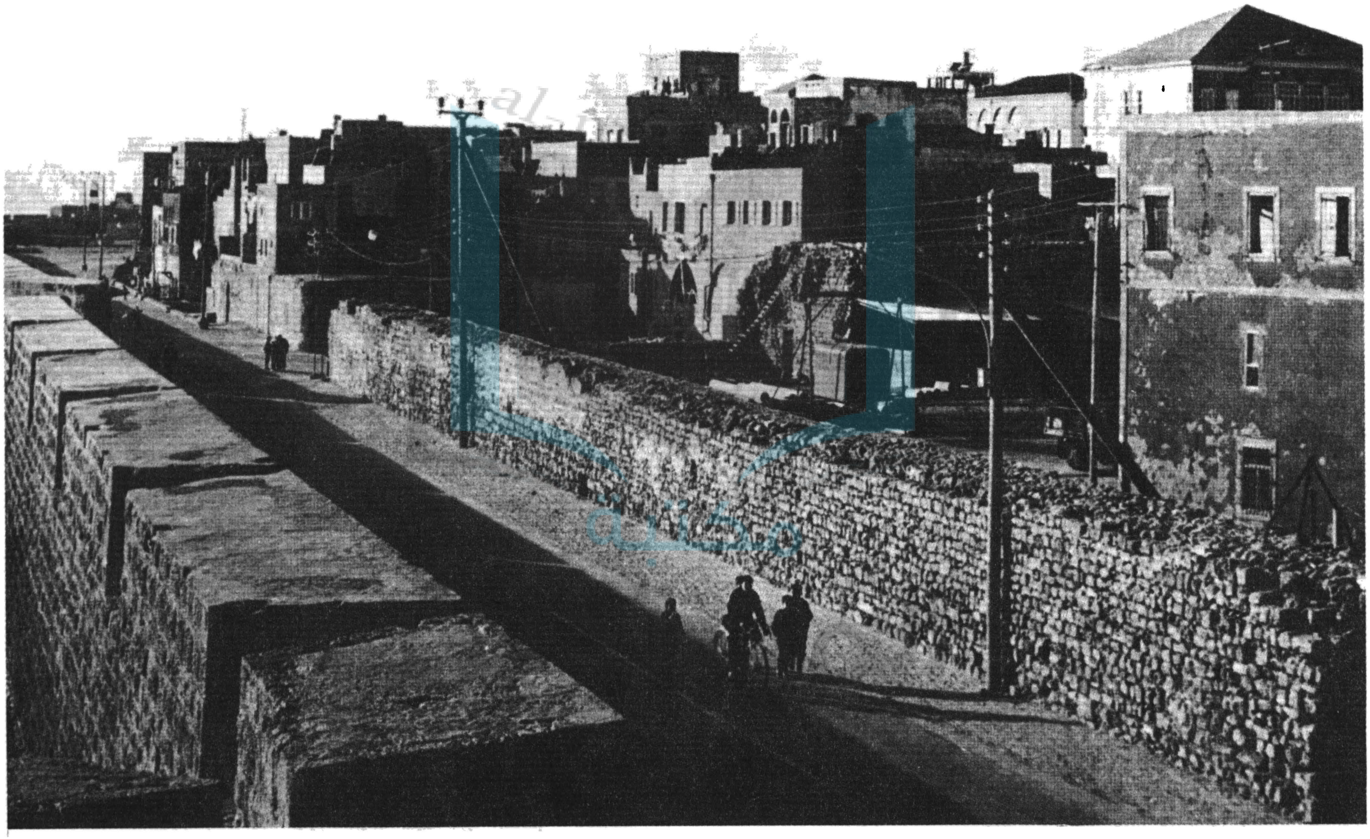
شهدت المرحلة الثالثة من إمارة ظاهر العمر، بين عامي ١١٧٤ و ١١٨٩هـ / ١٧٦٠ و ١٧٧٥م، اشتداد ثورات أبنائه عليه ومحاولات والي الشام عثمان باشا الكرجي (عرف أيضاً بالصادق لأنه صدق في إطلاع السلطات العثمانية على مخابىء أموال سيده أسعد باشا فكوفىء بولاية الشام) إحكام الطوق عليه، وتحالف ظاهر مع علي بك الكبير حاكم مصر وكانت ثمرة هذا التحالف احتلال قواتهما دمشق.

وقد أدّى ازدياد سلطة ظاهر واتساع المناطق التي يسيطر عليها وتعيين أبنائه حكاماً فيها إلى ظهور بوادر شقاق داخل أسرته في وقت مبكر منذ عامي ١١٦٦ و ١١٦٧هـ / ١٧٥٢ و ١٧٥٣م. وتركز الشقاق في الخلاف بين ظاهر وأبنائه، وبين الأبناء بعضهم مع بعض. وكان يؤيد كلاً منهم فريق أو آخر من القوى المحلية وكان في طليعة المتمردين من أبناء ظاهر عثمان. ولكن هذه الخلافات ضمن أسرة ظاهر بقيت على نطاق ضيق في الخمسينات وحجبتها الشهرة التي حصل عليها ظاهر. ثم عادت المنازعات إلى الظهور بشدّة وبتكرار في الستينات تشجّعها قوى داخلية وإقليمية وخارجية وهو أمر كان له أكبر الأثر في تقويض إمارة ظاهر من الداخل.

ففي فترة المنازعات الأولى في الخمسينات، بين قيام أولى ثورات أبناء ظاهر في ١١٦٦ ــ ١١٦٧هـ / ١٧٥٢ ــ ١٧٥٣م واشتدادها في ١١٧٥هـ / ١٧٦١م، لم يقم الأبناء بثورات كبرى لعدة أسباب منها: أنهم كانوا حديثي عهد بالحكم، وأن والي الشام القويّ عبد الله باشا الشتجي، الذي أرهب القوى المحلية داخل دمشق وخارجها في أعقاب هجوم البدو على قافلة الحج الشامي في عام ١١٧١هـ / ١٧٥٧م[٧٦]، قد هدّد الزيادنة، بحيث جعلهم يرصّون صفوفهم. كما أن والي صيدا سعد الدين باشا العظم، الذي عاصر الشتجي (١١٧٢ ــ ١١٧٤هـ / ١٧٥٨ ــ ١٧٦٠م)، أعلن عداءه السافر لظاهر، فأخذ هذا يقوّي دفاعه، والتف أبناؤه من حوله إزاء هذا الخطر المشترك[٧٧]. يضاف إلى ذلك الذهول والشعور بالمصيبة اللذان أصابا السكان في أعقاب الكوارث الطبيعية المدمِّرة المتمثلة بسلسلة من الزلازل أصابت بلاد الشام في الفترة بين ٨ ربيع الأول ١١٧٣هـ / ٣٠ تشرين الأول/اكتوبر ١٧٥٩م وليلة ٥ ــ ٦ ربيع الثاني / ٢٦ ــ ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه حين حدث أقوى الزلازل وأعنفها. وعمّ الدمار كل مكان وبخاصة مناطق الجليل في فلسطين. وأعقب ذلك الطاعون

الذي أفنى عشرات الآلاف من السكان[٧٨]. ويذكر تقرير القنصل الفرنسي من بساتين صيدا (حيث لجأ هرباً من الزلازل) بتاريخ ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٧٥٩م مدى الدمار الذي أصاب صيدا وعكا والرملة والقدس ويافا وصفد ونابلس، وبداية ظهور الطاعون في عكا ومنطقتها[٧٩].

استؤنفت ثورات أبناء ظاهر ضد والدهم في عام ١١٧٥هـ / ١٧٦١م بعنف وشدة بعد أن فشل والي الشام عثمان باشا الكرجي (١١٧٤ ــ ١١٨٥هـ / ١٧٦٠ ــ ١٧٧١م) في إخضاع ظاهر لسلطته في مطلع ولايته. لذا عمد إلى تشجيع أبناء ظاهر على الثورة وكان ظاهر قد عين أبناءه حكاماً على المناطق الخاضعة لسيطرته. فأعطى طبرية إلى ابنه الأكبر صليبي، وصفد إلى علي، وشفا عمرو إلى عثمان، وصفورية إلى سعيد، وجبل عجلون، التابع لوالي الشام، إلى أحمد. واستمر هذا التوزيع، باستثناء ما يتعلق بسعيد حتى حوالي عام ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م. وعوضاً عن الرضى بما حصل عليه هؤلاء الأبناء طمحوا إلى توسيع مناطقهم. وهنا تبرز مساوىء سياسة ظاهر في زواجه وزواج أبنائه من أسر الأعيان المحليين والقبائل البدوية التي كانت مفيدة في مطلع حكمه ولكنها غدت سيئة بعد ذلك بسبب تأييد هذه الأسر والقبائل لأبنائه الذين ينتسبون إليها، مما حوّل ولاءها عن ظاهر باتجاه أبنائه ومزّق، بالتالي، تراصّ الأسرة نحو زعيمها. كما أن المنطقة التي حكمها ظاهر قد اتسعت مساحتها وزاد ثراؤها إلى درجة كبيرة أثارت معها جشع أبنائه في الانفراد بحكمها. وجاء تفضيل ظاهر لزوجة معيّنة، وبالتالي لأولادها، ليزيد من التنافس بين الأبناء والخلاف مع والدهم. وزاد في الأمر تقاليد الثورة والاغتيالات ضمن أسرة الزيادنة ومشاركة أبناء ظاهر في ذلك، وهو ما رسّخ هذه التقاليد وجعل أمر الثورة والاغتيال شيئاً طبيعياً. فقد تخلّص ظاهر أول الأمر من ابن عمه محمد العلي، ثم من أخيه سعد[٨٠] بعد أن أدّيا مهمتهما في المراحل الأولى من توطيد سلطته وأصبحا بعد ذلك خطراً كامناً يهدده. وكان التخلّص منهما سابقة قلّدها أولاد ظاهر ولا سيما ابنه عثمان الذي شارك في اغتيال عمه سعد، وكان أول من ثار على أبيه في عامي ١١٦٦ ــ ١١٦٧هـ / ١٧٥٢ ــ ١٧٥٣م[٨١]. وشجّع على ثورات



عكا

أبناء ظاهر وجود زعامات محلية ناقمة في المنطقة مثل بدو بني صخر وبني صقر[٨٢] الذين دعموا ابناً أو آخر لظاهر. كما استغل الولاة العثمانيون في دمشق وصيدا خلاف ظاهر مع أبنائه فشجعوا ذلك للإمعان في تمزيق الزيادنة من الداخل. واتهم ظاهر في رسالة له إلى كولبير وزير الدولة الفرنسي لشؤون البحرية بتاريخ ٨ رجب ١١٦٧هـ / ١ أيار/مايو ١٧٥٤م القنصل الفرنسي في صيدا بأنه «كتب إلى وزير الشام ضدّي يترجّاه حتى يعين واحد من أولادي الذي كان خارج عن طاعتي حتى ان الولد المذكور يستمر على غروره ويخرب نظام البلاد وهكذا صار»[٨٣]. ومما شجع الخلاف بين ظاهر وأبنائه الانقسام الذي حدث في صفوف الدروز في جبل لبنان بين جانبلاطية وأرسلانية ــ يزبكية وكذلك الانقسام في صفوف الشيعة إذ عمد كل فريق من هؤلاء إلى دعم طرف أو آخر بين الزيادنة حسب مصلحة كل فريق[٨٤].

وقد تضافرت هذه العوامل لتزيد من تأجيج ثورات أبناء ظاهر. فحين ثار عليّ في عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م على أبيه ظاهر دعمه إخوته من أمه، وكذلك فعل والي الشام عثمان باشا الكرجي، كما وقف إلى جانبه الشيخ ناصيف النصار زعيم أحد جناحي الشيعة المتصارعين، في حين وقف إلى جانب ظاهر الشيخ قبلان زعيم الجناح الآخر وانتهت هذه الثورة كسابقاتها بالمصالحة[٨٥]. وفي عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ثار ابن آخر لظاهر هو عثمان، أكثر أبناء ظاهر ثورةً، محتجّاً على الامتيازات التي حصل عليها أخوه علي. وزاد في الأمر سوءاً كونهما من أُمّين مختلفتين. وتمكّن ظاهر من القبض على عثمان وسجنه ستة أشهر ثم وضعه تحت الإقامة الجبرية، ولكنه هرب إلى الشيعة. ودعمه الشيخ ناصيف النصّار وشن عدة هجمات، لمدة سنة تقريباً، على المناطق التي يحكمها ظاهر. وأثّر ذلك على المواصلات بين عكا وصيدا، كما تضرر الريف. وتدخل الأمير منصور الشهابي وعدد من أعيان جبل لبنان وأصلحوا بين الفريقين المتخاصمين[٨٦]. وتمرّد في عام ١١٨١هـ / ١٧٦٧م عليّ وسعيد على أبيهما ظاهر مطالبيْن بإضافة مناطق أخرى إلى حكمهما. وذكر أن عثمان باشا الكرجي حرّضهما على الثورة. كما أيدهما الشيخ ناصيف النصار. وطلب ظاهر دعم والي صيدا محمد باشا العظم، عدوّ عثمان باشا الكرجي، والي الشام، وهدفه من ذلك، كما يبدو، الحصول على دعم رسمي وإسباغ الشرعية على موقفه، وتعميق العداء بين الواليين، وتكتيل القوى المؤيدة له. وكالعادة تصالح ظاهر مع ابنيه بعد شهر من ثورتهما[٨٧].

وفي أواخر عام ١٧٦٧م حدث انفراج في العلاقات بين ظاهر وأبنائه وبين معظم الفئات المحلية المتصارعة في المنطقة. فقد تصالح ظاهر مع الشيخ ناصيف النصار، وتطورت العلاقات الودية بينهما إلى تحالف. كما أصبح ظاهر على علاقات حسنة مع الأمير منصور الشهابي. ويبدو أن السبب لهذا الانفراج تأزم العلاقات بين ظاهر وعثمان باشا الكرجي الذي لم ينفكّ منذ تعيينه على ولاية الشام في عام ١١٧٥هـ / ١٧٦١م عن القيام بالمحاولات وإعداد الخطط لانتزاع المناطق التي اغتصبها ظاهر بالقوة. وكان الذي يحول بينه وبين تحقيق ذلك عدم دعم استانبول له بسبب انشغالها في حربها مع روسيا. كما أن طلب عثمان باشا الكرجي تعيين ابنه درويش باشا والياً على صيدا محل منافسه محمد باشا العظم، لإحكام الحصار على ظاهر، لم يتحقق حتى أوائل جمادى الثانية ١١٨٤هـ / أواخر أيلول/سبتمبر ١٧٧٠م. وكان ابن آخر لعثمان باشا، هو محمد باشا، والياً على طرابلس.

وقد شغلت العلاقات العدائية بين عثمان باشا الكرجي وظاهر معظم فترة الستينات، وانتهت بذلك سياسة اللامبالاة التي مارسها ولاة دمشق تجاه ظاهر منذ أن عين عليها أسعد باشا العظم في ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م. وقد شغل الولاة الثلاثة الذين خلفوا أسعد باشا، بين عامي ١١٧١ و ١١٧٤هـ / ١٧٥٧ و ١٧٦٠م، بقضايا هامة وعاجلة مثل الهجوم المدمّر على قافلة الحج في ١٧٥٧م، وإقامة الأمن في دمشق وعلى طريق الحج، والزلازل والطاعون.

حدث أول اصطدام بين ظاهر وعثمان باشا حين قام هذا الأخير، بعد شهرين من تعيينه على دمشق، بالدورة لجمع أموال الميري فاحتل قلعة طنطورة التي استولى عليها ظاهر وكانت تتبع دمشق. ولكن ظاهر عاد إلى احتلالها بعد انسحاب عثمان باشا[٨٨]. وكان العمل الأكثر جرأة من قبل عثمان باشا محاولته استعادة حيفا التي كان ظاهر يلتزم ضرائبها ويحكمها. وقد أفادت حيفا من النمو الاقتصادي لعكّا ومن كون مينائها أكثر صلاحية من ميناء عكا لرسو السفن. وفشلت محاولة أولى قامت بها قوات عثمان باشا من المرتزقة المغاربة لاحتلال حيفا عن طريق البحر في ١٩ شوال ١١٧٤هـ / ٢٤ أيار/مايو ١٧٦١م. ونجحت حملة ثانية في احتلال قلعة عكا في أواخر ١٧٦١م ولكنها خسرتها بعد حوالي عام. وتنبّه ظاهر إزاء هذه المحاولات إلى ضرورة تحصين عكّا وجعلها مركزه البحري الرئيسي. وتُعزى أسباب فشل عثمان باشا في احتلال حيفا إلى كونها بعيدة عن مركز سلطته وقريبة من مركز ظاهر في عكا، كما أن المنطقة التي توجَّب على عثمان باشا أن يرسل قواته الداعمة فيها إلى حيفا كانت تعجّ بالزعماء المحليين

الذين لم يكونوا جميعاً موالين له. يضاف إلى ذلك أن والي صيدا آنذاك، وهو نعمان باشا (١١٧٤ ــ ١١٧٧هـ / ١٧٦٠ ــ ١٧٦٣م)، لم يقدّم أيّ دعم لعثمان باشا رغم تعليمات استانبول بهذا الخصوص. وكان أكثر ميلاً إلى ظاهر الذي يستطيع أن يؤثّر عليه مالياً بتأخير دفع الضرائب، يضاف إلى ذلك المنافسة بين الواليين ومحاولة عثمان باشا الحصول على ولاية صيدا لابنه درويش باشا[٨٩].

وتتميز الفترة بين عامي ١١٧٦ و١١٨٤هـ / ١٧٦٢ و١٧٧٠م بانشغال مختلف القوى المحلية، في ولايتي الشام وصيدا، بخلافاتها الداخلية. وينطبق ذلك على الدروز في جبل الشوف والشيعة في جبل عامل والزيادنة في الجليل. وظهرت تحالفات بين مختلف هذه الأجنحة المتصارعة دون اعتبار للحواجز الدينية والجغرافية[٩٠]. وكان عثمان باشا بدوره منشغلاً بالصراع بين مراكز القوى في دمشق وفي الولاية، ومع ذلك تدخل في صراعات جبل لبنان وفلسطين وهو ما زاد الأمور تعقيداً كما رأينا مثلاً في دعمه لأبناء ظاهر الثائرين.

وإلى جانب عداء ظاهر لعثمان باشا شهدت مناطق فلسطين ثورات فلّاحية ضد هذا الأخير بسبب سياسته في ابتزاز المال من الأهلين، وقد ثار ضده سكان الرملة ويافا في عام ١١٨١هـ / ١٧٦٧م. وحدثت ثورات أخرى ضده في السنوات التالية، في مناطق متفرقة من فلسطين. وبطش عثمان باشا بالثائرين ولجأ بعضهم إلى ظاهر العمر الذي كان يدعمهم[٩١]، وبلغ من شدة ما قاساه علماء غزة من ظلم عثمان باشا أنّ علي بك الكبير أشار إلى ذلك في بيانه إلى أهالي الشام حين بدأ هجومه عليها في عام ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م بهدف استثارة الأهالي ضد واليهم عثمان باشا. وجاء في ذلك البيان أن عثمان باشا «أذلّ الأماكن الشريفة... وتعدّى حدود الدين وفعل ما لا يليق بالمسلمين... وبلغكم ما فعله بعلماء غزة وأذاقهم الذل بعد العزة»[٩٢]. وظهرت آثار نقمة سكان ريف فلسطين على ظلم عثمان باشا لهم بتخلّيهم عنه في الصراع الذي دار بينه وبين علي بك الكبير المتحالف مع ظاهر العمر.

اشتد تهديد عثمان باشا لظاهر العمر في أعقاب تعيين ابنه درويش باشا والياً على صيدا في أوائل جمادى الثانية ١١٨٤هـ / أواخر أيلول/سبتمبر ١٧٧٠م. وعزّز ظاهر تحصيناته في عكا رداً على التهديد. وشاعت آنذاك أخبار عن غزو مرتقب من قبل علي بك لغزة. وبالفعل تأكّد في صيدا في ١٥ شعبان ١١٨٤هـ / ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٧٧٠م نبأ احتلال قوات علي بك غزة والرملة[٩٣].

يشكّل هجوم قوات علي بك على بلاد الشام بالتحالف مع ظاهر العمر بداية النهاية بالنسبة للزعيمين. وكان علي بك الكبير قد وطّد سلطته في مصر وأصبح الحاكم الفعلي لها (شيخ البلد) والنائب الرسمي (قائم مقام) للحاكم العثماني المتغيّب عنها. وخاض منذ أوائل الستينات مواقع حاسمة مع منافسيه من المماليك والبيوتات العسكرية في مصر وأصبحت له الأولوية فيها، وبذلك يشكل حكمه في مصر (١١٧٤ ــ ١١٨٧هـ / ١٧٦٠ ــ ١٧٧٣م) ذروة النفوذ المملوكي فيها. وكان المماليك منذ انتهاء سلطتهم في مصر وبلاد الشام في عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م قد استمر استيرادهم إلى مصر بمعرفة العثمانيين لاستخدامهم في تصريف شؤون مصر، وذلك بالرغم من محاولات متعددة وفاشلة قام بها المماليك للثورة على العثمانيين. وقد اختبر علي بك قدرة قواته في مصر وخارجها حين قاد حملة ناجحة إلى الحجاز في عام ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م لإعادة شريف مكة الشرعي إلى منصبه بناء على طلب السلطان العثماني. واستغل علي بك انشغال الدولة العثمانية في الحرب مع روسيا (١١٨٢ ــ ١١٨٨هـ / ١٧٦٨ ــ ١٧٧٤م) ليقوم بهجومه على بلاد الشام بحجة الإطاحة بعدوه عثمان باشا الكرجي الذي اصطدم معه في الحجاز في عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م حين كان كل منهما أميراً على قافلة حج بلاده. وحقد علي بك على عثمان باشا أيضاً بسبب طرده له من غزة حين لجأ إليها في عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٦م إثر منازعاته مع مماليك مصر. كما اتهم الأول الثاني بإيواء المصريين الفارّين من مصر. ونصّب علي بك نفسه مدافعاً عن أهالي الشام ضد ظلم عثمان باشا لهم بغية كسب تأييدهم. وكانت حملته على بلاد الشام في الواقع محاولة مملوكية لإقامة السلطنة المملوكية من جديد[٩٤].

ويبدو أن لجوء علي بك إلى غزة في شوال ١١٧٩هـ / آذار/مارس ١٧٦٦م قد أطلعه على كره السكان لعثمان باشا وعلى أهمية ظاهر كحليف في المستقبل. وهناك أَدِلّةٌ تشير إلى قيام تفاهم بين علي بك وظاهر منذ أوائل عام ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م إذ أرسل علي بك بموجبه المال إلى ظاهر لكسب الدعم وتجنيد القوات لصالحه[٩٥]. وجاء تهديد عثمان باشا لظاهر في أعقاب تعيين ابنه درويش باشا في أيلول/سبتمبر ١٧٧٠م والياً على صيدا فأثار مخاوف ظاهر وجعله يتحالف مع علي بك. وقد حرص علي بك أيضاً أن يعقد اتفاقاً مع الكونت أورلوف Comte Orlov قائد الأسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط للحصول على مساعدته العسكرية. وكان ذلك في أواخر عام ١٧٧٠م[٩٦].

كان لظاهر العمر وقواته، وكذلك لشعب فلسطين المعادي لعثمان باشا، دورٌ هامٌ في انتصار قوات علي بك التي اندفعت إلى فلسطين من البر والبحر. واستسلمت لها غزة والرملة في ٣٠ تشرين الأول/اكتوبر ١٧٧٠م دون مقاومة، وهرب حاكماهما من قبل عثمان باشا. وأعلن علي بك إلغاء ضريبة الميري لأربع سنوات في جميع أنحاء فلسطين وهو ما شجّع مناطق ومدناً أخرى على إعلان ولائها له[٩٧]. ولم يؤيّد عثمان باشا سوى آل جرّار في قلعة سانور في منطقة نابلس، وبدو بني صقر وبني صخر، وجميعهم أعداء لظاهر العمر. واضطرت قوات عثمان باشا إلى دخول مدينة يافا في ١ كانون الأول/ديسمبر بالقوة في وجه معارضة أهلها للدفاع عنها[٩٨]. وبالرغم من انتصار عثمان باشا على طلائع قوات علي بك في هجوم مباغت عند يافا فإنه اضطر لإخلاء المدينة والتراجع إلى دمشق في ٩ كانون الأول/ديسمبر في أعقاب لقاء قوات ظاهر العمر مع قوات علي بك التي كان يرئسها إسماعيل بك. وانضمت إلى هذين الحليفين قوات شيعية أيضاً.

وقد احتلت القوات الحليفة يافا وكان لذلك أهمية استراتيجية كبرى لأن التعزيزات في العتاد والجنود القادمة من دمياط بحراً كانت تصل إلى عكا ويافا.

ونظراً لأهمية الدور الذي كان لظاهر في مسيرة الحملة في فلسطين فقد توقفت عملياتها في الفترة بين ٢٩ شعبان ـ منتصف شوال ١١٨٤هـ / ١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٧٧٠ ـ أول شباط/فبراير ١٧٧١م بسبب مرض ظاهر وحرصه على أن تكون له اليد العليا في الحملة. وقد ظهر، إثر ذلك، تعارض في وجهات النظر بين ظاهر وإسماعيل بك، فالأول أصرّ على مهاجمة عثمان باشا الذي خرج من دمشق على رأس قافلة الحج الشامي في ٨ شوال ١١٨٤هـ / ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٧٧١م، في حين عارضه إسماعيل بك خشية على الحجيج. وتشكّى ظاهر إلى علي بك من سلوك إسماعيل بك فأرسل علي بك قوات إضافية وقائداً جديداً للحملة هو مملوكه المتميز محمد بك أبو الذهب الذي



يـافـا

سبق أن قاد قوات علي بك في القضاء على خصومه في مصر وفي الحملة على الحجاز(٩٩).

وصل أبو الذهب وقوّاته إلى الرملة في ٢ صفر ١١٨٥هـ / ١٧ أيار/مايو ١٧٧١م. وكان هذا حادثاً حاسماً بالنسبة لزعامة ظاهر في الحملة المشتركة. فقد طغى عليه أبو الذهب بنفوذه وأمجاده العسكرية السابقة وبأعداد قواته، وبقربه من علي بك. ولم يخرج ظاهر لاستقباله ولا لمرافقة الحملة إلى دمشق وأوكل أمر ذلك لأبنائه، وانصرف هو إلى تحصين عكّا تحسّباً من أي طارىء سواء من جانب علي بك أم من جانب العثمانيين. ووصف القنصل الفرنسي في صيدا ظاهر بأنه تنتابه المخاوف. ويتعارض موقف ظاهر هذا مع موقف الشيخ ناصيف النصار الذي قدّم بنفسه الولاء لأبي الذهب بسبب ضعفه، من ناحية، وطموحه في كسب تأييد أبي الذهب من ناحية أخرى، لأن منافسه الشيخ قبلان كان يقف إلى جانب عثمان باشا الكرجي(١٠٠).

أدّت الأحداث العسكرية التالية إلى إحراج موقف ظاهر بنتائجها. فقد شاركت قواته التي أشارت إليها المصادر الدمشقية بالصفدية، إلى جانب قوات علي بك والشيعة، في هزيمة طلائع القوات العثمانية التي بعث بها السلطان في سعسع على مشارف دمشق في ١٩ صفر / ٣ حزيران/يونيو(١٠١). وتلا ذلك احتلال دمشق في ٢٦ صفر / ١٠ حزيران/يونيو في وجه معارضة شديدة من أولاد الشام (دمشق) الذين دافعوا عن أحيائهم وبخاصة في حي الميدان وباب الجابية. أما القوات العثمانية، من نظامية ومرتزقة، التي أُوكل إليها الدفاع عن دمشق فكانت تضم أنواعاً من الجنود الذين أعوزهم الانسجام والقيادة الفعالة، لذا هربوا مثلما هرب والي الشام عثمان باشا الكرجي.

وبعد احتلال دام عشرة أيام انسحب أبو الذهب من دمشق، وكان ذلك مفاجأة للسكان المحليين ولرؤسائه وحلفائه وأعدائه على حد سواء. وفي الواقع ظهرت منذ ذلك الحين مؤشرات كثيرة عن تحول جذري في موقف أبي الذهب من علي بك وعن تواطؤ بينه وبين العثمانيين الذين وعدوه بولاية مصر محلّ علي بك(١٠٢). ومن الطبيعي أن يكون وَقْع الانسحاب كبيراً في مصر، ولكنه لم يكن بأقل منه لدى ظاهر العمر الذي أُحرج موقفه عسكرياً وسياسياً. وتعرّض ميزان القوى في فلسطين، وولاية الشام بعامة، إلى اضطراب وفوضى قاست منها البلاد طيلة سنوات كثيرة.

وحدث صراع على النفوذ في بلاد الشام الجنوبية إثر انسحاب محمد بك أبي الذهب إلى مصر اشترك فيه كل من عثمان باشا الكرجي الذي عاد إلى دمشق وظاهر العمر والأمير يوسف الشهابي وشيعة جبل عامل. وعاث البدو في مناطق غزة والرملة التي شغرت مناصب حكامها. وطلب ابن جرّار المحاصر في قلعة سانور من قبل ظاهر الدّعم من عثمان باشا، فخفّ لنجدته، ولكن ظاهر هزمه قرب الحولة في ٢٢ جمادى الأولى ١١٨٥هـ / ٢ أيلول/سبتمبر ١٧٧١م(١٠٣). وكان ظاهر بحاجة إلى انتصار كهذا ليظهر قوته لعلي بك ويقنعه بإرسال قواته من جديد إلى فلسطين. وأعقب ظاهر انتصاره هذا باحتلال صيدا في ١٤ رجب ١١٨٥هـ / ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر ١٧٧١م يساعده الشيعة وقوات جديدة أرسلها له علي بك. واحتلت قوات أخرى لعلي بك غزة ويافا والرملة.

وحدثت في هذه الأثناء تطوّرات هامة في مصر وفلسطين، فقد طرد أبو الذهب علي بك وحلّ مكانه شيخاً للبلد وقائم مقام. ولجأ علي بك إلى حليفه ظاهر في منتصف صفر ١١٨٦هـ / أيار/مايو ١٧٧٢م. وأحرج هذا اللجوء ظاهر الذي وجب عليه الآن تقديم المساعدة إلى علي بك. أما في فلسطين فقد اتخذ عدد من الزعماء المحليين زمام المبادرة وانتهزوا فرصة تغيير والي دمشق وتعيين محمد باشا العظم مكانه، فقام أحد أفراد آل طوقان، وهو أحمد شقيق مصطفى بك طوقان، وانتزع على رأس عدّة مئات من فلاحي نابلس مدينة يافا من القوات المملوكية، وفعل مثل ذلك محمد أبو مرق في غزة وكان واليها سابقاً. وأيّد محمد باشا العظم عملهما(١٠٤).

ويتدخّل الأسطول الروسي في المتوسط، في هذه الأثناء، على مسرح العمليات العسكرية بناء على اتفاق سابق مع علي بك. ويقصف، بطلب من ظاهر وعلي بك، مدينة بيروت في ١٧ ربيع الأول ١١٨٦هـ / ١٨ حزيران/يونيو ١٧٧٢م وينزل قوّاته فيها. والهدف من ذلك تحطيم السفن العثمانية فيها وتحويل اهتمام الأمير يوسف الشهابي، الذي يحكم بيروت، ومؤيده، والي الشام، عن الهجوم على صيدا التي كانت تحت سلطة ظاهر. ولكن القوات الروسية انسحبت من بيروت في ٢٣ حزيران/يونيو بضغط وإغراء مالي من الأمير يوسف. وصدّ ظاهر وحلفاؤه من المماليك والشيعة في ١١ حزيران/يونيو حملة مشتركة من أتباع الأمير يوسف والعثمانيين قرب صيدا. لذا طلب الأمير يوسف من قائد القوات العثمانية عثمان باشا الوكيل ــ الذي أرسلته استانبول لتنسيق الدفاع ولكن لم تكن لديه قوات كافية ــ أن يرسل قوة إلى بيروت للدفاع عنها. وكان من بين أفراد هذه القوة أحمد بك الجزار(١٠٥).

قرر علي بك العودة إلى مصر لاستعادة مركزه فيها، وقد هزمته قوات أبي الذهب في صالحية مصر في ٥ صفر ١١٨٧هـ / ٢٨ نيسان/أبريل ١٧٧٣م، وتوفي بعد أيام من ذلك[١٠٦]. وكان لوفاتـه أثر كبير؛ إذ انه بـالرغم من عـدم أهميته العسكـرية وهـولاجىء فقد كـان محط أنظار حلفـائه ورمـز الثورة عـلى العثمـانيين. وأُحـرج ظـاهـر العمـر بنتيجـة ذلـك. وحـدث انقلاب في ميزان القوى آنذاك. فالجزار أخذ يعمل لحسابه في بيروت بمعزل عن الأمير يوسف الشهابي الذي دعاه إليها للدفاع عنها. ولم تُجدِ محاولة الأمير يوسف الاستنجاد بالسلطات العثمانية للضغط على الجزار، فاتجه نحو أعدائه السابقين، ظاهر والشيعة، وتحالف معهم في ٩ حزيران/يونيو ١٧٧٣م بعد أن شعروا بعزلتهم هم أيضاً. وطلب هؤلاء الحلفاء من الأسطول الروسي إعادة مهاجمة بيروت لإخراج الجزار منها. فهاجمها وهرب الجزار ولجأ إلى ظاهر ثم إلى دمشق[١٠٧].

وأدّى زوال الأخطار مؤقتاً عن ظاهر إلى ثورة ابنيْه أحمد وعلي. وذكر أن علي طلب دعم أبي الذهب[١٠٨]. ولكن أنباء قدوم محمد بك أبي الذهب على رأس جيش كبير إلى فلسطين بحجـة القضاء عـلى ظاهـر جعل صفـوف الزيـادنـة تتـراصّ من جديد.

وصـل أبـو الـذهب إلى غـزة في ٢٩ محرم ١١٨٩هـ / ١ نيسان/ابريل ١٧٧٥م فاستسلمت المدينة له، وتلتها الرملة بعد حصارها، ثم يافا حيث جرت مذابح. وهرب ظاهر من عكا فاستسلمت إلى أبي الذهب كما استسلمت صيدا لقواته البحرية، ولكن الفوضى سرعان ما دبّت بوفاة أبي الذهب في عكا في ١٠ ربيع الثاني ١١٨٩هـ / ١٠ حزيران/يونيو ١٧٧٥م وانسحاب المماليك إلى مصر[١٠٩].

عاد ظاهر إلى عكّا بعد انسحاب القوات المملوكية، ولكن صيدا خرجت من يده بتعيين والٍ عثماني عليها. وكان العثمانيون بعد أن أنهوا حربهم مع روسيا بتوقيع معاهدة كجك قاينارجه Kutchuck Kainardji مـعـهـم في١٥ رجب ١١٨٨هـ / ٢١ أيلول/سبتمبر ١٧٧٤م قد وجّهوا اهتمامهم إلى الشام بالرغم من أن عدواً قوياً في بلاد فارس هوكريم خان زند بدأ يتهدّدهم في الجبهة العراقية، ووصل أسطول عثماني بقيادة القبطان حسن باشا إلى حيفا في٩ جمادى الثانية ١١٨٩هـ / ٧ آب/اغسطس ١٧٧٥م فاستولى عليها وتوجه في ٢١ آب إلى عكا حيث تحصن ظاهر. وقد ذكر أن مفاوضات جرت بين الطرفين حول تسليم ظاهر ما تأخر عليه من أموال الميري وأن مستشاره إبراهيم الصباغ ورئيس دفاعه أحمد دنكزلي قد ثنياه عن ذلك. كما ذكر أيضاً أنّ حسن باشا نفسه لم يكن حريصاً على نجاح المفاوضات. وقد رفض دنكزلي والقوات المرتزقة من المغاربة التي كانت تدافع عن عكا القتال. واضطر ظاهر إلى الهرب وقتل غير بعيد عن عكّا بأيدي مغاربته. واعتقل إبراهيم الصباغ[١١٠] ونقل إلى استانبول، وقتل دنكزلي في العام التالي. وهرب معظم أبناء ظاهر[١١١].

وهكذا انهارت إمارة الزيادنة العربية في فلسطين بعد أن دامت قرابة ثلاثة أرباع القرن كان لها خلالها دور هام في جعل منطقة الجليل مركز الثقل السياسي والاقتصادي لا في فلسطين فحسب، بل في بلاد الشام الجنوبية ككلّ. فقد استقطبت من حولها، أصدقاءً وأعداءً على السواء، كلًا من القبائل البدوية والزعامات الريفية في المنطقة، فضلًا عن دروز الشوف وشيعة جبل عامل المنقسمين على أنفسهم، وكذلك السلطات العثمانية في دمشق وصيدا. ورسّخ ظاهر التقاليد العربية المحلية في الحكم الذاتي وذلك بتحصينه القلاع، وبخاصة في عكا، ومقاومته الولاة العثمانيين، وتحدّيه سلطات استانبول والثورة عليها. ويمثّل حكم ظاهر، في الواقع، جزءاً من ظاهرة عامة شملت الولايات العربية وغيرها، إبّان الحكم العثماني، تمثلت بظهور مراكز قوى محلية، على مستوى حكام الولايات والمماليك والبدو والمنظمات الشعبية في مراكز المدن، نشأت كرد فعل على الانحطاط العثماني. وبالنسبة إلى فلسطين يعدّ حكم ظاهر العمر نقطة الذروة بين زعماء البدو وأعيان الريف الذين سبقوه وتلوه، بالارتقاء بالإمارة العربية إلى أعلى مستوى وأوسع امتداد طيلة الحكم العثماني.

ونظراً للطابع الأسروي والبدويّ الذي مثّلته إمارة ظاهر العمر فقد انهارت بفعل العوامل ذاتها التي ساعدتها على الظهور: فالتزاوج مع القبائل وأُسر الأعيان المحليين الذي كان مفيداً في البداية انقلب ضد ظاهر حين ثار أبناؤه عليه بدعم وتشجيع من هذه القبائل والأُسر التي ينتسبون إليها. كما أنّ اقتصاد المنطقة الذي طوّره ظاهر، بفضل تعامله مع التجار الفرنسيين، وأتى إليه بموارد هامة مكّنته من إقامة حصونه ودفاعاته واستئجار القوات العسكرية، أصبح الآن عامل ضعف بعد الدّمار الذي حلّ بها خلال خمس سنوات (١١٨٤ ــ ١١٨٩هـ / ١٧٧٠ ــ ١٧٧٥م) من الحروب الداخلية والفوضى وتهديد الموانىء وقطع الطرق. يضاف إلى ذلك أن ضعف السلطات العثمانية المحلية وانشغال ممثليها من الولاة بقيادة قافلة الحج وبالإثراء وبتعميق نفوذهم المحلي، الأمر الذي مكّن ظاهر من توطيد سلطته، قد تبدّل الآن؛ فسلطات استانبول تنبهت إلى خطورة ثورة ظاهر العمر وعلي بك وأرسلت،

بعد انتهاء حربها مع روسيا، قوات كبيرة وجهت ضربة قاصمة إلى ظاهر بعد أن أضحى معزولاً.

وتشرذمت أسرة ظاهر بعد وفاته، فمِن أبنائه مَن قتل أو نفي. وبرز بعض أحفاده في وظائف إدارية في استانبول. وذكر أن نابليون بونابرت إبان حملته على فلسطين في عام ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م حاول الاعتماد على أبناء ظاهر فيها (١١٢). ولكنهم لم يكونوا، سواء هم أم نابليون، في المدى البعيد بقادرين على الثبات في وجه المتغيرات السياسية الدولية والمحلية(١١٣).

نتج عن الفراغ السياسي الذي خلفه موت ظاهر العمر وانسحاب المماليك إلى مصر وضعف واليي دمشق وصيدا العثمانيين وعدم قدرتهما على الارتفاع إلى مستوى الأحداث في المنطقة أن ملأه مغامر عسكري من أصل مملوكي هو أحمد آغا الجزار الذي سبق ذكره. وكان الجزار مملوكاً بشناقي الأصل (من البوسنة) بدأ سيرته في استانبول، ثم اشتهر في مصر في خدمة علي بك، ونال رتبة البكوية فيها، ولقب بالجزار لشدة بطشه ببدو إقليم البحيرة. ثم انتقل مع مماليكه إلى بلاد الشام ودخل في خدمة العثمانيين حيث عهد إليه بحماية بيروت كما سبق القول. وحين قضي على ظاهر العمر عين محافظاً على عكّا. ثم أعطي ولاية صيدا في ٢٠ محرم ١١٩٠هـ / ١١ آذار/مارس ١٧٧٦م، ولكنه أبقى مركز حكمه في عكّا المحصنة تحصيناً قوياً من قبل ظاهر.

ويختلف الجزار عن الزعماء المحليين البارزين، مثل ظاهر العمر والأمراء الشهابيين ومن قبلهم فخر الدين المعني الثاني، بأنه مغامر غريب عن المنطقة التي توصّل إلى حكمها. ولم يكن حكم الجزار الذي يمثّل قوة عسكرية مملوكية، ضمن الإطار العثماني، ظاهرة فريدة آنذاك في المشرق العربي. ولم يكن حكمه كطاغية مستبد فريداً، هو الآخر، بين حكام المشرق العربي؛ فقد توصل المماليك في مصر إلى أن يصبحوا حكامها الفعليين منذ بداية عهد علي بك في عام ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م وحتى إضعافهم على يد نابليون بونابرت في عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م. كما أن العراق، في ولايتي بغداد والبصرة، كان يحكمه هو الآخر مماليك من أصول قفقاسيّة، كما في مصر. وقد بدأوا حكمهم في العراق في عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م واستمروا حتى عام ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م. ويعدّ ظهور هذه الكتل المملوكية الحاكمة في مراكز رئيسية في المشرق العربي، وفي وقت متازمن، جزءاً من ظاهرة عامة شملت الولايات العربية وغيرها، وقد تجلّت بازدياد النفوذ المحلّي في القرن الثامن عشر كرد فعل على انحطاط السلطة العثمانية آنذاك. وليست هناك من رابطة تجمع هذه القوى المملوكية، في مصر والشام والعراق، سوى تزامن ظهورها وتشابه تدريبها وكونها غريبة الأصول واللسان. وقد فرضت نفسها محلياً بسبب إرهاق القوى المحلية في الصراع فيما بينها. واضطرت السلطات العثمانية إلى الاعتراف بها لأنها تقيم الأمن، الذي عجزت هي عنه، وتعترف بالسلطة العثمانية وحقوقها. واتبعت هذه الكتل المملوكية سياسة البطش والإرهاب والإثراء لخدمة مصالحها ومصلحة الشعب إذا لم تتعارض معها، وإذا كان فيها فائدة لها، كما في العراق مثلاً. وأحسن ما يذكر لهؤلاء المماليك دفاعهم عن البلاد ضد الاعتداءات الخارجية، كما في دفاع مماليك العراق ضد حكام فارس، ومماليك مصر والجزار ضد نابليون بونابرت.

يتميز حكم الجزار الذي ولي على ولاية صيدا، وعلى ولاية دمشق بشكل متقطع بين ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م وحتى وفاته في ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م(١١٤)، بسيطرته على القوى المحلية في فلسطين وجبل لبنان، وتحدّيه للعثمانيين، وإدخال ولاية دمشق ضمن دائرة نفوذه، والإثراء على حساب الشعب والدولة، وهو ما زاد في الإساءة إلى اقتصاد المنطقة، ثم بمقاومته حملة نابليون بدعم من الانكليز. وكانت أولى أعماله احتلال قلاع الزيادنة من يد أولاد ظاهر العمر وقتل أشدهم بأساً وهو علي في رمضان ١١٩٠هـ / تشرين الأول/أكتوبر ١٧٧٦م. وقد أعلن الشيخ ناصيف النصار ولاءه للجزار ووعد بتقديم أموال الميري إليه. ولكن الجزّار قتله بعد قليل واستخلص مدينة صور منه. وتخلّى أمير جبل لبنان يوسف الشهابي عن بيروت للجزّار، ومع ذلك خضع لابتزازه الذي أثار عليه منافسيه في الجبل إلى أن أجبره الجزار على الاستقالة في عام ١٢٠٣هـ / ١٧٨٨م لصالح الأمير بشير الثاني الشهابي. وحاول الجزار إضعاف الأمير بشير بإثارة الأمير يوسف المعزول ضده ثم بإثارة أبناء هذا الأخير بعد وفاته في ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م. وقد قام السلطان بعدة محاولات لعزل الجزّار ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل بسبب انشغال السلطان، في بداية الأمر، بالحرب ضد حاكم بلاد فارس كريم خان زند، ثم بقضايا أكثر إلحاحاً في الدولة، كما أن الجزار وطّد نفوذه، ضمن الإطار العثماني، وأصبح من الصعب القضاء عليه.

وتطلّع الجزار إلى الحصول على حكم ولاية الشام. وتمّ له ذلك أربع مرات، أولاها في عام ١١٩٩هـ / ١٧٨٥م والثلاث الأخرى في ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م و١٢١٣هـ / ١٧٩٨م و١٢١٧هـ / ١٨٠٣م(١١٥). ولم يتخلّ عن ولاية صيدا حين تعيينه على الشام. وكان يعهد بها إلى أحد مماليكه نائباً عنه، كما حصل

أيضاً على ولاية طرابلس وعين عليها أحد مماليكه. وهكذا حقق الجزّار ما حققه آل العظم من سعة الحكم في شغل الولايات الثلاث في وقت واحد مع فارق رئيسي وهو أن الجزّار فرض نفسه بالقوة على هذه الولايات معتمداً على مماليكه، في حين أنّ آل العظم حصلوا على مناصبهم بشراء الدعم بالمال دون أن تكون لهم قوة عسكرية. ونقطة المقارنة الأخرى أن مركز الثقل في حكم آل العظم كانت ولاية دمشق في حين أن مركز الثقل في حكم الجزار كان ولاية صيدا، أو بالأحرى عكا مقر حكمه. وهكذا نجد منذ عهد ظاهر العمر اشتهار عكا كمركز ثقل في حكم بلاد الشام الجنوبية، وبالتالي تحولت الأهمية من مدن الداخل التي تقوم على تجارة القوافل إلى مدن الساحل المرتبطة بالتجارة الأوروبية التي سيطرت على المنطقة في القرن التاسع عشر. وقد خسرت دمشق زمام المبادرة السياسية والعسكرية في بلاد الشام الجنوبية لمصلحة عكا سواء في عهد ظاهر أو عهد الجزار أو عهد مملوك الجزار الذي خلفه وهو سليمان باشا العادل (١٢١٩ ــ ١٢٣٤هـ / ١٨٠٤ ــ ١٨١٩م)، وكذلك في عهد عبد الله باشا الذي خلف العادل وأطاح به إبراهيم باشا المصري في ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م. وأعاد إبراهيم باشا مركز الحكم في بلاد الشام إلى دمشق ولكن بعد أن فقدت الشام أولويتها لصالح مصر (١٢٤٧ ــ ١٢٥٦هـ / ١٨٣١ ــ ١٨٤٠م).

استفاد الجزّار من التحصينات والتحسينات التي أدخلها ظاهر العمر على عكا وغيرها من الموانىء. وكان بحاجة مستمرة إلى المال للإنفاق على جيشه المؤلَّف من مماليك ومرتزقة ضموا بشانقة (نسبة إلى البوسنة) وأرناؤوط (الألبانيّون نسبة إلى ألبانيا) وتركمان ومغاربة، لذا عمد للحصول عليه بأية طريقة. وهجر كثير من الفلاحين قراهم بسبب ابتزازه المال منهم. وزاد هذا في نقص الموارد الاقتصادية التي تضررت أيضاً بسبب الاضطرابات السياسية التي عمّت المنطقة. ومما أضرّ بالزراعة أيضاً لجوء الجزار إلى أعمال السخرة في تحصين عكا ويقتضي ذلك أن يقدم الفلاحون خدماتهم مجاناً[١١٦]. وضغط الجزار على الملتزمين في ولايته بسبب حاجته إلى المال، فعمد هؤلاء إلى الضغط على الفلاحين بدورهم. وأصيبت فلسطين بين فترة وأخرى بالجفاف، وأحياناً بالوباء كما حدث مثلاً في عامي ١١٩٥ و١٢٠٢هـ / ١٧٨٠ و١٧٨٧م حين عمّ الوباء بلاد الشام بكاملها. ويقدر القنصل الفرنسي في عكا في رسالة له (٢٩ جمادى الثانية ١٢٠١هـ/١٨ نيسان/ابريل ١٧٨٧م) إصابات عكا في الفترة بين محرم ــ صفر ١٢٠١هـ و ٢٩ جمادى الثانية ١٢٠١هـ/تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٨٦ و ١٨ نيسان/ابريل ١٧٨٧م بـ ٤٥٥٧ وفاة بينهم عدد كبير من الجند والأغراب[١١٧]. وعانت فلسطين كذلك المجاعة وأخطار قطّاع الطرق وفوضى القوات العثمانية المتجهة إلى مصر لقتال المماليك فيها.

وبالرغم من قوته وبطشه لم يتمكن الجزار من إخضاع جميع الملتزمين في المناطق التي يحكمها وبخاصة إذا كان هؤلاء من أسر الأعيان المحليين ذوي الزعامة التقليدية. مثال ذلك ما ذكره تقرير القنصل الفرنسي في يافا بتاريخ ٤ شوال ١٢٠٥هـ / ٦ حزيران/يونيو ١٧٩١م من حصار محكم دام شهراً ونصف شهر فرضه الجزار على قلعة سانور التي تحصّن فيها يوسف جرّار أحد كبار أعيان منطقة نابلس، واضطر الجزار إلى رفع الحصار في ٢٥ رمضان / ٢٨ أيار/مايو للذهاب إلى دمشق لقيادة قافلة الحج الشامي إلى الحجاز، وذلك بالرغم من أن عدد القوات التي استخدمها بلغت أربعة عشر ألف مقاتل، في حين أن قوات ابن جرار لم تزد عن ألف أو ألف ومائتي مقاتل. ويضيف القنصل أن الجزار يعمد إلى ضرب الزعماء المحليين الواحد بالآخر لإضعافهم[١١٨]. ويؤكد الاخباري الدمشقي رسلان القاري تقرير القنصل الفرنسي هذا حول فشل الجزّار في حصار قلعة سانور بقوله: «... ركب على ابن جرّار في قلعة سانور وما أخذ منها لا حقّ ولا باطل بعدما ضرب عليها قنابر ومدافع وحفر لغومة وما استفاد شيئاً وداركه الحاج فرحل عنهم»[١١٩].

وبطش الجزّار بشدة بثورة قام بها بعض مماليكه بزعامة سليم باشا في ٧ شعبان ١٢٠٣هـ / ٣ أيار/مايو ١٧٨٩م احتجاجاً على معاقبتهم، ويبدو أن السبب الرئيسي هو الصراع على النفوذ بينه وبين كبار مماليكه[١٢٠]. وبقي الجزار سيد الموقف حتى بعد أن هاجمته حملة نابليون بونابرت في ربيع عام ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م.

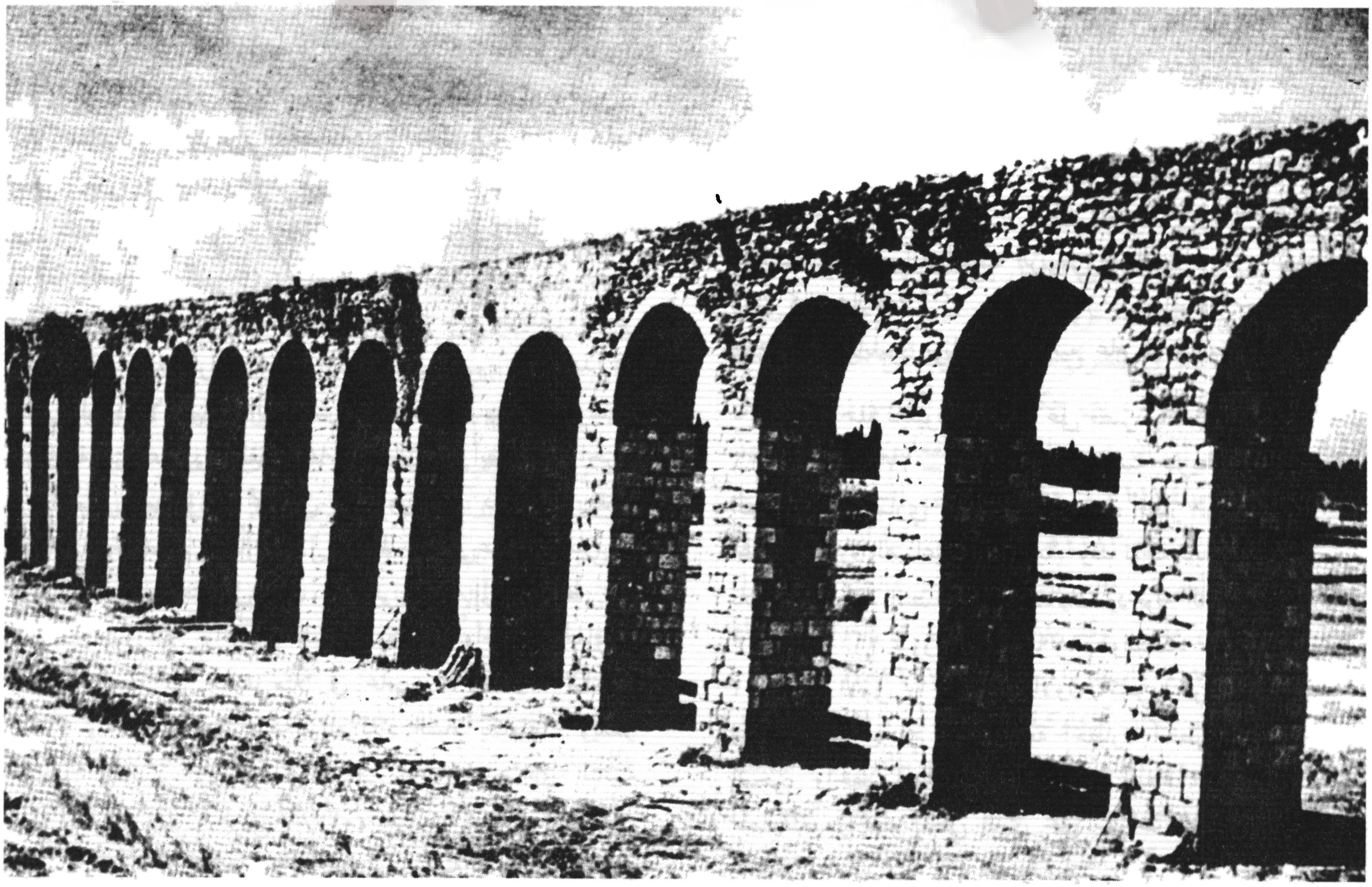
تُعدّ حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٢١٣ ــ ١٢١٦هـ / ١٧٩٨ ــ ١٨٠١م) ومعارضة بريطانيا لها بداية الصراع الاستعماري الأوروبي لاحتلال أقطار الوطن العربي في أعقاب الثورة الصناعية في أوروبا. وقد توجّه نابليون بحملته إلى بلاد الشام بعد انتصاره على المماليك ودخوله القاهرة في ٧ صفر ١٢١٣هـ / ٢١ تموز/يوليو ١٧٩٨م والقضاء على ثورتها في ١١ جمادى الأولى /٢١ تشرين الأول/أكتوبر من العام نفسه. وكانت تحدق به في مصر أربعة أخطار: الخطر الانكليزي من البحر، والخطر المملوكي من الصعيد وبلاد الشام حيث لجأ المماليك، والخطر المحليّ الذي تجلى بثورات الشعب، ثم الخطر العثماني الذي تمثل بأنباء قدوم جيش برّي، عبر بلاد الشام، لقتاله. ولاستباق هذا الخطر الأخير توجّه نابليون إلى بلاد الشام

لصدّ الجيش العثماني ولإقامة منطقة عازلة بين حكمه في مصر وبين العثمانيين، وأمل أيضاً بإقامة حكومة محلية موالية له في بلاد الشام الجنوبية.

اقتصرت حملة نابليون بونابرت على فلسطين ولم تتجاوز الشريط الساحلي منها سوى في منطقة الناصرة ـ طبرية حيث هزمت الجيش العثماني. وقد بدأت الحملة باحتلال قطية في سيناء في ٢ رمضان ١٢١٣هـ / ٧ شباط/فبراير ١٧٩٩م ثم قلعة العريش في ١٧ رمضان / ٢٢ شباط/فبراير. وبعد ثلاثة أشهر من ذلك أخذت الحملة بالتراجع إلى مصر. وكان ذلك في ٢٠ أيار/مايو بعد فشلها في احتلال عكا.

وتضم الوثائق الحربية في قصر فانسين Vincennes في باريس تقارير مفصلة عن سير حملة نابليون في فلسطين كتبها مشاركون في الحملة أو مرافقون لها أو آخرون. وسنعتمد على عدد من هذه التقارير[١٢١]، وذلك فضلاً عن وصف للمعارك كتبه أحد المشاركين فيها وهو قنّاص يدعى بيير ميلله Pierre Millet من فرقة الجنرال كليبر Kléber[١٢٢] وسنقارن ذلك بما كتبه الاخباريان المعاصران: نقولا الترك وعبد الرحمن الجبرتي عن الحملة على بلاد الشام[١٢٣]، وذلك فضلاً عن كتابات أخرى متخصصة[١٢٤].

تألف الجيش الفرنسي المتجه إلى بلاد الشام (سوريا في المصادر الفرنسية)، بقيادة نابليون بونابرت، من أربع فرق: فرقة الجنرال كليبر وتضم ٢,٤٩٩ عنصراً، وفرقة الجنرال بون Bon وتضم ٢,٤٤٩ عنصراً، وفرقة الجنرال لان Lannes وتضم ٢,٩٢٤ عنصراً، وفرقة الجنرال رينيه Régnier وتضم ٢,١٦٠ عنصراً. يضاف إليهم ٨٠٠ عنصر من الفرسان بقيادة الجنرال مورا Murat و٣٤٠ من سلاح الهندسة بقيادة الجنرال كافاريلّي Caffarelli و١,٣٨٥من سلاح المدفعية بقيادة الجنرال دومارتان Dommartin، فضلاً عن ٤٠٠ من الأدلاّء الراجلين وراكبي الخيول و٨٨ من الهجّانة. ويبلغ المجموع العام للحملة ١٢,٩٤٥ عنصراً، وكان رئيس أركان الحملة الجنرال برتيه Berthier. ولاحظ أحد المراقبين العسكريين صغر سنّ الجنرالات



قناة بناها العثمانيون في القرن الثامن عشر لجر المياه إلى عكا

واشتهار بعضهم في حروب نابليون التالية. وكان نابليون ولان في سن الثلاثين، وموار وجينو Junot ــ وكل منهما يقود كتيبة ــ في الثامنة والعشرين، وبرتيه وكليبر في السادسة والأربعين.

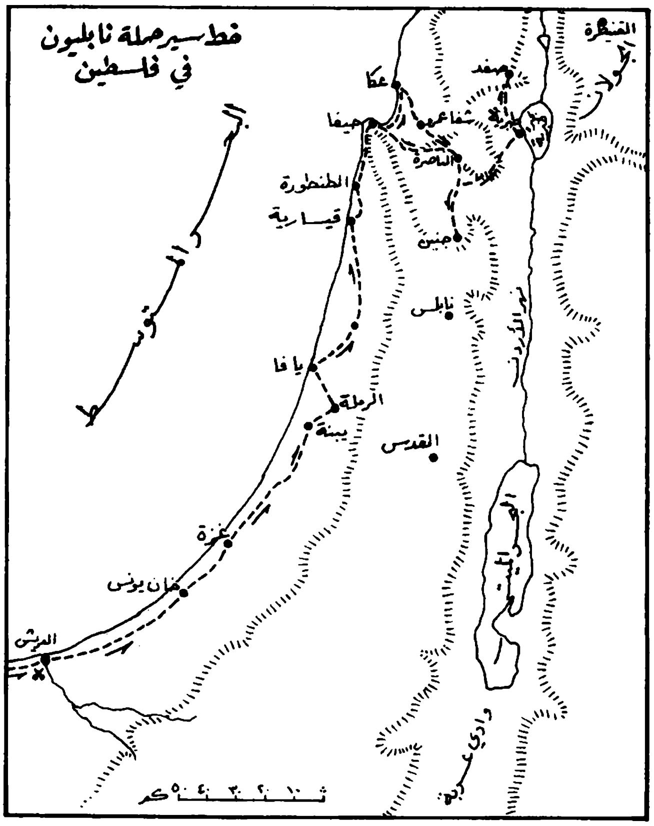
وذكر أن نابليون هو الذي أصرّ على تسيير الحملة إلى بلاد الشام مدّعياً أن الجزار أهان مبعوثه الذي عرض عليه إقامة علاقات حسنة بين الطرفين وتحسين التجارة بينهما. وقد غادرت فرقة رينيه بلبيس في ٢٣ شعبان ١٢١٣هـ / ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٧٩٩ (١٠ بلوفيوز Pluviôse من العام السابع للثورة الفرنسية حسب تقويم تلك الثورة) بمهمة استطلاع. وأُعدّت قافلة من ١٥٠٠ جمل لحمل المؤن من القاهرة. وأُمرت فرقة كليبر بمغادرة دمياط إلى قطية. وأُعدّ أسطول من السفن في الاسكندرية لنقل مدفعية الحصار الثقيلة وقد استولى عليها الانكليز قرب يافا. وبعد أن احتل رينيه قطية حيث تتوفر المياه اتجه إلى العريش التي تبعد عنها ١٠٥ كم على الطريق إلى غزة وتشكّل نقطة الحدود بين مصر وبلاد الشام. وكان الجزّار قد أقام فيها حامية من ١٥٠٠ مقاتل من المماليك والمصريين والمغاربة ودعّم حصنها ذا الأبراج. ووصلت فرقة كليبر إلى العريش في ١٤ شباط/فبراير لتدعم فرقة رينيه. وكان نابليون قد غادر القاهرة في ١٠ شباط/فبراير فوصل العريش في ١٧ منه وهاجم حصنها الذي قاتل بضراوة قبل أن يسقط. وقتل من المدافعين ٥٠٠، والتحق ٤٠٠ من المغاربة بالفرنسيين، وجرّد البقية من السلاح وساروا مع الجيش الفرنسي لإرسالهم إلى داخل البلاد. ومُني الفرنسيون في حصار العريش الذي دام سبعة أيام بمائتي (أحد المصادر قدرهم بثلاثمائة) إصابة بين قتيل وجريح. وعاد بعض المماليك المدافعين عن العريش إلى مصر.

وبعد العريش تبدّل ترتيب الفرق إذ سارت فرقة كليبر في المقدمة يرافقها الفرسان بقيادة مورا وأُمرت باحتلال خان يونس التي تبعد عن العريش ستين كيلومتراً في موعد أقصاه مساء ٢٢ شباط/فبراير على أن يوافيها نابليون في اليوم التالي. أما فرقة رينيه فبقيت في العريش لإعدادها للدفاع وعُهد إليها بمهمة حماية مؤخرة الحملة وأن تسير على مسافة يومين منها، ويذكر أحد المرافقين للحملة أن عدداً من الجنود تُوفّوا بسبب صعوبات اجتياز الصحراء وأن كليبر والفرسان ضلّوا الطريق بعد العريش بسبب جهل أدلّائهم، فوصلوا إلى خان يونس بعد وصول نابليون وهيئة أركانه إليها. واستسلمت خان يونس بدون قتال.

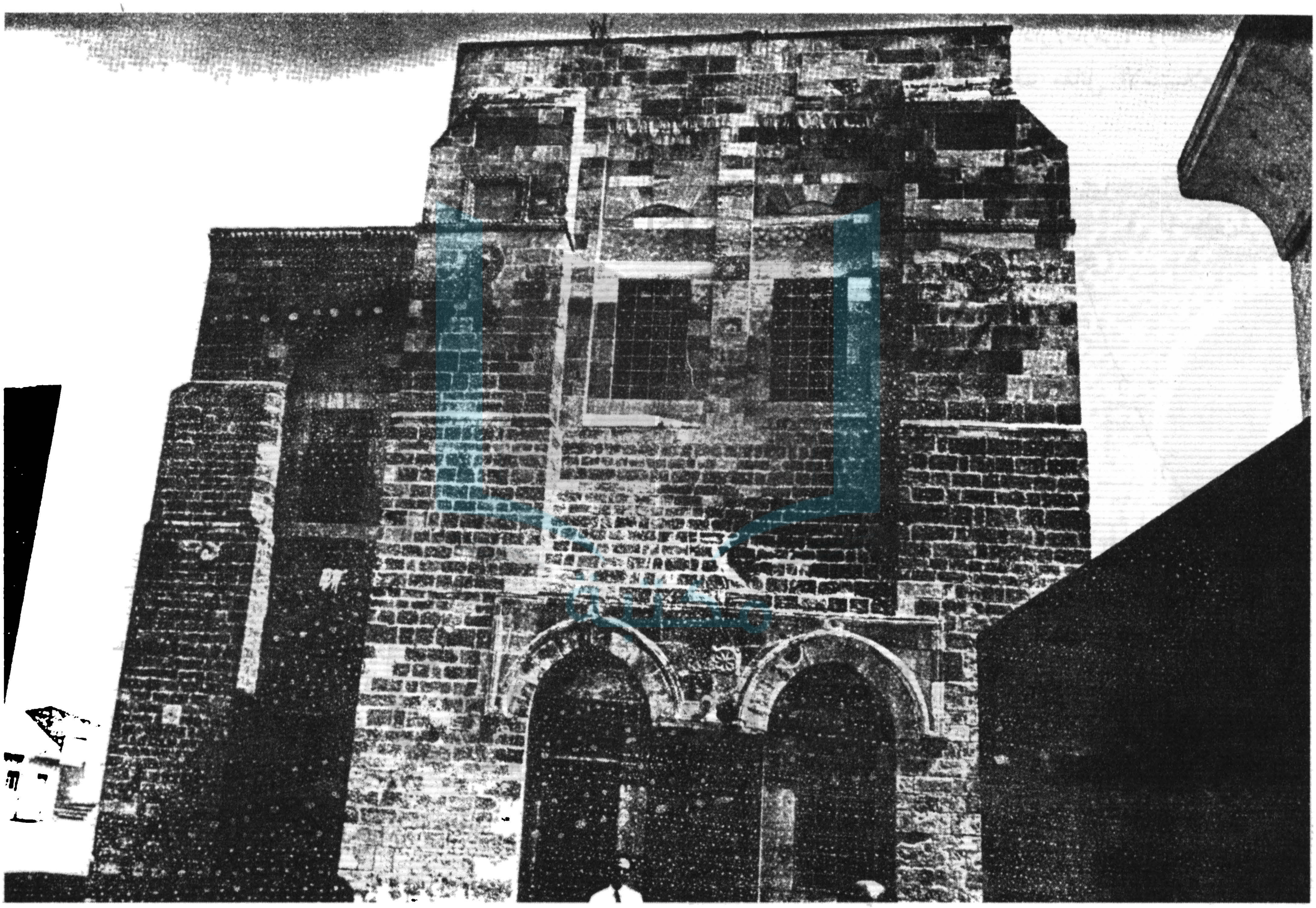
واتجه الجيش الفرنسي في ٢٦ شباط/فبراير إلى غزة فاستسلمت له في اليوم نفسه بدون قتال. ولم يدافع عنها حاكمها عبد الله باشا وفرسانه الألفان ومماليك إبراهيم بك معه الذين انسحبوا إلى يافا. وغنم نابليون في غزة معدات ومؤناً كثيرة، وأقام فيها إدارة محلية من الزعماء المحليين إلى جانب الحامية الفرنسية فيها.

وفي ٢٨ شباط/فبراير سار الجيش الفرنسي، وفي طليعته فرقة كليبر، باتجاه اسدود فوصلتها في ١ آذار/مارس ثم تابعت إلى قرية يبنة، ووصلت الرملة في ٢ آذار/مارس. ووجد الفرنسيون في الرملة مؤناً كثيرة ومعدّات تركها المدافعون الذين ارتدّوا إلى يافا. ولم يتبع الفرنسيون في احتلالهم الرملة الطريق الساحلي المباشر بين غزة ويافا ولكن هدفوا من هذا الانحراف لاحتلال الرملة أن يحموا مؤخّرتهم حين حصار يافا وأن يصدّوا البدو ويتحكموا بطريق الرملة ــ القدس. كما أن الفرنسيين اتبعوا بذلك الطريق التجاري بين غزة والرملة الذي يربط القاهرة بدمشق.

وقد أبقى نابليون الجنرال رينيه في الرملة لإحكام الحصار من هذه الجهة ومراقبة تحرُّك القوات العدوّة في حال نجدتها حامية يافا. وبالفعل حصل هجوم على الفرنسيين في اللد ولكنه صُدّ. ووصل الفرنسيون إلى يافا في ٣ آذار/مارس، ورفضت حاميتها التي كانت تتألف من أربعة آلاف مقاتل الاستسلام. وكانت



تعتمد على مناعة أسوار المدينة وأبراجها. وقرر نابليون مهاجمة يافا بسرعة ليؤمّن الاتصال البحري عن طريقها مع دمياط والاسكندرية. وقد ترك فرقتي الجنرالين لان وبون إلى الشرق والجنوب من المدينة فيما وضع فرقة كليبر عند نهر العوجا شمالي يافا بثمانية كيلومترات لقطع الاتصال مع عكا. واخترقت فرقة لان دفاعات يافا وفتحت ثغرة واسعة في سورها في ٦ آذار/مارس واحتل الفرنسيون المدينة وسط قتال في شوارعها وبيوتها وحدثت مذابح مريعة. وفقد الفرنسيون حوالي ١,٥٠٠ جندي وأسروا حوالي ثلاثة آلاف من حامية يافا. ووجدوا في المدينة مؤناً وذخائر ومراكب تجارية في الميناء. وأذاع نابليون بياناً على الأهلين في ١٠ آذار/مارس يدعوهم إلى الهدوء ويدعو الموظفين إلى ممارسة أعمالهم في ظل الإدارة الفرنسية التي عهد بها إلى الجنرال غريزيو Grézieux. وأرسل الفرنسيون المصريين من الأسرى إلى مصر. وقدّر مراقب فرنسي في الحملة عدد الأسرى في يافا بثلاثة آلاف كما قدّرهم أحد ضباط الحملة بنحو ألفين. وإذا اعتبرنا أن المراقب الفرنسي ذكر فيما بعد أن حوالي ثمانمائة من الأسرى أرسلوا إلى مصر فيبقى الرقمان متقاربين ويمثلان ما قتله نابليون من الأسرى في يافا. وذكر أن هؤلاء يتألفون من أسرى يافا وأسرى العريش الذين لم يكن نابليون قد أطلقهم بعد. ويذكر هذان المصدران الفرنسيان أنّ نابليون خشي التحاق الأسرى ـ إن هو أطلقهم ـ بالقوات العثمانية التي كانت تتجمّع في ضواحي القدس ونابلس وعند نهر الأردن، وأنه إذا تركهم أسرى في منطقة يافا فإنه يصعب عليه مراقبتهم وإطعامهم وأنهم سيهددون المواصلات مع مصر ويثيرون السكان والبدو، كما أن إرسالهم إلى مصر يقتضي تخصيص عدد كبير من الجنود لمرافقتهم. لذا قرر نابليون في ١١ آذار/مارس إبادة الأسرى، وتمّ ذلك في اليوم نفسه. ويجمع المصدران الفرنسيان أن قتل الأسرى عمل فظيع ومشين وأن الجنود الفرنسيين استاءوا من ذلك ولكن لم يكن لهم خيار في الأمر، وخشوا أن تمزق المعارضة وحدتهم ومصيرهم. وكان هاجسهم أن هذه المذبحة اللا إنسانية ستكون لها نتائج وخيمة



قلعة نابليون في غزة

عليهم وأنهم سيلقون من الآن فصاعداً من جانب الجنود العثمانيين مقاومة لا هوادة فيها، لأن هؤلاء الجنود يدركون أن لا مجال أمامهم إلا النصر أو القتل. ويروي الجبرتي ونقولا الترك[١٢٥] عن منشور للفرنسيين ألصقوه بأسواق القاهرة، كعادتهم، بعد عودتهم من الشام أن نابليون «توجه إلى يافا وحاصرها ثلاثة أيام ثم أخذها وأخذ ما فيها من ذخائر الجزار. ومن نحوسات أهلها أنهم لم يرضوا بأمانه ولم يدخلوا تحت طاعته وإحسانه فدوّر فيهم السيف من شدة غيظه وقتل منهم نحو أربعة آلاف ويزيدون بعدما هدم سورها وأكرم من كان فيها من أهل مصر وأطعمهم وكساهم، وجهزهم في المراكب إلى مصر وخفرهم بعسكره خوفاً من العربان، وأجزل عطاياهم. وكان في يافا نحو خمسة آلاف من عسكر الجزار هلكوا جميعاً وبعضهم ما نجا إلّا بالفرار».

وأخذ الطاعون بالانتشار بين جنود فرقة رينيه المقيمين في الرملة. ومع ذلك تابع الجيش تقدمه نحو عكا في ١٤ آذار/مارس. وهاجم البدو والسكان المحليون فرقة كليبر التي فقدت ثلاثين جندياً وعربة مدفع وجُرح أحد قادتها. وتوقفت الحملة في قرية مسكة ثم غادرتها في اليوم التالي إلى قاقون. وعند قرية زيتا اعترض عبد الله باشا، الذي سبق له أن تراجع من غزة، وقواته من الفرسان، ومعهم نحو خمسة آلاف من فلاحي منطقة نابلس، فرقتي كليبر وبون وهما في طريقهما إلى حيفا. ولكن المدفعية الفرنسية هزمتهم فلجأوا إلى الجبال ولم يجرؤ الفرنسيون على ملاحقتهم.

وتابع كليبر مسيره في ١٦ آذار/مارس، فمرّ بوادي المالح في طريقه إلى حيفا التي انسحبت منها حاميتها، فوضع حامية فيها. وشوهدت بالقرب من مينائها سفن الأسطول الانكليزي بقيادة سدني سميث Sydney Smith. ويصف تقرير فرنسي حيفا بأنها تحيط بها أسوار ذات حصون ولكنها لا تقوى على الثبات أمام المدفعية الفرنسية.

غادر الفرنسيون حيفا باتجاه عكا التي تبعد عنها حوالي عشرين كيلومتراً فاجتازوا بصعوبة نهر كيسون (قيشون، وهو المعروف بنهر المقطّع) وفي اليوم التالي مروا على جسر فوق نهر عكا (وهو الذي يعرف باسم نهر النعامين). وحاول بعض جند الجزار مهاجمة الفرنسيين ولكنهم صدّوا. وبعد سير بطيء بسبب الأمطار وسوء الطرق وصل نابليون وجنوده إلى عكا في ١٨ آذار/مارس. وكانت عكا محاطة بأسوار وأبراج وخندق عميق وعريض، وينقل الماء إليها بقناة محكمة البناء. وكان يدافع عنها حوالي ستة آلاف جندي وفيها من ٢٥ إلى ٣٠ مدفعاً. ولم تتجاوز أعداد المدافع الفرنسية الثقيلة الاثني عشر مدفعاً، لذا سلّطها بونابرت على البرج الرئيسي في الزاوية الشرقية. وكان الانكليز قد استولوا في حيفا في ٢٣ آذار/مارس على معدات الحصار الفرنسية وذخائرها التي أرسلت لنابليون من الاسكندرية في حين أفلت منهم أربعة مراكب تحمل مدفعين ومائتي قنبلة ومؤناً. وكانت سفينتان إنكليزيتان بقيادة سدني سميث تساعدان المحاصَرين [بفتح الصاد] في عكا. كما ساعدهم مهندس فرنسي يدعى فيليبو Phélipeaux، وهو من المنشقين على الثورة الفرنسية ومن جماعة المهاجرين émigrés. وحاول الفرنسيون تسلّق أسوار عكا ولكنهم صدوا وتكبدوا خسائر. وبالمقابل هاجم جنود من عكا الفرنسيين في ٢٧ آذار/مارس وأوقعوا بينهم خسائر. وكان نابليون وكبار ضباطه يعتقدون أنهم سيحتلون عكا في الهجوم الأول كما فعلوا في يافا أو أن الجزار سيستسلم بعد الهجوم الأول. واقتضى نقص الذخائر لدى الفرنسيين إيقاف هجماتهم على عكا والاقتصار على حصارها.

وقدّم آنذاك خمسون شيخاً محلياً ولاءهم لنابليون الذي رحّب بهم، ووعدوه بتقديم المؤن. ومنح نابليون المناصب لاثنين من أبناء ظاهر العمر وقال لأحدهما ان عكا ستستسلم خلال عشرة أيام وأنه سيعيده إلى قصر أبيه الذي اغتصبه الجزار، وكان همّ نابليون العثور على ابن علي ظاهر الذي وصف بالشجاعة. كما أنه اتصل بدروز جبل لبنان تحت إمرة بشير الثاني الشهابي وطلب منهم تقديم المؤن. وكان نابليون حريصاً ألّا يصادر مؤن الفلاحين في فلسطين لكي لا يثوروا ضده.

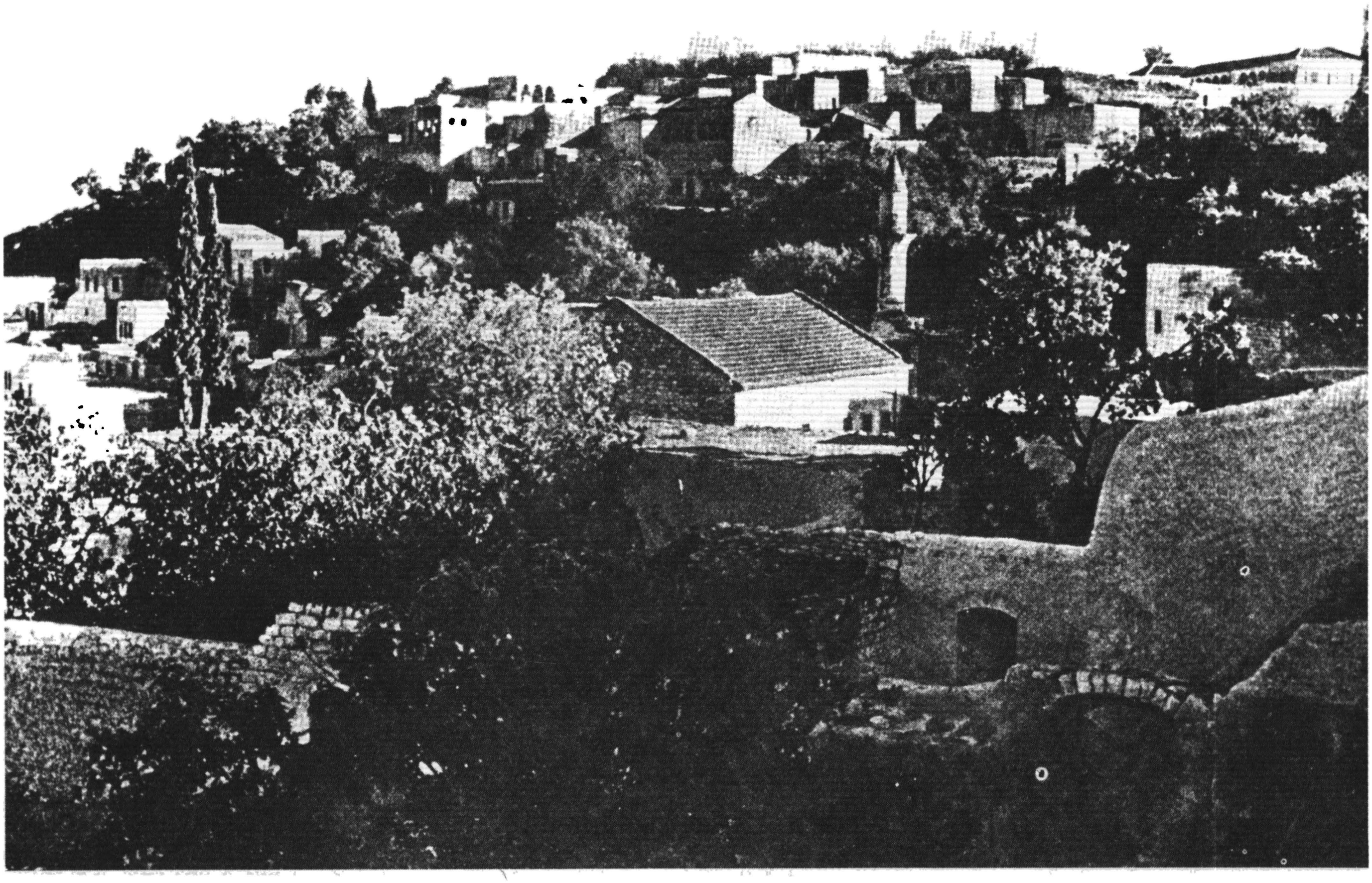
وصدّت قوات نابليون هجوماً شن عليها في ٣٠ آذار/مارس من عكا شارك فيه الإنكليز. وردّ الفرنسيون بهجوم معاكس في ٢ نيسان/أبريل وتكبد الطرفان الخسائر. وأخذ التذمر بالانتشار بين الجنود الفرنسيين بسبب عدم كفاية وسائلهم في احتلال عكا. وحاول الفرنسيون وضع لغم في السور ولكن نيران المحاصَرين الغزيرة صدتهم. وكان نابليون مهتماً في هذه الأثناء باحتلال مناطق مجاورة لاستباق الهجوم العثماني المرتقب.

وقد أرسل نابليون الجنرال فيال Vial في ٤ نيسان/أبريل على رأس أربعة آلاف جندي إلى صور فاحتلها وأقام فيها حامية من مائتي شيعي وعاد إلى عكا. ووُصفت صور آنذاك أن عدد سكانها ألف وخمسمائة وأن لها أسواراً ولكن ليس لها خندق.

وقرر نابليون، وحصاره قائم لعكا، أن يواجه تجمع القوات العثمانية عند طبرية. وكانت هذه المهمة في أساس حملته إلى

الشام. وكان نابليون قد أرسل بعيد وصوله إلى عكا الجنرال مورا وفرسانه لاحتلال قلعة صفد التي تسيطر على الطريق بين دمشق وفلسطين. وتم ذلك في ٣١ آذار/مارس. واستولى الجنرال جينو في اليوم نفسه على الناصرة لمراقبة الطريق عبر نهر الأردن. وفي ٦ نيسان/أبريل اجتازت قوتان عثمانيتان نهر الأردن قادمتين من دمشق. واتجهت إحداهما نحو صفد والأخرى احتلت طبرية، كما استولت قوة أمامية عثمانية على قرية لوبية مسيطرة بذلك على طريق طبرية ـ الناصرة. وهاجم جينو الأتراك في لوبية ولكنه ارتد من أمامهم بسبب كثرة أعدادهم واتجه نحو كفركنّا التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن الناصرة. ونظراً لكثرة القوات العثمانية هناك أمر نابليون فرقة كليبر بالتوجه لمساندة الجنرال جينو. وكانت القوات العثمانية بإمرة عبد الله باشا والي الشام وتضم خليطاً من الجنود المماليك بقيادة إبراهيم آغا، ومن السوريين والمصريين والأتراك وفلاحي نابلس والمغاربة.

غادر كليبر وفرقته عكا في ٩ نيسان/أبريل باتجاه الناصرة حيث قام جينو بهجوم على العثمانيين الذين ارتدوا إلى طبرية وبيسان. ولكن القوة العثمانية من الشمال هاجمت صفد. وأرسل الجنرال مورا لاستخلاصها والاستيلاء على جسر بنات يعقوب على أن يعود للالتحاق بكليبر في الناصرة. وكانت نقطة الارتكاز الرئيسية للقوات العثمانية عند جبل طابور وقرية الفولة في مرج ابن عامر. وبلغ تعدادها ثلاثين ألفاً منهم اثنا عشر ألفاً من الفرسان. وكانت قوات كليبر تتألف من ٢,٥٠٠ جندي وأربعة مدافع. لذا أعلم نابليون بالمخاطر التي تواجهه وطلب النجدة منه، لا سيما وأن الجيش العثماني تخلّى عن مخططه بالسير نحو عكا عن طريق وادي رمانة وخربة اعبلّين وتمركز عند جبل طابور. وأمر نابليون كليبر في ١٥ نيسان/أبريل بمهاجمة الجيش العثماني فسار عن طريق قرية الطيرة وعين ماهل باتجاه دبورية عند جبل طابور. وفي القتال الذي جرى بين الطرفين في ١٦ نيسان/أبريل كاد كليبر أن يهزم لولا وصول نابليون الذي غادر صفورية صباح ذلك اليوم الباكر واجتاز مرتفعات المجدل ثم نزل إلى مرج ابن عامر حيث الموقعة عند الفولة. وكانت ترافق نابليون فرقة الفرسان وفرقة الجنرال بون وثماني قطع مدفعية. ولم يبق أمام عكا

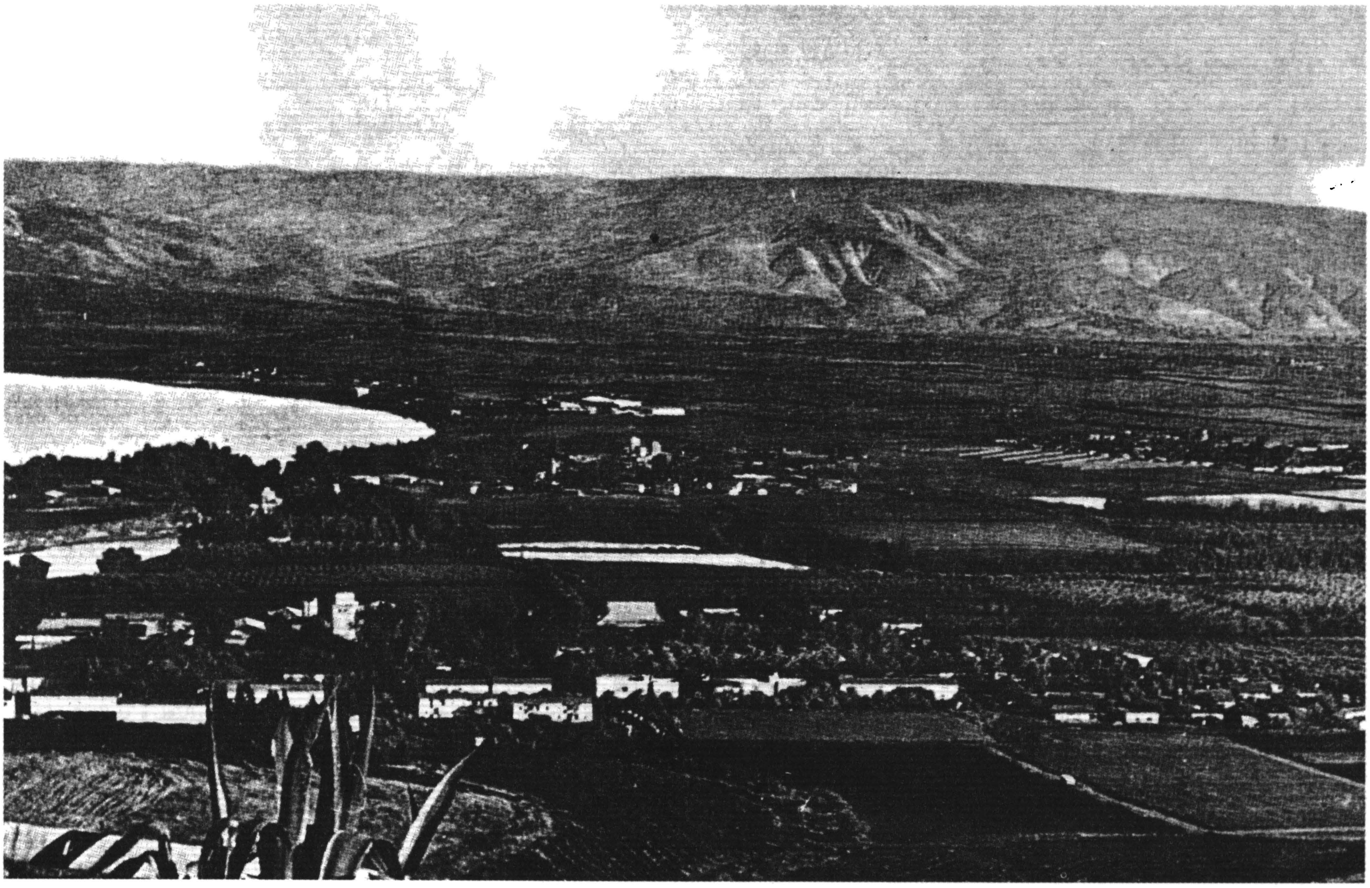


صفد

سوى فرقتي رينيه ولان. وجرت معركة الفولة أو ما يعرف بمعركة جبل طابور يوم ١٧ نيسان/أبريل، وهُزمت القوات العثمانية بفعل المدفعية الفرنسية واستولى نابليون على ذخائر ومؤن هامة. وأرسل نابليون يعلم جميع الفرق الفرنسية في فلسطين ومصر بهذا النصر. وقدّر ضابط فرنسي في الحملة خسائر العثمانيين بثلاثة آلاف والفرنسيين بثلاثمائة بين قتيل وجريح، واستعاد الفرنسيون صفد واحتلوا طبرية في ١٨ نيسان/أبريل، كما نهبوا وأحرقوا قرى وبلدات الفولة ونورِس وجنين(١٢٦).

عاد نابليون وغالبية الحملة إلى عكّا لمتابعة حصارها. وبقيت فرقة كليبر التي جعلت مقرها في الناصرة وفرسان مورا الذين عُهد إليهم بحماية جسر بنات يعقوب وحصني صفد وطبرية من القوات العثمانية الموجودة في تلك المناطق. ولمدّة ثلاثة أسابيع هاجم كليبر ومورا بالتنسيق بينهما القوات العثمانية، ثم اتجها إلى عكا، عن طريق لوبية، فوصلاها في ١٠ أيار/مايو. وبقي الجنرال جينو في الناصرة للمحافظة على صفد وطبرية.

وكانت قد وصلت إلى عكا في ٢٨ نيسان/ابريل مدافع الحصار الفرنسية التي أرسلت من مصر وأفلتت من يد الإنكليز إذ أُنزلت في طنطورة بدل يافا ونقلت براً إلى عكا. وهاجمها في الطريق عند حيفا جماعة من البدو والنابلسيين. وكان الفرنسيون قد قاموا في ٢٤ نيسان/ابريل بهجوم ثالث فاشل على عكا توفي بنتيجته قائد سلاح الهندسة الفرنسي كافاريلّي. وقام المدافعون عن عكا بهجوم مضاد على الفرنسيين في ٢ أيار/مايو ولكنهم رُدوا، بالرغم من مساعدة الانكليز لهم، بخسائر كبيرة للطرفين. ووصلت نجدات عثمانية إلى عكا من طريق البحر في ٧ و ٨ أيار/مايو، وكانت محملة على ثلاثين سفينة وضمّت أكثر من عشرة آلاف مقاتل. وحاول الفرنسيون معاجلة هذه النجدات قبل استخدامها فشنّوا هجومهم الرابع في ٩ أيار/مايو، وتعرّض الطرفان للخسائر. وردّ المحاصرون بشن عدة هجمات على الفرنسيين في ذلك اليوم. وحدثت ثغرة في السور فشن الفرنسيون هجومهم الخامس في اليوم نفسه واخترق الجنرال رامبو Rambaud الثغرة إلى المدينة ولكنه قتل مع عدد من جنوده وأُجبر



بحيرة طبرية

الباقون على التراجع. وشنّ الفرنسيون هجومهم السادس إلى داخل عكا في اليوم التالي ولكنهم انسحبوا من جديد بفعل المقاومة العنيفة. وأُصيب الجنرال بون بجراح قاتلة من جراء الزيت والقطران المغلي والحجارة التي قذف بها. وجرى الهجوم الفرنسي السابع في ١١ أيار/مايو ودام ثلاثة أيام وانتهى بخسائر كبيرة للفريقين. وانتشر الطاعون بين الفرنسيين لكثرة القتلى من الطرفين. وحاول المحاصَرون شن هجوم على الفرنسيين في ١٢ أيار/مايو ولكنهم صُدّوا. وجرت مفاوضات من أجل هدنة لدفن القتلى وتبادل الأسرى دون نجاح. وتعددت هجمات المحاصَرين ضد الفرنسيين في أيام ١٤ و١٥ و١٦ أيار/مايو، وقرر الفرنسيون قصف قصر الجزار والمدينة والميناء وما فيه من سفن بمدفعيتهم بعد أن وصلتهم قذائف على ظهور الجمال، ولكن دون جدوى.

وهكذا باءت بالفشل محاولات الفرنسيين الاستيلاء على عكا وتكبّدوا خسائر فادحة. وبالمقابل تكبّد جنود الجزار خسائر مماثلة حين قاموا بالهجوم على الفرنسيين. وكان نابليون قد كتب إلى حكومة الإدارة في باريس في ١٠ أيار/مايو يشير إلى أن احتلال عكا لا يستحق كل هذه الخسائر وأنه قرر الانسحاب إلى مصر لمواجهة الهجوم عليها. وبالفعل رأى نابليون أن استمرار هجماته سيقضي على كل جيشه وحتى لو أخذ عكا فستكون مقبرة له بسبب الطاعون ونقص المؤن وتصميم العثمانيين والإنكليز على استمرار مقاومتها. وكان العثمانيون يعدّون لإرسال جيش إلى مصر لطرده منها، فحاول المفاوضة على وقف القتال ولكن الجزّار وسدني سميث رفضا ذلك. وقيل انه وصلت في هذه الأثناء مراسلة من باريس إلى نابليون بوجوب عودته إلى فرنسا لأمور فيها.

وتأكّد الفرنسيون أخيراً أن عكا لن تسقط في يدهم لذا عزموا على رفع الحصار والانسحاب إلى مصر. ووجه نابليون في ١٣ ذي الحجة ١٢١٣هـ/ ١٨ أيار/مايو ١٧٩٩م (٢٨ فلوريال Floréal من السنة السابعة للثورة) بياناً من مقر قيادته أمام عكّا إلى جنوده بهذا المعنى وأنّ مصر في خطر. وتقرر إجلاء ألف إلى ألف ومائتي جريح فرنسي عن طريق طنطورة بحراً باتجاه دمياط. وكانت كل فرقة مسؤولة عن جرحاها. وأمرت الحامية الفرنسيّة بقيادة جينو عند نهر الأردن بإتلاف مستودعاتها في طبرية وبالانسحاب إلى صفورية في ١٩ أيار/مايو لتلتقي بالحملة المتراجعة على طريق عكا ــ يافا. وأتلف الفرنسيون مدفعيتهم الثقيلة التي تعيق انسحابهم وهدموا الأقنية التي تزوّد عكا بالماء. وعلّق أحد ضباط الحملة الفرنسية على ذلك بقوله: «هذه الأقنية القديمة ذات البناء القوي تستحق الاحترام». وفيما الاستعدادات للانسحاب قائمة فوجىء الفرنسيون بهجومين عليهم من عكا ولكنهما صُدّا.

وهكذا بعد حصار دام أربعة وستين يوماً انسحب الفرنسيون من عكا ليلة ٢٠ أيار/مايو دون أن يلحق بهم أعداؤهم الذين أُنهكوا بدورهم. وقامت فرقة كليبر وفرقة الفرسان بحماية المؤخّرة والدفاع عن الخنادق الفرنسية إلى أن تم الانسحاب فغادرتا وهدمتا الجسور على نهر كيسون. وخلّف الفرنسيون وراءهم في حيفا حوالي مئة من الجرحى والمرضى، وتركوا جرحى آخرين في طنطورة، وتوفي الجنرال بون الذي سبق أن أصيب بجروح في عتليت، وأتلفت مدفعية وذخائر أخرى لتعذّر وجود دوابّ كافية لنقلها. وقد صودرت خيول الجند الفرنسيين لنقل المرضى. وفي ٢٣ أيار/مايو وصل الفرنسيون المنسحبون إلى قيسارية حيث أتلفوا قسماً آخر من المدفعية. وحاول البدو والنابلسيون مهاجمة الحملة فبطشت بهم وأحرقت قراهم. وفي ٢٤ أيار/مايو وصل الفرنسيون إلى يافا حيث أقاموا أربعة أيام أتلفوا خلالها تحصيناتهم ومستودعاتهم. وكانت نصف حامية يافا قد ماتت بالطاعون. وكان بانتظارهم ألف جريح ومصاب بالطاعون نقل منهم ثلاثمائة فقط بطريق البحر، والذين لم يمكن نقلهم بسبب شدة مرضهم أماتوهم بالسمّ. وفرض الفرنسيون على سكان يافا غرامة قدرها ١٧٤,١٠٧ ليرات (لا يذكر نوعها ولكنها يجب أن تكون ذهبية) حصلوا منها على ٨٥,٦٠٨ ليرات فقط وأخذوا الرهائن حتى يُدفع بقية المبلغ. وهدموا تحصينات المدينة وأحرقوا المراكب في مينائها.

وقد غادر الجيش الفرنسي يافا في ٢٨ أيار/مايو وتخلف كليبر الذي يحمي المؤخرة يوماً آخر فيها. ووصل الجيش غزة في ٣٠ منه. وكان الفرسان الفرنسيون الذين يحمون الانسحاب ينهبون ويحرقون القرى التي تهاجمهم. وفي غزة توقفوا يومين وفرضوا على سكانها غرامة مالية، وخلّفوا فيها عدداً من المرضى والمصابين بالطاعون الذين لم يقووا على متابعة السير وجعلوهم بعهدة أعيان المدينة بعد أن أخذوا منهم الرهائن. وغادروا غزة في ١ حزيران/يونيو[١٢٧] ووصلوا يومها إلى خان يونس، وفي اليوم التالي غادروها إلى العريش فوصلوها في ٥ حزيران/يونيو. وتركوا فيها جرحى ومرضى في حالة سيئة ودعموا حاميتها. ثم غادروها إلى قطية التي وصلوها في ٧ حزيران/يونيو. وبقي كليبر في قطية

ليذهب منها إلى دمياط فيما تابع بقية الجيش طريقه إلى الصالحية وبلبيس ووصل نابليون إلى القاهرة في ١٠ محرم ١٢١٤هـ / ١٤ حزيران/يونيو ١٧٩٩م. وهكذا دامت الحملة منذ خروجها من القاهرة وحتى عودتها إليها قرابة أربعة أشهر ونصف بقيت فيها في فلسطين حوالي ثلاثة أشهر ونصف الشهر. ويصف الجبرتي عودة الجيش الفرنسي بقوله: «وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت أبدانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب ولم يظفروا بمقصودهم من أحمد باشا ولله الحمد»(١٢٨).

أما عن خسائر الفرنسيين البشرية في حملة بلاد الشام فقد قدّرها أحد ضباط جيش نابليون كالتالي: عدد القتلى والمتوفين ٤,٤٠٠، منهم قتلى ومتوفون بسبب جروحهم ٣,٩٢٠، ومتوفون بالطاعون ٤٨٠. أما عدد الجرحى الذين أخرجوا من القتال فكان ٢,١٥٠. وعلى هذا يكون مجموع الإصابات ٦,٥٥٠، وقد سبق القول ان مجموع أفراد الحملة عند بدايتها بلغ ١٢,٩٤٥. وتكون نسبة القتلى والمتوفين حوالي الثلث ونسبة الإصابات عموماً حوالي النصف.

وقد أعطى بعض الكتّاب للحملة الفرنسية تفسيرات مبالغاً فيها من حيث انها أيقظت العالم العربي من سباته، أو أنها كانت بداية عصر النهضة العربية. ومما لا شك فيه أن الحملة نبهت العرب إلى مخاطر أوروبا، وتعد بحق بداية مدّ استعماري في المنطقة في أعقاب الثورة الصناعية في أوروبا. كما أنها أثارت العداء بين بريطانيا وفرنسا في المنطقة، والذي استمر بعد ذلك. وقد نظر بعض المؤرخين الأوروبيين إلى الحملة على فلسطين من حيث أهدافها المعلنة، بأنها أدّت هدفها الأساسي وهو القضاء على الجيش العثماني في منطقة الناصرة ــ طبرية قبل أن يمكنه التوجّه إلى مصر لقتال الفرنسيين فيها. ورأى البعض الآخر في الحملة فشلاً ذريعاً لأنها لم تستطع احتلال عكا واضطرت إلى العودة إلى مصر.

الفصل الثاني
بلدانية فلسطين التاريخية

تعرضت بلدانية فلسطين، وما يرتبط بها من بنى اجتماعية واقتصادية، وما يترتّب على ذلك أيضاً من تطورات سياسية، إلى تبدلات هامة خلال القرون الثلاثة الأُولى من الحكم العثماني. فمراكز المدن وما يلحق بها من قرى معروفة عبر التاريخ ما زالت قائمة، سواء كانت معمورة أم خربة، لأهمية مواقعها من ناحية، وللوظائف المختلفة التي تقوم بها من ناحية أُخرى. ولكن تطورات هامة لحقت بها من حيث تطورها أو انحسار أهميتها متأثرة في ذلك بالدور المطلوب منها. فمدن الداخل ذات الأهمية الدينية ظلّت لها أهميتها الدينية بحكم بقاء وظائفها. والمدن الواقعة على خطوط المواصلات البرية والقوافل التجارية، وبخاصة بين الشمال والجنوب، بين الشام ومصر، احتفظت أيضاً بأهميتها ما دامت طرق القوافل ناشطة وآمنة. أما مدن الساحل التي تتأثر بالعلاقات مع الخارج فقد أصابها الكثير من التبدل بسبب تحوّل الاهتمام من تجارة البحر الأبيض المتوسط إلى تجارة المحيطات منذ الاكتشافات الجغرافية في القرنين التاسع والعاشر للهجرة / الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، وما ترتب على ذلك من فقدان أهمية الدول المطلّة على المتوسط لصالح الدول المطلة على المحيطات. ولم تنتعش تجارة فلسطين الخارجية، وبالتالي موانئها، إلاّ عندما أخذت البورجوازية التجارية الفرنسية، منذ عهد كولبير، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، توليها الاهتمام. وتطور ذلك الاهتمام في عهد ظاهر العمر، في القرن التالي، إلى نشاط تجاري وسياسي لموانىء فلسطين.

ويهدف هذا الفصل إلى تتبع تطورات بلدانية فلسطين من خلال أوصاف الرحالة المتعاقبين لها. ولهذه التطورات أهميتها الكبرى في التعريف بالأوضاع العمرانية لفلسطين وما يرتبط بها من فعاليات بشرية واقتصادية واجتماعية. وتعتمد هذه الدراسة على أوصاف متعددة لفلسطين قام بها، خلال هذه القرون الثلاثة، أشخاص متعدّدون، من عرب وأجانب، نظر كل منهم إليها من وجهة خاصة هي نتاج بنيته الاجتماعية والثقافية التي جعلته يرى أشياء ولا يرى أخرى. وتطورت هذه الأوصاف، إيجاباً أو سلباً، لا بتطوّر فلسطين، موضوع الوصف، فحسب، وإنما بتطور المجتمعات التي انتسب إليها هؤلاء الرحالة والتي انعكست من خلال كتاباتهم. ومن هنا غنى المعلومات التي قدّموها والتي تشكّل تكاملاً في النظرة يفيد في إغناء البحث. ولا يستنفد هذا البحث جميع الرحلات إلى فلسطين في القرون الثلاثة الأُولى من العصر الحديث لصعوبة الحصول عليها بكاملها(١)، وإنما يعتمد نماذج معبرة وهامة منها، باللغات الأجنبية والعربية، تُلقي أضواء كاشفة على بلدانية فلسطين التاريخية.

لم ينقطع الرحالة الأوروبيون، ومعظمهم من الراغبين بالحج إلى الأماكن المقدسة، عن زيارة فلسطين، والمشرق العربي بعامة، بالرغم من ظهور مارتن لوثر Martin Luther وحركته البروتستانتية ومعارضته للحج المسيحي. وفي الواقع ازداد عدد الكاثوليك الألمان الراغبين بزيارة القدس في القرن السادس عشر كردّ فعل على موقفه، كما يذكر الباحث يراسيموس Yerasimos الذي نعتمد على بحثه في تقصّي رحلات الأوروبيين إلى فلسطين في القرن السادس عشر(٢). ولم يؤثّر على حركة الحج هذه احتلال العثمانيين لجزيرة رودس في ١٥٢٢م وقبرص في ١٥٧١م ولا فقدان البندقية لأهميتها وهي التي كانت سفنها تنقل الحجاج.

ونبدأ بوصف لفلسطين من أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، أي أواخر العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني فيها، لراهب إيطالي فرنسيسكاني يدعى فرنسيسكو سريانو Francisco Suriano (٣)، وقد عاش في القدس بين عامي ١٤٩٣ و١٥١٥م، بعد إقامة سابقة فيها بين عامي ١٤٨١ و١٤٨٤م. ويذكر هذا الراهب أنه قبل أن يلتحق بالرهبانية الفرنسيسكانية في عام ١٤٧٥ زار فلسطين ما لا يقل عن ست عشرة مرة كانت أولها في عام ١٤٦٢. وكان يركب على سفينة عمه التجارية التي تعمل بين إيطاليا والمشرق. وكتابه عبارة عن أجوبة على أسئلة إحدى الراهبات في إيطاليا في عام ١٤٨٤م. وقد وضع هذا الراهب المسودة الأولى لكتابه في عام ١٤٨٥م ثم أصدر مسودة ثانية في عام ١٥١٤م، وثالثة في عام ١٥٢٤م، وهي التي طبعت بالإيطالية في البندقية في ذلك العام، وعنها ترجمت النسخة الإنكليزية(٤).

وصف سريانو قيام «قرية» يافا على بعد ميل من مدينة يافا القديمة، وذكر أنّ سكّانها يتألفون من حوالي مائة بيت(٥) (في نسخة أُخرى للكتاب يصبح الرقم حوالي ثمانين بيتاً)، وأنهم محاربون أشدّاء. ووصف وفرة محاصيل منطقة يافا بالحبوب والذرة والقطن والبطيخ والفواكه، وذكر أن طول السهل الساحلي الممتد من رمال البحر إلى الجبال في الداخل حوالي ١٦١ كم(*) وعرضه حوالي ٣٢ كم. ولخصوبة تربته يمكن زراعته مرتين في العام. أما التلال والجبال الممتدة وراء السهل فهي مغطاة بأشجار الزيتون، وبخاصة منها مناطق الجليل والسامرة.

ويذكر سريانو أن قرية الرملة تبعد عن الشاطىء مسافة ١٠ كم تقريباً، وتتخلل هذه المسافة عدة قرى تتموّن بخضارها من الرملة بسبب جفاف أرضها وقلّة مياهها، كما تتموّن غزة والقدس بالفواكه من الرملة. ويصف الرملة أنها مستديرة الشكل يبلغ محيطها حوالي ٥ كم، ولا توجد لها أسوار، وهي بمعظمها متهدّمة وقليلة السكان، وبيوتها مبنية بأكثريتها من الطين المقوّى بالتبن، ويقول انه يمكن اختيار واحد من ثلاثة طرق بين الرملة والقدس (لم يُسمِّها)، جميعها جبلية ومُرهِقة ولا يتوفر فيها الماء أو الطعام للمسافر بالرغم من وجود الأشجار وبخاصة في الأودية. وعلى بعد حَوالي ٨ كم من الرملة، على طريق القدس، توجد كروم عنب وزيتون وتين وفواكه وأشجار أخرى معتنى بها وتكفي لحاجة سكانها.

ويصف سريانو المنطقة بين القدس وأريحا بأنها قاحلة وينطبق ذلك على المناطق الممتدة من القدس لمسافة ٣٢ كم تقريباً حولها، باستثناء الكيلومترات العشرة الأولى حول القدس حيث توجد أودية تغص بالكروم الخصبة التي تموّن بثمارها بشكل عادي المنطقة الممتدة لمساحة ثمانين كيلومتراً منها(٦). ويصف أريحا بأنها غدت قرية تضم في زمنه مائة بيت. ثم يقدّر المسافة بين القدس والخليل بثلاثين كيلومتراً تقريباً. ويذكر قرية سعير على بعد حوالي ستة عشر كيلومتراً من الخليل، ويقول إن المنطقة توجد فيها حيوانات للصيد.

ويقول عن نابلس ان طولها يزيد على الميل وعرضها نصف ميل وهو ما يعادل رمية قوس، وانها جميلة ممتلئة بالبساتين والفواكه بسبب كثرة المياه فيها. وقبل الوصول إلى نابلس بخمسة كيلومترات على الطريق من القدس يذكر قرية عَوَرتا إلى الجانب الأيمن. ونقدّر المسافة بين القدس ونابلس بستين كيلومتراً. ويقول عن جبل جرزيم ان ثلاثمائة نبع منه تشكّل نهراً يخترق نابلس ويسقي بساتينها ومزروعاتها ويضيف أن ذلك الجبل مغطّى بالكرمة والأشجار المثمرة التي تسر الناظر بخضرتها(٧).

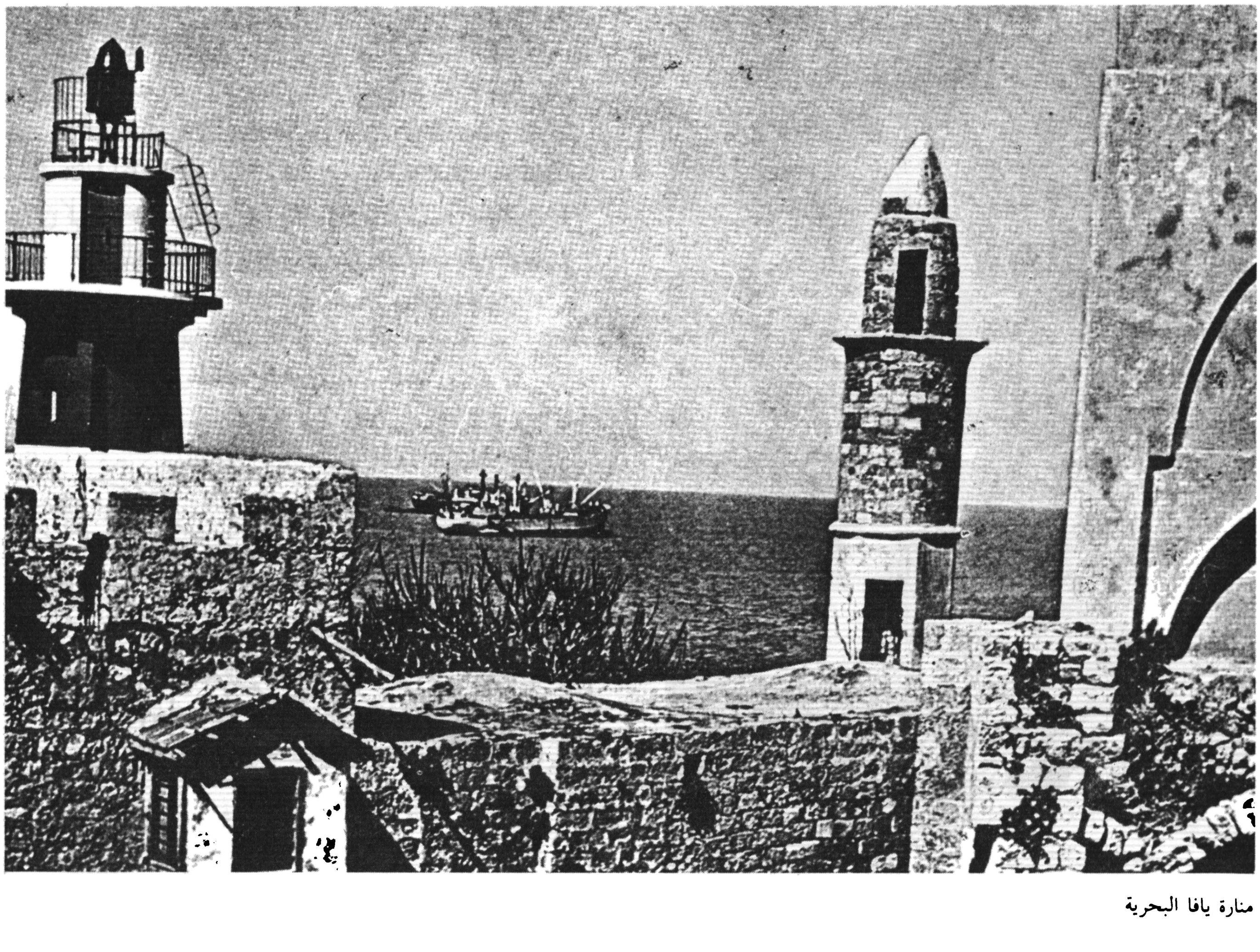
ويذكر الراهب الفرنسيسكاني أنّ نابلس تبعد عن سبسطية مقدار عشرة كيلومترات وعن الناصرة خمسين كيلومتراً، وأن سبسطية قد أصابها التهديم ولم يبقَ أثر لسورها. ويقدّر سكانها بعشرة بيوت. والملاحظ أن الكاتب ذا الثقافة الدينية يقارن حاضر هذه المدن بماضيها العريق، لذا يراها خربة بدليل الآثار الشاهدة على عظمتها. وهكذا يصف جنين بأنها صغرت وتضم خمسين بيتاً فقط. في حين يقول ان بلدة النعيم (نين) التي تقع على سفح

(*) استعمل معظم الرحالة الوارد ذكرهم في هذا الفصل الأميال. وقد قمنا بتحويلها إلى الكيلومترات توحيداً لقياس الأطوال في الموسوعة كلها.

جبل وتبعد ثمانية كيلومترات عن جبل طابور تغصّ بالسكان وتحيط بها أشجار الزيتون. ويذكر أن قانا الجليل (كفر كنّا) تبعد أحد عشر كيلومتراً عن الناصرة، وتقع في السهل وأنها مجرد قرية[٨].

ويقول عن جبل طابور انه يقع في وسط سهل، ويبعد أحد عشر كيلومتراً عن الناصرة. وتوجد قرية عند سفحه، قرب الطريق الرئيسي المؤدي إلى دمشق، تسمى دبورية. أما الناصرة فيصفها بأنها تقع على مرتفع جبلي وتضم ثمانين بيتاً. وتبعد أربعة وعشرين كيلومتراً عن المتوسط وثلاثة عشر كيلومتراً عن بحيرة طبرية، ويصف صفد بأنها تبعد أربعة وعشرين كيلومتراً عن الناصرة، وهي حصينة بموقعها الجبلي، وتبعد أحد عشر كيلومتراً عن بحيرة طبرية ومسيرة يوم عن البحر المتوسط، وهي تشرف وتسيطر على المنطقة المحيطة بها[٩].

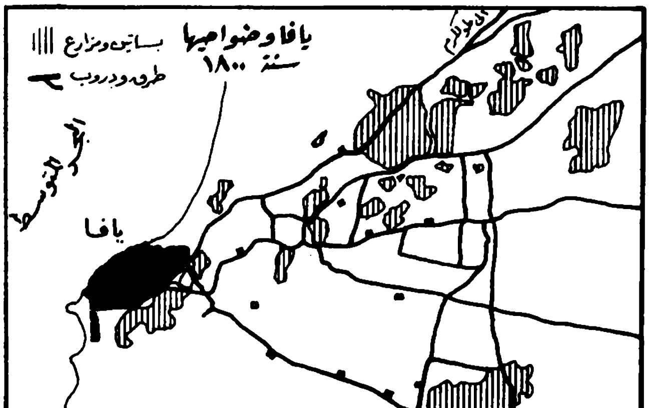
وبالنسبة لعكا يذكر سريانو أن محيطها خمسة كيلومترات، وأنها تبعد ٣٢ كم عن صور. وشكلها مثلث يقابل طرفاه البحر ويواجه الثالث اليابسة. وقد أقيمت فيها ثلاثة أسوار لتحصينها من طرف البر سماكتها رمية سهم، وتحيط بها خنادق منحدرة مبنية من الحجارة، وتتوسطها أبراج قوية التحصين يبعد الواحد منها عن الآخر أربعين خطوة. ويصف اسدود بأنها قرية صغيرة غير بعيدة عن المتوسط، بين عسقلان ويافا، ويشير كذلك إلى يبنة المبنية على تلة قرب الرملة. ويتحدث عن بناء مدن الساحل من اللبن المصنوع من الطين والتبن وكيف أنه شهد بنفسه في مدينة غزة في شتاء ١٤٧٠م حدوث أمطار غزيرة أدت إلى انهيار نصف بيوتها. ولاحظ أن البيوت التي لم تتهدم نما العشب في شقوقها وعلى جدرانها بفعل الحبوب الباقية في التبن. ويشبّه حجم مدينة غزة بحجم مدينة بيروجيا الإيطالية، ويصفها بأنها غنية ممتلئة بالسكان لكونها تقع على طرق المواصلات وتتوقف فيها جميع القوافل المتجهة إلى مصر والحجاز. وتتمون هذه القوافل بالحبوب التي تفيض بها غزة، ويقدّر المسافة بين غزة والقدس بأنها مسيرة



منارة يافا البحرية

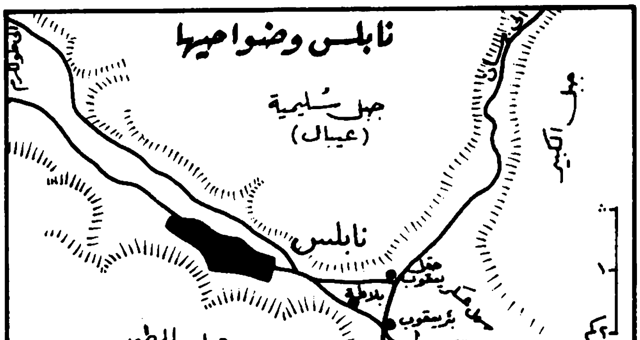
يومين في طرق وعرة وسيئة. ويقول ان فلسطين تبدأ بغزة، والمسافر منها إلى مصر يتموّن فيها بالمؤن لأنها آخر مدينة قبل دخول الصحراء، والمسافة بينها وبين قطية مسيرة خمسة أيام(١٠).

وينهي الراهب الفرنسيسكاني وصفه لفلسطين بذكر منتجاتها فيقول: يوجد فيها السمسم الذي لا يُعْرَفُ في إيطاليا، والرز الذي يفوق بجودته إنتاج بلاده، فضلاً عن أشجار الكرمة الكثيرة. ويصف عنقوداً من العنب يحمله شخصان ويزن حوالي ١٥ كغ. ولكنه يقول ان وسطيّ وزن العنقود كيلوغرام ونصف. ويصنع الزبيب بكثرة من العنب. ويذكر أن شجرة الخروب بحجم شجرة السنديان. ثم يتحدث عن شجر الموز والفستق الحلبي وأنواع التين وقصب السكر والقطن والمشمش واللوز. ويذكر وجود الأسود والفهود والقرود وبنات آوى والزرافى والنعامات، ويقول ان العرب يدجّنون الأسود. ويصف الغزلان أنها بدون قرون، ظهورها حمراء وبطونها بيضاء، وذات ذنب قصير وعيون جميلة. ويقول ان الماعز تعطي من الحليب أربعة أضعاف ما تعطيه الماعز في بلاده. وينوّه بجودة الحليب واستمراره أياماً دون أن يفسد، وأنه هو نفسه حمل الحليب في قربة لمدة شهر وهو في رحلة وشرب منه كل يوم وبقي ممتازاً حتى اليوم الأخير بسبب جودة المراعي. ويشيد بخصب الأرض حتى ولو كانت غير مروية، ويقول انه شاهد بستاناً في بيت لحم زرعت فيه الفاصولياء فالقسم المروي لم يعطِ ثمراً والذي لم يُروَ أعطى مائة ضعف. ويقول عن البطيخ انه ممتاز لأنه بدون سقاية. ومن النباتات التي توجد في فلسطين ولم يرها في إيطاليا الباذنجان وجوز الهند وقصب السكر(١١).



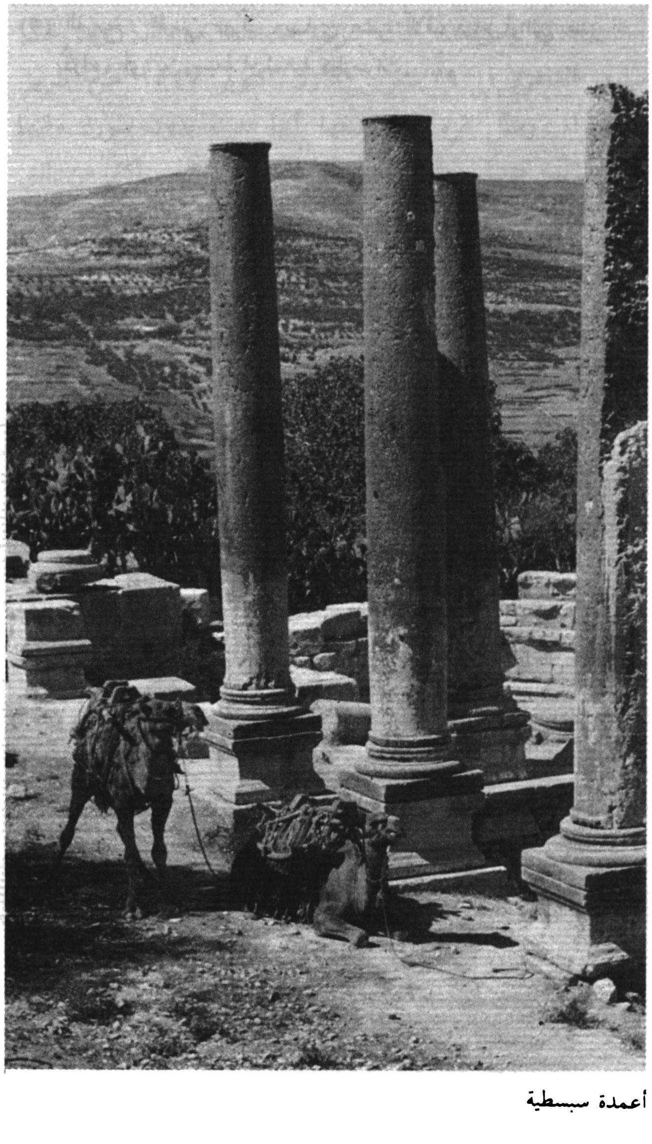
إن هذه الصورة الواقعية لطبيعة فلسطين في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر من زائر خبر المنطقة عبر سنين إنما تنطلق عن موضوعية وتثبت أن خصوبة الأرض وجهد الإنسان متلازمان. وتشكّل هذه الصورة بداية مفيدة في مطلع دراستنا تقاس على أساسها التطورات البلدانية اللاحقة سلباً أو إيجاباً.

وتتتالى رحلات الأوروبيين بشكل سنوي تقريباً في القرن السادس عشر الميلادي. ولم يمنع القتال بين المماليك والعثمانيين وانتصار هؤلاء الأخيرين في ١٥١٦ ــ ١٥١٧م قدوم الرحّالة إلى فلسطين فقد زارها في صيف عام ١٥١٧م الألماني برنهارد فون هيرشفيلد Bernhard von Hirschfeld وهو نبيل من سكسونيا في خدمة حاكمها، وكان ضمن مجموعة من الزوّار الأوروبيين الذين كانوا يصلونها، منذ منتصف القرن الرابع عشر للميلاد، على متن سفينة تغادر البندقية في شهر حزيران/يونيو لمرة واحدة كل عام إلى فلسطين وغيرها من بلدان المشرق. وصل فون هيرشفيلد إلى يافا في ١٢ تموز/يوليو وذكر أن هذه المدينة مهجورة لا يوجد فيها سوى حارسين يرصدان من برجين مراكب الأعداء. وقد تكون إشارة فون هيرشفيلد هنا إلى مدينة يافا بموقعها القديم لا إلى الموقع الجديد لقرية يافا على بعد ميل منها والذي كان فيه في حوالي تلك الفترة من ثمانين إلى مائة بيت كما ذكر سريانو. ثم يصف الرملة بأنها كبيرة ولكنها خربة. ولا يضيف هذا الزائر أو غيره من الزائرين في تلك السنة معلومات عن مناطق أخرى ربما لأن المدة التي يقضونها في فلسطين، حسب أنظمة الرحلة، لا تتجاوز الأسبوعين أو الثلاثة(١٢). ويؤكد تاجر حرير فرنسي وصل يافا في رحلة مشابهة في ٢٧ تموز/يوليو ١٥١٨م أنه لا يوجد فيها ولا يسكنها أحد باستثناء عشرة أفراد يقومون بالحراسة في برجين ولديهم مدافع. وعلى بعد خمسة كيلومترات وجد ضيعة صغيرة متهدمة، ثم يصف الخراب في القدس أيضاً(١٣).



وربما تدل هذه الأوصاف ليس على خراب مطلق وإنما على نظرة هؤلاء الرحالة الحجّاج الذين نظروا إلى كل شيء بمنظار الأمجاد القديمة لفلسطين التي قرأوا عنها في الكتب.

ويزور فلسطين في عام ١٥١٩ ثمانية أشخاص سجلوا ملاحظاتهم عنها، هم إسبانيان وثلاثة سويسريين وفلامنكيان وألماني. ويذكر أحد الإسبانيين أن سكان القدس ألفان. ويقول الإسباني الآخر الذي كان يرافقه انهم ثلاثة آلاف. ويدلنا هذا على اختلاف التقديرات حتى من قبل شخصين مترافقين. ودهش أحد السويسريين للصفة العالمية للقدس حيث يتكلم الناس سبع لغات وتتجاور أماكن العبادة للديانات الثلاث. ولعلّ هذه الملاحظة من قبل السويسري حول التعددية الدينية والتعايش في الشرق تعكس ما كان يجري في سويسرا وغيرها من دول أوروبا



أعمدة سبسطية

آنذاك من نزاع بين البروتستانتية الناشئة والكاثوليكية المسيطرة. ويؤكد حيوية القدس رحالة ألماني زارها في ١٥٢٠م ووصف نشاط المدينة وأسواقها وحياتها اليومية[١٤].

وعلى خلاف هؤلاء الرحالة المقلّين في أوصافهم والذين دخلوا فلسطين من يافا يفد إلى فلسطين في عام ١٥٢٥م برتغالي هو أنطونيو تنريرو Antonio Tennreyro قادماً من جزر الهند البرتغالية في سفارة لدى الشاه إسماعيل الصفوي. وبعد وفاة الشاه (١٥٢٤م) غادر تنريرو تبريز إلى حلب في ربيع ١٥٢٥م، ثمّ مرّ بدمشق التي قدّر سكانها بين سبعة إلى ثمانية آلاف نسمة. واجتاز نهر الأردن عند جسر بنات يعقوب، وهو المعبر الرئيسي إلى فلسطين، ويصف صفد أنه يسكنها ألف نسمة من العرب واليهود الإسبان وجميعهم فقراء. ويقول إن المدينة بدون أسوار ولكن فيها قلعة مهدّمة جزئياً ويسكنها حاكم تركي. ثم ينتقل إلى وصف رام الله بأنها ذات أسوار حديثة وسكانها من العرب، وتحيط بها أشجار النخيل. ويتحاشى، بشكل غريب، زيارة القدس ليذهب مباشرة إلى غزة. وربما السبب أنه كان متنكراً على أنه مسلم. ويصف حسن عمران غزة واكتظاظها بالبضائع وإحاطتها بحقول خصبة ومنها يتابع سفره إلى القاهرة[١٥].

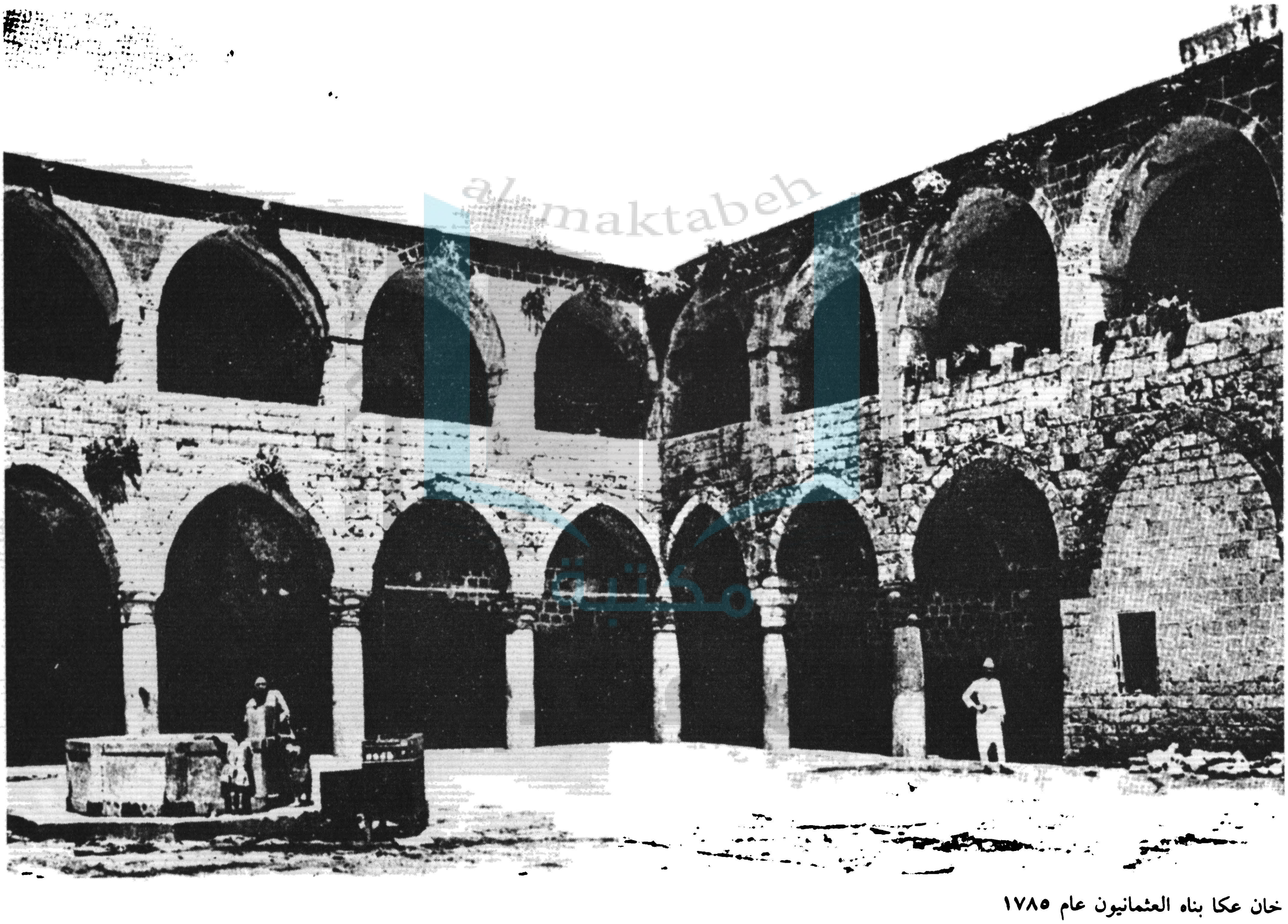
وتتحسن صورة الرملة في كتابات الأب الفرنسيسكاني نويه بيانكو Noé Bianco الذي وصل يافا في ١٤ آب/اغسطس ١٥٢٧م والرملة في ١٦ منه. وقد أمضى فيها أسبوعاً لانقطاع الطريق بينها وبين القدس بسبب القتال بين البدو والأتراك. وبعد أن يعقد مقارنة بين مجد الرملة الغابر وما حلّ بها من خراب آنذاك، يصفها بأنها مكتظة بالسكان وأن بيوتها مبنيّة من الطين والتبن مما يجعلها تتهدم بسهولة بتأثير الأمطار وهذا ما يفسر كثرة الخرائب فيها. ويشير الأب نويه إلى عدة أسواق في المدينة ممتلئة بالدكاكين الجميلة جداً. وحين يصل إلى القدس يصف أسواقها الجميلة المقببة والمبنية من الحجارة. ولكن أسوارها مهدمة. ويصف بيت لحم بأنها قرية بائسة يسكنها مائة نسمة، ويسكن قرية بيت عنيا، وهي العيزرية، سبعون نسمة، ويسكن أريحا مائتا نسمة، ولا تتجاوز الناصرة المائة نسمة. ويعلّق الباحث يراسيموس، الذي يصف هذه الرحلات، بأنّ هذه المعلومات تدل على أن الرحالة، بالرغم من انعدام الأمن على الطرق، قد وسّعوا دائرة زياراتهم خارج القدس[١٦].

ومن الأوصاف الهامة لفلسطين في عام ١٥٣٠م، ما كتبه الفرنسيسكاني الإسباني أنطونيو دي أراندا Antonio de Aranda الذي سكن في دير على جبل صهيون في القدس وقدّر سكان

المدينة بأربعة آلاف نسمة، ويقول انه كان يمكن أن يكونوا أكثر من ذلك بدليل الأماكن الخربة والتي تعادل ثلث مساحة المدينة. ويقدّر أن ألفاً منهم مسيحيون وخمسمائة يهود والبقية عرب مسلمون. أما الأتراك فقلة. ويضيف أن اليهود مكروهون من الأتراك والعرب، وأن المسيحيين لا تساء معاملتهم. ويذكر أن نابلس تعدّ ألفين من السكان(١٧).

وهناك رحلة عن زيارة فلسطين من الجنوب، عبر غزة، قام بها الفرنسي غريفين أفاغار Greffin Affagart في عام ١٥٣٣م. وقد وصل غزة في ١٢ تشرين الأول/اكتوبر قادماً من مصر، عن طريق قطية. ويصف غزة بأنها أكبر من القدس ولكن سكانها قليلون ولا أسوار لها. ومنطقتها جميلة وخصبة ولكنها يعيث بها البدو. ويساير الساحل حتى الرملة التي يصفها بأنها جميلة وتقع في سهل خصب ينتج القمح والزيتون وقصب السكر والتين والكرمة والبرتقال واللوز والرز. ولا يصنع أهلها الخمر الذي لا يجرُؤون على تعاطيه. ويقول انهم يربون في المنطقة الدجاج والماعز. ويصل القدس في ١٥ تشرين الأول/اكتوبر ويبقى فيها حتى أول شباط/فبراير ١٥٣٤م. وعوضاً عن وصفها يذكر أن حاكم القدس يتقاضى مبلغاً من المال من كل حاجّ يريد أن يلتحق بالقافلة التي ينظمها لزيارة نهر الأردن. ويقول ان الحاكم يبتز الحجاج بإخافتهم من مخاطر الطريق فيما لو ذهبوا بأنفسهم. ولم يذهب معه، بل ذهب إلى بيت لحم ومنها إلى الأردن بمبلغ أقل. ثم يعود إلى مصر وينتقل بحراً من دمياط إلى طرابلس الشام فبيروت ودمشق ومنها يعود إلى القدس. ثم يسافر منها إلى دمشق ويصف مراحل الطريق فيذكر البيرة التي يقول انها قرية تبعد عن القدس ثلاثة فراسخ* (حوالي ١٥ كم) وقرية اللّبَن. وفي اليوم التالي يصل نابلس ويصفها بأنها مدينة صغيرة وجميلة جداً تقع في وادٍ جميل تملأه أشجار الفواكه. ويصل في اليوم الرابع إلى الناصرة

(*) الفرسخ: فارسيّ معرّب ويساوي عشرة آلاف ذراع أو اثني عشر ألف ذراع، أي بين سبعة أو ثمانية كيلومترات.



خان عكا بناه العثمانيون عام ١٧٨٥

التي يصفها بأنها خربة وبدون أسوار وفيها حوالي مائة بيت وتتلوها قانا الجليل (كفر كنا) وهي قرية صغيرة وخربة. ويصل في اليوم الخامس إلى جسر بنات يعقوب حيث يوجد خان في الطرف الآخر للجسر كما يقول. ويصل دمشق في اليوم السابع[١٨].

ويصف مصدر يهودي، مجهول المؤلف، في عام ١٥٣٧م إنجازات السلطان سليمان القانوني في القدس والتي تضمنت بناء سور المدينة وبرك للماء داخلها وخارجها. ويذكر ثلاث برك عند المسجد الأقصى، واحدة قرب باب السلسلة وأخرى عند باب القطّانين وثالثة عند «باب الربط (؟)». ويقول ان المياه متوفرة للسكان وحيواناتهم[١٩].

ويزور فلسطين في الأربعينات من القرن السادس عشر عدد من الفرنسيين بينهم عالم النبات بيير بيلون Pierre Belon وسفير ملك فرنسا لدى استانبول الفارس دارامون Le Chevalier D'Aramon ومساعده جان شزنو Jean Chesneau. وقد غادر بيلون القاهرة في ٢٩ تشرين الأول/اكتوبر ١٥٤٧ عن طريق الصحراء ووصل غزة التي يصفها بأنها مدينة بدون سور، وفيها قلعة مربعة قديمة. ويقول عن الرملة انها لا تضم أكثر من اثني عشر بيتاً. أما القدس التي وصلها في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر فيقول عنها انه أصبح لها منذ فترة قريبة أسوار عالية جديدة ولكنها ضعيفة البنية. والبيوت فيها مغطاة بشرفات على الأسطح. والمخازن في الأسواق الرئيسية مقببة كالإسكندرية مع فارق أن قبب القدس مبنية من حجارة منحوتة، كما أن الأسواق فيها مقببة. وفي طريقه من القدس إلى دمشق يمر بيلون بنابلس والناصرة التي يصفها بأنها قرية صغيرة يسكنها عرب، ثم يمر ببحيرة طبرية[٢٠].

أما السفير دارامون ومساعده شزنو فيتوجهان من استانبول في ربيع عام ١٥٤٩م لمتابعة حملة السلطان سليمان القانوني في بلاد فارس. ويتوقف جيش السلطان في حلب بعد عودته من تبريز فيذهب دارامون ومساعده وفرنسي ثالث لزيارة فلسطين عن طريق دمشق التي يصلها في ٨ تموز/يوليو من العام نفسه. وقد وصف شزنو رحلته هذه مع السفير دارامون في كتاب خاص[٢١] جاء فيه أنهم بعد أربعة أيام من مغادرتهم دمشق وصلوا إلى جسر بنات يعقوب. وشاهدوا بعد ذلك، بالقرب من خان معدّ لإيواء المسافرين، جب يوسف، ويبدو أنّ الإشارة هنا إلى خان جب يوسف الذي يبعد عن جسر بنات يعقوب مسيرة ثلاث ساعات. ويبدو أنهم أمضوا ليلتهم في خان المنية على شاطىء بحيرة طبرية، ويشير شزنو إلى هذا الخان باسم المدينة القديمة التي كانت قائمة عنده بيت صيدا Bethsaida. وقاموا بزيارة الحمّامات المعدنية خارج مدينة طبرية، ويصفها شزنو بأنها أشد حرارة من أي شيء عرفه. ويصف طبرية بأنها خربة ويسكنها يهود. واتجهوا في اليوم التالي شمالاً إلى كفر ناحوم على طرف البحيرة ثم تحوّلوا باتجاه الجنوب بمحاذاة جبل طابور في طريقهم إلى الناصرة. ووصلوا بعدها إلى سبسطية ثم أمضوا ليلتهم في نابلس. ووصلوا القدس في ١٨ تموز/يوليو واستقبلوا رسمياً وشعبياً. ويذكر شزنو أن القدس محاطة بسور بناه الأتراك ولكن لا يوجد لها خندق. ويصف المدينة بأنها متوسطة الحجم وليست مكتظة بالسكان، وأن شوارعها ضيقة وغير مبلّطة ويصعب السير فيها بسبب مرتفعاتها. ويذكر وجود سوق أو اثنين لهما قباب ويعلّق على ذلك أنّ القباب في الماضي كانت تغطّي الشوارع وساحات البيوت. ويغادر دارامون وصحبه القدس في ٢٦ تموز/يوليو إلى بيت لحم التي يصفها شزنو بأنها قرية على جبل. ويتابعون سيرهم منها إلى الخليل ثم يعودون إلى القدس ويمضون فيها يومين ثم يسافرون إلى القاهرة بطريق الرملة وغزة. ويصف شزنو غزة بأنها مدينة صغيرة وخربة، ويستأنفون السير بعدها إلى قطية. وبعد زيارة مصر يعودون على الطريق ذاتها إلى القدس التي يصلونها في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٤٩م ومنها إلى دمشق فبيروت فاستانبول التي يصلونها في ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٥٥٠م[٢٢].

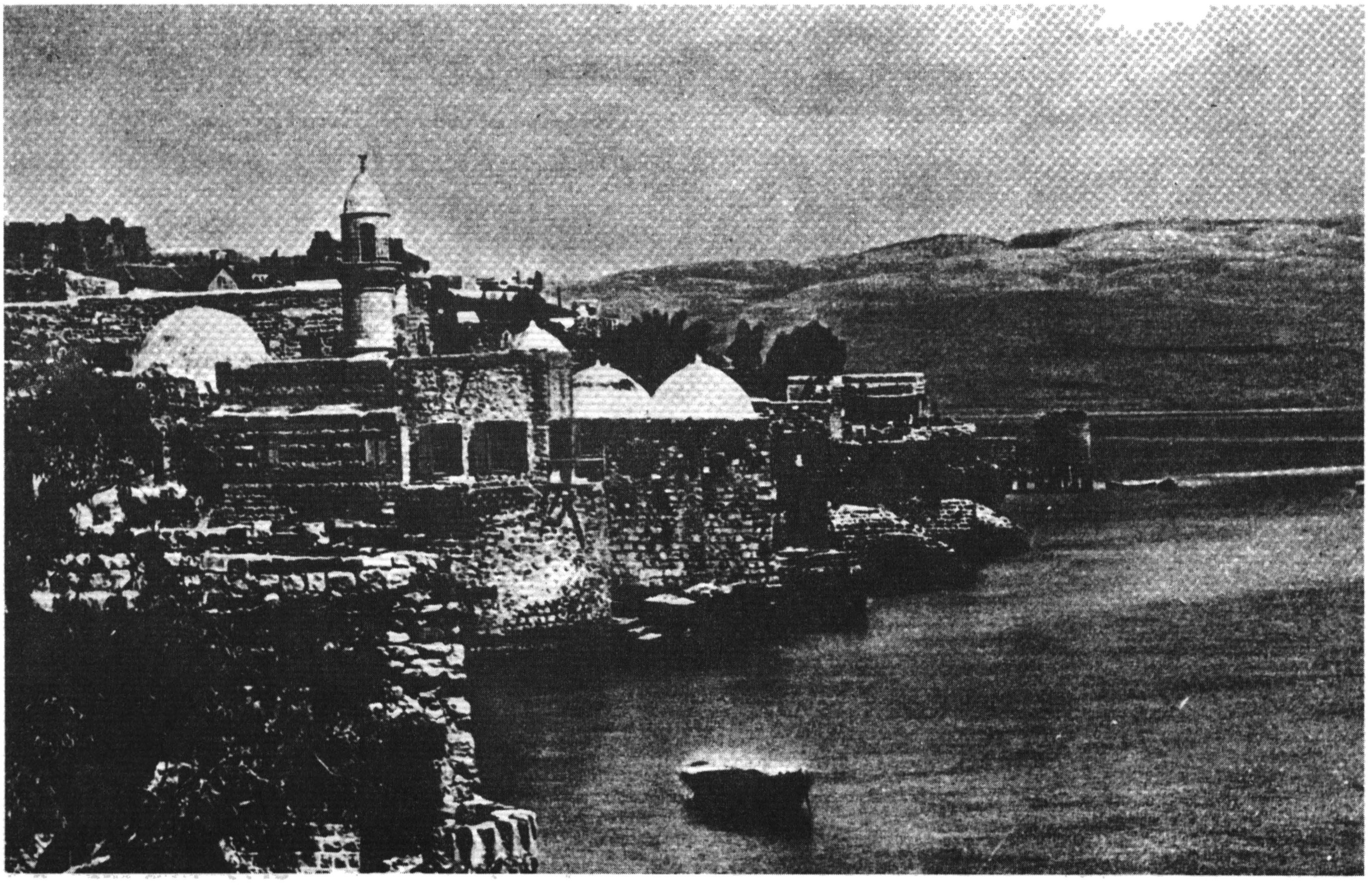
ويصف كاتب فرنسيسكاني اسمه اندريه تيفيه André Thévet مدينة غزة التي وصلها من مصر عبر سيناء في حوالي نيسان/ابريل ١٥٥٢م بأنها مدينة خربة بمعظمها ولها ميناء على بعد فرسخ منها (حوالي ٥ كم). ويسكن غزة مسيحيون روم أرثوذكس ويعاقبة. ويعمل سكانها بنسج الخام، وهم قساة. ولا يتضمن وصفه معلومات هامة عن زيارته للقدس وسفره منها إلى دمشق، كما يقول يراسيموس الذي يلخّص رحلته[٢٣]، ومن المهمّ أن نذكر أنه قطع المسافة بين القدس ودمشق في ستة أيام. ويفيد هذا في مقارنة المدة مع غيره من الرحالة على الطريق نفسه.

ويصف فرنسيسكاني اسباني مجهول الاسم مراحل زيارته بين دمشق والقدس بدقة وتفصيل كبيرين يفوقان وصف زميلين مرافقين له لهذه الطريق وذلك في صيف عام ١٥٥٣م. وبعد أن اجتازوا جسر بنات يعقوب يذكرون على بعد عشرة كيلومترات منه خان جب يوسف. ثم يمرّون شرقي صفد ويصلون خان المنية على شاطىء بحيرة طبرية حيث يمضون ليلتهم الثالثة منذ مغادرتهم دمشق. ويمرون في اليوم التالي بمسكنة (خربة غربي بحيرة طبرية) ويمضون ليلتهم الرابعة في كفر كنا. ويمرون في اليوم الخامس بقرية نيرين (لعلها الرينة) قبل أن يصلوا إلى الناصرة. وهنا يتوقفون

عن ذكر المسافات بالأيام والأماكن التي باتوا فيها ويقولون انهم مروا بعد الناصرة بعرّابة وقاقون وقلندية وخان الطيرة ثم جلجولية قبل أن يصلوا إلى القدس[٢٤]. ويلاحظ أنهم اتّبعوا الطريق التجارية الرئيسية بين دمشق والقاهرة المعروفة باسم Via Maris، وبالرّغم من أنهم (أو ربما يراسيموس الذي يلخّص رحلتهم) لم يذكروا مراحل سيرهم من جلجولية إلى القدس فإنّهم لا بدّ وقد اتبعوا الطريق الرئيسية بينها وبين الرملة، مروراً برأس العين واللّد، ثم تحوّلوا عن الطريق الرئيسية في الرملة ليسيروا على طريق يافا ــ الرملة ــ القدس.

وبعد أن زار الإسباني وأحد رفيقيه بيت لحم وأريحا ووصفاهما بأنّ نصفهما خراب، يعودان من القدس إلى دمشق عن طريق آخر فيمران بقرية بيرزيت وقرية اللّبّن قبل وصولهما إلى نابلس التي يصفانها بأنها خربة، ويمرّان بعد ذلك بجبل طابور في طريقهما إلى صفد. ويذكران أن صفد تضم من ثمانية إلى عشرة آلاف يهودي من أصول اسبانية وبرتغالية ومثل ذلك العدد من العرب والأتراك[٢٥].

وتفيدنا مثل هذه الأوصاف في معرفة الطرق التي كانت مسلوكة والقرى القائمة عليها، وبالتالي حدود العمران وما يرتبط به من زراعة واستقرار في فترة زمنية محددة. ولكن مدى الخراب في المدن وأعداد السكان فيها في أوصاف الرحّالة تثير كثيراً من التساؤلات حول مدى الدقة فيها ومقدار ما يعكس ذلك من صور زاهية لهذه المدن، في القديم، التي قرأ عنها الرحالة وإذ بهم يفاجأون بصور مختلفة حين زيارتهم لهذه المدن، ومن هنا الإحباط وبالتالي الصورة القاتمة التي رسموها لهذه المدن ثم المبالغات في أعداد السكان زيادة أو نقصاً وحتى انعداماً. مثالٌ على ذلك أعداد اليهود في صفد التي ذكرها الإسباني ورفيقه في صيف عام ١٥٥٣، وقدّراها بثمانية إلى عشرة آلاف يهودي من أصول إسبانية وبرتغالية، في حين أن الإحصاءات الرسمية العثمانية في دفاتر الطابو (الكلمة تركية وهي اختصار لتعبير طابو سندي، أي السَنَد أو الوثيقة التي تبين ملكية العقار والرسوم المترتبة عليه)، كما في سجل مفصل لصنجق صفد لعام ٩٦١هـ / ١٥٥٣ ــ ١٥٥٤م تذكر وجود ٧١٦ خانة من اليهود في صفد آنذاك[٢٦]، أي ما يعادل ٣٥٨٠ نسمة (على أساس أن متوسط الخانة المتعارف



حمامات طبرية المعدنية

عليه آنذاك هو خمسة أشخاص) يضاف إلى ذلك ستة وخمسون من العازبين (مجرد) فيصبح المجموع ٣,٦٣٦ يهودياً. وبالرغم من أن عدداً من الزائرين اليهود لصفد لم يلحظ في السجلات التي ذكرت فقط أولئك الذين يدفعون الضرائب فإن عدد الزائرين هؤلاء لا يمكن أن يرفع المجموع إلى ثمانية أو عشرة آلاف.

ومما يجدر ذكره في هذا المجال أن ألمانياً بروسياً هو لودفيغ فون راوتر Ludwig von Rauter زار صفد في ١٩ أيلول/سبتمبر ١٥٦٨ قادماً من دمشق وذكر أنه يسكنها حوالي ألفين من اليهود، ولهم ثمانية معابد. وقد أقام فيها عشرة أيام مما يدلّ على معرفته بالمدينة، الأمر الذي يدعو إلى الثقة أكثر بأرقامه. وقد غادر صفد في ٢٩ أيلول/سبتمبر متجهاً إلى القدس عبر ياقوق التي يذكر أن سكانها عرب وفيها جامع قديم، ثم مرّ بخان سنامة (سمنيّة) وبنابلس ووصل القدس في ٥ تشرين الأول/اكتوبر[٢٧]. وبمقارنة أرقامه بأرقام دفتر الطابو ــ سجل مفصل لصفد المذكور قبلاً يتبين أن أرقامه على تدنيها بالنسبة لأرقام هذا السجل تبقى أقرب إلى التواضع من أرقام الإسباني ورفيقه إلا إذا كانت صفد قد شهدت هجرة كبيرة من يهود إسبانيا والبرتغال (السفارديم) في تلك السنوات بدليل ما نقل عن دفتر طابو ــ سجل مفصل رقم ٣٠٠ لعام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥ ــ ١٥٥٦م من أن صفد وجد فيها آنذاك ١١٧٥ خانة من اليهود أي ما يعادل ٥٨٧٥ نسمة يتوزعون على عدد من الطوائف بحسب المدن أو البلاد التي قدموا منها ومعظمهم من الأندلس[٢٨].

وفي مجال أعداد السكان أيضاً التي حظيت باهتمام الرحالة إلى جانب اهتمامهم بعمار المدن أو خرابها وبالأماكن الدينية فيها وبقضايا الأمن على الطرق، يذكر فرنسيسكاني برتغالي هو بانتاليو دافيرو Pantaleao d'Aveiro، الذي بقي في فلسطين عشرين شهراً في عامي ١٥٦٣ و ١٥٦٤م، أن عدد سكان القدس خمسة آلاف نسمة منهم ألفان من المسيحيين وستمائة من اليهود. ويذكر الخراب في بعض أقسام المدينة ووجود مساحات مزروعة داخلها. وحين يمر بنابلس، في طريقه إلى دمشق، يذكر أسوارها القديمة وبيوتها الجيدة وجوامعها الملفتة للنظر، ويقدّر سكانها بألفين وخمسماية نسمة[٢٩]. وبمقارنة هذه الأرقام بما يذكره دفتر الطابو ــ سجل مفصل للقدس رقم ٥١٦ تاريخ ٩٧٠هـ / ١٥٦٢ ــ ١٥٦٣م نجد أن أعداد المسلمين في القدس ١٩٣٣ خانة أي ما يعادل ٩٦٦٥ نسمة يضاف إليهم ٢٠٨ أفراد يصبح المجموع ٩٨٧٣ نسمة وأعداد المسيحيين ٢٨١ خانة تعادل ١٤٠٥ يضاف إليهم ١٤٢ فرداً فيصبح المجموع ١٥٤٧، وأعداد اليهود ٢٣٧ خانة أي ١١٨٥ يضاف إليهم ١٢ فرداً فيكون المجموع ١١٩٧ نسمة. أي أن مجموع سكان القدس ١٢,٦١٧ نسمة أقل من عُشرهم من اليهود. وعلى هذا فإن الرحالة دافيرو أنقصهم إلى ما دون النصف. ولكن تقديره للمسيحيين يفوق أعدادهم في السجل بحوالي ٤٥٣ نسمة كما أن تقديره لليهود يقل بحوالي سبعمائة نسمة. ولا يتوفر إحصاء عثماني بالنسبة لنابلس عن تلك السنة (١٥٦٢ ــ ١٥٦٣م). وتطرح قضية تباين الأرقام بين تقديرات الرحالة والإحصاءات الرسمية مشكلة هامة، ولا يمكن إهمال أي من التقديرات بسهولة لأن الإحصاءات الرسمية نفسها تظهر تبايناً شديداً في أعداد سكان المدينة الواحدة من سنة إلى أخرى كما في مثال القدس التي هبطت فيها أعداد السكان بين ٩٦١هـ / ١٥٥٣ ــ ١٥٥٤م و ٩٧٠هـ / ١٥٦٢ ــ ١٥٦٣م بشكل كبير وبخاصة فيما يتعلق بالمسيحيين واليهود. ثم هبطت إلى درجة أكبر بكثير في إحصاء عام ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦ ــ ١٥٩٧م[٣٠].

وبالرغم من هذه الاختلافات في تقديرات السكان فإن كتابات الرحالة تصور لنا واقع البلاد العمراني والاقتصادي والأمني بصورة صادقة أحياناً أو مبالغ فيها أحياناً أخرى. ويمكن الوصول إلى ما يقرب من الواقع بمقارنة الكتابات بعضها ببعض. فالألماني كريستوف فيرر Christoph Fürer، الذي زار غزة قادماً من مصر في أوائل عام ١٥٦٦م، يدهشه خصب منطقة غزة. وهذا أمر أكده جميع الرحالة تقريباً. ويذكر وجود كنيسة وحيدة للأرثوذكس فيها (وقد سبق ذكر وجود الأرثوذكس فيها من قبل الرحالة تيفيه في عام ١٥٥٢م) وعدة جوامع. ثم يمرّ بعسقلان والرملة قبل أن يصل إلى القدس في ٧ شباط/فبراير ١٥٦٦م. ويغادرها في ٢٨ منه إلى نابلس وصفد ومنها إلى بعلبك دون المرور بدمشق[٣١]. ويدل هذا التنوع في الطرق على سلوكها من ناحية وتوفر الأمن من ناحية أخرى. ومما لا شك فيه أن هذه الفترة كانت فترة السلطان سليمان القانوني (٩٢٧ ــ ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ ــ ١٥٦٦م) الذي أقام عدة قلاع في فلسطين لتثبيت الأمن، وعدة خانات لراحة المسافرين.

وتستأنف الرحلات إلى القدس في أعقاب انتهاء الحرب بين البنادقة والأتراك في عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م التي أدّت إلى هزيمة الأتراك البحرية في ليبانتو Lepanto ولكنهم احتلوا قبرص. ويصف رفيقا سفر، ألماني وفرنسي، زارا فلسطين في أيلول/سبتمبر ١٥٧٩ السهل الخصب الذي رأياه بعد مغادرتهم يافا وحتى وصولهم قرية يازور. ولاحظا إلى يمين القرية جامعاً

وقبله نبع ماء. ويتابعان مسيرهما فتبدو اللد إلى يسارهما، وبعدها يصلان إلى الرملة التي يصفانها بأنها مدينة صغيرة بدون سور أو خندق وأن معظم بيوتها مبنيّة بالحجارة ولها قباب. وهذا يدل على تحسن في البناء من الطين والتبن الذي ذكره الرحالة في النصف الأول من القرن. ومن القرى التي مرّا بها بين الرملة والقدس اللطرون، عناتا، قرية العنب (أبوغوش)، عمواس وقالونية(٣٢).

ومما يدل على تحسن مدينة القدس والطريق الذي يربطها بدمشق والعناية بخانات المسافرين عليه، ما ذكره أحد موظفي السفارة الألمانية في استانبول الذي وصل القدس، عن طريق يافا، في ٤ أيار/مايو ١٥٨١م. وقد وصف القدس بأنها مدينة جميلة ذات أبنية جميلة من دينية ومدنية. وقال ان البيوت مبنية من الحجارة وللمدينة سور جيد. ثم يُشيد بالخانات المبنية على الطريق لراحة المسافرين ويذكر أحدها بين نابلس وصفد، ولعله يقصد عيون التجار، وآخر بعد صفد (هنا خطأ) لأنه يصفه على بحيرة طبرية ولعله خان المنية، أو أنه يقصد بحيرة الحولة فيكون الخان عندئذ عند جسر بنات يعقوب. ثم يذكر خان القنيطرة وخان سعسع في الطريق إلى دمشق. ويصف صفد أنها مدينة يسكنها اليهود بشكل كبير وفيها خان جيد(٣٣).

وتجتذب القدس أحد الأمراء البولونيين الأثرياء نيقولاوس رادزويل Nicolaus Radziwill الذي يسير على طريق دمشق ــ القدس في عام ١٥٨٣م. ويغادر دمشق في ٢٠ حزيران/يونيو ويتوقف في خان سعسع وخان القنيطرة ثم يجتاز في ٢٢ منه جسر بنات يعقوب وقرية بيت صيدا Bayt saida التي ترد في كتابات رحّالة آخرين ومعاصرين باسم Bethsaida ولعلها خان المنية التي يصفها بأنها تضم خمسة عشر بيتاً. ويصل صفد في ٢٣ حزيران/يونيو ويمضي ليلته في جنين. ثم يمر بنابلس ويصل القدس في ٢٦ منه. وهذا يعني أنه استغرق ستة أيام في الطريق من دمشق إلى القدس وهي المدة نفسها التي استغرقتها رحلة الفرنسيسكاني تيفيه في ربيع عام ١٥٥٢م بين القدس ودمشق. وربما أفادهما طقس الربيع والصيف وكذلك تحسن الطريق بسبب جهود السلطان سليمان القانوني.

ويبقى ميناء يافا في وضع غير متطور بشهادة رحالة أوروبي غادره في خريف عام ١٥٨٥م إلى دمياط. ويصف يافا بأنها مهجورة دائماً وأن قلة من السفن تتوقف فيها، وترتادها مراكب صغيرة للعرب تحمل صابون القدس بكميات كبيرة إلى دمياط وقد ركب أحدها(٣٤).

وبالمقابل يصف أوروبي آخر زار عكا في عام ١٥٨٦م بأنها ذات سور قوي ولها عدة أبراج وأن ميناءها جيد ومأمون مما يجعل عكا أكثر مدن فلسطين نشاطاً في التجارة. كما أنه يصف عتليت بأنها مدينة صغيرة فقيرة. ويقول عن قرية يازور بأنها ذات موقع جميل ويُشاهَد فيها بناء قديم لعله كنيسة أو قلعة أو بناء آخر مشابه وهو جميل وذو فخامة(٣٥).

وتتعدد رحلات الأوروبيين في أواخر الثمانينات من القرن السادس عشر بمعدل رحلة أو أكثر في السنة. ومن هذه الرحلات واحدة قام بها الألماني صمويل كيشل Samuel Kiechel الذي يوصف أنه رحالة كبير زار أوروبا وروسيا ثم زار حلب ودمشق في عام ١٥٨٧م في طريقه إلى فلسطين. وبعد أن مرّ بسعسع والقنيطرة حيث يوجد خان في كل منهما، مرّ بجسر بنات يعقوب حيث يقوم خان آخر. وذكر خاناً رابعاً فيه جامع صغير في جب يوسف. ووصل كيشل إلى قرية المنية حيث وجد الخان الخامس منذ مغادرته دمشق قبل ثلاثة أيام. واجتاز في اليوم الرابع صفد ليصل بعدها إلى خان آخر بني حديثاً عند سفح جبل طابور وبجانبه قلعة صغيرة وقد بناهما أحد الباشوات لحماية المسافرين من البدو. ولعل كيشل يقصد بهذا الموقع خان عيون التجار. ويعلق الباحث يراسيموس على ذلك بأن بناء هذه القلاع والخانات التي تزداد من رحلة إلى أخرى يشكل عنصراً هاماً لمواجهة تزايد عدم الأمن على الطريق التي تربط ولاية الشام بمصر(٣٦). ويلاحظ كذلك أن عدم الأمن آنذاك أخذ بالانتشار في الدولة العثمانية بفعل الأزمة الاقتصادية والمالية التي حدثت فيها وانتشار الثورات بنتيجتها من اليمن حتى الأناضول مروراً بمصر وبلاد الشام(٣٧).

ويذكر كيشل وصوله في مساء اليوم الذي غادر فيه صفد إلى قرية طابور حيث يبدو أنه بات ليلته. وتابع مسيره في اليوم التالي إلى جنين حيث يذكر وجود خان فيها وبجانبه قلعة، ويبدو أيضاً أنه أمضى هناك ليلته. وفي اليوم السادس مرّ أمام سبسطية التي يذكر أنها مهجورة باستثناء بضعة أكواخ، كما يقول، يسكنها مسلمون ومسيحيون. ثم يمر بنابلس ويصل القدس في أول آذار/مارس ١٥٨٨م وذلك في اليوم الثامن منذ غادر دمشق. واتبع الطريق نفسه في العودة(٣٨). ومما يلاحظ أن تحسن طريق دمشق ــ القدس وتوفر شروط الراحة والأمن فيه بزيادة أعداد الخانات التي كانت تحميها قلاع جعلا المسافرين يفضّلون اتباع القسم المباشر منه الذي يمر بجنين ونابلس عوضاً عن اتباع الطريق الدولي Via Maris الأطول لأنه يأخذ المسافر حتى الرملة ومنها إلى

القدس. ويلاحظ كذلك أن المسافر، إزاء وجود هذه التسهيلات على الطريق وإمكانية المبيت في عدة خانات بمعدل خان أو مدينة في اليوم الواحد، لم يعد له مبرر لاستعجال المسير. فرحلة كيشل مثلاً استغرقت ثمانية أيام بينما تمّت رحلتان مماثلتان سابقتان، الواحدة في ١٥٥٢م للفرنسيسكاني تيفيه والأخرى في ١٥٨٣م للبولوني رادزويل تمّت كل منهما في ستة أيام. وثمة أمر آخر هو أن سلوك هذا الطريق جعل كثيرين من الرحالة يجتازونه وبالتالي اتسعت رحلاتهم لتشمل دمشق أيضاً إلى جانب القدس.

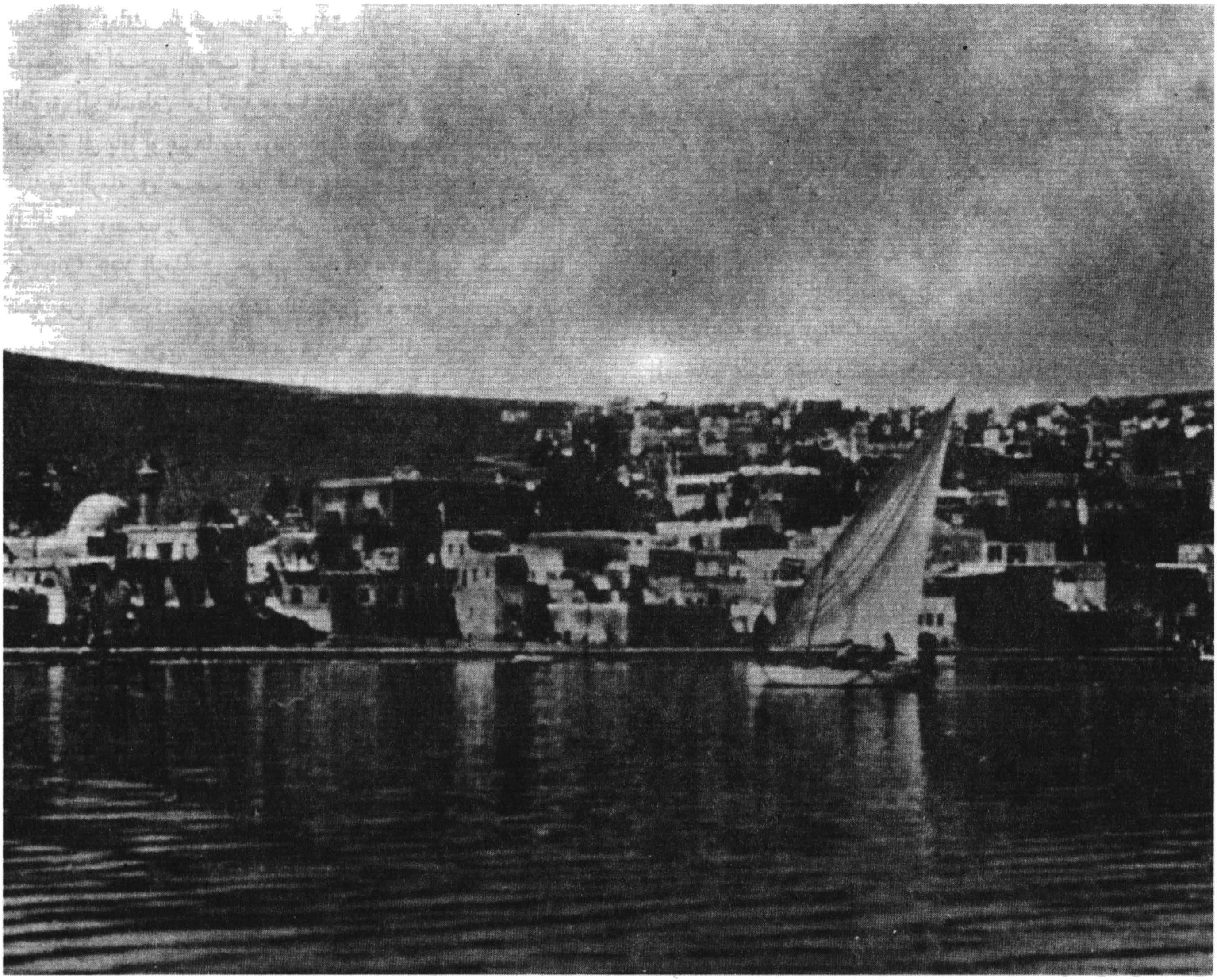
وتتحسن أحوال الرملة في العقد الأخير من القرن السادس عشر كمحطة رئيسية على طريق يافا ـ القدس وكذلك طريق دمشق ـ القاهرة، ولعل السبب في ذلك كثرة سلوك الطريق بين يافا والقدس. والرملة تشكّل المعبر الرئيسي إلى القدس من الساحل، وذلك بالرغم من صعوبات الإبحار من أوروبا إلى فلسطين إذ أضحى التوقف في قبرص واستبدال السفينة فيها في الطريق إلى فلسطين أمراً ثابتاً عوضاً عن الإبحار بالسفينة ذاتها من البندقية إلى يافا أو غيرها من موانىء الشرق. ويصف أحد الرحالة البنادقة الرملة في صيف عام ١٥٩٥م بأنه يسكنها ثمانمائة من المسلمين. ويصف زائر آخر فلمنكي يدعى يان فان كوتفيك Jan van Cotvyck الرملة في خريف عام ١٥٩٨م بأنها تضم سوقاً مبنية من الحجارة تتوزع فيها الدكاكين. وحين غادر كوتفيك القدس في تشرين الأول/اكتوبر في طريقه إلى دمشق مرّ، في المرحلة الأولى، بقرية البيرة ثم بنابلس. ويلاحظ في نابلس وجود جامع جميل في قسمها الشرقي قرب السور وجامع آخر خارج السور. ويقول ان شكل المدينة شبه دائري ويبلغ محيطها قرابة ثلاثة كيلومترات. وفيها عدة سبل للمياه فضلاً عن عمارة وخان كبير يضم جامعاً وسبيلاً. ويلتبس الأمر هنا ربما من قبل الباحث يراسيموس الذي أوجز رحلة كوتفيك إذ يورد بعد كلمة «عمارة» تعبيرHôtel Dieu ولعله يقصد بذلك بيمارستاناً أو مستشفىً. والعمارة، قياساً على تلك التي بناها لالا مصطفى باشا والي الشام (٩٧١ ـ ٩٧٦هـ / ١٥٦٣ ـ ١٥٦٩م) في القنيطرة والتي يصفها كوتفيك نفسه، هـي على شكل قلعة وتضم جامعاً وحماماً وسوقاً واسطبلاً. ولعل العمارة والخان هنا بناء واحد لأن كوتفيك يصف مدخل الخان بأنه رواق معقود يستخدم كسوق ويتألف من طابقين: سفلي للحيوانات وعلوي للمسافرين. ويذكر كوتفيك أن مدينة نابلس يسكنها مسلمون، ومسيحيون يعاقبة، وأتراك، ويهود. ثم يمر كوتفيك بسبسطية ويصفها أنها خربة، وبقرية جنـين التي يسكنها مسلمون وبعض المسيحيين، ثم بقرية نعيم (نين)، وهي صغيرة وسكانها مسلمون، وبعدها يصل الناصرة التي لا تعدو كونها قرية صغيرة كما يقول. وينام في اليوم الخامس ببيت صيدا (أي خان المنية)، ويصل في اليوم السادس إلى القنيطرة بعد اجتيازه جسر بنات يعقوب. وهنا يصف كوتفيك العمارة في القنيطرة بتفصيل إذ يقول انها على شكل قلعة ذات أسوار وأبواب تعلوها أبراج. ويقدر محيطها بميل، وتضم جامعاً واسعاً تغطيه قبة رصاص، وسوقاً وحمّاماً رائعاً فضلاً عن اسطبلات داخل السور. ثم يشير إلى الخان الكبير الذي بناه سنان باشا في سعسع[٣٩].

ويسير في اتجاه معاكس لرحلة كوتفيك الرحالة الإيطالي أكيلانت روشيتا Aquilante Rocchetta الذي يمر بسعسع في أوائل عام ١٥٩٩ متّجهاً نحو جسر بنات يعقوب، ويصف الخان عند الجسر بأنه في حالة سيئة، ولكن الجسر نفسه يبدو أنه رُمِّم حديثاً. ويذكر أنّ طوله ستّون خطوة وعرضه عشر خطوات وأنه مبني من الحجارة القديمة وتدعمه ثلاثة أقواس. ثم يصف جب يوسف بأنه وسط خان قديم على شكل دير مربع يبلغ طول جانبه الواحد مائتي خطوة. وعلى مرمى بندقية منه، كما يقول، يوجد جامع صغير خرب. ثم يتجه روشيتا في طريق أكثر ميلاً نحو الشرق من طريق كوتفيك إذ يمر إلى يمين قرية الطابغة، على الطرف الشمالي الغربـي من بحيرة طبرية ويلتقي البحيرة عند المنية حيث يمضي ليلته كما يبدو في خانها. ويمر في اليوم التالي بخرائب كفرناحوم وقرى لوبية وكفر Caffar وهي كفركما، ثم الصغيرة إلى أن يصل إلى خان عيون التجار. وبقربه شاهد روشيتا أجمل قلعة رآها في رحلته ويذكر أن سنان باشا قد بناها. ثم يتابع مسيره إلى قرية نعيم (نين) التي يصفها بأنها تعدّ مائتي بيت، ومن هنا يسير على الطريق نفسه الذي سار عليه كوتفيك فَيَصِل جنين حيث يرى خاناً بناه مصطفى باشا. ثم يتابع إلى سبسطية التي يسكنها بعض العرب. ويمر بعـد ذلك بنـابلس والبيرة ويصـل القدس في ٩ نيسان/ابريل. ويبقى فيها حتى ٦ أيار/مايو ثم يغادرها باتجاه مصر. ويصف الأماكن التي يمر بها بدءاً بقرية قلندية التي يقول انها تضم ثمانية بيوت من العرب، ويمر في اليوم التالي بقرية سلبيت ويترك الرملة إلى يمينه ليصل بعدها بقليل إلى أسدود. ويمر في اليوم التالي بمجدل ويصل بعد يوم من ذلك إلى غزة[٤٠]. ويكون بهذا قد سار على الطريق الساحلي الموازي للطريق الداخلي المار بقرية يبنة.

ويذكر يراسيموس أن آخر سنة في القرن السادس عشر وهي ١٦٠٠ هي سنة مقدسة، أثارت زيارات كثير من الرحالة إلى فلسطين الذين انتقلوا إليها أو منها عبر دمشق أو يافا أو غزة. ثم

يلخص يراسيموس ببراعة أوضاع أوروبا والمتوسط التي أثّرت على الملاحة، وبالتالي على نقل الحجاج إلى فلسطين. ويلاحظ عدة فترات أولها منذ ما قبل عام ١٥١٧م حين احتكرت البندقية نقل الحجاج. ثم تلي فترة بين ١٥٣٤ ــ ١٥٤٢م حين تهدّدت الملاحة بحروب الأسطول العثماني بقيادة خير الدين برباروسا (ذي اللحية الحمراء). ثم تستأنف الرحلات برعاية فرنسا صديقة العثمانيين وبمبادرة البندقية من جديد التي تستفيد من سيطرتها على قبرص ووجود قنصليات لها في الشرق. وتهدد الحرب التركية ــ البندقية بين عامي ٩٧٨ ــ ٩٨١هـ / ١٥٧٠ ــ ١٥٧٣م المواصلات البحرية وتخسر البندقية باحتلال العثمانيين لقبرص وتفقد احتكارها لنقل الحجاج ويزداد عدد هؤلاء بفعل عصر النهضة ويقرنون زياراتهم إلى فلسطين بزيارة سوريا ومصر(٤١).

وبالنسبة لفلسطين فقد أطلعتنا رحلات الرحالة الأوروبيين في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي التي لخّصها بإتقان الباحث ستيفان يراسيموس على التبدلات التي طرأت على بلدانية فلسطين في ذلك القرن من حيث بناء الخانات والقلاع على الطرق لإقامة الأمن، وكذلك معرفة الطرق السالكة بين الشمال والجنوب، أي بين دمشق والقاهرة مروراً بفلسطين، ثم بين صفد والقدس مباشرة بغية الحج، وكذلك بين يافا والقدس مروراً بالرملة، أو بين القدس وغزة مروراً بالرملة. ويفيد سلوك هذه الطرق في معرفة حدود العمران وبالتالي الزراعة وإمكانية الدولة العثمانية في إقامة الأمن عليها. وسندرس في القرنين التاليين، الحادي عشر والثاني عشر للهجرة / السابع عشر والثامن عشر للميلاد، نماذج منتقاة لرحلات الرحالة العرب والأجانب في



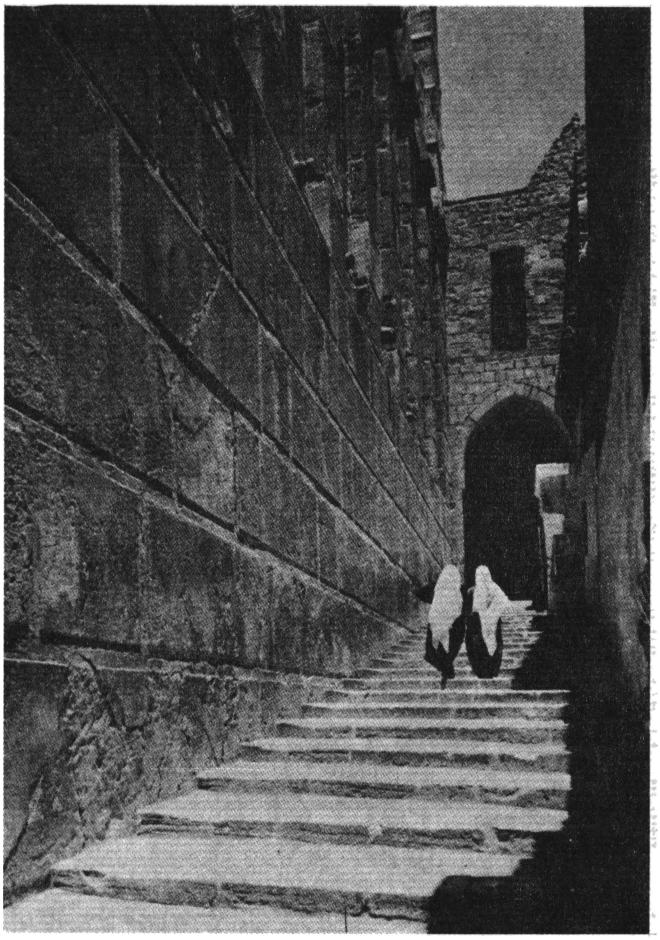
طبريـة

فلسطين لنتبيّن التطورات التي طرأت على بلدانيتها بما في ذلك التطورات الاقتصادية والبشرية والاجتماعية وانعكاسات الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية ككل، وفي فلسطين بخاصة، عليها.

يبتدىء القرن السابع عشر للميلاد برحلة للتاجر اللندني جون ساندرسن John Sanderson[٤٢] إلى فلسطين في صيف عام ١٦٠١م، وذلك إبّان زيارته الثالثة لبلاد المشرق التي بدأت أولاها في عام ١٥٨٤م إلى استانبول. وقد توجه إلى فلسطين بطريق دمشق التي غادرها في ٢٢ حزيران/يونيو ماراً بسعسع والقنيطرة ومنها باتجاه الحولة، ثم اجتاز جسر بنات يعقوب متجهاً نحو طبرية. ومر بصفد في ٢٤ حزيران/يونيو. وذكر ساندرسن، وكان أحد اليهود يسافر برفقته، ان أتقياء اليهود وفقهاءهم يوجدون في صفد التي ضمّت ستّ كليات أو مدارس علم، كما يقـول. ويضيف أنهم يسمونها بيوت الله وربما قصد بها المعابد اليهودية حيث يتم التعليم إلى جانب العبادة. ثم مرّ بقرية ياقوق، وقرية قرن حطين التي تبعد عن بحيرة طبرية مقدار عشرة كيلومترات. ثم تابع سيره إلى خان عيون التجار عند سفح جبل طابور. ومرّ إلى يمين أحد فرعي نهر قيسون أو قيشون (المقطع)[٤٣]، ثم سار إلى قرية ذكر أنّ اسمها زرني (وهي زرعين حالياً)، ووصل بعد ذلك إلى جنين. ويقول عنها انها جميلة وحسنة الموقع وتستحق اسم الجنة. ومرّ ساندرسن في ٢٦ حزيران/يونيو بتل دوثان واجتاز جبل فقوعة (جلبوع)، وتمكن أن يرى من جهة اليمين بحر فلسطين (البحر الأبيض المتوسط). ثم مرّ بقرية سبسطية على رأس جبل غير مرتفع ووصل إلى نابلس في ٢٨ منه حيث توقف لبعض الوقت. ويقول انها تقع بين جبلين، جبل جرزيم في الجنوب وجبل عيبال. وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها تقع قرية عَوَرْتا. ووصل ساندرسن في ٣٠ حزيران/يونيو إلى قرية البيرة حيث استراح بضع ساعات، ويقول انها تبعد عن القدس ثمانية كيلومترات. وأمكنه في الطريق رؤية قرية الرامة (الرام) على بعد خمسة إلى ستة كيلومترات من جهة اليمين. ثم دخل القدس في اليوم نفسه[٤٤]، وبذلك تكون رحلته من دمشق إلى القدس قد استغرقت ثمانية أيام.

وقد قام ساندرسن، وهو في القدس، بزيارات إلى قرية الرامة (الرام) وقرية بيت عنيا وبيت لحم ثم الخليل. ووصف في طريقه إلى الخليل جودة العنب في أحد الأودية وكبر عناقيده، وقد أكد له أصحاب البلاد أنّ العنقود منه يزن ثماني أو تسع أقّات، أي ما يعادل عشرين أو واحداً وعشرين ليبرة، بوزن بلاده، ولكنه لم يشاهد بنفسه عنقوداً كهذا بالرغم من أنه أكد ضخامة بعض العناقيد. وبعد أن تجوّل في الأماكن الدينية في القدس والمناطق المجاورة بدأ طريق العودة إلى دمشق[٤٥].

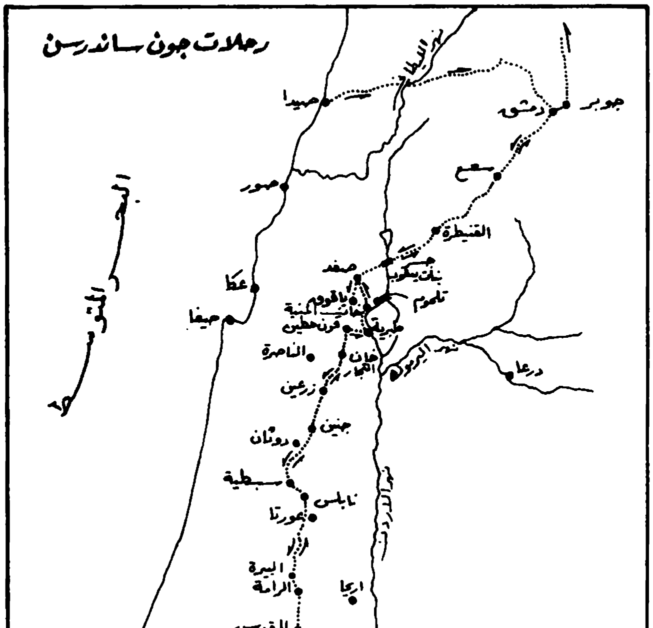
غادر ساندرسن القدس في ٨ تموز/يوليو ١٦٠١م واتبع الطريق نفسه الذي قدم عليه مروراً بالبيرة ونابلس التي وصلها في ٩ منه. وهنا يذكر أنواع الحيوانات التي يستخدمها ورفاقه في السفر وهي الخيول والبغال والحمير وذلك بمناسبة إنهاكها وبقائه يومين للراحة والتمتع بمياه بئر يعقوب الذي يبعد حوالي كيلومتر عن نابلس. ووصل في ١١ تموز/يوليو إلى جنين. وعند قرن حطّين تحول عن مساره السابق حين ذهابه إلى القدس وسار باتجاه مدينة طبرية التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن قرن حطين ووصلها في ١٢ تموز/يوليو. ومنها شاهد الجبال والسهول المجاورة. ثم تابع سيره بمحاذاة البحيرة وهو خائف من البدو الذين يقول عنهم انهم لا يخضعون لقانون وينتشرون في تلك الجهات ويضربون خيامهم في السهول والمناطق المثمرة ويربّون مختلف أنواع الماشية، وبينهم من يمارس حرفاً متنوعة مثل الحدادة وصنع



مدخل الحرم الإبراهيمي في الخليل

الأخفاف (الأحذية) والنسيج وما شابه. ويضيف أنه توجد لديهم خيول ممتازة يستخدمونها في غزواتهم. ووصل إلى المنية، على بعد حوالي اثني عشر كيلومتراً من طبرية، بمحاذاة البحيرة وبات ليلته فيها. ويقول ساندرسن انه وصل بعد ذلك إلى الناصرة وقانا (كفركنا) ولكن ناشر رحلته ومحققها يذكر أنه لا يمكن أن يكون قد قام بذلك بسبب بعد هذين الموقعين[٤٦]. وفي ١٣ تموز/يوليو وصل صفد. وذكر أنه أقام فيها ستة أيام وشاهد توزيع اللحم والخبز على فقراء اليهود من قبل أغنيائهم يومياً، ثلاث مرات في اليوم. وأحياناً يوزعون المال عليهم. ويقول ان اليهود ينقلون عظام الموتى اليهود من الخارج ليدفنوها في صفد. وتابع ساندرسن سفره باتجاه دمشق فوصل القنيطرة في ١٩ تموز/يوليو، وسعسع في العشرين، ثم دمشق في الحادي والعشرين، ودخلها من باب توما[٤٧].

ومن الرحالة الأجانب المشهورين الذين زاروا بعض أقطار المشرق والمغرب العربيين في القرن السابع عشر الفرنسي لوران دارفيو Laurent d'Arvieux (١٦٣٥ ـ ١٧٠٢م) الذي كلّفه الملك الفرنسي لويس الرابع عشر بمهمّات في هذه الأقطار، وشغل مناصب قنصليّة في حلب وصيدا والجزائر، وفي مراكز تجارية أخرى من بلدان المشرق التابعة للدولة العثمانية. وقد مُنح دارفيو



رتبة فارس Chevalier في عام ١٦٧٣م (فارس أخوية نوتردام في جبل الكرمل وأخوية سان لازار في القدس). وقد نشرت مذكراته في ستة مجلدات في عام ١٧٣٥م تحت عنوان مذكرات الفارس دارفيو[٤٨].

وتميّزت أوصاف دارفيو للبلاد التي زارها بالدقة والعمق وحسن المعرفة لأنه أمضى فيها عدة سنوات يعمل في التجارة وفي السلك القنصلي، كما أتقن عدة لغات شرقية أهمها العربية والتركية.

غادر دارفيو مرسيليا في ٧ تشرين الأول/اكتوبر ١٦٥٣م بحراً باتّجاه ازمير التي وصلها في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه. وقد أقام فيها يتعلّم أصول التجارة ومبادىء اللغات الشرقية حتى عام ١٦٥٨م حين طلب إليه الفرنسي برتانديه Bertandié (ترد أيضاً بيتانديه Bettandié) الذي تتعاطى أسرته التجارة في ازمير الانتقال إلى صيدا حيث أسس برتانديه فيها شركة تجارية وأصبح قنصلاً لفرنسا فيها[٤٩]. وقد غادر دارفيو ازمير في ٧ شباط/فبراير ١٦٥٨م على مركب إنكليزي متجه إلى الاسكندرية حيث أقام بعض الوقت، ومنها أبحر إلى صور ثم اتجه إلى عكا التي وصلها في ١٥ نيسان/ابريل ١٦٥٨م.

يذكر دارفيو لقاءه عدداً من التجار الفرنسيين في عكّا إلى جانب قنصل فرنسي فيها. ويضيف أنهم لجأوا إليها، كما أخبروه، من صيدا بسبب خلاف بينهم وبين حاكمها حسين آغا. وقد عادوا إلى صيدا في العام نفسه، ١٦٥٨م، إثر انتشار مرض الحمّى بينهم في الصيف، وعزل حسين آغا ومجيء حاكم منصف لهم. ويذكر أنّ عكا تضم بقايا أبراجها القوية وأسوارها التي هوت في الخندق المحيط بها. ويلاحظ وجود كتل حجرية في المدينة وخارجها يبلغ قطر بعضها أكثر من متر، وقد سبق أن قذف بها المهاجمون لعكّا وأسوارها. ثم يعدّد دارفيو بعض الأماكن الخربة، الدينية منها والمدنية فيها، ويروي تاريخها، ويصف القلعة المربعة الشكل قرب الميناء حيث يقيم الآغا العثماني حاكم عكّا وبإمرته بضع انكشارية وأربعة مدافع لإخافة القراصنة ومنعهم من النهب على اليابسة[٥٠].

ويذكر دارفيو أنّ أراضي عكا خصبة، تجود فيها زراعة القمح والرز والخضار والأشجار المثمرة، وكذلك نبات الحمض البري (الأشنان) الذي يعمل منه القِلي، ويصدّر بكميات كبيرة إلى مرسيليا والبندقية حيث يستخدم في صناعة الزّجاج والصابون. وتصل عكّا كذلك منتجات البلدان المجاورة ومنها مصر، حيث

تصدّر بعضها إلى داخل فلسطين وبعضها الآخر إلى أوروبا ولهذا يقيم في عكا عدد من التجار الفرنسيين والأوروبيين في الخان الذي بناه فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف وجبل لبنان (١٥٩٠ ــ ١٦٣٥م)، كما يقيمون في الأماكن المجاورة له. ويصف دارفيو الخان بأنه كبير ومريح، وأنه يتألف من ساحة مربّعة تحيط بها المخازن وتعلوها غرف لإقامة التجار الأوروبيين والمصريين. وقد أقام دارفيو في إحدى هذه الغرف. ويذكر إقامة خمسة أو ستة تجار فرنسيين فيها، في حين يقيم آخرون في بيوت خاصّة. ويشير أن لآباء الأرض المقدسة Terra Santa شقّة سكنيّة في هذا الخان، حيث يقيمون ويصلّون مع جميع الكاثوليك في عكا بحماية السلطات العثمانية. كما توجد فيه شقة أخرى للآباء الكرمليين Carmes يأتون إليها من فترة إلى أخرى من مركزهم الرئيسي في جبل الكرمل. ويذكر دارفيو وجود بعض اليهود في عكّا حيث يقيمون في أكواخ متداعية ويعملون كدلّالين أو سماسرة للتجار ويسرقون مالهم، حين يستطيعون ذلك، كما يقول دارفيو(٥١).

ويشير دارفيو إلى أن عكا تابعة لحكومة صفد، وأنه لم يرَ فيها سوى جامع واحد بمحاذاة البحر عند فتحة مرفئها الممتلىء، تقريباً، بالرمال، ولا تدخله سوى المراكب المضطرة إلى ذلك لنقل البضائع. وترسو عند الرصيف قرب الجامع. ويضيف دارفيو أن كل ما بقي من هذا الميناء الهام محاط بصخور في الوسط، مقابل القلعة، تُشَدّ إليها حبال المراكب. وتصبح المراكب بذلك بمنأى عن الرياح الجنوبية ــ الغربية القوية. وتوجد على الصخور بقايا بناء يعتقد أنه كان حصناً للدفاع عن الميناء. ويوجز دارفيو كلامه عن عكا بأنها ليست سوى كومة واسعة من الآثار الجميلة.

وقد وصف دارفيو، أثناء وجوده في عكّا، استيلاء مركب للقراصنة يرفع علم مالطة (يبرىء فرسان مالطة من مثل هذه الأعمال) على مركب فرنسي يستخدمه تجار فرنسيون لنقل بضائعهم على الشاطىء السوري. وكان مركب القراصنة يرابط بين جبل الكرمل وحيفا بانتظار الانقضاض على فريسته مستفيداً من تقلّبات الرّياح. وكان المركب الفرنسي ينقل حُجّاجاً مسيحيين عائدين من القدس، وبضع بالات قطن. وقد سلب القراصنة الحُجّاج ممتلكاتهم وحتى ملابسهم، كما استولوا على البضائع(٥٢).

سافر دارفيو من عكا إلى صيدا في أواخر عام ١٦٥٨م بصحبة القنصل والتجار الفرنسيين الذين كانوا لاجئين في عكا. وسرعان ما سنحت له الفرصة لمرافقة وفد أرسله القنصل الفرنسي في صيدا لتقديم الشكر لحاكم غزة حسن باشا لمنحه قرضاً للفرنسيين. وقد غادر الوفد صيدا في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٦٥٩م متجهاً نحو غزة بطريق البر. وقد مرّ بعكا، ثمّ وصل حيفا التي يصفها بأنها دون ميناء ولكن فيها مرسى يصلح لرسو المراكب التي تتعرّض مع ذلك لرياح شمالية خطرة. ويقول إن جبل الكرمل لا يبعد عن عكّا بأكثر من ربع فرسخ (١,٢٥ كم) (بحسب دارفيو يعادل الفرسخ الواحد ثلاثة أميال) ويذكر أن حيفا يسكنها مسلمون ويهود وبعض المسيحيين. وتبدو فيها بقايا قلعة وثلاث كنائس، وتقع ضمن حكم الأمير البدوي ابن طراباي (الأمير آنذاك كان زين) ومركزه جبل الكرمل. ويلجأ القراصنة في الغالب إلى حيفا حيث يبيعون الأسلاب التي يستولون عليها، ويرفعون راية بيضاء حين اقترابهم من حيفا فإذا رغب حاكمها شراء الأسلاب رفع هو الآخر راية بيضاء، ويتمّ عندئذ البيع والشراء من السفن(٥٣). ويضيف دارفيو أن تجّار عكّا يأتون إلى حيفا حيث يتاجرون بالحبوب والقطن.

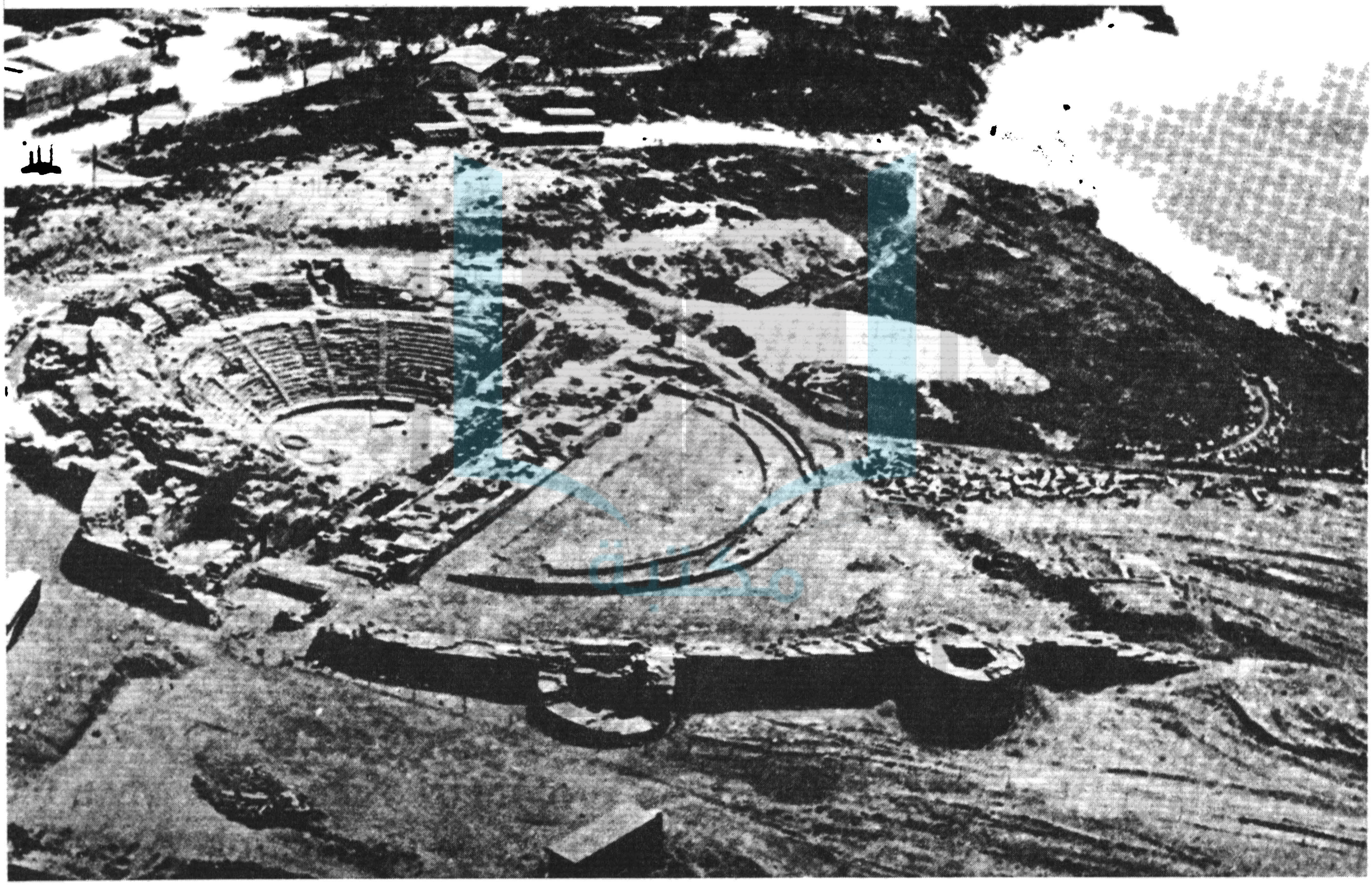
وعلى بعد حوالي ستة عشر كيلومتراً، أو ما يعادل ثلاثة فراسخ وثلث، من حيفا يقع حصن عتليت، وهو خرب لم يبقَ منه سوى المخازن السفلية المقبّبة. ويسكن منطقته بعض الفلاحين الذين يزرعون الأراضي المجاورة. وبعد مسيرة ثلاثة فراسخ أخرى يصل دارفيو إلى طنطورة (يكتبها طرطورة) التابعة لحكم آل طراباي. وقد زار دارفيو مخيم الأمير البدوي من آل طراباي على بعد ربع فرسخ من طنطورة، في جبل الكرمل، وذلك للتوسط للآباء الكرمليين بالعودة إلى ديرهم في جبل الكرمل الذي طردهم منه وذلك بعد دفعهم الضريبة السنوية التي فرضها عليهم. وسيعود دارفيو إلى زيارة هؤلاء البدو في جبل الكرمل زيارة مطولة في عامي ١٦٦٤ و١٦٦٥م ويقيم بينهم عدة أشهر، ويشغل وصفه لهم ولمختلف جوانب حياتهم معظم الجزء الثالث من مذكراته كما سنشير إلى ذلك بتفصيل في مبحث الحياة الاجتماعية لاحقاً.

ويذكر دارفيو أنه لا يوجد في طنطورة سوى شارع وحيد واسع يقابل البحر حيث يقام السوق الذي يأتي إليه البدو بمنتجاتهم وأسلابهم، والفلاحون في الجوار بحيواناتهم ومنتجاتهم التي يبادلونها بالرزّ والأقمشة المصرية التي تحملها مراكب صغيرة، لا يتّسع ميناء طنطورة لأكبر منها. ويلاحظ دارفيو أنه لا يوجد جامع في طنطورة، ويجتمع المصلون في شرفة مكشوفة مرتفعة بمقدار قدمين يحيط بها جدار صغير لتأدية الصلاة في أوقاتها. ويوجد بقرب ذلك المكان مقهى ذو بناء جميل يتردد عليه الناس للتدخين وشرب القهوة(٥٤) وتبادل الأحاديث. ويعوز طنطورة الماء القراح للشرب، كما يقول دارفيو، وتعتمد على نبع صغير حلو الماء

قائم على صخرة في البحر على بعد خوالي أربعة أمتار من اليابسة. أما مصادر الماء الأخرى فمالحة. ويضيف دارفيو أن الأراضي المحيطة بطنطورة خصبة جداً. وهي مكشوفة ودون أشجار ولا تنتج سوى الحبوب. ويقيم ملتزم من قبل الأمير ابن طراباي في طنطورة لتقاضي العائدات الجمركية ورسم المرور وغيره عند دخول هذه البلدة والخروج منها(٥٥).

ويتابع دارفيو سيره إلى قيسارية التي تبعد عن طنطورة بمقدار أربعة فراسخ ويشبّهها بكومة خرائب أشبه بعكا. وتشاهد فيها، من جهة البحر، أسوارها السميكة بكاملها تقريباً وقد امتلأت خنادقها بالأبراج التي انهارت فيها. وما زال قائماً فيها بعض الكهوف المقبّبة والأعمدة. وتسكنها بضع أسر صغيرة تتعاطى صيد السمك وتلجأ إلى الكهوف في أوقات الخطر.

وفي طريقه إلى الرملة يشاهد دارفيو بحيرة التمساح (تسمى أيضاً ميَّة التمساح)، ويمر بأراضٍ زراعية خصبة ومستغلة جداً تتوزّع فيها القرى. ويصل إلى الرملة في المساء بعد مسيرة نهار كامل من قيسارية، تعرّض خلاله لخطر بدو آل طراباي الذين طالبوه وجماعته بحق المرور بأكثر من المعتاد. ويشير دارفيو إلى أهمية موقع الرملة على الطريق بين يافا والقدس، وطريق القوافل بين مصر ودمشق. وتتبع الرملة حاكم غزّة، ويصفها بأنها قرية كبيرة كثيرة السكان وتستفيد مادياً من التجار الذين يَؤُمّونها لشراء الحبوب والقطن والفواكه، وكذلك من مرور القوافل فيها. ولا تشاهد أسوار فيها. وبيوتها سيّئة البناء تتألف من طابق أرضيّ ولكن لها شرفات ينام عليها أهلها عند اشتداد حرارة الجوّ. وأبواب الدور منخفضة لا يزيد ارتفاعها عن ٩٠ سنتمتراً لمنع البدو المهاجمين من دخولها على ظهور خيولهم. ويذكر دارفيو دير آباء الأرض المقدسة الذي بني في الرملة بموافقة حاكم غزة، ويأوي إليه في العادة المسافرون الأوروبيون. وإلى جانب الكنائس والجوامع التي ذكر دارفيو ما اندرس وما بقي منها يشير إلى وجود مستشفى للأمراض العقلية يمارس فيه العمل ويطلق عليه السكان المحليون اسم مارستان. وتشرب الرملة من مياه الآبار التي تستخرج بواسطة دولاب يديره بغل أو جمل، عن طريق محور



المسرح الروماني في قيسارية

خشبي. ويربط بالدولاب حبل غليظ من سعف النخل تعلّق به الدلاء التي تغرف الماء من البئر وعندما تصل إلى أعلى الدولاب تفرغ المياه في خزّان لتجميع المياه. وتوزّع المياه من الخزّان بواسطة أقنية(٥٦). ويشير دارفيو إلى خزان للمياه يبعد ثلاثة أرباع الفرسخ عن الرملة، وهو بناء مربع الشكل يبلغ طول طرفه الواحد حوالي ٩ أمتار(٥٧).

ويزور دارفيو بلدة اللد التي تبعد قرابة فرسخ عن الرملة وتكثر فيها الخرائب. وأبرز ما فيها سوقها الأسبوعي الذي يرتاده تجار القطن والحبوب. ويشير فيها إلى كنيسة للروم الأرثوذكس، بجوار مسجد، في المكان الذي ذكر أن القديس جرجس استشهد فيه. وتمارس الصلاة في المكانين(٥٨).

ثم يتجه دارفيو، برفقة حاكم غزة، من الرملة إلى غزة التي يصف موقعها بأنه مناسب ولكن حجمها متواضع، وأبنيتها إمّا من الحجارة أو من اللّبِن أو من كليهما معاً، وهي مقبّبة وذات شرفات. ولا توجد أسوار لغزّة وإنما متاريس ترابية عالية تزداد سماكتها برمي الأنقاض فيها. ولا يؤثّر ذلك على نقاء هوائها بسبب موقعها المتميّز والرياح التي تطرد الروائح الكريهة. وجميع أبنيتها القديمة متهدّمة باستثناء قلعة صغيرة ذات أربعة أبراج في الجهة الشمالية من المدينة. وبقربها، على أنقاض قلعة أخرى، بنيت السرايا حيث مقر الحاكم العثماني. ونظراً لكثرة الجوامع والمساجد في غزة، القائم منها والخرب، لم يغِبْ ذكرها في مذكرات دارفيو إذ أشار إلى جامع رئيسي فيها وإلى ستة جوامع أخرى أصغر منه علاوة على عدة مساجد، ولم يسمِّ أيّاً منها. وجاء على ذكر كنيسة للأرمن وأخرى أكبر منها للأرثوذكس تعودان إلى الزمن القديم. كما ذكر وجود عدد من الحمّامات العامة التي يصفها بأنها جميلة ومريحة. ويشير إلى وجود بزرستان (بازار أو سوق رئيسي) في غزة يصفه بأنه جميل ومكتظ بالناس ويضم دكاكين ومخازن للتجار الذين يتعاملون بمختلف أنواع السلع والمصنوعات. ويتجمّع أصحاب كل سلعة في مكان معيّن. ويذكر الشوارع (لعله يقصد الأسواق الصغيرة في هذا السوق الرئيسي) بأنها مسوّرة، يقفل الباب المؤدي إليها مساءً في ساعة معينة ويفتح في الصباح. ويضيف أن التجارة الكبرى أو البعيدة في غزة تقوم على مرور القوافل فيها بين سوريا ومصر وبالعكس مما ينشّط التجارة المحلية ويزيد في غنى المدينة(٥٩).

يُمضي دارفيو في غزة تسعة أيام (لا يحدِّد تاريخها وإنما تقع في أواخر عام ١٦٥٩م) ثم يغادرها عائداً إلى الرملة بمحاذاة الساحل أوّلاً، عن طريق عسقلان التي يقول انها تقع في منطقة خصبة، ولم يبقَ من سورها سوى بقايا قائمة من جهة البحر. ويدلّ سُمك أسوارها وأبراجها المتهدمة التي تملأ خندقها على أهميتها العسكرية في الماضي. ولا يوجد فيها ميناء أو بيوت صالحة للسكن، وهي بالتالي مهجورة. ثم يتّجه دارفيو، بعد مغادرة عسقلان، باتجاه الداخل في طريقه إلى الرملة وسط أراضٍ زراعية مستغلّة بشكل جيّد. ويصل مجدل التي يصفها بأنها قرية كبيرة مكتظة بالسكان. ويمضي فيها ليلته ثم يغادرها في اليوم التالي عبر أراضٍ زراعية خصبة، إلى الرملة(٦٠).

ويتّجه دارفيو من الرملة في طريقه إلى عكا وصيدا وذلك برفقة أربعين فارساً قادمين من غزة باتجاه عكّا ليلتحقوا بخدمة حاكمها. ولكنهم يسيرون باتجاه شمالي شرقي عبر أراضٍ خصبة تنتج الحبوب والقطن ونبات الحمض الذي يعرف بالأشنان، وفيها الأشجار المثمرة. ويمرّون بعدة قرى لا يذكر أسماءها ولكنه يذكر قرية البير (وقد تكون البيرة) حيث أمضى ليلته فيها ولم يحدّد موقعها. ويقول انها قليلة السكان وخربة. ويصل في اليوم التالي إلى مدينة نابلس. ولا يذكر السبب في هذا الاتجاه لأنّ وجهته في الأساس كانت عكا ثم صيدا. وكان دارفيو يودّ زيارة القدس ولكن رئيس رهبانية الأرض المقدسة في القدس نصحه وصَحْبَه بتأجيل زيارتهم إلى العام التالي نظراً لزيارة ابن ملك فرنسا وابن ملك إسبانيا وابن ملك إنكلترا للقدس في ذلك العام وانشغالهم بهم، وأيضاً لحمل هؤلاء الهدايا الثمينة إلى المسؤولين، الأمر الذي سيثير المقارنة لدى السلطات مع هداياهم هم كممثلين للتجار الفرنسيين. ويصف نابلس بأن جزءاً منها يقع على منحدر جبلي ويقع جزء آخر في بداية السهل. ويقيم فيها حاكم عثمانيّ. ويذكر البساتين حول نابلس التي ترويها عدّة جداول تزيد في خصوبة السهل وتجعل أشجارها المثمرة في وضع متميّز. وقد زار في أطراف نابلس عدة آثار تتعلق بالتاريخ الديني(٦١).

ويتابع دارفيو سيره من نابلس باتّجاه سبسطية فيصلها بعد مسيرة ساعتين. ولم يحدّد بدقة تواريخ سفره ولكن ذلك كان في كانون الأول ١٦٥٩م. ويصف سبسطية بأنها تقوم على تلّة، وأنّ أسوارها متهدّمة. ثم يجتاز وجماعته الطريق التجاري الذي يربط دمشق بغزة ومصر، ويعبرون سهل طنطورة، ويمرّون بحيفا، ثم يصلون عكّا. ومنها يتجه دارفيو إلى صور ثم صيدا. ويلاحظ دارفيو أن القرى التي مرَّ بها في السامرة ليس لها أسوار أو وسائل مماثلة للدفاع ضد غزوات البدو ولكنها تقوم للدفاع عنها بحفر خنادق ذات أبعاد مختلفة، وتكون عميقة وواسعة ويلي الواحد منها الآخر. ثم يغطّونها بالقصب وبالقشّ وبطبقة ترابية تنمو فيها

الأعشاب. وما لم يعرف المرء الممرات المتعرّجة بين الخنادق يستحيل عليه الاقتراب من هذه القرى دون سقوطه وحصانه في أحد الخنادق. ولهذا يقول دارفيو انه وصحبه يبقون بعيداً عن هذه القرى وعندما يحتاجون للتوقف للطعام أو المبيت يغرسون أعلامهم في التراب ويترجلون. وعند هذه الإشارة يأتي إليهم شيخ القرية ليستفهم عما يريدون ويزوّدهم باحتياجاتهم(٦٢).

وبعد إقامة بلغت حوالي ثلاثة أشهر في صيدا يتجه دارفيو بصحبة تجار فرنسيين وهولنديين ورجال دين لزيارة القدس بمناسبة عيد الفصح. ويغادر صيدا بحراً في ١٠ آذار/مارس ١٦٦٠م متجهاً إلى عكا، ولكن مركبه هوجم من قبل القراصنة عند قرية الزيب الساحلية شمالي عكّا. واستولى القراصنة على ما فيه من بضائع وما لدى المسافرين من أمتعة ومال. وبصعوبة نجا دارفيو من الأسر، وتوجّه إلى عكّا ومنها سافر بحراً إلى يافا حيث استأجر حميراً هو ورفاقه للسفر إلى القدس بسبب منع الأتراك غيرَ المسلمين من ركوب الخيل حين التوجّه إلى القدس كما يقول دارفيو.

ويلاحظ دارفيو أن أسوار يافا وأبراجها من ناحية البحر خربة تغطّيها الرمال. ويشير إلى وجود بيوت صغيرة قليلة العدد على ساحل البحر يسكنها قلّة من الناس الفقراء إلى جانب مخازن يستعملها التجار. ومعظم هذه المخازن محفور في الصخر، مثلها في ذلك مثل مساكن آباء الأرض المقدسة الذين بنوا فوقها غرفاً صغيرة لإيواء الحجّاج. وأهم شخص في يافا هو عامل الجمرك الذي يتقاضى الرسوم باسم حاكم غزّة الذي تخضع له يافا. ويذكر وجود بقايا قلعة قرب البحر إلى الشمال من الطريق المؤدي إلى الرملة، وقد وضعت فيها قطع حديدية صغيرة على شكل مدافع لإخافة القراصنة. ويمتدّ في البحر بقايا سور يصل إلى الصخور المتقدّمة في البحر، وتشكّل بمجموعها ميناء يافا وتحجبه عن العواصف الجنوبية الغربية. ونظراً لقلّة عمق المياه، وبسبب تهدّم الميناء لا تستطيع دخوله سوى المراكب الصغيرة. وقد دفع دارفيو، كغيره من الحجّاج، إلى المعلم المسؤول عن نقلهم إلى القدس مبلغ أربعة عشر قرشاً لقاء أجرة الحمار الذي ينقل المسافر الواحد من يافا إلى القدس وكذلك رسم المرور أثناء الطريق. ويكلف طريق العودة مثل ذلك المبلغ(٦٣).

غادر دارفيو وصحبه يافا إلى الرملة ولاحظ في الطريق وجود البيوت في البساتين. ويذكر أن هذه البساتين تروى بواسطة الدولاب الذي يستخرج الماء من جوف الأرض. ومرَّ بقرب قرية يسميها جسر Gesser حيث شاهد جامعاً تعلوه تسع قباب صغيرة، وسار بمحاذاة قرية إلى يمين الطريق يسميها جيت Geth، ويصفها بأنها بائسة، ولم يدخلها. ووصل بعد ذلك إلى الرملة.

وفي ٢٠ آذار/مارس ١٦٦٠م اتجه دارفيو وجماعته نحو القدس. ويصف خصوبة الأراضي، وبخاصة في السهول والأودية التي سار فيها، ويذكر وعورة التلال والجبال التي كان عليهم اجتيازها. وكانت أول قرية طالعته بعد مغادرة الرملة تلك التي يصفها بقرية لص اليمين Village du Bon Larron نظراً لوجود اللصوص فيها. وعبارة دارفيو هذه نسبة إلى اللص الذي صلب إلى يمين السيد المسيح وآمن به قبل موته. ويضيف دارفيو أن البدو في زمنه يقومون بدور اللصوص. ولعل الإشارة هنا إلى قرية العنب، التي عرفت فيما بعد بقرية أبوغوش، التي سيطر فيها قطّاع الطريق من البدو وعلى رأسهم زعيمهم أبوغوش المشهور في اخبار المغامرات في القرن التاسع عشر. ثم يذكر قرية عناتا على يمين الطريق، ويؤدي إليها ممرّ مليء بأشجار الزيتون، ولكن بيوتها خربة وسكّانها قِلّة. وآخر قرية يذكرها قبل رؤيته للقدس من بعيد هي قالونية الواقعة في منطقة جبلية إلى يسار الطريق وفيها جامع على رأس الجبل. وحين وصل دارفيو وصحبه إلى القدس توقفوا أمام باب دمشق قرابة ساعة، حتى حصلوا على إذن حاكم (صنجق بك) القدس بالدخول، ولو دخلوا دون هذا الإذن لتعرّضوا إلى غرامة كبيرة. ونزلوا ضيوفاً في دير آباء الأرض المقدسة(٦٤).

ويصف دارفيو موقع القدس الجبلي بقوله ان المرء يصعد باستمرار للوصول إليها ثم ينحدر منها بشدة حين مغادرتها، وأن أطرافها جرداء باستثناء الجهة المؤدية إلى بيت لحم حيث الأرض خصبة. ويقول عن القدس انها أكثر طولاً من الشرق إلى الغرب منها من الجنوب إلى الشمال. وتحيط بها أسوار قوية ذات أبراج مربعة بناها السلطان العثماني سليمان القانوني. ويبلغ سمك الأسوار حوالي مترين ومحيطها ٤٥٠٠ خطوة. وحولها خندق دون مياه يمتد من باب دمشق إلى باب بيت لحم حيث القلعة. ولها سبعة أبواب. ويصف أسوار القلعة وأبراجها بأنها قوية يحيط بها خندق واسع وعميق. وفيها ثلاثون مدفعاً وحامية من ثلاثين انكشارياً بقيادة آغا. ويعيش هؤلاء مع أسرهم في القلعة.

ويذكر دارفيو أن معظم الدور في القدس تضم طابقاً واحداً يعلو الطابق الأرضي، وهي معقودة بالحجر المنحوت والمسوّى ولها شرفات وخزانات لحفظ مياه الأمطار الضرورية لأن ليس في المدينة آبارٌ أو ينابيع أو سواقٍ. ويذكر دارفيو في مكان آخر أن مياه برك سليمان تجلب إلى القدس(٦٥).

وأول ما يصفه دارفيو في القدس هو كنيسة آباء الأرض المقدسة وكيفية حياة هؤلاء وغيرهم من الآباء واستضافتهم للحجّاج، ثم ينتقل إلى وصف كنيسة القيامة والطقوس الدينية فيها والاحتفالات التي تقام في عيد الفصح الذي صادف آنذاك في ٢٩ آذار/مارس. ويصف دارفيو كذلك الأماكن الأخرى ذات الأهمية الدينية في القدس(٦٦). ويُعنى دارفيو أيضاً بوصف المسجد الأقصى في القدس بتفصيل استقاه مما شاهده من الخارج ومما رواه له آباء الأرض المقدسة لأنه، كما يقول، لا يسمح لغير المسلمين بدخوله(٦٧).

ثم يقوم دارفيو مع حجّاج من الإفرنج بزيارة نهر الأردن. وقد تمّ ذلك بموجب اتّفاق مع حاكم القدس ومجموعة من البدو على أن يدفع كل حاجّ خمسة عشر قرشاً لقاء تأمين سلامته في الرحلة. ويذكر دارفيو أن الخروج مع قافلة المسيحيين الشرقيين إلى الأردن أقل كلفة، ولكن هؤلاء ما ان يستحموا بمياه الأردن حتى يعودوا إلى القدس، في حين ان الحجّاج الفرنجة يمضون فترة أطول للقيام بالطقوس الدينية. وقد خرجت قافلة دارفيو وجماعته من الإفرنج من القدس في ٤ نيسان/ابريل ١٦٦٠م يتقدّمها البدو ويتلوهم آباء الرهبانيات والحجّاج راكبين الحمير، ثم تأتي الجِمال المحمّلة بالمؤن والخيام، ويسير في المؤخرة العساكر العثمانيون على الخيول(٦٨). وقد وصلت قافلة دارفيو إلى الأردن من ناحية أريحا. ويذكر أن هذه المدينة خربة ولا تضم أكثر من خمسين بيتاً فقيراً يسكنها فلاحون يعملون في الحقول المجاورة. ويصف السهل حول أريحا بأنه خصب ترويه عدة جداول تصبّ في نهر الأردن. ولكنه يضيف أن هذا السهل غير مستغلّ، باستثناء المنطقة المحيطة بأريحا حيث تكثر البساتين. ويشير دارفيو إلى كثرة أشجار الزقوم في منطقة أريحا وإلى الزيت المستخرج من ثمرها والذي يعرف بالبلسم لأنه، كما يقول دارفيو، يفيد في معالجة الأمزجة المتبلّدة وتشنّج الأعصاب وداء المفاصل. ويذكر دارفيو أنه بحث عن الورود المعروفة في فرنسا باسم ورود أريحا فلم يجدها. ويقول انها توجد في المناطق الرملية والجافة في الصحراء العربية وعلى أطراف البحر الأحمر. ويصف كثرة الأشجار على ضفاف الأردن وكثرة السمك في مياهه. ثم يزور البحر الميت ويقدر طوله بستة وثلاثين فرسخاً وعرضه في وسطه بعشرة فراسخ. ويذكر أنّ مياهه صافية ولكنها مالحة جداً، وعندما تحرّكها الرياح الشديدة تقذف على أطرافها القار bitumen وبلّورات الملح الأبيض. ويقول ان هذا القار يحتوي على الكبريت الذي يستغلّ بسهولة، وان أرض البحر تقذفه إلى السطح حيث يتصلّب بتأثير الشمس. ويستخدم البدو القار لطلي مراكبهم، ويستفاد منه أيضاً كدواء، وكان يستعمل في الماضي لتحنيط الموتى لأنه يقاوم العفونة. ويرجّح دارفيو أن المياه التي تصبّ في البحر الميت ولا تزيد في ارتفاعه تتسرب إلى الهاوية أو عبر منافذ أرضية(٦٩)، ولكن غيره يذكر أنها تتبخّر.

وبعد أن يعود دارفيو إلى القدس يخرج لزيارة بيت لحم. ويصف، أثناء طريقه، جودة الأرض في الريف، ولكنه يقول بأنها مستغلّة بشكل سيّىء. ويشاهد البيوت الفقيرة منتشرة هنا وهناك فيها. وعند منتصف الطريق يسير في وادٍ حسن الهواء والتربة ويعلّق على ذلك بأنه لو استغل زراعياً لكان في مستوى جودة الأرض الزراعية حول مرسيليا(٧٠). وحين وصل إلى بيت لحم قال إن ما يلفت النظر فيها هو كنيسة الفرنسيسكان وديرهم، وكذلك البيوت الخربة. ويعيش معظم سكّانها من عملهم في صنع الأدوات التذكارية الدينية ومن الهبات التي تصلهم. ويشتمل سكّانها إلى جانب العاملين في دير الفرنسيسكان على مسيحيّين من الروم الأرثوذكس، ومسلمين يعملون في الزراعة. ويصف كنيسة المهد بالتفصيل، كما يصف الباب الرئيسي المنهار لمدينة بيت لحم من الجهة الشرقية.

ويذكر دارفيو أنه تحيط ببيت لحم تلال مزروعة بأشجار الزيتون والتين والكرمة التي يُصنع من ثمرها خمر جيدة. كما يؤتى إليها من الأودية المجاورة بكميات من القمح والحبوب الأخرى ومن الخضار الممتازة. ويعلّق دارفيو على ذلك بأن موقع بيت لحم متميّز وهواءها صحّي وتربتها أكثر خصوبة من أيّة قرية رآها في فلسطين، ومع ذلك فأرضها مهجورة وسكانها مختبئون أو هاربون بسبب ظلم حاكم القدس وابتزازه لهم، ولذلك لا يزرع السكان إلا ما يكفي لإعاشتهم، وعندما يتم الحصاد يخبئون في الكهوف ما جمعوه خشية مصادرته(٧١).

ويتّجه دارفيو من بيت لحم لزيارة الخليل، ويشاهد قرية بيت جالا إلى يمين الطريق، ويذكر أن سكّانها جميعاً من الأرثوذكس الذين يزرعون أراضيها الخصبة ويغنون منها. ثم يمرّ بدير القدّيس جرجس، وبنبع على بعد فرسخ منه ويشاهد قلعة صغيرة تعلو زواياها أبراج صغيرة ويقول إن حاكماً عثمانياً بناها قبل سبعين أو ثمانين سنة لحماية المنطقة من هجمات البدو ولجباية الرسوم من القوافل التي تمر في هذه الطريق. ويذكر وجود خزّان للمياه عند القلعة تصب فيه ينابيع مختلفة، وتنتقل مياهه إلى برك سليمان الثلاث، ومنها تنقل إلى القدس عبر قناة حجرية.

ويقدِّر دارفيو المسافة بين القدس والخليل بسبعة فراسخ.

ويذكر وجود قلعة في الخليل بحالة جيدة تقوم على مرتفع. ولا توجد للمدينة أسوار أو خندق وجميع سكّانها من المسلمين ويقيم فيها بعض اليهود. ونظراً لأهميتها الدينية يمنع إدخال الخمور إليها، ويذكر دارفيو وجود مطبخ كبير عند باب الجامع فيها حيث يطبخ حساء العدس والخضار ويوزّع مجاناً على المارة والمحتاجين. وقد تناول دارفيو وصحبه منه.

وبالنسبة لأراضي الخليل يذكر دارفيو جودتها وخصبها وبخاصة زراعة الكرمة فيها التي تعطي عنباً متميّزاً يصدّر إلى القدس. ويشير إلى صناعة الزجاج فيها من مختلف الألوان ولمختلف الاستعمالات مثل الآنية والقوارير والمزهريات، ويصفها بأنها بسيطة الصنع.

ويقول دارفيو إن عدة مدن وجدت في الماضي في أطراف الخليل ولكنها تراجعت إلى قرى. وسكنها عرب مسلمون يزرعون أراضيها. وتتبع الخليل وقراها من الناحية الإدارية حاكم القدس

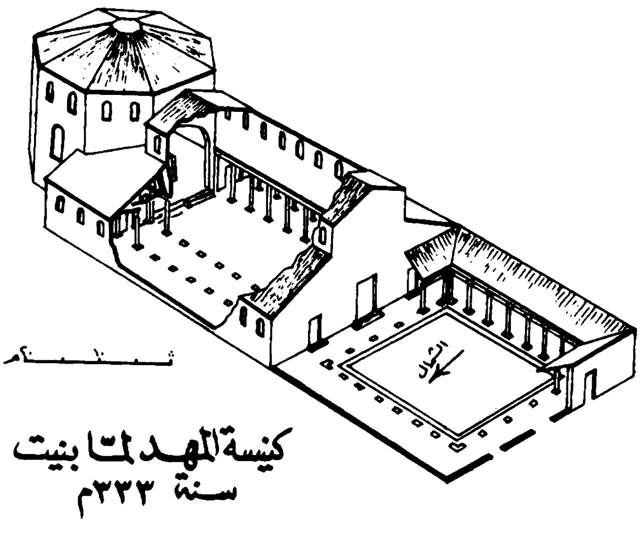


نهر الأردن

الذي يعين من قبله نائباً له فيها يعرف بالصوباشي وتحت إمرته عدد من الجنود لتحصيل الضرائب. ولكن السكّان يتّصفون بالتمرد وقلّما يدفعون الضرائب إلّا إذا أُجبروا على ذلك. ويضطر الصوباشي إلى طلب النجدة لمقاومتهم. ويصف دارفيو سكان منطقة الخليل بأنّهم شجعان، وعندما يثورون يصل مدى ثورتهم حتى بيت لحم، وإذا ما دفعوا الضرائب اقتطعوها من أسلابهم، وهم يعرفون منعطفات الجبال ويحاصرون منافذها لإيقاف المدد إلى الصوباشي الذي يلاحقهم، فيضطر عندئذ إلى مصالحتهم(٧٢).

وبعد أن يعود دارفيو إلى بيت لحم يزور مواقع دينية باتجاه البحر الميت، ثم يقفل راجعاً إليها، ومنها إلى القدس، واصفاً طريقه بالتفصيل وبخاصة الأماكن الدينية المسيحية التي يمرّ فيها، سواء منها ما اندثر أو ما زال قائماً. ويذكر في طريقه إلى القدس أنه وصحبه تخلّوا عن الطريق الرئيسي لتجنّب مداهمة البدو لهم وسلكوا طرقاً فرعية جبلية. ويعلّق على جمال الطبيعة في هذه المناطق بقوله انه يجب الاعتراف بأنه لو أمكن العيش بأمان في هذه البلاد لتمتّع الإنسان بأجمل حياة في العالم سواء لجهة تنوّع الطبيعة وتداخل الأودية بين الجبال، أو لطيب الهواء، أو لجمال أزهار هذه الأودية وروائح الأعشاب العطِرة في الجبال في جميع الأوقات. ويضيف أنه بالرغم من أنّ عدداً من الجبال اجرد، فقد أمكن في الماضي إقامة المساطب الترابية على جوانبها وزراعتها من الأسفل إلى الأعلى بأشجار الزيتون والتين والكرمة وأنواع الخضار، وأنه ما زال يرى الكثير من هذه المدرّجات يزرعها السكان العرب المسلمون في القرى المجاورة لها ويستغلّونها بعناية(٧٣).

ثم يغادر دارفيو القدس متّجهاً إلى عكّا بطريق الرملة، ويمرّ بقرية عمواس ذات الشهرة القديمة. ونراه كعادته، وخلافاً لمعظم الرحالة السابقين واللاحقين، يقلّل من ذكر أسماء القرى والمدن



كنيسة المهد لما بنيت
سنة ٣٣٣م

التي يمرّ بها، وإذا ما فعل فتكون التسمية في الغالب توراتية، أو تشويهاً لها. ولا يذكر كذلك تواريخ تنقّلاته. وكان يهتمّ أكثر شيء بزيارة الأماكن المقدسة التي ورد ذكرها قديماً حتى ولو كانت خربة. ويصل دارفيو إلى الرملة في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم الذي غادر فيه القدس. ويصل في اليوم التالي إلى يافا التي استقلّ منها مركباً إلى عكا، وكان ذلك في أواخر نيسان/ابريل ١٦٦٠م.

كانت وجهة دارفيو التالية الناصرة وجبل الكرمل انطلاقاً من عكا. وكان برفقة ثمانية عشر شخصاً أوروبياً. واتفقوا مع البدو على تأمين سلامتهم وتزويدهم بالخيول وبالبغال لحمل أمتعتهم. وأقسم البدو على القرآن الكريم بأن يحترموا اتفاقهم وطالبوا دارفيو وجماعته بالترجل حين التبوّل كي لا تدنّس الخيول. وتحسّباً لأي طارىء تسلّح دارفيو وجماعته بالأسلحة النارية في حين أنه لم يحمل أي سلاح إبّان زيارته للقدس والأماكن المقدسة الأخرى بسبب حظر ذلك. وكان البدو المرافقون لهم وعددهم ثلاثون يخشون السلاح الناري ويكتفون بالرماح. ويقدّر دارفيو المسافة بين عكا والناصرة بثمانية فراسخ. ويقول ان طول سهل عكا ثلاثة فراسخ وهو غني بالحبوب والخضار والقطن. ولكنه يستدرك بأن هواءه سيّىء للأغراب بسبب شدة الشمس والتبخر الذي تحدثه في أرض قليلة العمق. ويصف حياة الناس هناك بأنّها غير جيدة ولا سهلة، على نقيض الأماكن الأخرى في فلسطين. ثم يقول إن الأعشاب طويلة في هذا السهل إلى درجة أنها تحجب الطريق، والأرض خصبة إلى حد كبير. ويلاحظ حين وصوله إلى ممر جبلي كثافة الأشجار فيه بحيث يختبىء البدو وراءها لمهاجمة المارّة، ويسمّي هذا المكمن بالمربط، وهو من أكثر الأماكن خطورة في الجليل. وقد أشهر دارفيو وصحبه السلاح ومرّوا بسلام. ويؤدي هذا الممر إلى سهل زبولون، نسبة إلى أحد أبناء يعقوب، ولعله سهل البطوف اليوم. ويصفه دارفيو بأنه يمتد لمسافة فرسخ وأنه مزروع بمختلف أنواع الحبوب، ولكن تغيب فيه المدن والقرى. وتتلو هذا السهل منطقة صفّورية الزراعية التي تغطيها أشجار الزيتون وغيرها، وترويها جداول تنحدر إليها من الجبال. ويذكر أن صفّورية تسكنها قلة من المسيحيين والمسلمين الذين يعملون في الزراعة. ويسير بمحاذاة جبل إلى الشرق من صفورية ثم يصعد تلّة يشاهد منها مدينة الناصرة. ويقول إنها تقع عند سفح جبل وتحيط بها الجبال والتلال من كل جانب. ويذكر أن سكانها يتألّفون من آباء الأرض المقدسة وبعض المسيحيين الفقراء العاملين في خدمتهم، علاوة على بعض الروم الأرثوذكس. وهم يتخذون المُغر بيوتاً(٧٤).

ويتّجه دارفيو من الناصرة إلى قرية الرينة وبعدها إلى قرية قانا (الجليل) وهي كفر كنا، ويتكلم عن آثارها الدينية ويشير إلى أنها خالية من السكان تماماً. ويسير وسط سهل خصب ومزروع إلى أن يصل إلى مدينة طبرية. ويلاحظ أن قلعتها متهدمة وفيها بضعة بيوت يسكنها صيادون مسلمون يتقاضون حق المرور. ويشاهد نبع مياه معدنية على بعد مائة خطوة من القلعة، ولشدة حرارة المياه هذه لا يمكن ملامستها، وتصبّ في خزّانين حيث تفقد بعض حرارتها وعندئذ يغتسل بها المرضى. ويذكر أن قياس بحيرة طبرية هو حوالي ستة فراسخ في الطول وثلاثة في العرض، وان مراكب كثيرة كانت ترتادها في الماضي، ولكن استبداد الحكّام الآن وابتزازهم المال جعلا أصحاب المراكب يهجرونها.

وزار دارفيو في اليوم التالي جبل طابور زيارة خاطفة ثم اتجه منه إلى سهل خصب ومرّ بعدة قرى لا يذكر أسماءها، ومع ذلك فهي تدلّ على الوجود السكاني في المنطقة إلى أن وصل إلى عين (عيون) التجار. ويصف هذا الموقع بأنه يضمّ قلعة مربّعة تعلو جوانبها أربعة أبراج، وقد بنيت على جانب تلّة على الطريق التجاري الدولي بين دمشق ومصر. ويضيف أن البدو كانوا ينتظرون القوافل في هذا الموقع لنهبها ولكن القلعة الآن تحمي القوافل، إذ توجد فيها حامية من الانكشارية بقيادة صوباشي تابع لحاكم صفد. وتدخل تحت إمرة هذا الصوباشي الحاميتان الصغيرتان الموجودتان في برجين في الجهة المقابلة من الطريق واللتان تدافعان عن الخان القائم في عيون التجار، حيث تتوقّف القوافل. ويصف دارفيو الخان بأنه جميل وذو خدمات جيدة وفيه جامع جميل وقبّة مغطّاة بالرّصاص. وتتوفر المياه في جميع هذه الأبنية، وحتى داخل غرف الإقامة في الخان. ويضيف أنه لا أنظف ولا أكثر راحة منها. ويشير إلى أنّ هذه المياه تتجه نحو أودية مرج ابن عامر وترفدها جداول من جبل الكرمل، ثم تسير نحو حيفا حيث تصب في المتوسط في خليج عكا. ويقول دارفيو ان سوقاً أسبوعية تقام في عيون التجار حيث تباع الحاجيات



كنيسة المهد في بيت لحم

الحياتية والبضائع بأسعار معتدلة. ويذكر أنه سبق أن التقى بصوباشي عيون التجار الذي أكرمه الآن وأقام له ولصحبه عشاء، كما امتنع عن أخذ الثمانية عشر قرشاً التي كان يتوجب على كل من دارفيو وصحبه دفعها له لقاء حقّ المرور. وقد وزّع دارفيو جزءاً من المبلغ على خدم الصوباشي الذين اعتنوا بدابته ودواب صحبه واشترى كذلك مؤناً للطريق. وشاهد وصول قافلة من مصر في طريقها إلى دمشق وقد هاجمها البدو في الطريق(٧٥). وتكمن أهمية وصف دارفيو لموقع عيون التجار والتسهيلات المتوفرة فيه للمسافرين والتجار والحماية التي تقدمها القلعة والأبراج للموقع وللخان، وصلاحية الأبنية عموماً وعدم تهدمها، في المقارنة بين قوة الدولة العثمانية آنذاك وإقامتها الأمن على الطرق الرئيسية، في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي، وضعف الدولة في القرون التالية. وقد انعكس ذلك الضعف على تهدم القلاع والخانات وتكرر اعتداءات البدو على القوافل والمسافرين عموماً، كما تشير إلى ذلك كتابات الرحالة اللاحقين.

ويتجه دارفيو من جديد نحو جبل طابور الذي يقدر ارتفاعه بميل وقطره بنصف فرسخ، ويقول انه مغطّى بأشجار البلّوط وغيرها، ويشير إلى سهل على قمته يبلغ محيطه حوالي خمسة كيلومترات وهو ممتلىء بالأشجار الجميلة وفيه بقايا أسوار وأبراج وخنادق متهدّمة مما يدلّ على وجود قلعة فيه في الماضي، وتشاهد كذلك بقايا أماكن دينية. ويصف سهل مرج ابن عامر كما تراءى له من قمة جبل طابور بأنّه لا يمكن أن يوجد منظر أكثر جمالاً منه وأكثر اتساعاً وتنوّعاً مما يرى من هذه القمة. ورأى كذلك من قمة جبل طابور مختلف المواقع المحيطة به والبعيدة عنه مثل سهل الجليل ومرج ابن عامر وجبال السامرة وكذلك سهل أريحا والبحر الميت وغرباً جبل الكرمل. ويقول دارفيو انه حين يصفو الجوّ يمكن مشاهدة القدس أيضاً(٧٦).


الناصرة

غادر دارفيو جبل طابور باتجاه الناصرة، والتقى عند سفحه بقرية دبّورية، وبات ليلته في الناصرة. ثم اتّجه نحو جبل الكرمل سائراً بمحاذاة مرج ابن عامر. ويقول عن جبل الكرمل انه عدة جبال في آن واحد أشبه بجبل لبنان، وانه يقع بين الجليل والسامرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط. ويذكر أن المناطق الشمالية منه أكثر ارتفاعاً من بقية مناطقه التي تشبه التلال والتي تخترقها الأودية الصالحة للزراعة، ويزرع سكّانها الريفيون من المسلمين الحبوب، وهم أكثر نشاطاً من البدو الذين يقيمون فيها أيضاً (وأشهرهم آل طراباي)، بينما تعنى القرى المسيحية بزراعة الكرمة، لصناعة الخمر والزبيب، وبالبساتين. وينمو في هذه القرى البطيخ الأصفر وكذلك الأحمر الذي يفوق بجودته، كما يقول دارفيو، بطيخ مملكة نابولي وأمريكا. ويضيف أنهم يستخرجون من بزر البطيخ زيتاً يفيد في الأمراض الجلدية. ويسهب في وصف أنواع البطيخ وفوائده وبخاصة للمصابين بالحمى. ويشيد دارفيو بحسن هواء جبل الكرمل وبزراعة أشجار الزيتون والتين فيه إلى جانب البلّوط، وبتربية المواشي على اختلاف أنواعها، ويخصّ الغزلان بالوصف لجمالها. ويذكر أن جبل الكرمل وما يتبعه من أراضٍ هو تحت سلطة بدو آل طراباي. ويقوم أمير هؤلاء البدو الذي منحته الدولة العثمانية رتبة صنجق بك (يجعله دارفيو صنجق باشي أي رئيس الصنجق)، ويعادل بالعربية أمير لواء، بجمع الضرائب من سكّان جبل الكرمل من مسلمين ومسيحيّين، ويصف هذه الضرائب بأنها معتدلة وعينيّة من الحبوب والمواشي وغيرها، مقابل الأمن الذي ينعمون به. ويذكر كمثال قرية مزينات، ولعلّها أم الزينات، في الطرف الشرقي من جبل الكرمل، التي يسكنها عدد كبير من الروم الأرثوذكس إلى جانب بعض المسلمين الذين يعملون جميعاً في زراعة الأرض الخصبة. ونظراً لتبعيّة هذه القرية للأمير طراباي فإنّ سكّانها يعيشون في أمان ويسر خلافاً لغيرهم من السكان الذين يهجرون قراهم بسبب ابتزاز الحكام والموظفين العثمانيين المال منهم. ويعلّق دارفيو على هذا الوضع بقوله ان سكان هذه البلاد لا يحبون الأتراك إطلاقاً، بل ينظرون إليهم كمغتصبين ومستبدّين يريدون تدميرهم(٧٧).

ويستطرد دارفيو في وصف قرية مزينات في مكان آخر من مذكّراته(٧٨) فيقول ان بيوتها تتوزّع بين البساتين التي يزرعون فيها الخضار والأزهار والأشجار المثمرة وبخاصة البطيخ الأحمر. وتحيط

بالبيوت أشجار الكرمة ذات العنب المتميّز الذي يشبّهه بعنب كورنث Corinthe في فرنسا (والتسمية، كما يقول دارفيو، نسبة إلى عنب منطقة كورنث وهي مدينة كورنثوس في اليونان الذي انتقلت زراعته إلى فرنسا)، وهو صغير الحجم كثير الحلاوة طيب المذاق ويصنعون منه الزبيب، ويستخدم عادة في صناعة المعجّنات في أوروبا. ويضيف دارفيو أن الحبوب والخضار في هذه القرية من أحسن الأنواع إذ تزرع بعناية، ولا يوجد شبر واحد من الأرض غير مستغَلّ. وتُقدّر الضريبة على الفلاحين بحسب الأرض التي يزرعها كل منهم، وتقدّم عيناً بعد الموسم. ويقدّر سكّان هذه القرية بخمسمائة نسمة، ويؤكد مرة أخرى أنهم مرتاحون ويمتدحون الأمير من آل طراباي الذي يحول دون ابتزازهم من قبل موظّفي الحكومة.

وينتقل دارفيو بعد ذلك إلى الكلام عن مرج ابن عامر فيقول ان طوله حوالي عشرة فراسخ وانه خصب جداً ويُزرع بمختلف أنواع الحبوب، ولكن لا توجد فيه أشجار. ويذكر أنه إذا نظر إلى مرج ابن عامر من مكان مرتفع في شهر أيار/مايو حين تكون سنابل القمح في أوجها تحرّكها الرياح فإنه يبدو كالبحر الهائج(٧٩).

وبعد أن يزور دارفيو دير الآباء الكرمليين وغيره من الأماكن الدينية في جبل الكرمل ويصف بتفصيل أماكن زيارته وعلاقة الآباء الكرمليين بآل طراباي وبخاصة أميرهم الأكبر محمد زعيم جبل الكرمل آنذاك، يغادر الجبل إلى حيفا ومنها إلى عكا حيث ينتظر مركباً ينقله إلى صيدا. ونظراً لأنّ حاكم (صوباشي) عكّا كان عازماً على السفر إلى صفد عرض الأمر على دارفيو لمرافقته فقبل. وكان ذلك في شهر أيار/مايو ١٦٦٠م. ولا يذكر دارفيو مراحل الطريق التي سلكها إلى صفد بل ينتقل مباشرة للكلام عنها، فيقول إنها عاصمة الجليل وتقع على قمّة جبل عالٍ. وبالرغم من قدمها وشهرتها الماضية وكونها مركز صنجق فقد تراجعت أهميتها لتصبح قرية يقصدها اليهود ليقضوا بقية حياتهم فيها. ويضيف أنها ما زالت تشتهر باسمها وموقعها وأبنيتها التاريخية الخربة. ويذكر أنّ بعض الأسر المسلمة تسكنها إلى جانب جماعات كبيرة من اليهود الذين يقدّرونها، كما يقول دارفيو، أكثر من القدس والخليل لعدّة أسباب أولها أن عدداً من أحبارهم المشهورين وشخصيّاتهم الدينية أتوا إليها ودفنوا فيها، وثانيها أنّ أحبارهم قد أقنعوهم أن المسيح سيجعل صفد عاصمة مملكته الجديدة. ويعلّق دارفيو على ذلك بقوله ان رؤوس أحبارهم ملأى برؤى متعصّبة وبخرافات وتفاصيل تجعل اليهود الفقراء الذين يصغون إليهم لا يعرفون مصيرهم، فهم ينتظرون المسيح الآتي الذي صلبوه قبل ستة عشر قرناً. ويضيف دارفيو أنهم أي اليهود الفقراء، حين الإلحاح عليهم عن سبب تفضيلهم صفد، يجيبون أن اعتقاداً سخيفاً يجعلهم يفضّلون هذا المكان على سواه لكي يعيشوا فيه بؤساء، ثم يموتون حيث لا يريدون. ويعلّق دارفيو على ذلك بأن الأتراك يعرفون كيف يستفيدون من إصرار اليهود على العيش في صفد، فهم يبيعونهم إذن الإقامة فيها بثمن غالٍ ويفرضون عليهم الرسوم. وهكذا يعيش هؤلاء اليهود حياة الفقر المدقع، وعزاؤهم أن يكون لهم معبد، أو أن يسمح لهم لقاء المال أن يصلّوا حيث يريدون، وأن يستمعوا إلى أحاديث أحبارهم المتعصّبين. ويقول دارفيو ان الأكثر حذاقة والأقلّ احتيالاً من هؤلاء الأحبار يرسلون إلى استانبول وإزمير وغيرهما من المدن التجارية في الدولة العثمانية حيث اليهود الأغنياء، لجمع التبرعات. ويذهبون كذلك إلى ألمانيا وهولندا وانكلترا وغيرها من الأماكن حيث يكونون بمنأى عن محاكم التفتيش، ويجمعون مبالغ كبيرة من المال يوزّعونها على يهود القدس والخليل وصفد. وتكون حصّة يهود صفد هي الأكبر، لأن بؤسهم، كما يروي دارفيو، أكبر، ولأنّ لهم امتياز العيش في مكان مقدّس مثل صفد، ولأنهم يعتقدون أنّ صلواتهم أكثر فضيلة وفاعلية من غيرهم(٨٠).

ويذكر دارفيو أن في صفد قلعة قديمة مبنية بالحجارة بشكل متين في أعلى مكان في المدينة ويقيم فيها الحاكم. وقد رمّم القسم الأسفل منها قبل سنوات، ويستخدم كخان لإيواء المسافرين والأغراب. وتشاهد من سطح القلعة المدن والقرى على ضفاف طبرية وفي سهل أريحا وحتى البحر الميت. وتشاهد كذلك قمم جبال طابور والكرمل ولبنان. ويشير دارفيو إلى أنّه علاوة على الخرائب في صفد فإنّ بيوت السكان خربة بمعظمها هي الأخرى بسبب عدم توفر المال لدى أصحابها لإصلاحها. ولا يكفي عملهم لأكثر من إعاشتهم ودفع الضرائب والرسوم إلى الحاكم العثماني. وأحسن ما في صفد هواؤها النقيّ.

ويعود دارفيو إلى عكا برفقة حاكمها الذي قدم معه. ومنها يبحر إلى صيدا في ٢٦ أيار/مايو ١٦٦٠م على مركب كبير يحمل القِلي والقطن، ويصلها في اليوم نفسه. ثم يزور بعد ذلك لبنان ودمشق.

ولم تكن رحلة دارفيو هذه في فلسطين بين عامي ١٦٥٨ و ١٦٦٠م، كما رواها في الجزءين الأول والثاني من مذكراته، هي الأخيرة فيها، إذ قام بزيارات لاحقة إليها بين عامي ١٦٦٤

و١٦٦٥م من مقرّه في صيدا وذلك لمقابلة الأمير البدوي محمد طراباي حاكم جبل الكرمل من قبل العثمانيين، وللتوسّط لديه في حماية التجار الفرنسيين العاملين في موانىء فلسطين كما كان يفعل بالنسبة للآباء الكرمليّين. وقد سجّل زياراته هذه ذات الطابع الاجتماعي وبخاصة بالنسبة للبدو من آل طراباي في المجلد الثالث من مذكراته. وسنعتمد عليها في وصف جوانب من حياة البدو الاجتماعية في الفصل الثالث من هذا البحث.

وبمقارنة ما كتبه الرحالة الأجانب وما كتبه الرحالة العرب، أثناء زيارتهم لفلسطين، تتضح لنا أوجه الشبه والاختلاف بين الفريقين من حيث تأكيد كل فريق على جوانب دون أخرى. وفي هذا، في الواقع، تنوّع بل تكامل في المعلومات يزيد معرفتنا عن حياة فلسطين البلدية التاريخية وأحوالها.

وتتوفر الرحلات العربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبعضها يحوي وصفاً لفلسطين باعتبارها واقعة على الطريق بين دمشق والقاهرة، فيما تقتصر رحلات أخرى على وصف خاص بفلسطين مبني على زيارة خاصة بها. ومن أولى الرحلات التي سنستعرضها رحلة إبراهيم الخياري، **تحفة الأدباء وسلوة الغرباء**[٨١]. والخياري (١٠٣٧ ـ ١٠٨٣هـ / ١٦٢٨ ـ ١٦٧٢م) شافعي من المدينة المنورة سافر إلى الروم (أي استانبول) مروراً بدمشق التي وصلها مع قافلة الحج الشامي في ٢٨ صفر ١٠٨٠هـ / ٢٨ حزيران/يونيو ١٦٦٩م ووصف طريق الحج والمنازل التي مرّت بها القافلة. وبعد أن عاد من الروم توقف من جديد في دمشق. ثم غادرها عن طريق فلسطين وتوقّف في الرملة حيث أخذ فيها عن الشيخ خير الدين الرملي، ثم سار إلى القدس وزار بعد ذلك الخليل وغزة في طريقه إلى القاهرة ومنها التحق بقافلة الحج المصري ووصل المدينة في ٢٨ ذي القعدة ١٠٨١هـ / ٨ نيسان/أبريل ١٦٧١م[٨٢].

وخلافاً للرحالة الأجانب لا يزوّدنا الخياري بتواريخ دقيقة لتنقلاته في رحلته في فلسطين. وقد غادر دمشق في النصف الثاني من رجب ١٠٨١هـ / النصف الأول من كانون الأول/ديسمبر ١٦٧٠م وبعد أن توقف في القنيطرة مرّ، كما يقول، بمناطق سهلية تلتها أخرى جبلية وعرة فيها آثار خرائب إلى أن وصل إلى جسر بنات يعقوب. ويذكر الخياري أنه عند هذا الجسر ينزل المسافرون، وبه نزلنا، ويقصد بذلك الخان. ثم يتابع سيره في أرض صعبة المسالك إلى أن يصل إلى خان معمور وعند بابه الجب اليوسفي (جب يوسف) وهو مبني بالحجارة وتعلوه قبة وله أبواب وبجانب البئر (الجب) مسجد. أما الخان فيقول إن فيه أماكن خربة. وتابع مسيره إلى منزلة (خان) المنية حيث الخضرة وعذوبة المقام، وهو بشاطىء بحيرة طبرية التي تصب فيها أنهار كثيرة. ويقول الخياري انه يخرج منها نهر (هو الأردن) يمر بالخان الأحمر الذي يتوقف فيه من يتوجّه إلى الحج من نابلس إلى المزيريب حيث يلتحق فيها بقافلة الحج الشامي، ويصب ماؤه في بحرة لوط (البحر الميت)، كما يقول الخياري[٨٣].

ويتابع الخياري وصحبه طريقهم من قرية المنية عبر مسالك وعرة حتى يصلوا منزل عيون التجار وهو متسع وبه قلعة عامرة على تل مرتفع، يقابلها خان يضم جامعاً حسناً بمنارة مرتفعة، وبعض بويتات، وماء عذب يستقي منه المسافرون. وقد أقام به يوم الخميس وكذلك الجمعة، حيث صلّى «بالجامع الكائن وسط الخان». ونظراً لهطول المطر الغزير أقام الخياري في عيون التجار حتى يوم الاثنين. ولذا يقول التسمية يجب أن تكون عيون البحار. وسار بعد ذلك في ممر ضيق (يسميه بوغازاً، وهي كلمة تركية وتعني المضيق أو الممر)، ممتلىء بالأشجار يسمونه «نقب دبوريا» نسبة إلى قرية دبورية. ثم وصل إلى مرج سمّاه «دابق» أو دابغ، ولكن ملاحظة على الهامش ربما لناسخ المخطوط تصحح الكلمة إلى مرج بني عامر، حيث تكثر الأوحال، كما يقول الخياري[٨٤].

ويصل الخياري إلى منزل اللجون ويشتمل على خان على بابه منارة مرتفعة وقد بات فيه. ويقول الخياري إن بعض من لقيهم أخبروه أنه يحيط بالمرج ضيعات (قرى) كثيرة. ونستدل من تعريج الخياري على منزل اللجون أنه كان يسير على الطريق الرئيسية التي تربط دمشق بالقاهرة. ويذكر مروره بسبيل ماء على قارعة الطريق على يمينه ضيعة تسمى عارة، وعلى يساره أخرى تسمى عرعرة، وقد مرّ بينهما. ثم وصل إلى منزل قاقون (يكتبه قاقوم) ويشتمل على قلعة مبنية على تل وعلى خان كبير. وبعد استراحة تابع سيره فمرّ بأشجار كثيرة وبقلعة القلنسوة (قَلَنْسَوة) ومنها إلى قرية جلجوليا حيث وجد جماعة يسمون الغَفَر لأخذهم مال الغَفَر وهو المعروف بالغفارة، أي مال الحماية. ولم يعين الخياري هوية هؤلاء الغفر وهل هم موظفو دولة أم قطاع طرق ولكنه يقول انهم «يوقفون المارين من التجار فبركوا [كذا] سائر المارين إلى أن طلع النهار فسومح غير التجار وأخذ من التجار معتادهم وسرنا بعد ذلك»[٨٥]. ومما تجدر ملاحظته أن الطريق المار بجلجوليا تسير عليه قوافل التجارة بين مصر والشام لذا يكون مال الخفارة من الأهمية بمكان. ومما يدل على أن جباته هم من غير موظفي الدولة ان جلجوليا ليست نقطة حدود حيث يتم تقاضي

المكوس الرسمية ولكنها نقطة هامة لأنها تقع قبل يافا أي أن البضائع المتجهة من يافا باتجاه نابلس أو صفد أو الشام مثل تلك القادمة من مصر، يجب أن تمر بجلجوليا.

ومر الخياري بعد ذلك برأس العين على يسار الطريق وبها قلعة عامرة، ثم مرّ بقرية اللد ويصفها بأنها «عذب هواها مخضرة أنحاؤها ورباها»، وبعد ساعة منها وصل الرملة. ويصف الرملة بأنها عامرة البناء ظاهرة الإشراف بها المساجد العامرة وبقربها بركة ماء عند منزل الحجاج تمتلىء بماء المطر. وبعد أن التقى بالشيخ خير الدين الرملي وصحبه من العلماء في ٢٦ رجب ١٠٨١هـ / ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٦٧٠م سار باتجاه القدس في «جمع من الركب» كما يقول، وقد افترق عنه مرافقوه فساروا باتجاه أسدود في طريقهم إلى مصر كما يبدو. وقد رافق الخياري وجماعته عسكر من الرملة يهدونهم الطريق ويدفعون عنهم قطّاعه. وبعد اجتياز جبل شامخ وصلوا إلى قرية عامرة تسمى قرية العنب (أبو غوش)، ثم ساروا في مناطق جبلية وعرة إلى أن وصلوا إلى القدس. وأول ما لاح منها سورها ثم رأى الخياري الخندق المحيط به، ولاحظ أثناء دخوله البلد، على يمينه، قلعة شاخة محكمة البناء، وبعد تجاوزها وصل أسواقها، التي كان فيها كل ما يحتاجه الناس. ثم توجه إلى خان يأوي إليه المسافرون فنزل فيه[٨٦].

ويهتمّ الخياري بزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس وعلى رأسها المسجد الأقصى ويسهب في وصفها تماماً كما كان يفعل الرحّالة الأوروبيون بالنسبة للأماكن المسيحية. ويذكر الخياري أنّ في أطراف المسجد الأقصى:

> «أماكن من المدارس والأوضات [الغرف] التي يسكنها طلبة العلم... وأما أبوابه الموصلة إليه من الخارج فهي باب المغاربة، باب البراق، باب السلسلة ومنه كان دخولنا إليه لقربه من منزلنا وهو يتصل به سوق البلد، باب السكينة، باب المتوضئين، باب القطّانين، باب الحديد، باب الناظر، باب الغوانمة، باب حُطَّة، باب إلى جانبه لم أعرف اسمه، باب الرحمة»[٨٧].

وفي يوم الجمعة ٢٨ رجب ١٠٨١هـ / ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٦٧٠م اتجه الخياري لزيارة الخليل فمر بعين سلوان وجبل الطور وأمضى ليلته في خان في بيت لحم ووصف كنيسة المهد فيها، ويبدو أنه زارها. ووصل في اليوم التالي إلى قلعة البركة وبجانبها بركة كبيرة بقربها بركتان، ويذكر أنّ القدس تتزود بمائها منها. ومرّ بأشجار زيتون جعلته كثرتها يقول «فهذه الأرض منابت الزيتون». ووصف الخليل حين وصل إليها أنها بلدة قائمة البناء ظاهرة السناء أكثر ما في بساتينها أشجار العنب. ويصف قلعة الخليل بأنها محكمة البناء. وقد زار مسجد المدينة وهو في مكان مرتفع ومبني من الحجر الأسود، وزار قبر إبراهيم الخليل عليه السلام. ويقول الخياري انه قبل زيارة الخليل زار قرية حلحول وقرية سعد بسبب آثارهما الدينية[٨٨].

وتابع الخياري سفره بعد زيارة الخليل فوصل إلى بيت جبرين أو قلعة جبرين «فإذا هي قرية بها قلعة وخان خرب»، وقد بات وصحبه في الخان. ثم سار في بسيط من الأرض، وبات في قرية مضيافة لم يذكر اسمها، وبعد ذلك وصل إلى غزة في أول شعبان / ١٤ كانون الأول/ديسمبر والتقى بعلمائها. وخرج منها باتجاه مصر فوصل قرية خان يونس وفيها «خان عامر ومسجد وسوق أمام الخان وبويتات منزولة إلى جوانبه». ثم غادرها ووصل إلى منزلة الزعقاء (المرجّح أنها زعقوقة) ومن بعدها العريش «الذي هو من الجهة المصرية أول الشام». وفي العريش خان ومسجد ومنارة وبيوت حول ذلك وبساتين فيها أشجار النخل. ثم تابع طريقه إلى مصر[٨٩]. وبهذا يكون الخياري أول من سار من القدس إلى غزة عن طريق الخليل في حين أن الرحالة الأوروبيين كانوا يعودون من القدس إلى الرملة ليسيروا على الطريق الرئيسي إلى غزة.

وتتوفر ثلاث رحلات هامة إلى فلسطين في العقد الأخير من القرن السابع عشر، اثنتان منها للشيخ عبد الغني النابلسي (١٠٥٠ ـ ١١٤٣هـ / ١٦٤١ ـ ١٧٣١م)، عالم دمشق ومفتيها، وهما من أشمل وأغنى ما كتب من الرحلات بالعربية. والثالثة لرجل دين إنكليزي، خريج جامعة أكسفورد، والمرشد الديني لتجار شركة بلاد المشرق الانكليزية في حلب واسمه هنري موندريل Henry Maundrell.

رحلتا النابلسي هما: **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية** التي قام بها في عام ١١٠١هـ / ١٦٩٠م، و**الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز** التي قام بها في عام ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م[٩٠] وكلتا الرحلتين لم تنشرا بكاملها وقد اعتمدنا على النسخ المخطوطة[٩١].

خرج النابلسي من دمشق في رحلته الأولى باتجاه القدس يوم الاثنين ١٧ جمادى الثانية ١١٠١هـ / ٢٨ آذار/مارس ١٦٩٠م. وكان مع جماعة من أصحابه وليس، كما يبدو، في عداد قافلة. ووصل في اليوم الرابع إلى جسر بنات يعقوب الذي يصفه أنه مبني من الحجارة وبقربه خان. ولكن النابلسي وصحبه أمضوا ليلتهم في الخيام. ثم وصل في اليوم الخامس إلى جبّ يوسف.

ويشير النابلسي إلى اختلاف القدامى حوله فمنهم من يجعله في بيت المقدس ومنهم من يجعله في أرض الأردن. ويذكر وجود خان عامر البناء، وعلى الجب قبة لطيفة البناء، وبالقرب منه مسجد للصلاة. ثم سار النابلسي إلى خان المنية حيث استراح وصحبه. ويقول النابلسي ان التسمية هي المنية بكسر الميم وبعضهم يشددها،وتعني المنيّة أي الموت، فيما إذا خُفّفت فإنها تعني الأمنية. وأمضى فيه ليلته ثم غادر في اليوم السادس باتجاه تكية عيون التجار. وكان جامعها مغلقاً بسبب فتنة قتل فيها شيخ القرية «وقد نُهب الجامع وما فيه وقفلوا بابه ومنعوا منه من يبتغيه. وفي رجوعنا كان الأمر كذلك»(٩٢). ويمتدح النابلسي منزل عيون التجار بأنه حسن يليق أن ينزل به عيون التجار، ويصفه بأنه منزل من منازل القفول ومنه يفترق المسافر الذاهب إلى مصر جهة الغرب والذاهب إلى بيت المقدس جهة الجنوب. ثم وصل إلى قرية الناعورة حيث أمضى ليلته، وتابع السير في اليوم السابع ونزل قبالة قرية جلمة، ثم سار إلى بلدة جنين حيث استقبله أهلها من المتصوفة. والتقى في قلعتها بنائب حاكمها الشريف يحيى بن الشريف بركات الهاشمي المكي. وكان الشريف يحيى هذا قد عيّن أميراً على قافلة الحج الشامي في عام ١١٠٢هـ / ١٦٩٠ ــ ١٦٩١م وحاكماً في الوقت نفسه على صنجق القدس الذي تتبعه جنين(٩٣). وزار في جنين بقايا أمراء طراباي الذين أفل مجدهم، كما يقول، واجتمع فيها بشخص من قرية فالوجة من قرى غزة، وبآخر من قرية يَعبَد (بفتح الياء والباء) وهي من قرى نابلس (قضاء جنين)، وبثالث من قرية الزيب بالقرب من أعمال صفد (تابعة لعكا). ويدل هذا على عدم تقوقع الناس في قراهم وعلى تجوّلهم وبخاصة لأنهم كانوا من رجال الدين.

وبعد إقامة ثلاثة أيام في جنين غادرها النابلسي، في اليوم التاسع من رحلته، لزيارة الشيخ إسماعيل بن الشيخ مصلح اليعبدي في زاويته في قرية يعبد. وفي اليوم العاشر مرّ بقرى عرّابة وفحمة وعجّة والرامة والسيلان واللاوية وَبُرقة (بضم الباء) وسبسطية، ويقول النابلسي عنها:

> «وبعضهم يقول سبسطين... وهي فلسطين المشهورة... ولعل كون سبسطية في فلسطين مجاز من قبيل إطلاق اسم الكل على البعض كما يطلقون على دمشق الشام أنها الشام مع أن الشام من الفراة [كذا] إلى العريش ومن معان إلى ملطية طولاً وعرضاً فالشام اسم لقطر مخصوص كما أن فلسطين اسم لقطر مخصوص»(٩٤).

ويشير النابلسي إلى زيارته إلى جامع سبسطية. ثم تابع مسيره إلى نابلس، ويستطرد في وصفها إذ يقول:

> «وهي كثيرة الأعين والأشجار والفواكه ومعظم الأشجار بضواحيها الزيتون. وروى المشرف بسنده عن كعب قال أحب البلاد إلى الله تعالى الشام وأحب الشام إلى الله تعالى القدس وأحب القدس إلى الله تعالى نابلس... وبنابلس كثير من السامرة فإنهم يعتقدون أن القدس جبل نابلس وقد كذبوا وخالفوا جميع الأمم في ذلك»(٩٥).

وأقام النابلسي مدة خمسة أيام في بيت مُتسلّم «تلك البلاد النابلسية»، وهو علي شربجي من أعيان الشربجية (ضباط الانكشارية) بدمشق وابن الأمير يوسف كافل قلعة الكرك سابقاً. وزار في نابلس حمّام الخليل، وأشار إلى استقباله أناساً من قريتين في منطقتها هما قيصين (لعلها قوصين اليوم) وبيتليد (تكتب أيضاً بيت لدّ)(٩٦). وقد زار النابلسي في اليوم الرابع من إقامته في نابلس وهو اليوم الثالث عشر من رحلته روضاً في مدينة نابلس يصعد إليه بدرج طويل:

> «وهو من العجايب... أن يكون بستان ذو أشجار ومياه جارية وثمار يانعة وأزهار فايحة وأطيار صادحة وذلك كله فوق الأسطحة وتحتها أفران ومخازن... وهو من خصوصيات هذه البلاد النابلسية لأنّ بيوتها كلها بالأحجار المنحوتة والجص مبنية وأسقفتها القبو المعقود وليس السقف من الخشب هناك بمعهود»(٩٧).

ويذكر النابلسي زيارته للسرايا الخراب العتيقة في نابلس لأن فيها ضريح أحد الأولياء.

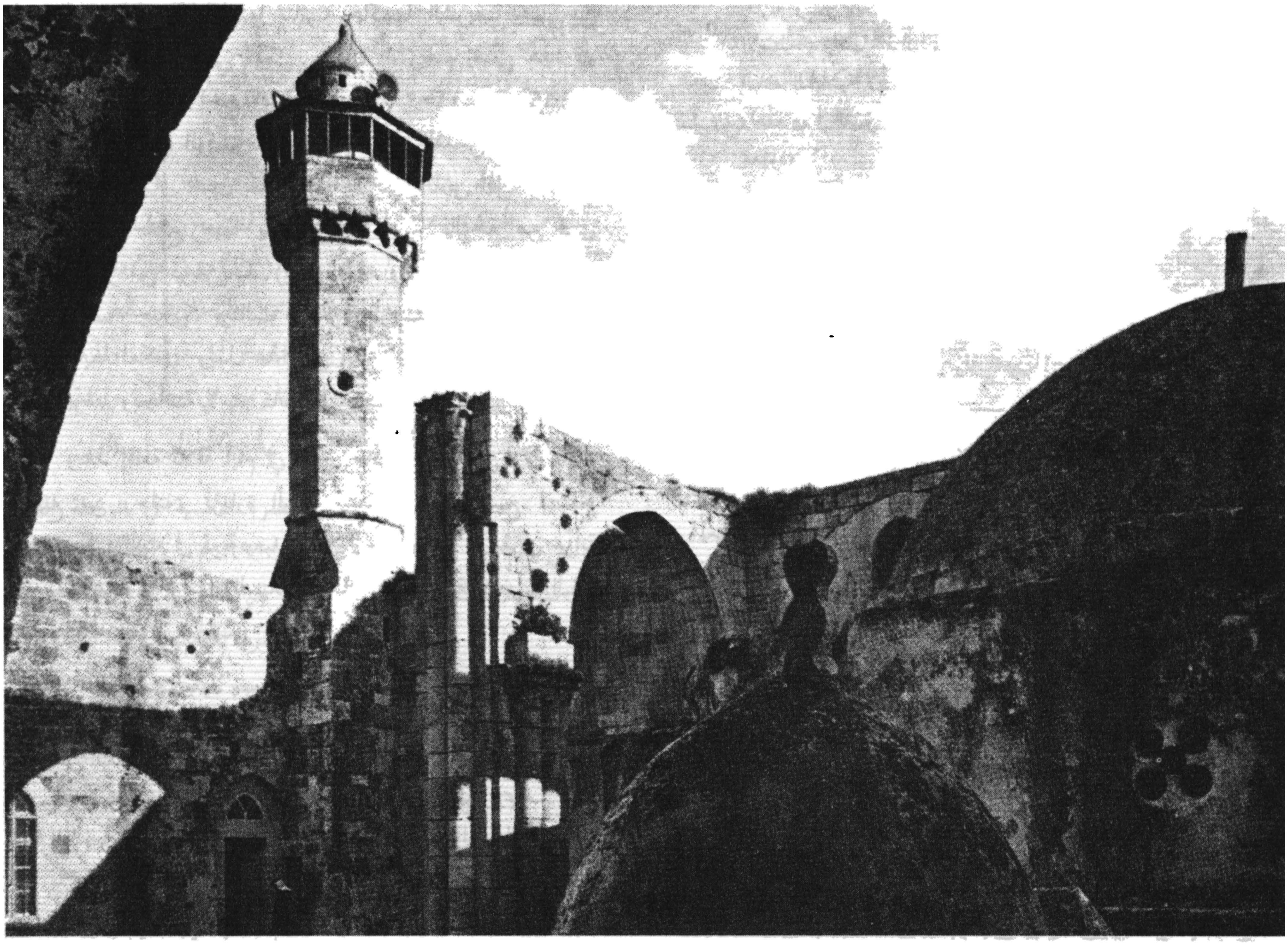
غادر النابلسي مدينة نابلس في اليوم الرابع عشر من رحلته باتجاه القدس. ووصل إلى قرية عَوَرتا حيث توقف، ثم استأنف مسيره بعدها إلى قرية جمّاعين حيث بات ليلته. وفي اليوم التالي مرّ بقرية مَرْدى، ووصل عقبة اللّبّن وفيها خان وبركة ماء، ثم مرّ بقرية سنجل وبعدها قرية عين يبرود «فنزلنا بها في ذلك المنزل المعهود الذي هو لنزول الضيفان معدود، وفي قبالته مسجد عالٍ يصعد إليه بدرجات وهو من غير سقف تجتمع الناس فيه للصلوات، فبتنا بها تلك الليلة مع الجماعة»(٩٨). وفي اليوم السادس عشر اجتاز القفار ووصل إلى قرية البيرة حيث توقف ساعة، ومن ثم صعد عقبة أشرف منها على القدس. ثم زار في ظاهر القدس من جهة الشمال المدرسة الجراحيّة وفيها مزار الشيخ جرّاح. ودخل القدس من باب العمود. ويصف سور القدس بأنه سور متين وأنه من بناء السلطان العثماني سليمان القانوني. ويذكر لمدينة القدس عشرة أبواب:

> «منها هذا الباب المذكور الذي هو باب العمود وهو من جهة الشمال، ومن هذه الجهة أيضاً باب آخر يسمى باب الداعية

المتوصل منه إلى حارة بني زيد وباب يسمى باب دير الرب وباب الساهرة ومن جهة القبلة باب حارة المغاربة وباب صهيون المعروف الآن بباب داود ومن جهة الغرب باب صغير بلصق دير الأرمن وباب المحراب المعروف الآن بباب الخليل وباب يعرف بباب الرحمة ومن جهة الشرق باب الأسباط»[٩٩].

وذكر أن للمسجد الشريف أربعة عشر باباً منها ثلاثة مسدودة: باب التوبة وباب الرحمة وهما بابان متّحدان في السور الشرقي من داخل الحائط مما يلي المسجد والباب الآخر بالسور الشرقي بالقرب من البابين المذكورين من جهة القبلة. والأحد عشر باباً: من جهة الغرب «باب القطانين الذي دخلنا منه وباب الغوانمة وباب الناظر وباب الحديد وباب المتوضأ وباب السلسلة وباب السكينة وباب المغاربة ويسمى باب النبي، ومن جهة الشمال باب الأسباط وباب حطة وباب شرف الأنبياء»[١٠٠]. ويلاحظ اختلاف في بعض التسميات وفي عدد الأبواب بين ما ذكره النابلسي هنا وما ذكره الخياري الذي زار القدس قبل عشرين سنة[١٠١].

وزار النابلسي المدرسة السلطانية في القدس ووصفها بدقة وقال: «فهي مدرسة عظيمة ذات قدر جليل لم يبن في الدنيا مثلها كما يشهد به الجيل بعد الجيل ولئن وجد مثلها فلا يمكن أن يكون في مثل هذه البلاد المقدسة». وقد ذكر أنها من بناء السلطان الملك الأشرف قايتباي الشركسي[١٠٢]. ويستطرد النابلسي في وصف الأماكن المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين على حد سواء[١٠٣]، وهذا دليل على تسامحه الديني. ويذكر أسماء العلماء الذين اتصلوا به، ويشير إلى دروسه في المدرسة السلطانية. وذكر النابلسي زيارته إلى مقبرة ماملاً بظاهر القدس من جهة الغرب، وهي أكبر مقابر البلد وان تسميتها، كما قيل، مشتقة من كلمتَي مأمن الله[١٠٤]. وزار النابلسي بظاهر القدس من جهة القبلة عين سلوان التي تروي



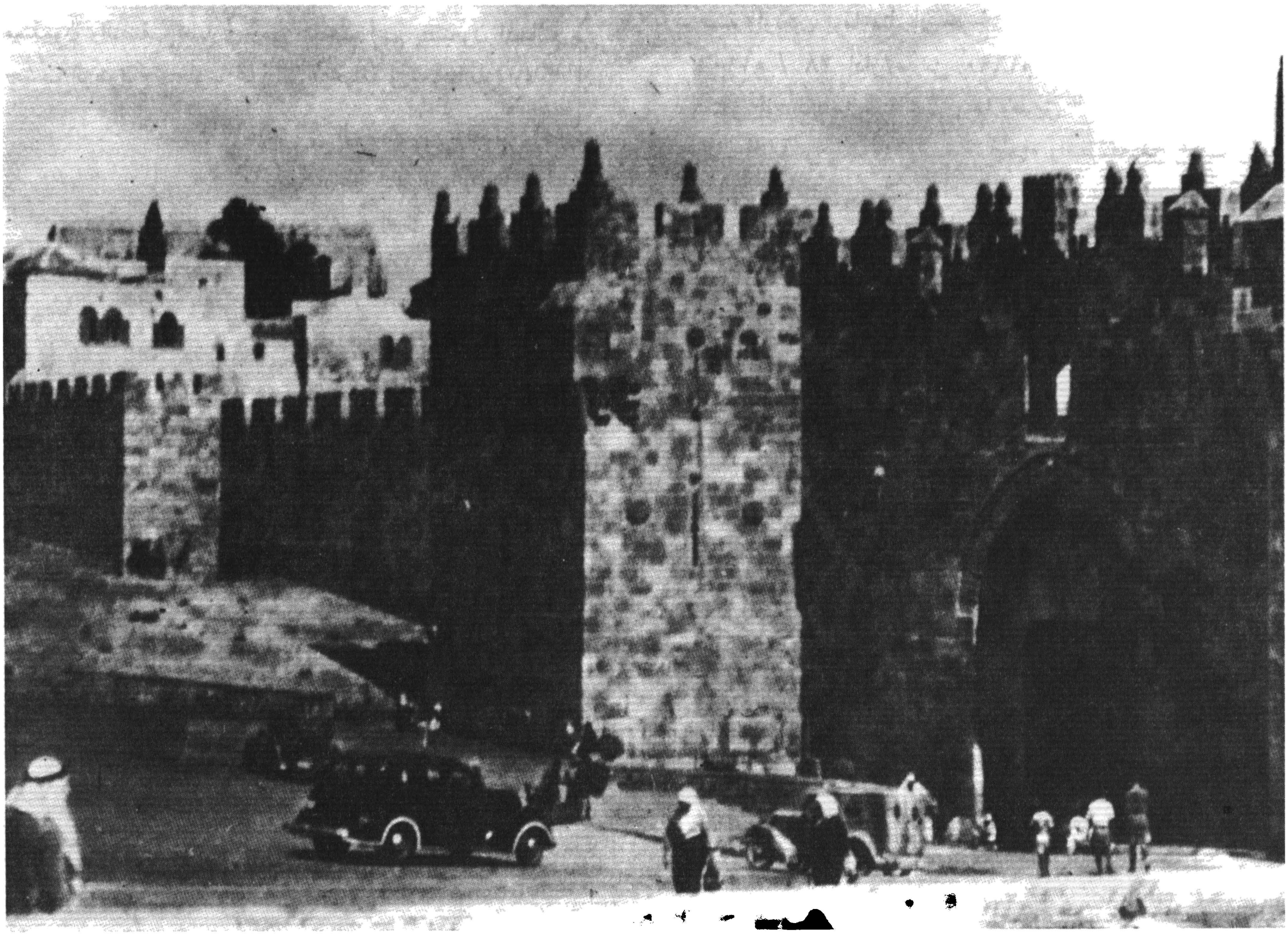
جامع سبسطية

بساتين قرية سلوان. ثم زار جبل الطور، وهو طورزيتا، في شرقي بيت المقدس يضم قبور الصالحين ويشرف على المسجد الأقصى وحرم الصخرة الشريف(١٠٥). ومن المدارس التي زارها في القدس المدرسة الصلاحية والمدرسة القادرية والمدرسة البسطامية.

وفي اليوم الثاني والعشرين من زيارته لفلسطين خرج النابلسي من القدس لزيارة ضريح النبي موسى، ولا يعين مكانه الجغرافي ولكن المسير إليه استغرق من ساعتين بعد طلوع الشمس حتى فات وقت الظهر(١٠٦). ومن هناك توجه في المساء إلى بحيرة لوط (البحر الميت) «وإليها ينتهي ماء بحيرة طبرية وهو الأردن يعني نهر الشريعة»(١٠٧). وبات ليلته في مزار النبي موسى وعاد إلى القدس في اليوم التالي (الثالث والعشرين) ماراً بقرية العيزريّة.

ومرّ النابلسي بسوق القدس الذي وجد فيه «بيت القهوة ملآن وهم يعلنون بأنواع الأغاني والألحان فكمل لنا السماع وانطربت منا الأسماع»(١٠٨). ثم زار خارج القدس، من جهة باب العمود، زاوية الأدهمية ومقبرة باب الساهرة بالقرب منها. وعاد إلى القدس من جهة الغرب من الباب الصغير الذي بلصق دير الأرمن(١٠٩).

وفي اليوم الخامس والعشرين خرج النابلسي من باب المدينة المسمى بباب المحراب والمعروف آنذاك بباب الخليل لزيارة الخليل (حبرون). وذكر صعوده إلى مكان مرتفع في الخليل فيه سماط السيد الخليل المسمى بالدشيشة، عند مسجد الجاولية. «وعلى باب المطبخ تدق الطبل خانة (خانة: فارسية معناها بيت) في كل يوم بعد صلاة العصر عند تفرقة السماط». وينقل عن الحنبلي أن هذا السماط يأكل منه أهل البلد والمجاورون وهو خبز يعمل في كل يوم ويفرق ثلاثة أوقات. وينفق عليه من وقف واسع. وتوجد



باب العمود في القدس

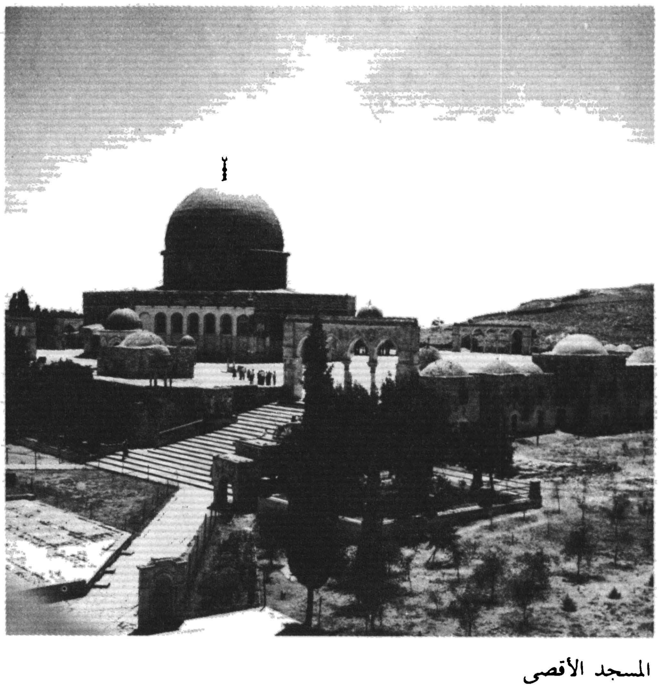
فيه أفران وأحجار للطحن وحواصل لخزن القمح والشعير[١١٠]. وخرج النابلسي من الخليل في اليوم السادس والعشرين لزيارة بعض الأماكن الدينية أحدها في قرية كفر البريك، ويقول عنها «والآن يقال لها قرية بني نعيم»، وآخر في قرية سيعير (بكسر السين والعين). ويقول ان هذه القرية هي الفاصلة بين بلاد الخليل والقدس[١١١]، ثم عاد إلى الخليل.

وفي اليوم السابع والعشرين غادر الخليل ووصل إلى قرية حلحول، ويقول النابلسي عنها:

> «فدخلنا إلى قرية ليس فيها أحد من الناس لأنهم خرجوا منها إلى بيوت من الشعر غير محتاجة إلى الأساس وتلك عادتهم أنهم يأتون للقرية في أيام الصيف لجمع الغلة ويذهبون في أيام الشتاء إلى الغور لدفع ألم البرد والعلة»[١١٢].

ثم سار منها إلى البرك الثلاث التي يجري ماؤها من الأمطار إلى مدينة القدس. وتحرسها قلعة من تعديات البدو والفلاحين. ثم زار بيت لحم ويقول عنها ان «نصف أهلها القاطنين بها مسلمون والنصف نصارى ومن عادتهم أنهم يصنعون المسابح من خشب الزيتون ويخرطونها على أنواع مختلفة ويبيعونها للزوار»[١١٣].

وعاد النابلسي إلى القدس في اليوم السابع والعشرين حيث بقي سبعة أيام قابل خلالها علماء القدس، ثم غادرها في اليوم الرابع والثلاثين. وعاد في الطريق نفسه الذي سلكه في الذهاب فمرّ أولاً بخان البيرة ثم بقرية سنجل حيث بات تحت الخيام



المسجد الأقصى

وقال: «كانت ليلة عطرة لكنها من شر اللصوص خطرة»[١١٤]، ثم استأنف مسيره إلى نابلس حيث أقام ثلاثة أيام، ثم غادرها وتوقف عند نبع بئر الحمام. وتابع سيره إلى قباطية حيث أمضى ليلته، ومنها إلى جنين. وزار بدعوة من أحد المتصوفة قرية مُغر السعادة قرب جنين. وأقام في جنين يومين، والتقى بقربها عند قرية جلمة بالشريف يحيى حاكم تلك المنطقة وأمير الحج الشامي. وعاد برفقته إلى جنين. ثم غادرها إلى خان عيون التجار حيث بات ليلته. وفي اليوم التالي (الثاني والأربعين من رحلته) وصل إلى المنية وبعدها جب يوسف ثم خان جسر بنات يعقوب حيث أمضى ليلته. وفي مسيره إلى القنيطرة التقى ببدو في خيام. وبعد أن أمضى ليلته في القنيطرة سار إلى سعسع في اليوم الرابع والأربعين. وغادرها في اليوم التالي إلى قرية داريا الكبرى ومنها إلى باب الله خارج دمشق. ووصل إلى داره فيها في ١ شعبان ١١٠١هـ / ١٠ أيار/مايو ١٦٩٠م.

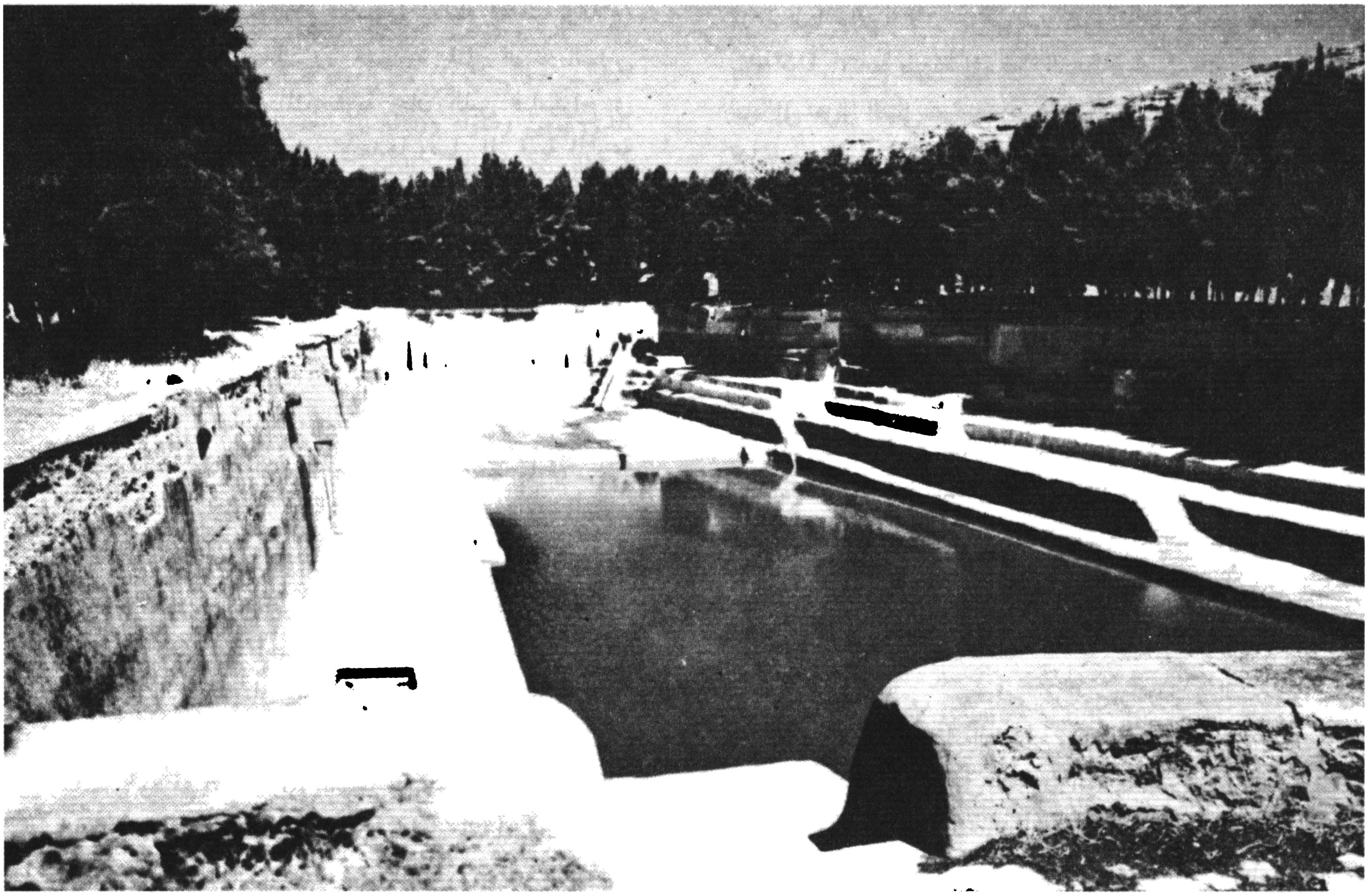
وهكذا يكون النابلسي قد أمضى في رحلته إلى القدس خمسة وأربعين يوماً منذ أن خرج من دمشق في ١٧ جمادى الثانية ١١٠١هـ / ٢٨ آذار/مارس ١٦٩٠م. وقد استغرق طريقه من دمشق إلى القدس ستة عشر يوماً وطريق العودة عشرة أيام فقط. وكان النابلسي مسروراً بصحبة العلماء والمتصوفة الذين سمعوا به أو التقوه بدمشق. وتشكل أخبار هؤلاء وأوصاف الأماكن الدينية الجزء الأكبر من مخطوط النابلسي. وبالرغم من تمتعه بجمال الطبيعة في فصل الربيع الذي تمت فيه الرحلة فإن ذلك لم يمنعه من ذكر الأخطار على الطريق وبخاصة من البدو. ويتميّز النابلسي عن غيره من الرحّالة العرب بأنه تحرّى صحة لفظ أسماء القرى في فلسطين وكذلك اشتقاقاتها.

يتبع النابلسي في رحلته التالية: **الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز**، التي قام بها في عام ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م طريقاً آخر في زيارته لفلسطين يبدأه من الساحل، من جهة صيدا وصور. وقد غادر صور في ١٩ صفر ١١٠٥هـ / ٢٠ تشرين الأول/اكتوبر ١٦٩٣م باتجاه الناقورة. ومرّ بقرية الزيب التي يقول عنها انها قرية بساحل بحر الروم[١١٥]، ونزل فيها عند أولاد الشيخ سعد الدين (الجباوي) أتباع الطريقة الجباوية. ويصف عكا التي وصلها في اليوم التالي بأنها «بلدة خراب مندكّة قد تهدمت أسوارها وانكسر سِوارها وانقلعت عين قلعتها... ولم يبق منها إلّا القليل من البيوت»[١١٦]. ونلاحظ هنا تراجعاً في وضع عكا عما كانت عليه في عام ١٥٨٦م حين وصفها رحالة أوروبي بأنها ذات سور قوي وأبراج متعددة وأنّ ميناءها جيد

وتجارتها ناشطة[١١٧]. ولا شك أن السبب الرئيسي في تراجعها آنذاك هو تعطيل فخر الدين المعنيّ الثاني لمينائها في النصف الأول من القرن السابع عشر، خشية وصول الأسطول العثماني إليها لقتاله. وقد أسهمت الاضطرابات التي قامت بين مراكز القوى في المنطقة وعدم قيام زعيم قوي حتى زمن ظاهر العمر (في القرن الثامن عشر) في تأخّرها. يُضاف إلى ذلك أن التجارة الأوروبية الناشطة في المنطقة في القرن السابع عشر تمركزت في أيدي شركة بلاد المشرق الإنكليزية التي كان مقرها حلب وموانيها الرئيسية الإسكندرونة وطرابلس. ولم يبدأ الاهتمام التجاري الفرنسي بشكل مكثّف مع بلاد الشام الجنوبية حتى القرن الثامن عشر وهو ما أفاد ظاهر العمر، ومركزه عكا، إلى حد كبير.

وبعد أن أمضى النابلسي ليلته في عكا غادرها إلى قرية شفا عمرو ويصفها بأنها «قرية كبيرة معمورة وبالخيرات مغمورة». وبات فيها ليلته كما اجتمع بجماعة من الجند الذين يحرسون فيها. وفي ٢٢ صفر / ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر وصل إلى قرية صفورية، من قرى بلاد صفد (قرب الناصرة)، ومن بعدها قرية مشهد النبي يونس (تختصر إلى مشهد)، ومنها إلى الناصرة. ويصفها بأنها قرية حولها الجبال. وغادرها إلى قرية إكسال، وقد ألمّ به وبخيوله في الطريق إليها تعب من السير في الجبال وبين الصخور، وبات فيها ليلته بأحد جوامعها. وهذا يدل على أن هذه الطريق بين عكا وإكسال وما بعدها ليست بطريق رئيسية، لذا لم تتوفر فيها الخانات لنزول المسافرين. واجتاز في اليوم التالي ٢٣ صفر / ٢٤ تشرين الأول/اكتوبر مرج ابن عامر متجهاً إلى قرية جلمة التابعة لجنين. ومرّ بالقرب من جنين ولم يدخلها «لعلمنا بأنّ الطريق مقطوع منها إلى بلاد نابلس»[١١٨]. ولم يذكر سبب ذلك وكان النابلسي في رحلته السابقة ذكر شرّ اللصوص في قرية سنجل وهو في طريقه من نابلس إلى القدس. ويبدو أن الأمور الأمنية قد ساءت خلال السنوات الثلاث الفاصلة بين الرحلتين.

وتوجّه النابلسي إلى قرية يعبد حيث أمضى ليلته في زاوية



برك سليمان

الشيخ مصلح اليعبداوي. واستأنف سيره في اليوم التالي إلى قرية عرّابة «وكان أهلها في حروب وفتن ومحاصرة مع حاكم القدس... وأخبرونا بما فعله معهم لأجل أخذ الأموال منهم من مقاتلتهم ورميهم بالرصاص وتخريب بيوتهم فهم قائمون بالدفع عن أنفسهم وعن حريمهم رجاء الخلاص ولات حين مناص»[١١٩]. ومما يلفت النظر في هذه الفتن ليس تعاطف النابلسي مع الثائرين، كما يبدو من كلامه، وإنما مشاركة الصوفية من أمثاله في الثورة كما يظهر في مثال المجذوب الصالح الشيخ صالح الذي كان معه طبل يدقّ به، على عادة الصوفية، وعليه ثياب رثّة وأكياس معلّقة وهو يحمل السلاح وله حال عظيم ويلقّب نفسه بوكيل الزردخانة، التي تعني مستودع السلاح، وكانت أهل تلك البلاد تعتقده على حد قول النابلسي. ويدل هذا على الدور الهام الذي كان للصوفية آنذاك في قيادة المعارضة ضد السلطة.

ثم وصل النابلسي إلى قرية سبسطية ومن بعدها بلدة نابلس، وقد أقام فيها خمسة أيام وغادرها في أول ربيع الأول ١١٠٥هـ / ٣١ تشرين الأول/اكتوبر ١٦٩٣م باتجاه القدس فمرّ بقرية متحا ثم بقرية كِفْل قِلّيل (بكسر الكاف وسكون الفاء بعدها لام وبكسر القاف وتشديد اللام مكسورة وبالياء التحتية واللام) وهي الآن، كما يقول النابلسي، مشهورة على ألسنة الناس كفر قَلّيل[١٢٠]. ومرّ بعد ذلك بقرية خان اللُّبّن فاستراح في الخان، ثم توجه إلى عقبة اللبّن، وبعدها وصل إلى قرية المزرعة حيث بات ليلته في جامعها. وسار في اليوم التالي، ٢ ربيع الأول، إلى أن وصل إلى البيرة. وصعد منطقة جبلية بعد ذلك إلى أن وصل إلى القدس واستقر في المدرسة القادرية فيها. وذكر أسماء من التقاهم في القدس من علمائها ومتصوفتها. ولم يفصّل، كما في رحلته السابقة، في وصف الأماكن المقدسة في القدس وذكر أنه توسع في ذلك في «رحلتنا الوسطى المسماة **بالحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**»[١٢١]. وأكّد النابلسي من جديد، كما في رحلته السابقة، استمرار إغلاق بابي الرحمة والتوبة المؤديين إلى المسجد الأقصى، ولكنه شرح الآن سبب ذلك: «لكونهما يفتحان إلى الجهة الخالية من سكنى إنسان والسلوك إلى شيء من البلدان»[١٢٢]. ولم يذكر الخياري، قبل ثلاث وعشرين سنة، إغلاق باب الرحمة وربما باب التوبة بلصقه لأنه يذكر أنّ باباً إلى جانبه (أي باب حطة وقبل باب الرحمة) «لم أعرف اسمه»[١٢٣]، وربما كانت الأوضاع الأمنية وتردد الناس بكثرة إلى القدس بأحسن حالاً آنذاك عما أصبح عليه الأمر زمن زيارتَي النابلسي. وكانت زيارة الخياري قد تمت في عهد قوة الدولة وإثبات هيبتها في الولايات في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي.

وبعد أن أقام النابلسي في القدس من ٢ ربيع الأول حتى السادس منه / ١ ــ ٥ تشرين الثاني/نوفمبر خرج لزيارة الخليل ماراً بالبرك الثلاث التي يصل ماؤها إلى حرم بيت المقدس وعندها قلعة، ثم دخل الخليل في اليوم نفسه ونزل في الزاوية القادريّة. وقام في ٨ ربيع الأول / ٧ تشرين الثاني/نوفمبر بزيارة مسجد اليقين «خارج بلاد حبرون»، كما يقول[١٢٤]، ولم يعين موقعه. وزار بعد ذلك قرية كفر البريك وجامعها وبعدها قرية سيعير التي يصفها بأنها «من قرى بلاد الخليل فاصلة بين أرض الخليل وأرض بيت المقدس»[١٢٥]. وعاد بعد ذلك إلى مدينة الخليل، وخرج منها في ٩ ربيع الأول فمرّ بقرية حلحول، من قرى بلاد الخليل، ومنها إلى البرك الثلاث، ثم بيت لحم، من أعمال بيت المقدس، وأضافه وصحبه فيها بعض الرهبان[١٢٦]، مما يدلّ على تسامح الطرفين وقبول الواحد منهما للآخر. ثم عاد النابلسي إلى القدس.

وفي ١٦ ربيع الأول / ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر، بعد أن أمضى النابلسي في القدس أربعة عشر يوماً، غادرها لزيارة مزار النبي موسى، وتابع مسيره بعد ذلك إلى أريحا التي وصلها في اليوم نفسه. ولم يسبق للنابلسي أن زار أريحا. وقد وصفها «أنها قديمة البنا غالبها الآن خراب من كثرة الظلم والجور فلم نجلس بها»[١٢٧]. وتابع طريقه إلى عين السلطان حيث الماء والظلال. ثم عاد إلى مزار النبي موسى حيث أمضى ليلته. وفي يوم الإثنين ١٧ ربيع الأول عاد إلى القدس عن طريق عين العيزرية وبعدها قرية العيزرية.

وفي يوم ١٩ ربيع الأول / ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر عزم النابلسي على السفر من القدس إلى جهة الرملة وغزة فسار في جبال وأودية إلى أن وصل إلى قرية بيت إكسال، ومن بعدها قرية بيت لَقيا «ونزلنا هناك في منزول المعدّ للضيفان»[١٢٨]. ولعل من المناسب الإشارة هنا إلى أنه إذا لم يتوفر الخان المعد أساساً لنزول المسافرين فإن أهل القرية يستقبلونهم في المنزول أو المضافة التي ينفقون عليها بأنفسهم لخدمتهم وخدمة ضيوفهم. وإن تعذر الاثنان يكون المبيت في الجامع لأهل العلم وإلّا كان المبيت في الخيام.

وتابع النابلسي سيره فمرّ بقرية سيرا (بكسر السين) ووصل بعدها إلى الرملة. وينقل النابلسي، كعادته، عن ابن الحنبلي حول تاريخ الرملة وازدهارها في القرون السالفة ثم خرابها بعد ذلك. ويؤكد النابلسي من مشاهداته الصورة التي نقلها عن ابن الحنبلي فيما يتعلق بخراب الرملة إذ يقول: «ثم ذهبنا إلى الجامع المبارك المسمى بالجامع الأبيض وهو جامع كبير متهدّم»[١٢٩].

غادر النابلسي الرملة في ٢٢ ربيع الأول / ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر متجهاً نحو أرسوف فمرّ باللد ثم وصل نهر العوجا وتوقف عند مقام الشيخ أبو عليم «بشاطىء البحر المالح بساحل أرسوف»(١٣٠). فأمضى هناك ليلته، واتجه في اليوم التالي إلى يافا حيث نزل في دير الأرمن وهو حصين أشبه بالقلعة كما يقول وأمضى فيه ليلته. ولم يلتقِ في يافا بأيّ من العلماء والمتصوفة. ويعد وصفه لها أقل ما كتبه عن أي مكان آخر لأنه غادرها مباشرة في اليوم التالي. وقد رأى النابلسي، إثر مغادرته يافا في ٢٤ ربيع الأول «قبة مبنية بالأحجار والشيد»(١٣١). ويلفت النظر حرص النابلسي على ذكر بناء القباب للأولياء بالحجارة والشيد مما يدل أن هذه المواد غير مستعملة بصورة عامة في البناء الذي استخدم في قسم كبير منه الطين والتبن. واستعمال الحجارة والشيد يعني المتانة وبالتالي استمرار المزار الديني ووظائفه الدينية والاجتماعية. ويدل هذا أيضاً على احترام الناس لمزارات الأولياء من المتصوفة. ثم مرّ النابلسي بقرية صرفند ومنها عاد إلى الرملة من جديد(١٣٢)، ويبدو أن زيارة النابلسي إلى يافا جاءت بصورة عارضة لقربها من ساحل أرسوف حيث هدف من الذهاب إلى هناك زيارة مقام الشيخ علي أبو عُلَيم (الآن مقام علي بن عليم).

غادر النابلسي الرملة في ٢٥ ربيع الأول فوصل قرية يبنى (يقول انها بضم الياء المثنّاة التحتية وسكون الباء الموحدة ونون مفتوحة وألف مقصورة) وبعدها قرية أسدود، ثم قرية حمامة فقرية مجدل عسقلان حيث أمضى ليلته، ووصفها بأنها «ليلة برغوثيّة»(١٣٣). واستذكر النابلسي بهذه المناسبة أبيات الشاعر المعروف بابن عتوم، وهو أبو الحجاج يوسف بن أحمد، الذي قال:

أشكو البراغيث التي أضحى لها جسدي مباحا
أكلوا اللحوم وخلّفوا في كل جارحة جراحا
والليل زاد تطاولاً أتراهم أكلوا الصباحا

وتوجه النابلسي في اليوم التالي إلى مدينة عسقلان. ويعلّق في مجال اهتمامه الأول وهو زيارة قبور العلماء والمتصوّفة أنه بسبب كثرة رمل منطقة عسقلان فقد غابت فيه القبور واندرست الآثار. ويصف عسقلان بأن «أسوارها متهدّمة وأبراجها واقعة وقد اتخذوا غالب أماكنها بساتين وغرسوا فيها أشجار الفواكه والأعناب والليمون»(١٣٤). ويؤكد النابلسي الصفة الزراعية للمدينة واشتغال سكانها بها بقوله: «وليس في المدينة بأسرها أحد من الناس غير من يعالج بستانه أو يحرسه».

وفي طريقه إلى غزة مرّ النابلسي بقرية بربرا حيث زار مقام وليّ مغربي، وبعدها شاهد من بعيد قرية بيت حانون. ودخل غزة في ٢٦ ربيع الأول. وقد أشغلت النابلسي فيها كثرة الأماكن الدينية وزياراته لها بأكثر مما شغله كثرة علمائها ومتصوفيها. ويدلّ هذا على غنى ماضي غزة الديني بالمقارنة مع حاضرها. والملاحظ أن جامع الجاولي الكبير والباذخ الذي ذكر النابلسي في عام ١٦٩٣م أنه «خراب الآن. . . وقد ردموا بابه واستغني عن الصلاة فيه»(١٣٥) كان ما زال خرباً أيضاً في حوالي عام ١٨٦٠م(١٣٦)، مما يدل على عدم توفر أية عناية بهذه الأماكن الدينية وبالتالي على ضياع الأوقاف المُرصدة لها. وربما مدرسة الطواشي كانت أحسن حالاً إذ ذكر النابلسي أنها «الآن سكن قضاة غزة وموضع حكمهم»(١٣٧).

وبعد إقامة دامت ثلاثة أيام في غرة غادرها النابلسي في ٢٩ ربيع الأول / ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر إلى قرية مجدل لزيارة بعض القبور ثم عاد إلى غزة في اليوم التالي ليرتب أمر سفره إلى الحجاز. واجتمع، خارج غزة، بالشيخ واكد شيخ العرب في «هاتيك البلاد وتكلمنا معه في الذهاب إلى بلاد الحجاز من طريق البرية فأخبرنا أن حكمه إلى قلعة المويلح، وأنه يرسل معنا من العرب من يحملنا على جمالهم إلى قلعة المويلح»(١٣٨)، ومن هناك يتدبر أمر وصولهم حاكم القلعة. ولكن الأمير واكد نصح النابلسي بالسفر إلى مصر والاتصال بأمير قافلة الحج المصري الذي يؤمّن وصوله ورفاقه إلى الحجاز. وقبل النابلسي النصيحة. ثم زار بعض المواقع الدينية خارج غزة وأشرف من أحدها على قرية جباليا وعاد إلى غزة في اليوم نفسه، ٣٠ ربيع الأول، وأمضى فيها تسعة أيام أخرى بانتظار وصول ابنه اسماعيل من دمشق لمرافقته. وشهد وهو في غزة وصول القافلة الشامية إليها في ٩ ربيع الثاني ومكوثها ثلاثة أيام وعلم منها أن ابنه رافقها ثم ذهب إلى القدس بحثاً عنه. ونستدل من هذا أن القافلة الشامية إلى مصر، سارت على الطريق الدولي، يرافقها مسافرون إلى القدس للإفادة من أمنها.

وغادر النابلسي غزة إلى مصر في ١١ ربيع الثاني / ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٦٩٣م فمرّ بقرية الدير (دير البلح) في طريقه إلى خان يونس. وينتهي القسم من رحلته الذي يصف فيه بلاد الشام بوصوله إلى خان يونس. ويعلق على ذلك بقوله: «وكان القياس أننا نكمل ذلك بذكر خان يونس إلى بلاد العريش لأن ذلك حدّ بلاد الشام كما هو المشهور بين أهل الدراية والتفتيش. ولكن لما وجدنا خان يونس هو أول حكم بلاد مصر وفيه الآن جنود الغزّ والعسكر المصري جعلنا ذلك أول البلاد المصرية وابتدأنا القسم الثاني من

ذلك المكان لأنه ابتداء حكم بلاد مصر في هذا الآن»[١٣٩]. وإذا كانت الحدود هذه تنطبق على «هذا الآن» فإنها عادت إلى العريش فيما بعد كما سنرى في رحلات لاحقة.

بعد أربع سنوات من رحلة النابلسي الثانية إلى فلسطين يقوم الإنكليزي هنري موندريل المرشد الديني للتجار الإنكليز التابعين لشركة بلاد المشرق في حلب برحلة من حلب إلى القدس في عام ١٦٩٧م[١٤٠] بمناسبة عيد الفصح. وكان موندريل على ثقافة عالية. ونظراً لأهمية ملاحظاته وللإقبال الشديد عليها من قبل المهتمين آنذاك في أوروبا بفلسطين وبالمشرق بعامة فقد صدرت عشرات الطبعات من هذه الرحلة كانت أولاها في عام ١٧٠٣م، كما ترجمت إلى عدّة لغات أوروبية.

وتختلف رحلة موندريل عن غيرها من رحلات الأوروبيين أن صاحبها لم يصل كغيره من الرحالة لأول مرة إلى يافا ومنها إلى القدس بل انه خبر المنطقة بإقامته في حلب منذ تعيينه فيها في عام ١٦٩٥م. وقد سافر إلى فلسطين بطريق الساحل من اللاذقية حتى عكّا ومنها اتجه نحو القدس دون المرور بالرملة. وهو بهذا يتشابه مع النابلسي في رحلته الحقيقة والمجاز الذي قدم عكا من الساحل الشمالي ثم اتجه منها نحو الداخل إلى القدس. ويفيد هذا التنوع في مخططات الرحلات في التعرف على أكثر ما يمكن من مناطق فلسطين.

غادر موندريل حلب في ٢٦ شباط/فبراير ١٦٩٧م ووصل إلى عكا في ٢١ آذار/مارس. وقد وصف سهل عكا الذي يقول انه يمتد من جبل سارونا إلى جبل الكرمل مسيرة ست ساعات وفي العرض بين البحر والجبال مسيرة ساعتين. وبالرغم من توفر شروط الخصب في هذا السهل فإنّ موندريل يلاحظ أنه غير معتنى به. ويمر موندريل في هذا السهل بقرية الزيب القريبة من الساحل قبل أن يصل إلى عكّا. ويتحدث عن خرائب أبنية كانت لها أهمية في عكّا باستثناء الخان الذي يقيم فيه التجار الفرنسيون والجامع وبعض البيوت الفقيرة. ويلاحظ أنه كان لعكا سور مضاعف يحيط به خندق من طرف الداخل، وانتبه إلى وجود كرات حجرية حوله من التي استخدمت لتحطيم السور[١٤١].

ونظراً للقتال بين السكان المحليين الذين، كما يقول موندريل، شجّع الأتراك الانقسام بينهم وضربوا فريقاً بآخر لإضعافهم وإلهائهم عنهم[١٤٢]، فقد اختار موندريل الطريق الأكثر أمناً نسبياً وهو المارّ بمرج ابن عامر وليس الطريق الساحلي عبر قيسارية ويافا أو الطريق المار بالناصرة. وعلى هذا غادر موندريل عكا يوم الاثنين في ٢٢ آذار/مارس برفقة جنود أتراك لتأمين سلامته. واتجه نحو الداخل حتى أقصى سهل عكا حيث يحدّه جبل الكرمل. وهناك اجتاز وادياً ضيّقاً ومرّ بنهر المقطّع إلى مرج ابن عامر الذي يصفه أنه خصب ولكنه غير مستغَلّ. وشاهد في المرج فريقين متخاصمين من البدو وقد ضربا خيامهما فيه. وقطع موندريل ذلك اليوم (٢٢ آذار/مارس) ما مجموعه ثماني ساعات منذ أن خرج من عكا باتجاه جنوب شرقي إلى جنوب. وفي اليوم التالي مرّ بخيمة الأمير البدوي شبلي، زعيم أحد الفريقين البدويين المتصارعين، ودفع له موندريل خفارتين، أي مبلغين من المال لقاء الحماية، مبلغاً من أجل المرور باللجون وآخر من أجل المرور بجنين. وكانت ضريبة الشخص الواحد ثماني قطع (لا يذكر نوعها) للشخص الأوروبي وثلاث قطع لخادمه. وبعد اجتياز مرج ابن عامر سار موندريل مدة أربع ساعات في أودية مشجرة، قادته إلى سهل صغير مستقل، وقد توقف في نهايته حيث بات ليلته ودفع خفارة من جديد. واستأنف سيره في ٢٤ آذار/مارس فمرّ بقريتي عرّابة والرامة الجبليتين ثم بنبع سيلة الظهر الذي سُمِّي باسم قرية قريبة، وبعد ساعة من ذلك وصل إلى سبسطية، وتقع في وادٍ خصب وتحيط بها التلال ولها بساتين جميلة. ثم مرّ بقرية دير شرف ووصل بعدها إلى نابلس[١٤٣].

ويذكر موندريل أن نابلس تضم شارعين متوازيين تحت جبل جرزيم، وأنها تغص بالسكان، وهي مقر حاكم يحمل لقب باشا. ودفع رسم الخفارة فيها، ثم غادرها. وسار في واد ضيّق بين جبلي جرزيم وعيبال، ومرّ بعد ذلك بقريتي حوّارة والساوية ثم وصل إلى خان اللبن حيث بات ليلته. ويقول ان قرية تحمل اسم اللبن تقع مواجهة الخان في الطرف الآخر من الوادي الذي يفصل بينهما[١٤٤].

غادر موندريل خان اللبّن في ٢٥ آذار/مارس واجتاز منطقة جبلية وعرة. ومرّ بقرية سنجل إلى يمينه ثم وصل منطقة ذات كروم زيتون، وسار وإلى يمينه قريتا الجيب وسلواد إلى أن وصل إلى قرية البيرة. وذكر توفّر الماء في هذه القرية التي تحمل اسم البير، ويصف سفره من خان اللّبن إلى البيرة بأنه في منطقة جبلية جرداء مختلفة عن المنطقة الخضراء التي اجتازها في اليوم السابق. ومع ذلك يعجب موندريل كيف أن السكان تعاملوا مع هذه المناطق الجبلية وزرعوها وذلك بتجميع حجارتها ووضعها على أطراف التلال أشبه بالجدران وبذلك يحولون دون جرف التربة مما مكّنهم من زراعتها من أدنى مستوى إلى أعلاه في أطراف الجبال. ويُضيف موندريل أن مثل هذه الزراعة توجد في عموم

مناطق فلسطين الجبلية. وهكذا تزرع فيها الحبوب والأشجار المثمرة مثل الكرمة والزيتون، ويُـربّـى الماعـز بصورة خـاصـة والنحل(١٤٥).

ويتابع موندريل سفره من البيرة وسط منطقة جبلية صعبة المسالك. وبعد ساعتين وثلث يصل إلى رأس تلة تشرف على القدس. وتراءت له الرام (الجيب) إلى اليمين وسهل أريحا وجبال جلعاد إلى اليسار. وخلال ساعة وصل إلى القدس. وتقدم بإذن إلى حاكم المدينة، كعادة الإفرنج، للسماح له بالدخول وتمّ ذلك، ودخـل القـدس من بـاب بيت لحم (وهـو بـاب الخليـل وبالإنكليزية Jaffa Gate) وذلك يوم الخميس في ٢٥ آذار/مارس. ونظراً لأنه كان برفقة القنصل الفرنسي في الرحلة فقد سُمح له أن يدخل المدينة راكباً ويحمل السلاح(١٤٦).

يستغرق وصف الأماكن الدينية المسيحية في القدس حيزاً كبيراً من صفحات رحلة موندريل بالرغم من أنه قال ان إنكليزياً آخر هو سانديز Sandys قد وصف هذه الأماكن بدقة وأمـانـة كبيرتين. ويصف موندريل زيارته مع قافلة تضم ألفي مشارك برئاسة حاكم القدس لنهر الأردن بمناسبة عيد الفصح. ويذكر تمركز البدو في بعض المُغُر التي تتحكم بالصعود إلى المزارات الدينية وكانوا يحملون السلاح الناري ويطلبون رسم المرور(١٤٧). ثم زار موندريل بيت لحم وقدّر المسافة بساعتين ونصف. ومن على ظهر كنيسة في بيت لحم شاهد خربة تُقُوع (تكتب أيضاً طقوع) على بعد حوالي ١٤ كم إلى الجنوب وعين جدي على بعد ٥ كم إلى الشرق، وبعدها جبل الفريديس. وقد زار برك سليمان الثلاث وتبعد ساعة وربع الساعة جنوبي القـدس وذكر أن الواحدة منها تتلو الأخرى بشكل متدرج بحيث تنتقل المياه من العليا إلى الدنيا. ويُنقل ماؤها بقناة إلى القدس. وزار أيضاً



البـيرة

بيت لحم. ومن أطرف ما فعله موندريل قياسه محيط القدس منطلقاً من باب بيت لحم (باب الخليل) باتجاه اليمين إلى أن عاد إليه وقدّره بـ ٤,٦٣٠ خطوة. ثم يعطي المسافة بالخطوات بين كل باب وآخر. ويحوّل موندريل الخطوات إلى أرقام مألوفة فيصل إلى أن محيط القدس يساوي نحو أربعة كيلومترات[١٤٨].

ويقول موندريل إنه نظراً لتواتر أنباء من مختلف الجهات عن عدم الأمن على الطرق بسبب خلافات البدو وتعدياتهم فقد التحق وجماعته بمتسلّم (نائب) والي طرابلس الذي كان في طريقه من القدس إلى مقره وخرجوا من القدس في ١٥ نيسان/ابريل. وساروا على الطريق نفسه الذي قدم عليه موندريل وأمضوا الليلة الأولى في خان اللبّن. ولكن المتسلم افترق عن موندريل وأتمّ سيره إلى نابلس. وتابع موندريل الطريق بدونه.

ويزوّدنا موندريل بملاحظاته حول الفلاّحين الذين شاهدهم يفلحون الأرض لزرع القطن. ويقول انهم يستعملون في الفلاحة محاريث ضخمة قدّر طول الواحد منها بعد قياس عدد منها بثمانية أقدام. وتابع مسيره في ١٦ نيسان/ابريل ماراً بنابلس وسبسطية حيث بات عند نبع يقع بعدها، ولكنه عوضاً من أن يسلك الطريق الذي قدم عليه باتجاه عكا سار شمالاً باتجاه جنين والناصرة. ويصف جنين أنها مدينة كبيرة على أطراف مرج ابن عامر وفيها قلعة قديمة وجامعان، وهي مركز الأمير البدوي شبلي الذي سبق ورآه موندريل فاشترط الآن دفع الخفارة له حتى يسمح له بالمرور. ويصف الناصرة بأنها قرية ليست بذات أهمية وأن البدو سادة المنطقة. ثم زار جبل طابور في مرج ابن عامر وذكر خصوبة قمته وشاهد منه البحر المتوسط في الشمال الغربي، وصفد إلى الشمال، وجبل الشيخ (حرمون) في الشرق وكذلك



بيت لحم

بحيرة طبرية، وفي جواره السهول الخصبة لمرج ابن عامر والجليل. وعند سفحه قرية دبورية[١٤٩].

غادر موندريل الناصرة في ٢٠ نيسان/أبريل باتجاه عكا ومرّ على مرأى من كفر كنا ثم وصل صفورية، ويصفها أنها قرية فقيرة تظهر فيها الخرائب. وحين وصل سهل عكّا استغرق اجتيازه ساعة ونصف الساعة. وصل بعده إلى عكا. وغادرها في ٢١ نيسان/أبريل باتجاه صور[١٥٠].

وبهذا يكون موندريل قد أمضى مدة تسعة وعشرين يوماً في رحلته بدءاً من عكا وعَوْداً إليها. وقد استغرقت رحلته في الذهاب من عكا إلى القدس ثلاثة أيام وفي الإياب خمسة أيام. ويُعزى هذا الفارق إلى مروره بجنين وبالناصرة ثم زيارته جبل طابور في طريق العودة. والشيء الذي تتفق حوله رحلة موندريل ورحلة الشيخ عبد الغني النابلسي الثانية في عام ١٦٩٣م ذكرهما اضطراب الأمن في منطقة جنين ـ الناصرة بسبب الخلافات المحلية وسيطرة القبائل البدويّة.

بعد ثلاث عشرة سنة من رحلة موندريل إلى فلسطين قام الشيخ مصطفى الصديقي البكري (في ذي القعدة ١٠٩٩ ـ ١٨ ربيع الثاني ١١٦٢هـ / آب/أغسطس ـ أيلول/سبتمبر ١٦٨٨ ـ ٧ نيسان/أبريل ١٧٤٩م)[١٥١] برحلة من دمشق إلى القدس في ١١٢٢هـ / ١٧١٠م سجل تفاصيلها في مؤلف بعنوان: **الخمرة الحسيّة في الرحلة القدسية**[١٥٢]. والصديقي متمرّس في الرحلات قام بعدد منها وسجل مشاهداته في كل بلد برحلة خاصة (في مؤلف خاص) وقد زار بلاد الروم مرتين كما زار بغداد وحلب وجبل لبنان والخليل ومصر. وكان الصديقي على اطلاع بما كتبه السابقون عن فلسطين وكذلك على رحلة النابلسي **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**[١٥٣].

بدأ الصديقي رحلته من دمشق في ١٩ محرّم ١١٢٢هـ / ٢٠ آذار/مارس ١٧١٠م مع مجموعة من الناس وصفهم بعبارة «ركب الزوار للآثار»[١٥٤]، ثم قال لاحقاً: إن بينهم تجاراً. ونظراً لصغر سنّه نسبياً حين قام بالرحلة (كان في الثانية والعشرين) فإنه كان برفقة خاله السيد يحيى الموقّع الذي يذكره باستمرار حين يقوم بعمل ما كقوله مثلاً، بعيد وصوله إلى القدس، «قلت للخال هيا بنا نزور الحرم»[١٥٥]. وذكر حين مروره بالقنيطرة أن خطر قطّاع الطرق في منطقتها كان قائماً. ويدلّ هذا على انهيار الأمن في هذه المنطقة القريبة من دمشق والتي لم يسبق للرحالة من القرنين السابقين أن ذكروا وجود خطر البدو فيها. ويذكر الصديقي مبيته في الخان عند جسر بنات يعقوب. ووصل بعد ذلك إلى الخان عند

جب يوسف وقد بات فيه ويصفه أنه ضيّق. وأشار إلى بركة ماء واسعة ينتفع بها المارة بجانب الجُبّ، ولم يسبق أن أشار إليها الرحالة السابقون. ووصل في اليوم التالي إلى بركة المنية، وبعدها عيون التجار التي يصفها بأن «بها نعق بوم الخراب»(١٥٦). وهذه إشارة جديدة تؤكد وضعها السيىء الذي أشار إليه النابلسي في رحلته الأولى قبل عشرين عاماً حين قال إن جامعها مغلق بسبب فتنة فيها(١٥٧). ويُشير الصديقي إلى الخان في عيون التجار الذي بداخله جامع وأنهما من بناء سنان باشا والي الشام (٩٩٨ ـ ٩٩٩هـ / ١٥٨٩ ـ ١٥٩٠م). ويقـول الصديقي «ومن هـذه المحطة تفترق أربـاب الخلطة فالـذاهبون نحـو البيت المقدس يأخذون شمالاً والذين نحو مصر يأخذون غرباً»(١٥٨). وقد سبق للنابلسي في رحلته الحضرة الأنسية التي اطلع عليها الصديقي أن ذكر عن منزل عيون التجار «ومنه يفترق المسافر الذاهب إلى مصر جهة الغرب والذاهب إلى بيت المقدس جهة الشمال»(١٥٩). ودليل تأثر الأول بالثاني استعمال جهة الشمال ويجب أن تكون جهة الجنوب.

وبعد المبيت في خان عيون التجار سار الصديقي وصحبه في أرض جرداء باتجاه جنين وظهرت لهم طلائع قطّاع الطريق فأخرج جماعة ركية المكاحل وأطلقوا النار لإرهاب القطّاع. ثم واصلوا الطريق إلى جنين «ذات القلعة والحصن الغير الحصين»(١٦٠).

وحين أشرف ركْب الصديقي على وادي الصغير، في طريقه إلى نابلس، التقى

> «بعض أشخـاص يطلبـون من المكاريـة الغفر بـوجـوه كلحة. . . فأخبروهم أنهم أعطوا لغيرهم من الغفرية فلم يرضوا إلّا بالأخذ ثانياً لشدة ما هم عليه من الحمية، ثم أنهم أوقفوا القفل مراراً وأخذوا منه على سبيل الرهينة حماراً وأرادوا أن يأخذوا بعض أثواب من التجار فأخذت المكارية منهم بندقية ورموهم بالأحجار إلى أن فروا وطلبوا النجاة بالذل والصَّغار، وبعد حصة لحقوا القافلة وأتوهم بالحمار وردّوا ما أخذوه من بعض الناس وأخذوا المكحلة ورجعوا بصفة الإفلاس»(١٦١).

وأرسل حاكم نابلس جنوداً لملاحقة قطّاع الطريق. ونستدلّ من هذا المثال وغيره أنّ الأمن كان مفقوداً على الطريق الرئيسي المؤدي إلى القدس وبجوار مدينة استراتيجية الموقع مثل نابلس، وبالتالي ان سلطة الدولة العثمانية كانت فعلاً تعاني من الانحطاط آنـذاك. وحين دخـل الصديقي نـابلس غرّم حـاكمها جمـاعة الصديقي دراهم بسبب وشاية كما قيل، لذا غادر الصديقي ورفاقه نابلس بسرعة.

ويبدو من ذكر الصديقي للطواحين الدائرة في وادي نابلس الخصيب أن هذه كانت تستخدم لاستخراج الماء. وكانت القرية التالية التي مرّ بها الصديقي بعد نابلس هي قرية سنجل وتقوم على مرتفع. وكاحتياط أمني، كما يبدو، نزل الصديقي وجماعته في «ساحة أسفل البلدة وهي في علوة لا يرقا إليها كل أحد. . . وأخبرنا بلصوص ولم يذهب منا بحمد الله تعالى عقال، ولكن لصـوصها عـلى ما قيـل كلصـوص الـري في المهـارة مـا فيهم ما يقال»(١٦٢). وبعد أن غادروا سنجل مروا بالبيرة ثم بالعقبة التي رأوا منها بيت المقدس وبظاهره المدرسة الجراحية.

ويذكر الصديقي أنه لدى وصوله إلى الباب الشامي للقدس طلبت جماعته الإذن من سلطاتها «كما هو المطلوب من كل داخل وخارج» لدخول المدينة(١٦٣)، في حين يذكر موندريل أن الإذن مطلوب من الإفرنج فقط. ويبدو أن طلب الإذن من الجميع أمر جديد ربما لأسباب أمنية.

لم يذكر الصديقي أية تواريخ لمراحل رحلتـه، وبالتـالي لدخوله القدس. وبعد ليلة أمضاها في القدس انطلق لزيارة مزار النبـي موسى لأنه «حانت أيام الموسم الكليمي». ويقول «وكانت الفقرا بالطبول والأعلام ترد كل يوم أفواجاً على المقام»(١٦٤) ويحصل السرور بذلك. ويضيف الصديقي «ان كل ما يقع في الموسم من دق ولعب مباح لا يؤاخذ به أهل الموسم». ويدل هذا، من ناحية، على الأهمية الاجتماعية لمواسم الزيارات هذه، كما يدل، من ناحية أخرى، على إباحة العلماء ـ المتصوفة، والصديقي صاحب الطريقة الخلوتية على رأسهم، لهذه الطقوس الشعبية. وقد أمضى الصديقي في مزار النبـي موسى ثلاثة أيام عاد بعدها إلى القدس ليتابع زيارته لها ووصف أماكنها الدينية(١٦٥).

وكانت زيارة الصديقي التالية إلى الخليل. ويلفت النظر أنه بالرغم من أن الصديقي كان في قافلة، أو ربما بسبب ذلك، فقد ذكر أنه «صحبنا الغفرية ليوصلونا إلى هاذاك النور اللامـع»، مما يوحي أن عدم الأمن كان مستفحلاً على الطرق الرئيسيـة مما يجعل اصطحاب القافلة للغفرية أمراً معترفاً به وضرورياً حتى للانتقال من مدينة إلى أخرى. ومما يؤكد ذلك قول الصديقي أثناء الطريق «والخوف معنـا رفيق من قطّاع ذلـك الطريق»(١٦٦). ووصف الصديقي البرك الثلاث وقلعتها وكيف أن كل واحدة أعلى من أختها على نحو ما وصفها موندريل. ثم سار حتى وصل قوفين (لعلها وادي فوقين أو فوكين) وبعدها بقليل أشرف على أراضي الخليل. وفي الخليل نزل أولاً في خان ثم عند بعض الأصدقاء. ويبدو أنه أقام في الخليل أربعة أيام. ومما يدل على أن الصديقي لا يذكر

بدقة تواريخ غدوه ورواحه، ربما لأنه كتب أخبار رحلته بعد وقت من القيام بها، أنه في إحدى المرات ذكر «وفي ثاني ليلة أو التي تليها اجتمعنا في خلوة الدجاني في الحرم»(١٦٧). وفي طريق العودة إلى القدس كان هاجس الصديقي ورفاقه في القافلة «الخوف من أهل البادية الذين لا يرهبون اقتحام المهالك»(١٦٨).

أقام الصديقي في القدس عدة أشهر لا تقلّ عن الثلاثة يدرّس في خلوة فيها ويزور المناطق المجاورة. ويذكر في إحدى الزيارات أن «بعض أوباش القرية (لا يذكر اسمها) مرادهم الأذية»(١٦٩). مما يؤكد من جديد تراخي الأمن حتى في المراكز الحضرية، وربما أيضاً عدم الرضى عن تعاليم الصديقي الصوفية. وحين زار قرية بيتونيا في قضاء رام الله ذكر أنها وقف الصخرة وأن أولاد الدجاني رافقوه إليها وأكرمه أهلها بسببهم ولهم فيها شركة عن جدّهم (١٧٠).

ولا يذكر الصديقي متى غادر القدس إلى دمشق ولا جميع الأماكن التي مرّ بها. ويذكر قرية بدون ذكر اسمها(١٧١). ثم يذكر قرية سلفيت في قضاء نابلس التي بات فيها ليلته(١٧٢). ومرّ بقرية عورتا ونزل في قرية جمّاعين حيث التقى الشيخ يحيى الدجاني. ثم وصل أراضي بني صعب، ونزل فيها بقرية حجّة. وعلم فيها أن والي الشام نصوح باشا قد حاصر قلعة الكرك وأنه إذا فتحها فسيعيد الأمن إلى المنطقة(١٧٣). وفي الواقع تؤكد أخبار دمشق آنذاك أن نصوح باشا قد هاجم في عام ١١٢٠هـ / ١٧٠٩م قرية عرّابة في منطقة جنين وهزم البدو فيها. وفتح الكرك في العام التالي(١٧٣). ثم مرّ الصديقي بقرية الطيبة ووصل بعد ذلك إلى نابلس التي أقام فيها أربعة أيام. وفيها يفصح أكثر شيء عن نشره الطريقة الخلوتية بين الناس(١٧٤). ثم يختصر وصف طريق عودته إلى دمشق ويقول انه وصلها في نصف شعبان ١١٢٢هـ / ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٧١٠م(١٧٥). وبذلك يكون الصديقي قد أمضى في رحلته قرابة ستة أشهر ونصف الشهر قضى معظمها في نشر طريقته الخلوتية.

وتؤكد رحلة الصديقي انعدام الأمن في فلسطين، سواء على الطرق الرئيسية أم في القرى، ومساهمة البدو وسكان القرى في ذلك على حد سواء. وتجلّى ذلك بشكل واضح في فرض المال على المسافرين. وكان انعدام الأمن هذا جزءاً من ظاهرة عامة في الدولة العثمانية آنذاك حين بدأت حدودها بالانكماش ثم التراجع، وانحسرت هيبة السلاطين واستقطب النفوذ في استانبول من حول الصدر الأعظم والكزلار آغا المسؤول عن قصر السلطان وحريمه. ولم تجدِ محاولات نصوح باشا والي الشام التي أشار إليها الصديقي في إعادة الأمن لأن الفوضى استشرت، وما أعمال نصوح باشا في البطش بالثائرين إلا محاولات متفرقة تدوم بدوام صاحبها ومدى هيبته.

ويذكر رحالة أجنبي زار فلسطين بعد ست سنوات من زيارة الصديقي لها استمرار الاضطراب وعدم الأمن فيها. وهذا الرحالة هو الفرنسي بول لوكاس Paul Lucas الذي زار فلسطين ومناطق أخرى من المشرق العربي بتوجيه من ملك فرنسا لويس الرابع عشر(١٧٦)، وذلك بسبب ازدياد اهتمام فرنسا بالتجارة مع بلاد المشرق.

غادر لوكاس باريس إلى استانبول في ١٩ أيار/مايو ١٧١٤م، وفي حلب التي وصلها في ١٥ كانون الثاني/يناير ١٧١٦م علم بوفاة لويس الرابع عشر. وقد غادر دمشق في ٢٤ حزيران/يونيو ١٧١٦م للسفر إلى فلسطين عن طريق صيدا، ووصل عكا في ٢٣ تموز/يوليو. ويذكر أن عكا يسكنها في زمنه عدد كبير من مسيحيي الناصرة الذين قدموا إليها هرباً من تسلط البدو. وهنا تظهر انعكاسات فوضى البدو وتسلطهم في المناطق الداخلية كما شهد بذلك النابلسي ثم موندريل ومن بعدهما مصطفى الصديقي. ويدل اللجوء إلى عكّا للاستقرار فيها على توفر الأمن والإمكانات الاقتصادية فيها. وقد نشطت الحركة التجارية في عكا وغيرها من مدن الساحل الفلسطيني امتداداً لصيدا الميناء الرئيسي للتجارة الأجنبية آنذاك. وما قدوم لوكاس نفسه إلى المشرق موفداً من قبل ملك فرنسا إلّا دليلاً على الاهتمام الفرنسي بالمنطقة. وإذا كانت عكا قد استقطبت السكان والنشاط التجاري بسبب الأمن فيها فإن حيفا القريبة عانت، كما يقول لوكاس، من قطّاع الطرق في منطقتها الذين أجبروا الرهبان الكرمليين على مغادرة ديرهم في جبل الكرمل بسبب الابتزاز والتهديد الذي مارسوه ضدهم(١٧٧). ويبدو أن لوكاس أبحر من حيفا في ٢٥ تموز/يوليو ووصل يافا في اليوم التالي على مركب متجه إلى مصر. وقد توقف المركب في يافا ليحمل الصابون منها إلى دمياط. وبما أن الصابون الذي سيأتي من الرملة لم يكن جاهزاً بعد فقد سافر لوكاس في ٢٧ تموز/يوليو إلى القدس لزيارتها، ووصل الرملة بعد مسيرة أربع ساعات وأمضى ليلته في دير فيها. وغادرها في اليوم التالي إلى القدس. ودخلها من باب دمشق (باب العامود) دون أن يتوقف للحصول على الإذن بدخولها، كما فعل موندريل والصديقي قبل ذلك، لأنه، كما يذكر، كان برفقته ترجمان لعلّه تابع لقنصل فرنسا في صيدا(١٧٨). وقد علم لوكاس في القدس أنه قبل وصوله إليها هاجم قرصان مالطي ساحل

فلسطين وأنزل عدداً من الجنود عند حصن عتليت (عند الفرنسيين Pélegrins) حيث أسروا حوالي عشرين شخصاً من السكان المحليين كانوا عائدين من حفلة زواج. وأثار هذا ردود فعل وبخاصة في القدس حيث حوصر الإفرنج فيها واعتبروا مسؤولين حتى تتمّ إعادة المخطوفين. ولكن تدخل البعض وشراء الغاضبين بالمال أزال الخطر عن الإفرنج[١٧٩]. وفي الواقع كان القراصنة، من مالطيين وإنكليز وفرنسيين، ناشطين آنذاك في شرقي المتوسط بسبب الحروب بين الدول الأوروبية وما أنتجته من فوضى في المواصلات البحرية، من ناحية، وكذلك بسبب ضعف دفاعات الدولة العثمانية في الموانىء من ناحية أخرى. وبهذا تكون الفوضى عامة في منطقة فلسطين سواء في الداخل أم على السواحل. ولهذا كان الجو مهيأً لحاكم محلي قوي يعيد الأمن. وقد توفّر ذلك بعد سنوات في شخص الأمير ظاهر العمر الذي اعترف به العثمانيون وتعامل معه الأوروبيون لأنه السلطة الوحيدة التي حققت الأمن في فلسطين، وإن كان ذلك من خلال تحقيق مصلحته.

غادر لوكاس القدس عائداً إلى يافا في ١ آب/أغسطس بحماية آغا (قائد عسكري) برفقته عشرون رجلاً. ويذكر عن يافا أن العناية بها تزداد يوماً بعد يوم وأنه بُني فيها عدد من الأسواق الجميلة وأنه وضع في قلعتها عدد من المدافع للدفاع عنها. وقد استقل مركباً في يافا في ٢ آب/أغسطس لينقله إلى دمياط ولكن عاصفة بحرية أجبرت المركب على العودة إلى عكا، فاستغل لوكاس الفرصة وذهب برفقة رجلي دين لزيارة الناصرة في ١٤ آب/أغسطس، فاجتازوا سهل عكا ووصلوا في نهايته إلى قرية الطيرة. وواجهتهم مناطق جبلية خطرة إثر ذلك، ثم مروا بقرية صفّورية، ويصفها لوكاس بأنّ فيها قلة من السكان. ووصل بعدها إلى الناصرة حيث تجوّل في منطقتها ثم عاد إلى عكا فوصلها في ١٨ آب/أغسطس حين استأجر مركباً إلى قبرص[١٨٠].

وبالرغم من الأوصاف المختصرة التي يعطيها لوكاس للمناطق التي زارها لأن زيارته لها، كما يبدو، أملتها المصادفات أكثر من التخطيط، فإننا نخرج منها بثلاث نتائج: نشاط الحركة الملاحية، على الأقل في الصيف، بين ميناءي عكا ويافا من ناحية وبينهما ومصر (دمياط) وقبرص من ناحية أخرى، ثم التبادل التجاري بين فلسطين ومصر وبخاصة تصدير صابون فلسطين إلى مصر، وأخيراً خطر القراصنة الأوروبيين على ساحل فلسطين ومحاولة الدولة صدّهم بدليل إقامة المدافع في يافا. ويوازي هذا الخطر البحري الخطر الآخر للبدو في المناطق الداخلية، ويدل بمجموعه على انهيار سلطة الدولة العثمانية في فلسطين.

وقد اخترنا رحلتين أخريين إلى فلسطين من ثلاثينات القرن الثامن عشر: أولاهما لمصطفى أسعد اللُّقيمي في عام ١٧٣١، وثانيتهما للإنكليزي ريشارد بوكوك Richard Pococke في عام ١٧٣٧م. ويفيد هذا التقارب الزمني في الرحلتين في مقارنة نقاط الالتقاء أو الاختلاف في كتابة الرحالتين.

قام مصطفى أسعد اللقيمي (١١٠٥ ـ ١١٧٨هـ / ١٦٩٣ ـ ١٧٦٥م) الدمياطي نزيل دمشق الذي ينتسب أجداده إلى بلدة لقيم بالطائف[١٨١]، برحلته إلى القدس التي أسماها: **موانح الأنس برحلتي لوادي القدس**[١٨٢] في عام ١١٤٣هـ / ١٧٣١م. ومما يدل على اهتمام اللقيمي بمنطقة القدس بخاصة تلخيصه قبل ذلك وهو في دمياط كتابي **الأخصّا في فضائل المسجد الأقصى** لإبراهيم السيوطي و**الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** لعبد الرحمن العليمي المقدسي الحنبلي في مؤلف وضعه بعنوان كتاب **لطايف أنس الجليل في تحايف القدس والخليل**[١٨٣]. ويتبين أن كتاب اللطايف هذا قد وضعه قبل كتابة رحلته موانح الأنس لأنه أشار إليه في **موانح الأنس**[١٨٤]، كما أن ناسخ كتاب اللطايف قد فرغ من نسخه في ٢٢ جمادى الأولى ١١٤٣هـ / ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٧٣٠م في حين أن اللقيمي بدأ رحلته إلى القدس من دمياط بتاريخ ٨ ذي القعدة ١١٤٣هـ / ١٥ أيار/مايو ١٧٣١م.

بدأ اللقيمي رحلته إلى فلسطين من دمياط بتاريخ ٨ ذي القعدة ١١٤٣هـ / ١٥ أيار/مايو ١٧٣١م. وقدم إليها براً عن طريق قطية والعريش. وعند وصوله إلى رفح قال هي أول الشام. ثم وصل خان يونس حيث بات ليلته في قلعتها المنيعة[١٨٥]. وغادرها في اليوم التالي إلى غزة حيث أمضى ليلته في خانها وتشكّى من البراغيث والناموس في الخان[١٨٦]. ويذكّرنا هذا بما عاناه النابلسي من براغيث مجدل عسقلان القريبة من غزة. وامتدح اللقيمي بشكل مستفيض رياض غزة وخضرتها في وقت الربيع حين زارها وعدّد أنواع ورودها وفوائدها[١٨٧]. وبالرغم من كثرة الأماكن الدينية من جوامع ومزارات التي حفلت بها غزة والتي لم تتهدم مثل الكثير منها فقد رأى اللقيمي «غالب البلدة خراب من ظلم الأمراء وتحكّم. . . الأعراب»[١٨٨].

غادر اللقيمي غزة في ١٨ ذي القعدة/٢٥ أيار/مايو قاصداً خان سدود (أسدود). ثم مرّ بقرية يبنى (يبنة) في طريقه إلى الرملة حيث زار جامعها الأبيض وفيه «منارة عجيبة ظريفة في الشكل غريبة». ويستعرض اللقيمي ماضي الرملة المزدهر ثم ما حلّ بها من دمار منذ استيلاء الافرنج (يقصد الصليبيين)، كما يقول،

عليها وما أصبحت عليه في زمنه فيقول «لم يبق من تلك المحاسن إلّا الآثار وغالب أهلها تخطّفتهم أيدي الأقطار لكن بركتها باقية على الدوام»(١٨٩). ويقصد بالبركة بركة من دفن فيها من مشاهير العلماء وبما ضمته من آثار دينية باقية(١٩٠).

بقي اللقيمي في الرملة حتى صباح الاثنين في ٢٠ ذي القعدة / ٢٧ أيار/مايو حين غادرها إلى اسكلة (ميناء) يافا. ويقول فيها «يافا بلدة ظريفة على ساحل البحر وهي أسكلة للرملة والقدس ونابلس ونواحيها، بظاهرها بساتين ذات أشجار وأنهار وفواكه وأزهار»(١٩١). وبقي في يافا حتى يوم الجمعة في ٢٥ ذي القعدة ثم عاد إلى الرملة ومنها إلى القدس. ومرّ في طريقه إلى الرملة بقريتي يازور وصرفند، وذكر أن المسافة بين يافا والرملة أربع ساعات «بسير الصّافنات الجياد»، وغادرها فجر اليوم التالي «على متون الكرايم العتاق من الجياد» متّجهاً إلى القدس، ويذكر مروره بقرية قليونة (قالونية) ثم وصوله إلى القدس قبيل عصر ذلك اليوم(١٩٢). واستأذن في الدخول إليها فسمح له ودخلها من باب الخليل. ويذكر أنّ للمدينة سوراً محكم البنيان ولها ستة أبواب هي باب الأسباط وباب الساهرة وباب العامود وباب الخليل وباب داود وباب المغاربة. ويجمل ذكرها في بيتين من الشعر(١٩٣):

للقدس سور سما بالحسن رونقه　　أبوابه ستة فيها مقاربة
أسباط ساهرة عامود ثالثها　　باب الخليل وداود مغاربة

ونزل اللقيمي بضيافة السيد مصطفى الصديقي البكري (صاحب الخمرة الحسية) ثم زار الأماكن الدينية في القدس وانتهى إلى القول: «وقد اجتمعت الطوايف كلها على تعظيم بيت المقدس مَعَدا [ما عدا] السامرية بزعمهم أن القدس هو جبل نابلس»(١٩٤). وقد زار قلعة القدس ثم خرج من باب الأسباط يوم الثلاثاء ختام ذي القعدة / ٦ حزيران/يونيو لزيارة طور زيتا (جبل الطور) فمرّ بمقبرة باب الرحمة وتوجه بعد الزيارة إلى قرية العاذرية (العيزرية) التي تبعد عن الطور بنحو نصف ساعة، وعاد في اليوم نفسه إلى القدس عن طريق جبل الطور. ثم خرج في ٢ ذي الحجّة / ٨ حزيران/يونيو لزيارة الخليل واطّلع على مزاراتها الدينية. ومرّ في طريق العودة إلى القدس على مزارات بعض الأولياء في قرى جلجولة (جلجولية) وسعير وبيت أمر (بيت أومَّر). ويقول اللقيمي إنه لم يتمكن من الدخول إلى رحاب هذه المزارات «خوفاً من قطّاع الطريق الفئة الباغية»(١٩٥). وتوقف في الطريق إلى القدس من بيت لحم ونزل بيت الضيافة فيها، المعدّ للخاص والعام(١٩٦).

وانتظم اللقيمي في عداد أهل الطريقة الخلوتية، وهو في القدس، وذلك بتأثير مصطفى الصديقي البكري الذي أقام عنده(١٩٧). ثم زار عين أيوب وعين سلوان بوادي القدس، واستذكر بهذه المناسبة ما اختاره الله من عيون وهي أربع: عين بيسان وعين سلوان وعين زمزم وعين عكا. وأنهى العام الهجري بزيارته يوم الخميس ختام العام مقبرة ماملًا (مأمن الله)، وهي مدفن الخلاصة الأبرار. وزار في ١١ محرم ١١٤٤هـ / ١٦ تموز/يوليو ١٧٣١م السيد الكليم (مزار النبي موسى)، والمسافة إليه من بيت المقدس خمس ساعات في جبال ووديان(١٩٨).

بقي اللقيمي في القدس إلى غاية محرم ١١٤٤هـ / ٤ آب /أغسطس ١٧٣١م وغادرها في غرة صفر، برفقة مصطفى الصديقي البكري وغيره، لزيارة الأماكن المقدسة في ناحية نابلس وواديها. فتوقفوا في الرامة (الرام) ثم في قرية كفر قريع وبعدها في قرية دير قديس(١٩٩) حيث باتوا ليلتهم. ويصف أهلها أنهم «قطاع طريق هاتيك المسالك». ويشير أثناء مسيره إلى الخوف من قطّاع الطريق الذي منعه من زيارة إحدى القرى وكانت «بعيدة عن طريق الجادّة ثلاثة [كذا] ساعات»(٢٠٠). ونستدلّ من هذا أن السير على الطريق الرئيسية التي يشير إليها بطريق الجادة أكثر أمناً من السير على الطرق الفرعية. ثم سار اللقيمي والصديقي وصحبهما إلى قرية بطارة (صحيحها عطّارة)، وفيها شعر اللقيمي بالمرض. وساروا منها «نرتجي الشفا وتيسير الأمور فوصلنا وقت العصر إلى قرية يازور وأنا في شدة لا تفي بها الشكوى»، وباتوا في يازور ولكن اشتداد مرض القولنج (المغص والإسهال) باللقيمي جعله يستأذن الصديقي بالسفر إلى يافا لتغيير الهواء، ولحق به الصديقي بعد ذلك(٢٠١)، بقي اللقيمي في يافا عدة أيام. ولم يترك لنا وصفاً ليافا ربما بسبب المرض الذي أقعده. ثم سافر برفقة الصديقي إلى كفر سابة (كفر سابا) وبعدها إلى قرية حبلة، ومرّ بخربة قبيل الغروب فنزل براوية بقربها. وسار في اليوم التالي إلى قرية كور فنزل بجامعها والمرض يشتد به. ونظراً لشدّة مرض اللقيمي استأذن الصديقي بالسفر إما إلى يافا أو نابلس فأذن له بالسفر إلى نابلس لطيب هوائها فوصلها في ٢٤ صفر / ٢٨ آب/أغسطس. وحين استعاد صحته، بدأ يتجول في منطقتها في ٤ ربيع الأول / ٦ أيلول/سبتمبر. فزار قرية بلاطة وبها مشهد يوسف الصديق الذي، يقول اللقيمي، تعتقده طائفة السامرين

ولهذا استوطنوا نابلس ودورهم بها عامرة. وقد علم أن هذه الطائفة، كما أخبره بعض السادة الأخيار، «لا يوجدون في غير هذه الديار وأنهم لا يزيدون على سبعين وأن عدّتهم في نابلس لا تتجاوز الأربعين وهم من رفضة اليهود»[٢٠٢].

غادر اللقيمي نابلس في ١٧ ربيع الأول ١١٤٤هـ[٢٠٣] / ١٩ أيلول/سبتمبر ١٧٣١م فوصل إلى قرية دير شرف وتابع سيره إلى جنين حيث نزل بخانها المعدّ للمسافرين وبجانبه جامع. وسار ليلاً بعد ذلك باتجاه عيون التجار فوصل قبيل الفجر إلى خانها ونزل فيه مع رفاقه. ويقول ان بداخله مسجداً «قد آل إلى الزوال والفنا، وهذا الخان صار غالبه إلى الخراب بل قد قارب أن يساوي التراب»[٢٠٤]. ثم تابع مسيره صباحاً إلى خان المنية على شاطىء بحيرة طبرية. ويقول انه قبل وصوله إلى المنية «أخبرنا بعض المكارية أنه قريب من هنا مقام شعيب بقرية حطّين، ولكن دونها عقبات ومخاوف بيقين فأهدينا التحية لسيدنا شعيب عليه السلام»[٢٠٥]. ثم سافر وصحبه ليلاً أيضاً ووصلوا قرية عين تغران فوجدها خالية من السكان، ثم تأهب أمير الركب، كما يقول اللقيمي، للمسير إلى أن وصلوا القنيطرة ونزلوا بخانها الخرب. ثم تابعوا السير إلى قرية سعسع ونزلوا بخانها وبه تكيّة بجانب المسجد وبقربه ماء من نهر الأعوج. ووصلوا دمشق يوم الاثنين في ٢٢ ربيع الأول / ٢٤ أيلول/سبتمبر[٢٠٦]. ثم عاد اللقيمي إلى مصر بحراً بطريق صيدا، ووصل دمياط في ١٠ جمادى الأولى ١١٤٤هـ / ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٣١م.

وهكذا يكون اللقيمي قد أمضى في رحلته في فلسطين قرابة أربعة أشهر. وقد أكّد في غير مكان سيطرة قطّاع الطرق وبخاصة في الطرق الفرعية. ومما يلفت النظر سفره وجماعته بين نابلس والقنيطرة في الليل معظم الوقت ووصفه لخان عيون التجار وكذلك خان القنيطرة بأنهما خربان. ولعل عدم اعتراض قطّاع الطرق له ولصحبه أثناء مسيرهم في الليل كان بسبب تجمّعهم في ركب له أمير، وبالتالي مستعد للدفاع.

بعد ست سنوات من رحلة اللقيمي قام الإنكليزي ريشارد بوكوك برحلة إلى الشرق شملت فلسطين[٢٠٧]. وقد وصل يافا في ١٤ آذار/مارس ١٧٣٧م قادماً من دمياط على متن سفينة تحمل حوالي مائتين وخمسين حاجاً مصرياً من الأقباط. ويذكر سوء ميناء يافا لأن السفن تضطر إلى المغادرة نحو البحر في أوقات العواصف. ويقول ان دير اللاتين في يافا يستقبل الحجاج الأوروبيين بالرغم من وجود أديرة أخرى لأصحاب المذاهب المختلفة. ويتجمع الحجاج في يافا ريثما يلتحقون بقافلة الحجيج إلى القدس أو حتى يحين موعد مغادرتهم بالسفن.

ويذكر بوكوك أن ليافا تجارة هامة في الصابون الذي يصنع فيها وفي القدس والرملة واللد، ويباع جميعه تحت اسم صابون يافا. وتتزود مصر بمعظم مستلزماتها من الصابون من يافا. كما تصدّر منها كميات كبيرة من القطن في زوارق صغيرة إلى عكا حيث تصدّر إلى الخارج وإلى موانىء المتوسط الأخرى. ويذكر أن يافا تخص الكزلار آغا ربما بطريق الإقطاع الخاص أو الالتزام على شكل مالكانه (أي التزام لمدى الحياة)، لذا يرسل الكزلار حاكماً وجنوداً إليها، ولكن لا سلطة لهؤلاء على البدو[٢٠٨].

والتحق بوكوك بقافلة صغيرة غادرت يافا إلى الرملة وكان أفرادها يستخدمون الخيول وبعض الجمال والحمير ويرافقهم بعض فرسان البدو نظراً لسيطرة هؤلاء على الطرقات ونهبهم الناس حتى في بساتينهم، كما يقول بوكوك. ويصف الرملة أنها في سهل غني وفيها تجار فرنسيون يشترون القطن ويرسلونه إلى يافا لشحنه. ويشير إلى الخراب في الرملة بأنه دليل على ماضيها المزدهر وكذلك بالنسبة لقرية اللد التي يصفها بأنها فقيرة[٢٠٩]. وتدل ملاحظات بوكوك هذه وإقامة التجار الفرنسيين في الرملة على نشاط هؤلاء المتنامي في المنطقة. كما أن تهديد البدو للأمن يشهد بحاجة المنطقة إلى زعيم قوي، سرعان ما وجدته في شخص ظاهر العمر. وفي ١٧ آذار/مارس وصلت القافلة الرئيسية من يافا إلى الرملة في طريقها إلى القدس، وكانت بقيادة حاكم يافا، فالتحق بها بوكوك.

ويصف بوكوك القدس بأنها تقوم على أربع تلال: صهيون في الجنوب والغرب، وموريا في الشرق، وأكرا في الشرق والغرب، على امتداد عرض المدينة، وبزيتا في الشمال. ويقول إن أعلى تلة هي صهيون التي قامت المدينة القديمة عليها، ويسمى قسم المدينة الذي على تلّتي أكرا وموريا باسم المدينة السفلى. ويذكر أنّ القسم الرابع من المدينة وهو بزيتا كان ضاحية شمالية تسكنها الطبقات الدنيا، أما محيط المدينة فكان حوالي ٦ كم وهو الآن لا يتعدي ٣ كم[٢١٠].

ورافق بوكوك القافلة التي يرئسها حاكم القدس إلى نهر الأردن يوم اثنين عيد الفصح، وكان ذلك في ٢٧ آذار/مارس. وقد دفعت القافلة رسم الخفارة للبدو مما يدل أن ذلك أصبح أمراً معترفاً به نظراً لوجود حاكم القدس مع القافلة. كما أن اعتراض البدو لقافلة رسمية ذات صفة دينية موسمية يدل على جرأتهم.

وحين ذهب بوكوك إلى البحر الميت، في مناسبة أخرى، كان بحماية البدو المسيطرين على بعد حوالي ١٠ كم من القدس(٢١١).

وقام بوكوك بعدة زيارات في منطقة القدس ذهب في إحداها إلى بيت لحم ومنها إلى تقوع (طقوع). كما أنه انطلق مرة أخرى من بيت لحم باتجاه الشمال الغربي نحو الصحراء فمرّ بقرية الولجة وحاذى قرية بتّير، وأشار إلى أشجار الخروب التي تملأ تلك المنطقة الصحراوية(٢١٢). وفي مناسبة أخرى خرج بوكوك من القدس عبر باب بيت لحم واتجه شمالاً حتى وصل إلى تلة رماد الصابون ومنها تحوّل إلى الغرب وأتى إلى واد كثير الكروم فسار فيه مسافة ٣ كم وسط بساتين وأشجار الزيتون والتين والمشمش واللوز وقال إن هذا أجمل ما شاهده في منطقة القدس، ثم وصل إلى قرية بيت إجزا وشاهد على رأس تلة قرية الرامة (الرام) وإلى الشمال منها شاهد تلّتين على إحداهما قرية الجيب وعلى الأخرى إلى الشرق منها قرية بيت نبالا، ثم اتجه نحو عمواس وكانت قرية بدّو إلى يمينه وقرية بيت فوريك إلى شماله. وبعد أن أصبح على بعد حوالي ٥ كم من الرملة وصل إلى عمواس التي يسمونها أيضاً قبيبة. ودفع هناك رسم الخفارة للسكان المحليين ثم عاد إلى القدس(٢١٣).

وخرج بوكوك من جديد من القدس باتجاه يافا فمرّ ببيت فوريك، وكانت بدّو إلى يمينه. وبعد دخوله إلى الرملة واصل السير في ٢٣ نيسان/أبريل إلى اللد ووصف سهلها بأنه رملي. ثم غادرها غرباً إلى يافا والتحق بقافلة تسير في ذلك الاتجاه. وعبر سهلاً جميلاً تحده شمالاً تلال سارونا. ومرّ بقرب قرية بدرس التي كانت إلى يمينه وفيها أشجار الزيتون، ثمّ مرّ بقرية يازور إلى يمينه وقرية سلمة إلى أقصى اليمين ووصل يافا حيث أقام في دير اللاتين(٢١٤).

سافر بوكوك من يافا إلى عكا في ٢ أيار/مايو على مركب كبير يملكه يونانيون وقد حصل هؤلاء على حماية دير اللاتين لملّاحيه الاثني عشر. ونصّت الحماية أن القراصنة المالطيين يمتنعون عن أسْرهم خلال ثمانين فرسخاً من فلسطين. ولكن بالرغم من هذا التعهد كان القراصنة المالطيون يأسرون كل مسلم يرونه على ظهر المركب كما أنهم كانوا يستولون على كل شيء ثمين من الأتراك والمسيحيين على حدّ سواء. ولاحظ بوكوك من سفر المركب بمحاذاة الساحل أن المنطقة البرية تلّية ولكن تغطيها الأشجار. ورأى كمية من الخشب على الشاطىء بانتظار شحنها إلى مصر. وأمضى ليلته في المركب ومرّ في اليوم التالي بقيسارية ثم وصل عكا.

ويذكر أن عكا تقع في سهل فسيح وخصب. ونظراً لأن ميناء عكا كانت له أهمية كبرى أثناء الحروب فقد حدثت تبدّلات كبرى في المدينة بسبب ذلك. فهناك أولاً المدينة القديمة ثم المدينة الجديدة التي تضمّ الحي حيث أقامت الرهبانيات المسيحية أديرتها، ومنها دير للأرثوذكس وآخر للّاتين يضم خاناً يعيش فيه الأوروبيون باستثناء قنصل الإنكليز. أما الميناء فصغير وممتلىء بالحجارة. وبقايا الميناء القديم تستخدمها السفن الصغيرة للرسو في الصيف ولنقل البضائع. ويقدّر بوكوك محيط مدينة عكّا الحديثة بـ ١,٥ كم ولا توجد لها أسوار. ويقول إن تجارة عكا تتألف، بدرجة كبيرة، من تصدير الحبوب إلى أوروبا والقطن إلى مصر وإلى موانىء فلسطين الأخرى. ويتحدّث عن كيفية توظيف رأس المال الأجنبي في الزراعة فيقول إنّ التجار الأوروبيين يقدّمون المال إلى الفلاحين لقاء شراء المحصول بأسعار معقولة، وهذا ما يجعل للتجار الأوروبيين مصلحة في الأرض(٢١٥).

ويشير بوكوك إلى تلة على بعد أقل من كيلومتر شرقي عكا، وعرضها حوالي نصف كيلومتر يقول ان الباشا (والي دمشق) يستخدمها لإقامة خيمته حين يقوم بالدورة في ولايته لجمع أموال الميري. ويرجح بوكوك أن التلة كانت تستخدم كمعسكر للذين يحاصرون عكا.

وقد غادر بوكوك عكا باتجاه جبل الكرمل وقيسارية في الجنوب وذكر أنه أتى إلى أسفل الجبل ثم تحول نحو الغرب، وأن هذا الجبل يمتد من البحر حتى سهل مرج ابن عامر شرقاً ومن خليج عكا إلى قيسارية جنوباً، وأن طرف الجبل المطلّ على الخليج هو أجمل ما فيه بسبب الأشجار المثمرة التي تغطيه. ولكن بوكوك لم يستطع زيارته بسبب خطر البدو. وهذه إشارة أخرى إلى سيطرة البدو حتى بجوار المدن الساحلية في منتصف العقد الثالث من القرن الثامن عشر.

وسار بوكوك إلى حيفا على الطرف الجنوبي من الخليج مواجه عكا. ويشير إلى تهدم قلعتها ولكن بُني فيها حصنان للدفاع ضد القراصنة لأنها كانت في الواقع ميناء عكّا حيث ترسو السفن. وزار حصن عتليت وهو مبني على نتوء جبلي ممتد لمسافة نصف كم تقريباً في البحر وله ميناء خاص به في جنوبه ولكنه ممتلىء بالرمل. ويحيط به سوران بسمك أربعة أمتار تقريباً. ويقول بوكوك إن بناء هذا الحصن الممتاز يجعله من أهم ما يشاهد على الساحل. وأمضى بوكوك ليلته في الحصن، وبالرغم من رسالة القنصل الانكليزي في عكا إلى الزعيم البدوي الذي يسيطر على الحصن فقد دفع له رسم الخفارة. وتجدر الملاحظة إلى أن ذكر بوكوك لتمركز البدو وسيطرتهم في هذه المناطق الاستراتيجية الساحلية

يفسّر لماذا عمد ظاهر العمر، في هـذه الأثناء، إلى التـزاوج والتحالف مع القبائل البدوية التي بوجودهـا في هذه المنـاطق اضطرته إلى التعامل معها في الفترة الأولى من تأسيس قوّته على الأقل.

واتجه بوكوك في اليوم التالي إلى طنطورة (يذكرها طرطورة)، ويصفها بأنها مدينة صغيرة لها ميناء في جنوبها تستخدمه المراكب الكبيرة. ومنها اتجه إلى قيسارية. ويذكر أقنيتها القديمة لنقل المياه، وأسوارها التي ما زالت بقاياها قائمـة. ويشير إلى خرائب البيوت المقببة داخل الأسوار وإلى وجود خنازير بريّة في السهول المجاورة لها، ولا تسكنها أكثر من أُسرتين أو ثلاث ويشكّل فقرهم ضمانة لعدم اعتداء البدو عليهم. وعاد بوكوك بالقارب إلى عكا[٢١٦].

غادر بوكوك عكّا في ٨ أيـار/مايو باتجاه الناصرة مخترقاً سهل عكّا والتلال التي تليه، ومرّ بقرية اعبلّين حيث استضافه شيخها. وشاهد بعدها، على تل، قرية البدوية، كما ذكر قرية رمانة في السهل بين اعبلّين ومرج ابن عامر، وتقابلها في الطرف الآخر من السهل قرية قانا (لعلها قانا الجليل وهي كفركنا). ثم اجتاز تلّة ودخل إلى قرية صفّورية حيث أقام عند شيخها، وتابع سيره في اليوم التالي ٩ أيار/مايو باتجاه الناصرة ومرّ في طريقه بقرية الرينة الصغيرة[٢١٧]. ويذكر بوكوك أن في الناصرة ديراً كبيراً للآباء اللاتين. وقد زار قرية على تلة جنوبي الناصرة تدعى يافا ومنها شاهد القسم الغربي من مرج ابن عامر الذي يمتد حتى جبل الكرمل. وقد رحّب به شيخ القرية.

وفي ١٠ أيار/مايو غادر بوكوك الناصرة باتجاه الشرق لزيارة جبل طابور، ويقول إن هذا الجبل يتميز بتربته الغنية وإنتاجه الزراعي إذ تغطيه الكروم، ومنه أشرف على بحيرة طبرية وصفد وتلال عين جدي وجبل الشيخ. وعند أسفل جبل طابور، من جهة الغرب، تقوم قرية دبورية. وعاد إلى الناصرة عن طريق اكسال والتلال القريبة من قرية يافا[٢١٨].

غادر بوكوك الناصرة في ٢٢ أيار/مايو واتجه شمالاً نحو قرية المشهد وتبعد حوالي ٥ كم عن صفورية. ورحّب به شيخها حين علم أنه يخصّ القنصل الإنكليزي. وعلى بعد نحو ٣ كم منها إلى الشرق تقع قرية كفركنا. وعلى بعد حوالي ١٩ كم تقريباً إلى الشمال الشرقي من الناصرة وصل إلى التلال المسماة قرون حطّين وعند أسفلها تقوم قرية حطّين. وتشتهر المنطقة ببساتين الليمون والبرتقال.

ويذكر بوكوك إلى الشمال الشرقي من حطّين بنحو ثلاثة كيلومترات وجود ممر ضيّق بين جبلين يسمى وادي الحمام يؤدي إلى سهل طبرية الذي يقع إلى الغرب من القسم الأوسط من البحيرة، وعلى إحدى التلال إلى الشمال من هذا السهل يقوم حصن محفور في الصخر والطريق إليه منحدر جداً. ويقال إن بانيه أو مجدّده هو الأمير فخر الدين المعنيّ (الثاني). ويصف مدينة طبرية أن لها أسواراً من جهاتها الثلاث وتفتح الجهة الرابعة على البحيرة ويبلغ محيطها حوالي ١,٢ كم أما طـولها فيبلغ ٤٠٠ م تقـريباً وعرضها نصف ذلك. وفيها بقايا حصن ولكن شيخها بنى حصناً على تلة إلى الشمال منها. أما بيوتها فقليلة. ويشير إلى الحمّامات المعدنية على بعد حوالي نصف كم إلى الجنوب من أسوار طبرية القديمة. ورحب شيخ طبرية به وكان يحمل توصية له من القنصل الإنكليزي. ويذكر بوكوك أن سكان طبرية يدخلون ماشيتهم داخل الأسوار في المساء خشية سرقتها ولهذا تكثر فيها الحشرات وأصوات الحمير.

ويقول بوكوك إنه حين كان في طبرية كان شيخها منشغلاً ببناء حصن على المرتفع إلى شمالها وفي تقوية أسوارها القديمة بدعائم من الداخل لأن هذا الشيخ كان على خصام مع والي دمشق الذي أخذ أخا الشيخ أسيراً في قتال بينهما وشنقه في دمشق. وقد زال خوف الشيخ بعد عزل هذا الباشا. ويضيف بوكوك أنه غالباً ما حدثت المنازعات بين شيخ طبرية وولاة دمشق الذين كانوا يسلّطون مدافعهم على أسوارها وكانوا هدموا بعضها ولكنهم فشلوا في احتلالها[٢١٩]. ولم يشر بوكوك إلى اسم هذا الشيخ، وهو ظاهر العمر، الذي لم يكن قد اشتهر بعد سوى في نزاعه مع والي الشام سليمان باشا العظم (١٧٣٤ ــ ١٧٣٨م و ١٧٤١ ــ ١٧٤٣م) الذي حاصره غير مرة لامتناعه عن دفع أموال الميري أثناء دورة الباشا. كما أنّ أخا ظاهر الذي شنقه سليمان باشا العظم كان اسمه صالح. ويلاحظ مدى النفوذ الإنكليزي لدى الشيوخ المحليين الذين رحبوا ببوكوك لأنه يخص القنصل الإنكليزي. كما أن كتابة القنصل (ويبدو أن مقره عكا) توصية إلى ظاهر العمر تدل على علو شأن ظاهر بين الشيوخ وعلى الأهمية التي يعلّقها عليه القنصل الإنكليزي في هذه الفترة المبكرة من تاريخ ظاهر.

ويصف بوكوك بحيرة طبرية بأنها جميلة تحيط بها جبال جرداء من الشرق، وفي الغرب يحيط بها سهل طبرية وتلال سهل حطين وأطراف التلال التي تؤدي إلى الجبل المشرف على صفد، كما وتحيط بها أراضٍ سهلية من الشمال والجنوب. وقد سار بوكوك من طبرية على طرف البحيرة باتجاه الجنوب ومرّ بمرتفع

يسمى الكرك الذي يبدو أنه كان محصناً، ولاحظ وجود قطعان من الخنازير البرية في المنطقة.

واتجه بوكوك من طبرية شمالاً، وأول مكان وصل إليه هو قرية مجدل وهي إلى الجنوب الشرقي من سهل طبرية على البحيرة. ويشير إلى جسر بنات يعقوب على بعد ٢,٥ كم جنوب بحيرة الحولة. وعلى الطرف الآخر من الجسر باتجاه دمشق يوجد خان يقضي فيه المسافر الليلة الثانية بعد مغادرته دمشق (الأولى في القنيطرة كما يقول بوكوك). وتؤدي السهول إلى الغرب من الحولة إلى مرتفعات تلّية شمالي حطّين تنتهي بصفد.

ويقول بوكوك ان قاضي صفد والحاخام اليهودي فيها استقبلاه وأن القاضي استضافه على عشاء فاخر. ويذكر وجود عدد من اليهود في صفد لأنها تعتبر لديهم أشبه بجامعة لتعليم حاخاماتهم الذين يوجد منهم عشرون أو ثلاثون فيها كما يقول بوكوك. وبعضهم أتى إليها من بولونيا. وفيها ما لا يقلّ عن سبعة معابد لليهود[٢٢٠].

واتجه بوكوك من صفد نحو الشمال الشرقي نحو الحولة والتقى برجال شيخها الذين رافقوه، وزار البحيرة والمياه المعدنية بقربها، ثم سار إلى جسر بنات يعقوب حيث تنتهي سلطة شيخ الحولة. وعاد بعد ذلك إلى طبرية ومنها اتجه إلى عكا. وقد غادر عكا في ٢٨ أيار/مايو ١٧٣٧م باتجاه الشمال فمر بقرية المزرعة ثم بقرية الزيب قرب البحر. وذكر قرية عند التلال الشمالية تسمى بروة شرقيّ الطريق الساحلي، وهي أول قرية تحت حكم الشيعة كما يذكر بوكوك. ووصل بعدها إلى الناقورة[٢٢١].

ويلاحظ في رحلة بوكوك ثلاثة أمور رئيسية: أولاً، أنه أمضى في رحلته داخل فلسطين مدة شهرين ونصف الشهر تقريباً وقد فاق بذلك معظم الرحالة الذين استعرضناهم من أجانب وعرب منذ القرن السادس عشر. ثانياً، يتميز وصفه بالدقة وكذلك بسعة المناطق التي زارها. فلم يقتصر على السير على الطرق الرئيسية فقط بل سار في طرق فرعية وبخاصة في منطقة الجليل، وذكر الكثير من القرى التي مرّ بها أو شاهدها من بعد مما يثبت استمرارية هذه القرى. كما أن عمارها يدلنا على حدود العمران وبالتالي الأمن في تلك المناطق. ثالثاً، تظهر رحلة بوكوك مدى النفوذ الذي تمتع به القنصل البريطاني لدى الشيوخ المحليين وبخاصة ظاهر الذي كان يتطلع إلى الدعم في أول عهده. وسيكون للقنصل الفرنسي نفوذ مماثل بسبب العلاقات التجارية بين الفرنسيين والزعماء المحليين واستفادة هؤلاء اقتصادياً من ذلك لتوطيد نفوذهم. وبذلك وُضِعَت بدايات التدخل الأجنبي في السياسات المحلية المرتبطة بالنواحي الاقتصادية.

وفي الوقت الذي سيطر فيه ظاهر العمر منذ أواخر الأربعينات وحتى أواسط السبعينات من القرن الثامن عشر على منطقة الجليل ومدّ سيطرته من طبرية وصفد شرقاً إلى عكا وحيفا ويافا غرباً، وأسهم في تطوير الزراعة وتسويق منتجاتها بعد أن حقق الأمن في منطقته تحدث أحداث هامة في فلسطين سواء لجهة تصدّع جبهة ظاهر العمر من الداخل بثورات أبنائه ضده أو بسبب حدوث الزلازل المدمرة والطاعون الذي أعقبها، وكانت قد عمّت المنطقة في ١٧٥٩م. وتنعكس هذه التطورات والأحداث في كتابة الرحّالة الإيطالي الأب جيوفاني ماريتي Abbé Giovanni Mariti الذي قام بزيارة فلسطين خلال الفترة بين ١٧٦٠ و١٧٦٧م وكذلك قبرص[٢٢٢].

غادر ماريتي مدينة ليغورنة في إيطاليا في كانون الثاني/يناير ١٧٦٠م ووصل إلى قبرص في ٣ شباط/فبراير ثم غادرها في ٨ منه إلى حيفا لأن ميناءها أحسن لرسو السفن من عكا في فصل الشتاء. ونظراً لأخبار الزلازل والأوبئة في المنطقة بقي على ظهر السفينة حتى ٢٢ آذار/مارس ثم ذهب إلى عكا حيث اعتكف في الدير خشية أن يصيبه الطاعون الذي بدأ في شتاء ١٧٦٠م وازداد في الربيع وأخذ بالتلاشي في أوائل حزيران/يونيو. ووصف ماريتي الإجراءات التي اتخذها والي عكا لمقاومة الطاعون مثل عدم الاختلاط وتنظيف الشوارع ومنع القوافل القادمة من دمشق، حيث شدة الوباء، من دخول عكا إلا بعد الحجر عليها لمدة ثمانية أيام[٢٢٣].

يقدّر ماريتي عدد سكان عكا بستة عشر ألف نسمة توفي منهم بالطاعون، كما يقول، خمسة آلاف خلال خمسة أشهر. ويذكر أن التجار الفرنسيين هم أكثر التجار الأوروبيين عدداً في عكا. ويذكر ماريتي كيف أن فخر الدين المعني الثاني قد ملأ ميناء عكا بأنقاض البيوت المتهدمة ليحول دون رسوّ الأسطول العثماني فيها ومحاصرته له. ثم يشير إلى أن حاكم عكا ظاهر العمر قد جدد أسوار المدينة. كما أنه لاحظ وجود حصن كبير في ميناء عكا القديم تعلوه عدة مدافع فضلاً عن وجود مخزون من العتاد الحربي فيه. ويقول انه على بعد ميل من المدينة الجديدة أقيمت طاحون تديرها الريح. ويشير إلى أن مدينة عكا الجديدة تبعد عن الأسوار القديمة قرابة ميل وأن المدينة القديمة تحيط بها ثلاثة أسوار يفصل بينها خندقان واحد من الخارج والآخر من الداخل، وكانت آثارها بادية. وتعلو الأسوار عدة حصون. ويذكر ماريتي وجود

عدة كنائس في عكا: كنيستان منها للاتين وواحدة للروم الكاثوليك وأخرى للموارنة وخامسة للأرثوذكس إلى جانب كنيس صغير لليهود. ويقول إن الحكومة تمنع اليهود من توسيع هذا الكنيس طالبة إليهم الاكتفاء بمساحة بيت أعطتهم ملكيته. كما توجد ثلاثة جوامع في عكا وسوقان وحمّامان وعدّة مقاهٍ. ويشير إلى ضيق شوارع عكا وأن أعرضها لا يستوعب أكثر من جمل. وتستخدم الحجارة في بناء البيوت، وسطوحها مسطّحة تعلوها الشرفات[٢٢٤]. وتفسر كثرة الكنائس في عكا بما سبق وذكره بول لوكاس أثناء زيارته عكا في تموز/يوليو ١٧١٦م من أن عكا كان يسكنها في زمنه عدد كبير من مسيحيي الناصرة الذين لجأوا إليها هرباً من تسلط البدو[٢٢٥].

ويقوم ماريتي برحلة في فلسطين لا يذكر (أو بالأحرى لا تذكر ترجماتها عن الإيطالية) تفاصيل عن تواريخها، ولا تذكر الترجمة الفرنسية سوى تاريخين لوجوده في فلسطين في ١٧٦٠م أثناء الطاعون، وكان ذلك لفترة قصيرة لم تتعدَّ تلك السنة، وفي عام ١٧٦٧م التي ورد ذكرها بكثرة وبخاصة في الربيع والصيف، ومهما يكن فإن أوصاف رحلته تنطبق على الفترة بين ١٧٦٠ و١٧٦٧م، وأهميتها تكمن في تعريفنا بأوضاع فلسطين في فترة هامة من تاريخها إبّان حكم ظاهر العمر.

بدأ ماريتي بزيارة جبل الكرمل فغادر عكا من باب المغاربة الذي يعرف أيضاً بباب الناصرة. وعلى بعد مائتين وخمسين خطوة إلى الجنوب وصل إلى نهر النعامين الذي يشير إليه السكان المحليون باسم الكِرداني. وميزة هذا النهر، كما يقول ماريتي، هي وجود بلورات زجاجية في رمله يقبل عليها أصحاب المراكب الأوروبيون لوضعها كثقل لتوازن المركب، وأيضاً لاستعمالها في صناعة الزجاج وبخاصة في البندقية[٢٢٦]. وإلى الجنوب من عكا بحوالي ١٤ كم على الساحل يصب نهر المقطّع، وأحياناً تسدّ الرمال فوّهته فيشكّل بحيرة يصعب اجتيازها، وقد غرق فيها ترجمان الانكليز على حصانه في شهر شباط/فبراير ١٧٦١م. وبين النهرين وعلى بعد ما بين ٢ ــ ٣ كم من البحر يخيم باستمرار جماعة من الأكراد أقامهم ظاهر لموازنة خطر البدو. وعلى بعد حوالي ٥ كم من نهر المقطّع تقوم حيفا الجديدة المبنية على أنقاض حيفا القديمة المجاورة لها، وهي ذات أسوار من ناحية البحر. وقد حصّنها ظاهر وأقام فيها قلعة ودائرة جمارك، وترسو السفن في مياهها. ويقول ماريتي ان حيفا يسكنها روم كاثوليك وروم أرثوذكس ومسلمون. وعلى مقربة من حيفا القديمة وعلى نتوء أرضي في البحر بُني حصن على أنقاض آخر حيث وضع فيه العثمانيون حامية لحماية الساحل من القراصنة الأوروبيين ومنعهم من بيع غنائمهم على الساحل. وبذلك يحرم ظاهر من العائدات الجمركيّة التي يفرضها على هذه المبيعات، ويعوّض عن ذلك بمهاجمة الحصن أحياناً والاستيلاء على مدفعيته[٢٢٧]. ويبدو أن ماريتي يشير هنا إلى حصن عتليت الذي سبق وأشار إليه كلّ من دارفيو ولوكاس وبوكوك.

ويصف ماريتي جبل الكرمل المليء بالأماكن الدينية وبالكهوف التي يعيش فيها أو يزورها المسيحيون والمسلمون. وأبرز من فيه من الرهبانيات الآباء الكرمليون الذين لهم دير فيه ويتمتعون بحماية قنصل فرنسا في صيدا أو عكا، وحماية ظاهر العمر، لقاء مبلغ من المال يدفعونه له. ويصف خصوبة الجبل ووجود الغابات فيه ويذكر أنه شاهد فيه النمور. وقد أبعد ظاهر العمر القبائل البدوية عن جبل الكرمل منذ أن أصبح له حكمه[٢٢٨].

واتجه ماريتي بعد ذلك وجهة أُخرى إذ سار من عكا شمالاً ماراً بسهلها الذي يصف خصوبته بالقمح والشعير والقطن والخضار. وبعد مسيرة حوالي ١٠ كم من عكا مرّ بقرية أبو سنان إلى يمينه، ويذكر وفرة القطن فيها. ثم اتجه إلى الشمال الشرقي نحو حصن جدّين الذي يبعد عن عكا، كما يقول ماريتي، حوالي ١٨ كم. ويسيطر على هذا الحصن شيخ من قبل ظاهر العمر وقد استضافه. ويشرف الحصن على الأراضي الخصبة المحيطة به والممتدة حتى البحر[٢٢٩].

ثم سار ماريتي نحو قرية ترشيحا التي تبعد عن جدين حوالي ١٠ كم وأمضى فيها ليلته. ويذكر أن إحاطة التلال بهذه القرية تحبس عنها الهواء في الصيف. ولكنها تكثر فيها المياه التي تنشط زراعة القطن والأشجار المثمرة، وبخاصة زراعة التبغ. ويتكلم عن تشكّل المياه في وادٍ مجاور واستخدامها في إدارة الطواحين وتشكيلها نهراً صغيراً توجد فيه الأسماك. ويلاحظ أن قمم الجبال القريبة من ترشيحا تغطيها الغابات. ثم يعود فيجتاز سهل عكّا باتجاه الغرب ويصل قرية الزيب على شاطىء البحر، ويشير إلى حصن فيها حديث البناء، وتبعد عن عكا قرابة خمسة عشر كيلومتراً[٢٣٠].

ويتجه ماريتي بعد ذلك من عكا إلى الناصرة. ويلاحظ أن حكم ظاهر العمر القوي قد أبعد خطر البدو عن ممرات الجليل فأصبحت آمنة للمسافرين وهو ما شجع بالتالي ماريتي على السفر. ويخرج من عكا من باب المغاربة ثم يشاهد على تل مرتفع آثار آلات الحصار التي أقامها العثمانيون مؤخراً ضد عكا. ويؤدي

السهل الخصب الذي يجتازه إلى تل كيسان حيث كانت تقوم قرية بهذا الاسم، وبعد حوالي ثلاثة كيلومترات يرى قريتي ميعار ودامون تحيط بها المزروعات، وإلى يمينه يشاهد حصن اعبلّين حيث يتحصن يوسف شقيق ظاهر العمر.

ويذكر ماريتي أنّ الناصرة تابعة لظاهر العمر. ويقول ان فخر الدين المعني، في القرن السابق، قد شملها بعنايته وسمح ببناء دير لإحدى الرهبانيات فيها. وبعد مقتل فخر الدين عاد البدو إلى التسلط على الناصرة ومنطقتها. ثم نعمت بالأمن في عهد ظاهر الذي أقام قصراً فيها وعمل على جذب السكان إليها وبخاصة المسيحيين، ومنح التزام ضرائبها إلى آباء الأرض المقدسة الذين حرصوا على دفع المبالغ كاملة. ويذكر ماريتي أنه بالرغم من وجود كنائس في الناصرة فإنه لا يوجد فيها أي جامع، ويعزو ذلك إلى محاباة ظاهر للمسيحيين. ومما شاهده في ضواحي الناصرة، على بعد حوالي ٥ كم منها، بقايا أسوار مدينة يافا القديمة التي تقوم مكانها قرية يافا[٢٣١].

كانت وجهة ماريتي التالية كفركنا (قانا الجليل)، ودهش لقلة عدد سكانها بالنسبة لخصب الأراضي المحيطة بها والتي تنتج القمح والشعير. وهذا الموقع تحت سلطة ظاهر العمر، شأن كل الجليل. ومعظم سكان كفركنّا من المسيحيين، وفيها بعض المسلمين. وبعد خروجه من كفركنّا مرّ بقرية طرعان وغيرها من القرى التي، يقول ماريتي، يسكنها المسلمون والمسيحيون. ووصل أخيراً إلى صفد التي يقول ان جميع سكانها تقريباً قد أُبيدوا بزلزال عام ١٧٥٩م، وعاد الناس لسُكناها ثانية. ويذكر أن فيها كثرة من اليهود وقلة من الكاثوليك، إلى جانب المسلمين. ويحكمها أحد أبناء ظاهر العمر[٢٣٢].

غادر ماريتي صفد إلى طبرية التي يقول عنها ان أسوارها القديمة تمتد بطول حوالي ٥ كم، ولكن محيط المدينة الحالي لا يتجاوز ١,٦ كم، وشكلها مربع، لها بابان، واحد يفتح على الغرب والآخر على الجنوب وهو صغير ويفتح باستمرار. ويعطي ماريتي فكرة بائسة عن طبرية بأنها أشبه بمدينة الأموات من الخارج والداخل. ولا تشاهد فيها سوى الخرائب، ويقول انه قبل عام ١٧٥٩م كانت طبرية أكثر سكاناً وأقل بؤساً. وقد شيّد فيها صليبي بن ظاهر العمر قصراً جعله مقراً له ولكنه انهار مع غيره بفعل الزلازل. وشجع ظاهر السكان بعد ذلك على إعادة السُكنى فيها. وكانت طبرية هامة لظاهر لأنه يرصد منها تحركات والي الشام ضده، ولهذا حرص الوالي على احتلالها قبل كل شيء. وإلى الشمال من طبرية تقوم على قمة تلة قلعة كانت تدافع عن طبرية إلى أن هدمتها الزلازل. ويذكر ماريتي مشاهدة بعض آثار بلدة عمواس إلى الشمال من طبرية بمقدار ١,٦ كم واشتهرت بمياهها الحارة[٢٣٣].

ثم اتجه ماريتي من طبرية نحو قرية عيون التجار التي أدهشته بالأسوار التي تحيط بها، ويقول إن فيها تجارة مزدهرة ويفد إليها التجار من المناطق المختلفة للمشاركة في سوقها الأسبوعية يوم الاثنين على مدار السنة. ونظراً لما تضمه من أقمشة وسلع من مختلف الأنواع وكذلك من حيوانات فإنه يصح القول انها تتفوق بذلك على أكثر الأسواق غنى في أوروبا كما يقول ماريتي. ويضيف ان هذا المكان هو ملتقى القوافل المتجهة إلى القاهرة، كما أن والي دمشق يتوقف فيه أثناء سفره كل عام (ربما في الدورة لجمع أموال الميري). وقد أشار الرحالة السابقون إلى أهمية قرية عيون التجار كنقطة التقاء وتوزع للقوافل الذاهبة من دمشق إلى القدس أو مصر أو عكا. ويشير ماريتي إلى حصن مقابل عيون التجار يسميه حصن فنشيار Forteresse de Finchiar كانت تفرض فيه قبل فترة ضريبة حق المرور على كل مسافر يمر به، يذهب نصفها لوالي الشام ونصفها الآخر للبدو. وقد ألغيت حين احتل ظاهر المنطقة.

ويشير ماريتي إلى جب يوسف القريب، ثم يذكر جبل طابور الذي يقدّر بعده عن طبَرية بـ ١٩ كم ويقول انه يشرف على ريف الجليل معطياً أجمل الصور. فالسهول الخصبة تتخللها القرى والحصون والمدن والخرائب القديمة، وتقع العين كذلك على مرج ابن عامر ومجموعات الجبال البعيدة. ويذكر ماريتي أثناء نزوله من جبل طابور قريتين هما سعد وطابور وسكانهما قلائل. وعلى بعد حوالي ٣ كم من الجبل توجد قرية نعيم (نين) عند أسفل جبل الطور وتضم هي الأخرى قلة من السكان يتألفون من المسيحيين والمسلمين واليهود. ويذكر أن المسافة بين نعيم (نين) والناصرة حوالي ١٣ كم. ويقدر ماريتي بُعْدَي مرج ابن عامر بأنهما حوالي ٣٢ كم في الطول و ١٩ كم في العرض[٢٣٤].

ويتابع ماريتي سفره من الناصرة باتجاه الشمال ثم الغرب حيث يصل إلى قرية صفورية. ويستدل من الخرائب فيها ومن حولها ومن بقايا أسوارها على ماضيها العظيم. وهي تابعة لظاهر العمر ويسكنها مسلمون وقلة من المسيحيين. وحين غادرها لم يتبع الطريق الرئيسية إلى عكا بل ذهب عبر طرق فرعية للتفرج على جمال الطبيعة والسهول التي تغصّ بالقمح والشعير والقطن، والتي يعتني بها المزارعون أحسن عناية. ووصل قرية شفا عمرو التي تقوم على تلّ، ويقدر بعدها عن عكا بحوالي ٢٠ كم. ويقول انها

مكتظة بالسكان ومعظمهم من الكاثوليك وان ظاهر العمر يعطي التزام جمع ضرائبها إلى إحدى الأسر المسيحية الرئيسية ويمنح الملتزم لقب شيخ. ويعتبر ماريتي قطن شفا عمرو أحسن قطن في المنطقة ويشتريه تجار عكا. ويمتدّ بين شفا عمرو وعكا سهل خصيب. ويعلّق ماريتي على خصب تربة الجليل وكثرة ينابيعها وأنهارها وانتشار الأشجار فيها وخضرتها الدائمة حتى في الشتاء بأنّ هذه البلاد في ربيع دائم(٢٣٥).

ويتميز ماريتي عن غيره من الرحالة في أنه لم يهدف من زياراته المرور في طريق معين والوصول إلى بلد معين، مثل القدس، وإنما كان هدفه الاستطلاع. فجعل عكّا مركز تحركاته ومنها انطلق بجولاته في مناطق محددة بحيث كان يعود إلى عكا عقب انتهاء الجولة الواحدة لينطلق بعد أيام في جولة أخرى. وكانت جولة ماريتي التالية باتجاه القدس عبر يافا، وأول محطة له بعد عكا قرية طنطورة التي يقول عنها ان منطقتها يملكها قلة من الفلاحين العرب. ويشير إلى زراعة الحبوب والقطن والأشجار المثمرة في المنطقة. ويكثر إنتاج القمح بشكل خاص، وتتفوّق نوعيته على سواه في فلسطين وسورية. ويعمد التجار الأوروبيون الراغبون بشراء هذا القمح إلى التعامل مع التجار المحليين في عكا الذين ينقلون القمح إلى ميناء طنطورة على مسؤوليتهم، من ناحية الكمية والنوعية، حيث يتسلّمه التجار وذلك كضمانة ضد المتلاعبين. وقد مدّ ظاهر سلطته على طنطورة ولكن والي دمشق أجبره على التراجع عنها، وبالرغم من ذلك تمكن ظاهر من السيطرة على تجارة المنطقة بكاملها بتأييد التجار المحليين الذين أفادوا من ذلك(٢٣٦).

ومرّ ماريتي على بعد حوالي ١٠ كم من طنطورة بنهر التماسيح، ثم وصل قيسارية، وبعد ذلك بحوالي ٣٢ كم وصل إلى أرسوف التي وجد فيها حصناً وحامية وجامعاً صغيراً يسكنه دراويش. وبعد حوالي ٨ كم وصل إلى يافا حيث رحّب به نائب قنصل توسكانيا(٢٣٧). ثم التحق بالقافلة المتجهة إلى الرملة برفقة ثلاثة جنود من حامية يافا. وبعد حوالي ٦,٥ كم من يافا وصلت القافلة إلى قرية يازور حيث توقفت عند جامعها وتزودت بالماء من بئر فيها. وذكر أن سهل سارونا الذي مرّ به تزرع فيه كميات من الخيار تموّن المناطق المجاورة وساحل سورية وجزيرة قبرص وأيضاً مدينة دمياط. ولاحظ كذلك أن مساحات من الأراضي غير مزروعة ويعزو ذلك إلى استبداد الحكام. وبعد حوالي ٢,٥ كم من يازور مرّ بقرية البرج وبعدها بـ ١,٥ كم تقريباً بقرية صرفند ويسكنها مسلمون. ويذكر ماريتي أن الزيتون يكثر في المنطقة وأن شخصين لا يكفيان للإحاطة بجذع شجرة واحدة. ثم يشير إلى الخلاف بين القريتين الأخيرتين وإهمال أشجار الزيتون الواقعة بينهما بسبب ذلك أو تخريبها(٢٣٨).

ومرّت القافلة بين الرملة والقدس بقرية عمواس، وهي نقطة التقاء للمسافرين القادمين من غزة والقاهرة. وحين وصلت إلى قرية لطرون وقفت في وجهها جماعة من البدو للمطالبة برسم الخفارة. ويذكر ماريتي أنه شاهد بعد ذلك عدة تجمعات للبدو قطّاع الطرق متمركزة في الوادي. وخشي الأرمن واليونانيون في القافلة على بضائعهم التي يحملونها إلى القدس. ثم اتجهت القافلة نحو قرية العنب (أبو غوش). ويذكر ماريتي كثرة أشجار العنب والزيتون في منطقتها. ثم اجتازت القافلة منطقة جبلية فيها بعض البساتين وآثار الخراب. وشاهد ماريتي من هناك قرية قالونية(٢٣٩).

وحين وصلت القافلة التي فيها ماريتي إلى القدس دخلت من باب بيت لحم حيث دفع كل فرد منها إلى حارس هناك رسم الدخول. وقد أعلمه رهبان دير الأرض المقدسة أنه خالف العادة في الدخول من باب بيت لحم ويجب عليه الدخول من باب دمشق وإلّا استاء متسلّم القدس. ففعل ذلك بعد أن دفع للمتسلم بعض المال للعفو عنه. ولا نعلم إذا كان ذلك قد طبّق على جميع أفراد القافلة. وبعد أن وصف الأماكن الدينية في القدس غادرها برفقة القافلة السنوية التي يرئسها متسلّم القدس لزيارة أريحا ونهر الأردن في طريق يتهدده البدو. وبالرغم من أن المتسلم كان يرافقه مائة جندي توجب على أفراد القافلة شراء حق الطريق من البدو بالمال، وكان هؤلاء على اتفاق مع متسلّم القدس العثماني حول تحديد المبلغ. ويأتون عادة إلى باب القدس لمرافقة القافلة وعلى رأسها المتسلّم. وتخرج القافلة كل عام إلى أريحا بمناسبة الفصح. ويقول ماريتي انها كانت تضم في السابق حوالي خمسة عشر ألف شخص بينما لم تضم آنذاك سوى خمسة آلاف معظمهم من المسيحيين الشرقيين. ويقدر ماريتي مدخول القافلة بحوالي خمسة عشر ألف سكين Sequin وهي قطعة نقدية إيطالية، يدفع منها بين ألفين وثلاثة آلاف لتكاليف الرحلة وأربعة آلاف لزعماء البدو ويبقى للمتسلّم سبعة آلاف. وقد خرجت القافلة في ١٢ نيسان/أبريل إلى أريحا ووصلتها بعد مسيرة سبع ساعات تتخللها مناطق صحراوية. ويصف ماريتي أريحا بأنها فقيرة ويرتادها البدو، ويُشاهد فيها بقايا أسوارها وحصنها. ويذكر أنّ سهل أريحا طوله حوالي ٣٢ كم وعرضه حوالي ١٦ كم، وباستثناء بعض أقسامه المزروعة بالقمح والشعير فإنه يحتاج إلى جهد كبير

لاستغلاله. ويذكر انتشار نبات البلسم baume وكذلك شجرة النخيل في سهل أريحا. ويصف الاستعمالات الكثيرة لشجرة النخيل في البناء وصنع السلال والدواء. ويشير بخاصة إلى شجرة الزقوم في سهل أريحا والمناطق المجاورة. ويشبه ثمرها البلح ويعطي زيتاً يستخدم لشفاء بعض الأمراض المعوية والجروح، وتشتهر أريحا كذلك بورودها. ومن أريحا اتجهت القافلة إلى نهر الأردن ثم عادت إليها. وفي تفسير الطريقة التي تتناقص فيها مياه البحر الميت يميل ماريتي إلى تفسير العرب القدامى بأنها تتبخر ولا تتسرب تحت الأرض إلى المتوسط أو البحر الأحمر[٢٤٠].

ثم قام ماريتي برحلة من القدس إلى بيت لحم بمفرده في ٢٢ نيسان/ابريل ١٧٦٧م، ونستدل من ذلك ومن تتالي جولاته السابقة من عكا وإليها، ثم منها إلى القدس وأريحا ونهر الأردن، أن هذه الرحلات تمت في عام ١٧٦٧م، في حين أن زيارته الأولى كانت في ١٧٦٠م إثر الزلازل والطاعون كما سبق القول. ويصف طريقه إلى بيت لحم بأنه في منطقة وعرة تتلوها أراضٍ مزروعة بالحبوب مثلما تغطّي أشجار الكرمة والزيتون التلال. كما يصف براعة سكان بيت لحم في صنع التذكارات الدينية التي يشتريها تجار عكا ويصدّرونها إلى عدد من الدول الأوروبية. ويشيد أيضاً بصناعة الزجاج في الخليل التي تستهلك محلياً وتصدّر إلى مصر وأنحاء سورية. ويصف منطقة الخليل بأنها وعرة ولكنها مغطاة بالأشجار أكثر من أية منطقة أُخرى في فلسطين[٢٤١].

ويلخص ماريتي رأيه في أوضاع فلسطين الأمنية في عام ١٧٦٧م فيقول بأنها منطقة خطرة للمسافرين سواء منهم الأوروبيون أم سكان البلاد أنفسهم، وإن ذلك نتيجة مؤسفة لضعف الحكام الأتراك الذين لا يطيعهم أحد خارج أسوار المدن. ويقارن بين خصب الأرض وجودة التربة حتى في مناطق التلال، في حين أن الفلاحين يلجأون إلى كوخ أشبه بالحصن مبني في كل حقل لحمايتهم من هجمات قطّاع الطرق وحماية أدوات عملهم خشية سرقتها[٢٤٢].

ويزور فلسطين في أواسط الثمانينات من القرن الثامن عشر الرحّالة المشهور قسطنطين فرانسوا شاسيبوف المعروف بلقب كونت دو فولني أو اختصاراً فولني، Constantin-François Chasseboeuf, Comte de Volney. وكان فولني في حوالي الخامسة والعشرين من عمره حين بدأ سياحته في مصر ثم انتقل إلى بلاد الشام مبتدئاً بحلب. وأمضى فيها حوالي ثلاث سنوات[٢٤٣]. وقد طبعت رحلته خلال سنتين من انتهائها بالفرنسية وترجمت فيما بعد إلى خمس لغات ومنها العربية، وهذا يدل على الاهتمام المتزايد في أوروبا الصناعية بتاريخ المشرق وأوضاعه آنذاك بغية استعماره أو على الأقل السيطرة على اقتصاده. وما حملة نابليون بونابرت على مصر وفلسطين بعد بضع سنوات ومعارضة بريطانيا لها إلّا خير شاهد على ذلك.

وتتميز رحلة فولني عن سابقاتها بأنه لم يذكر انتقاله من مكان إلى آخر كل يوم بل وصف المناطق المختلفة وسكانها وأورد إحصاءات تجارية وسكانية حصل عليها من القناصل الفرنسيين. كما أنه أبدى آراء شخصيّة حول كثير من الأمور ومنها عادات الناس ومعتقداتهم وسلوكهم الأخلاقي وهو ما يدل على نمط جديد من الرحلات عكست تفكيراً بورجوازياً، وفولني خير ممثليه بالرغم من لقبه الارستقراطي. وتأتي أهمية رحلة فولني أيضاً بالنسبة لفلسطين أنها رصدت المتغيرات التي حدثت في المنطقة بعد عشر سنوات من انتهاء حكم ظاهر العمر وانحسار الهجمات المملوكية من مصر على بلاد الشام ومجيء أحمد باشا الجزّار كحاكم مستبد ومستغل في بلاد الشام الجنوبية.

ومن الملاحظات الهامة لفولني ذكره انتشار السكان من القرى إلى المناطق الجبلية في المنطقة بين الحولة وطبرية حيث التربة خصبة. ويعلّق على ذلك أن بعد هذه المناطق عن دمشق وصعوبة تضاريسها جعلا سكانها بمنأى عن ابتزاز والي دمشق. ويقدّر أن سكان هذه المناطق هم الآن من أغنى سكان سورية بسبب عدم مشاركتهم في الاضطرابات التي عمّت الجليل والمناطق الأخرى من فلسطين ولعله يقصد حروب المماليك بالتحالف مع ظاهر العمر ضد العثمانيين. وشجّع هذا الهدوء في المنطقة كثيراً من السكان على القدوم والسكن فيها. ثم يستدرك أنه منذ أربع أو خمس سنوات أثار طموح بعض شيوخ المدن الذين حرّضهم العثمانيون الكثير من التحزب والمنازعات وكان لذلك انعكاسات سلبية تفوق مساوىء ابتزاز الولاة[٢٤٤].

وبعد مسيرة يومين من نابلس في مناطق جبلية صعبة يصل فولني إلى القدس التي يصفها بأنها كغيرها من مدن الشرق تمثل تقلبات الأيام؛ فأسوارها مهدمة وخندقها مليء بالأنقاض حتى ان المرء يكاد لا يعرف هذه المدينة ذات الأمجاد التي ناضلت ضد امبراطوريات قوية. ولا ينطوي موقعها الجغرافي ولا تضاريسها الصعبة على أهمية تجارية ومع ذلك قهرت القدس كل المصاعب لتدلّل على أهمية العقائد في اشتهار المدن. ويقدر فولني عدد سكانها بين ١٢ إلى ١٤ ألف نسمة[٢٤٥]. ويذكر فولني أن صناعة الأدوات التذكارية الدينية في القدس التي تُصدَّر إلى الخارج تشكل الصناعة الأهم في المدينة وضواحيها التي يعتاش منها معظم

المسيحيين والمسلمين على حد سواء. ومصدر الدخل الآخر هو ما ينفقه الحجاج في القدس. ويستطرد فولني في الحديث عن البلاد التي يأتي منها هؤلاء ومقدار ما ينفقونه والطريق الذي يتبعونه والزيارات التي يقومون بها بمناسبة عيد الفصح[٢٤٦].

ويخص فولني ثلاثة أماكن تابعة لحكومة القدس بأنها تستحق الذكر: أريحا وبيت لحم والخليل. فالأولى تقع في سهل يبلغ طوله حوالي ٣٠ كم وعرضه ١٤ كم. وعلى غرار ماريتي، يشير فولني إلى أشجار البلسم والزقوم في منطقة أريحا وفوائدها المتنوعة ويأتي بيع زيت الزقوم بفوائد مادية كبيرة لأهل منطقة أريحا. وحين الكلام عن بيت لحم يذكر فولني انه بالرغم من منطقتها الجبلية فإن تربتها وارتفاعها يناسبان زراعة الكرمة وشجر الزيتون. وتجند بيت لحم حوالي ستمائة مسلح بينهم مائة من المسيحيين اللاتين وهم يقاومون حاكم القدس العثماني أو القرى المعادية أو يتقاتلون فيما بينهم. ويقول فولني ان المصلحة المشتركة بين السكان أقوى من أية فروق دينية بينهم. وتنتظمهم الرابطة اليمنية ضد القيسية. أما الخليل فتقع على بعد سبعة فراسخ من بيت لحم. وتقوم عند أسفل تلة يحيط بها حوض متطاول امتداده من خمسة إلى ستة فراسخ تتخلله تلال صخرية وغابات الصنوبر والبلوط وأشجار الزيتون والكرمة والقطن. ويصدّر منها غزل القطن إلى القدس وغزة. وفيها صناعة الصابون التي تستخدم المادة القلوية (القِلي المصنوع من نبات الأشنان بعد حرقه) والتي يزود البدو بها أريحا. واشتهرت صناعة الزجاج في أريحا للاستعمالات المختلفة وبخاصة أدوات الزينة التي صُدِّرت حتى إلى استانبول. ويقول فولني إن الخليل هي الوحيدة في سورية التي تشتهر بصناعة الزجاج. وبسبب هذه الصناعة المدرّة للأرباح تشكّل الخليل أقوى قرية في المنطقة إذ تجنّد حوالي ثمانمائة إلى تسعمائة مسلح من الحزب القيسي. لهذا فهؤلاء هم الأعداء التقليديون لسكان بيت لحم اليَمَنية. ويعمّ النزاع القيسي ــ اليمني، كما يقول فولني، عموم فلسطين وهو مرتبط بانحدار السكان من قبائل عربية[٢٤٧].

ثم يصف فولني يافا وميناءها المليء بالأنقاض والذي يمكنه إذا ما اعتني به استقبال عشرين سفينة مجموع حمولتها ثلاثمائة طنّ، ولم يذكر المدى الزمني لذلك. في حين أنّ السفن الآن ترسو بعيداً في البحر على بعد حوالي ٥ كم من الشاطىء. ويذكر أنه بالرغم من الكوارث والخرائب التي حلّت بيافا ومنطقتها فإن هذا لم يستطع تجريدها من استمرار وجود الماء فيها من ينابيعها والذي هو خير ضمانة لاستمرار الزراعة فيها. ويتكلم عن قرية اللد بأن الخراب يعمّها. وبالرغم من ذلك الخراب كانت تقام فيها سوق أسبوعية يؤمّها الفلاحون من الجوار لبيع غزل القطن[٢٤٨].

وبدون أي توضيح من قبل فولني عن التاريخ الدقيق لزيارته لهذه الأماكن أو عن الطريق الذي سار فيه والرفاق الذين اصطحبهم أو اصطحبوه يتابع فولني كلامه بالحديث عن الرملة فيقول عنها انها مهدمة أشبه باللد، وانّ آغا غزة له فيها سرايا تحتاج إلى إصلاح. ويشير إلى شجر الزيتون بجوارها ويقول انه بدوره يقاسي من التخريب الذي تسببه العداوات بين المتجاورين. ويقدّر سكانها بمائتي بيت وأن الزراعة حولها تقوم بها ثلاث أو أربع أسر متنفذة بينها بقية الشعب تعمل في غزل القطن الذي تشتريه وكالتان فرنسيتان فيها، وهما آخر ما بقي للفرنسيين في هذه الجهات. وفي هذا إشارة إلى اضطهاد الجزار للتجار الفرنسيين الذي استفحل فيما بعد، ثم يتحدث عن الصابون الذي يصنع في الرملة ويصدَّر إلى مصر. كما أنه شاهد في الرملة طاحوناً تعمل على الهواء أقامها حاكمها في عام ١٧٨٤م. ويخص بالذكر منارة جامع خرب في الرملة تشاهد من أعلاها سلاسل الجبال باتجاه نابلس. ويشير إلى البيوت المنتشرة في السهل حتى غزة بأنها مصنوعة من الطين وأنها هشّة وتعكس فقر سكانها الذين يحصلون على الدفء في الشتاء من الحيوانات التي تقاسمهم المسكن. وفي الصيف ينامون في الهواء الطلق.

ويذكر فولني قرية المسميّة على بعد أربعة فراسخ من الرملة على طريق غزة وأنها تنتج الكثير من غزل القطن. وعلى مقربة منها مركز عشيرة الوحيدات. وعلى بعد حوالي ١,٥ كم إلى الجنوب توجد قرية بيت جبرين. وبعدها على مسافة سبع ساعات باتجاه الجنوب الغربي توجد قرية الحسي التي يسكنها البدو. وبالاقتراب من البحر، على بعد ثلاثة فراسخ من الرملة، على طريق غزة تقع قرية يبنة التي تتميز بوجود ساقية ماء فيها لا تجفّ في الصيف. ولا يزيد محيطها على فرسخ ونصف الفرسخ. وفي المستنقع الذي يفصلها عن البحر أخذ الفلاحون يزرعون في السنوات الأخيرة قصب السكر الذي لاقى نجاحاً كبيراً. ولكن الحاكم فرض عليهم الضرائب فتخلّوا عن الزراعة[٢٤٩].

ثم يشير فولني إلى أسدود الخربة ومن بعدها بحوالي ٥ كم قرية المجدل حيث يغزل أهلها أحسن قطن في فلسطين. وتشاهد عسقَلان إلى اليمين وتبتعد خرائبها عن البحر بالتدريج بسبب الطمي، وينطبق هذا على معظم الأماكن التي كانت تساير البحر في الماضي إذ تراجعت بمقدار أربعمائة إلى خمسمائة خطوة، وغزة مثال على ذلك.

ويصف فولني غزة بأنها تتألف من ثلاث ضواحٍ يصف واحدة منها فقط وهي القلعة الواقعة في الوسط. ولم يكن فيها

أيامه سوى السرايا المتهدمة، التي تطل على البحر البعيد عنها نحو كيلومتر واحد وتطل على البرية. ويقول فولني إن الحرارة والجفاف والرياح تشبه مناخ ريف مصر، كما أن أشجار النخيل والورود متشابهة في المكانين، وأن السكان لهم عادات المصريين ولهجتهم. ولا غرو فغزة عُقدة المواصلات بين الشام ومصر. ولم يشر فولني إلى الضاحيتين الأخريين اللتين كانت غزّة تتألف منهما وهما على ما يبدو ضاحية الشجاعية ثم محلات المدينة الأخرى المترابطة بعضها مع بعض. وتدل الآثار الباذخة في غزة على ازدهارها السابق، فتربتها خصبة وبساتينها ترويها المياه العذبة وتنمو فيها أشجار الرمان والحمضيات والبلح، ويزرع فيها البصل الذي يصدَّر حتى إلى استانبول. ويقدر سكانها بألفي نسمة. ويصف فولني بعد ذلك خان يونس ثم العريش على الحدود مع مصر(٢٥٠).

وهكذا يصف فولني إمكانات فلسطين الاقتصادية بالرغم من الدمار الذي لحق بها على مرّ الزمان ويتنبّه أكثر من كل الرحالة السابقين إلى صناعات فلسطين كالزجاج والصابون والنسيج والأدوات التذكارية وهي أمور يهتم بها الرحالة الثريّ أكثر من غيره من الرحالة ذوي الدوافع الدينية.

وفي نهاية المرحلة التي نعالجها، عشية الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، يصف الرحالة الإنكليزي و. ج. براون W. G. Browne أوضاع فلسطين آنذاك والتطورات التي طرأت على مدنها وريفها. وبالرغم من انتهاء الرحلة في ١٧٩٨م فقد طبعت في لندن في العام التالي(٢٥١)، وهذا يدل على الاهتمام المتزايد آنذاك بكل شيء جديد حول منطقة المشرق العربي وبخاصة أن الحملة الفرنسية كانت قائمة وإنكلترا تقاومها.

أبحر براون من دمياط باتجاه فلسطين في مركب تجاري صغير ينقل البضائع بين مصر وسورية ويقوده عربي. وبسبب الطقس العاصف وعدم خبرة البحارة، كما يقول براون، اضطر مركبه إلى أن يرمي ببعض حمولته من الرز والجلود الخام في حين فُقِد مركبٌ مرافق آخر. وقد وصل المركب إلى يافا بعد خمسة أيام من إقلاعه من دمياط. ويقول براون ان يافا يعوزها ميناء آمن ورصيف للشحن. ويربط ذلك بضآلة التجارة آنذاك، التي تقتصر على مصر، وبقلة ورود الحجاج المسيحيين بسبب الأوضاع المضطربة التي تعرضت لها فلسطين منذ هجوم المماليك عليها في السبعينات، وكذلك بسبب سياسة الجزّار الاستبدادية وابتزازه المال ومضايقته التجار الأجانب وبخاصة الفرنسيين الذين طردهم الجزار من عكا في عام ١٧٩٠م فلجأ بعضهم إلى يافا وذهب القسم الأكبر إلى صيدا.

ويذكر أن بيوت يافا مبنية من الحجر وبها ثلاثة أديرة للأرمن والأرثوذكس والروم الكاثوليك ويوجد فيها بعض اليهود(٢٥٢).

وفي طريقه من يافا إلى الرملة التي وصلها بعد حوالي ثلاث ساعات برفقة خادم قبرصي مستخدمين البغال لاحظ سبع قرى، وأُعجب بموقع الرملة وخصوبة الأرض المحيطة بها وكروم الزيتون فيها. واستغرقت المسافة بين الرملة والقدس مسيرة يوم من الفجر حتى الغروب، وكانت المنطقة التي اجتازها جبلية وعرة وجرداء. ولاحظ أن أسوار القدس في حالة جيدة، وهي مبنية من حجارة تميل إلى الحمرة. وكان الثلج يتساقط عند وصوله، ودهش من إهمال كنيسة القيامة وسقوط الثلج في داخلها بسبب انهيار بعض الجسور الخشبية المصنوعة من خشب الأرز، وتهدم السقف، في حين أن دير الأرمن مثلاً كان في أحسن بناء ويتسع لألف حاج كما يقول براون. وقد أشار إلى كثرة الشحاذين في المدينة. ومن الصنائع في القدس لا يذكر سوى صناعة الأدوات التذكارية التي كانت ناشطة(٢٥٣). ويقدّر سكان القدس بين ١٨ و ٢٠ ألف نسمة ويذكر أنَّ اللغة العربية هي السائدة بينهم باستثناء اليونان والأرمن الذين يستعملون لغتيهم(٢٥٤). ويقول ان متسلم القدس الذي يلقب آغا يعيّنه والي دمشق. ولكن القوات الموجودة تحت تصرّفه هي من القلة والضعف بحيث لا تستطيع السيطرة على البدو الذين يحكمون فلسطين في الواقع.

غادر براون القدس في ٢ آذار/مارس ١٧٩٧م متوجّهاً إلى نابلس، وأمضى ليلة في قرية البيرة بعد مسيرة ثلاث ساعات من القدس. ويصف نابلس بأنها آهلة بالسكان وجميلة بوقوعها بين تلّتين أقيم حصن على إحداهما. ويقول إنه يوجد في نابلس عدة جوامع وانّ المدينة مركز مواصلات تجارية هامة مع دمشق ومع الساحل، وتصنع فيها الأنسجة القطنية. ويكثر السامريون في نابلس. ويذكر براون أن المدينة يحكمها أعيانها بالرغم من وجود متسلّم لوالي القدس فيها(٢٥٥).

وفي الطريق بين نابلس والناصرة لم يلحظ براون في القسم الأول منه الذي كان جبلياً وعراً سوى ثلاث قرى خلال مسيرة ثلاث ساعات بالرغم من أن أشجار الزيتون والكرمة تملأ كل مكان. وبعد أن مرّ بجبلي نابلس، عيبال وجرزيم، وصل إلى سهل واسع وخصب هو مرج ابن عامر. ويصف سبسطية بأنها قرية بائسة ومهجورة. ويقول عن جنين انها بلدة محترمة تقع في

منتصف الطريق بين نابلس والناصرة. أما الناصرة فيقول إنها قرية جميلة ومعظم سكانها من المسيحيين. ويذكر قتالاً جرى أثناء وجوده فيها بين سكان القرى المجاورة وسكان الناصرة وقد عاد كل فريق منهما بغنائم من الأغنام أو الثيران. واجتاز براون المسافة بين الناصرة وعكا في ستّ ساعات، ولم يشاهد فيها سوى قرى قليلة بالرغم من خصب التّربة(٢٥٦).

ويصف براون عكا بأنّ لها سوراً معتدل القوّة وباباً واحداً فقط، ويحيط بالبلدة خندق مزدوج يتلاشى يومياً من جراء الأبنية الحديثة. ولا توجد قلعة في عكا. ويقول براون ان المدينة كبيرة لكن كثيراً من بيوتها شاغر، ومع ذلك يقدّر سكّانها بين ١٥ و ٢٠ ألفاً. كما أنه يقدّر جيش الجزار بأربعة أو خمسة آلاف مقاتل وليس باثني عشر ألف مقاتل كما تذهب بعض المصادر. ويذكر براون أن وجه عكا قد تبدّل فازدادت اتساعاً وأناقة بالتحسينات التي أدخلها أحمد باشا الجزار من ذلك: بناؤه جامعاً فخماً أضيف إلى خمسة أو ستة جوامع أخرى وحمّامات وسوقين وقصراً وخزّانين للمياه. وتوجد فيها ثلاثة خانات لتخزين البضائع وإقامة المسـافرين، ويستعمل الأوروبيون أحدها. ويقول براون انه يوجد في عكا دير للفرنسيسكان وكنيستان للأرثوذكس والأرمن. ويضيف أن الجزار بنى مقاماً لذكرى الشيخ ظاهر العمر بالقرب من البحر خارج الطرف الشمالي من السور. ويذكر أن المراكب في الطقس المُؤاتي ترسو قرب الشاطىء ولكن المراكب الأوروبية ترسو مواجه حيفا. ويصف تجارة عكا بأنها هامة وناشطة مع أوروبا ومصر بخاصة بالرغم من طرد التجار الفرنسيين منها. ويصف السهل المحيط بعكا بأنه أشبه بالمستنقع بسبب إهمال الفلاحين للزراعة نظراً لظلم الجزار وجشعه. ويقارن ذلك بحكم ظاهر العمر الذي حوّل عكا من قرية إلى مدينة كبيرة بحيث ضاعف عدد سكان منطقتها. وقد غادر براون عكا في ٢٥ نيسان/ابريل ١٧٩٧م إلى صيدا. ويصف القرى في الطريق أنها قليلة العدد والسكان ولكن هناك قوّات للجزار من مشاة وفرسان في المنطقة وتبدو في نظام ممتاز(٢٥٧).

ونختم وصف بلدانية فلسطين في القـرون الثلاثـة التي ندرسها بما كتبه أحد الرحّالة المغاربة أبو القاسم الزيّاني في مؤلفه المسمى **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً**(٢٥٨). وكان الزياني قد التقى أحمد باشا الجزار والي الشام وأمير قافلة الحج الشامي في مكة وذلك في عام ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م وقد حاول الجزار إقناعه بالعودة معه من الحجاز إلى الشام ومن هناك يذهب إلى مصر، ولكن الزياني لم يوافق «قلت وسفر البحر من الشام لمصر خطر من مراكب المالطية»(٢٥٩). ويتبـيّن من هذا القول الخطر الذي كان يشعر به المسافرون في شرقي المتـوسط من القراصنة المالطيين وغيرهم. ونظراً لأن الزياني ذكر أنه قد حذّر من الجزار بسبب قتله لمماليكه وغيرهم وأن هـذا حصل في ١٧٨٩م، وبما أن الجزار عيّن على الشام في ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م وقاد القافلة ذلك العام يمكن تعيين تاريخ اللقاء بينه وبين الزياني في عام ١٧٩١م. ولكن يصعب تعيين تاريخ الزيارة التي قام بها الزياني إلى الخليل والقدس حين وصفهما. وبما أن هذه الزيارة ذكرت بعد اللقاء بينه وبين الجزار في ١٧٩١م يمكننا القول بصورة عامة ان الزيارة تمت في أواخر القرن الثامن عشر أو ربما أوائل التاسع عشر. ويذكر الزياني أنه اصطحب أحد المراكب التي كانت تنقل الحبوب من الجزائر إلى ازمير وتأتي منها بالعسكر إلى الجزائر فتوجه من الإسكندرية حيث يقف المركب ــ كما يبدو ــ ومنها إلى رودس ثم عكا ثم طرابلس وأنطاكية حيث نزل لمدة شهر «ومنها توجهت في البر لمدينة الخليل وتركت الجواري والأثاث بالمركب إلى أن عدت»(٢٦٠). ولا يعطي أيـة تفاصيـل أو أوصاف لـرحلته إذ ينتقل مباشرة إلى الخليل فيقول: «ثم دخلت المسجد الأعظم بمدينة الخليل [فرأيت] من حسنه عجباً ومن بنائه فضة وذهباً عددت طول الحجر الواحد ٣٤ شبراً وفيها أكبر وأصغر كذلك جميع بناء المدينة. . . في وسط المسجد الكريم التربة المقدسة تربة الخليل أبينا إبراهيم عليه السلام قد حفّ بها من التعاليق المذهبة والستـور الملكية والحلل المطرّزة والمصابيـح الفضيّة والـذهبيّة والمموّهة كلّ حَسَن رائق وأمامها ضريح زوجته الطاهرة سارة». ثم يشير إلى أضرحة إسحاق ويعقوب وزوجته ويوسف الصدّيق ويعقّب عـلى ذلك بقـوله: «والله تعـالى أعلم بصحـة ذلـك كله»(٢٦١). ويضيف الزياني «وما بين المسجـد الكريم والقبـة الجوفية صحن عظيم كبير جداً يكون فيه وفي المسجد مجتمع الوفود الواردين والمقيمين من الأغنياء والفقراء والأمراء الكبار للضيافة المباركة ضيافة الخليل عليه السلام في كل يوم بعد صلاة العصر على توالي أحقاب الدهر وقد حضرتها فيه مع جملة من الناس تبركاً بذلك كله ولله الحمد»(٢٦٢).

وبالرغم من أننا لا نعرف سبب زيارة الزياني أولاً للخليل وبعد ذلك للقدس ــ فقد سافر إلى القدس في اليوم التالي «وفي الغد ركبنا قاصدين مدينة القدس الشريف. . . وفي عشية ذلك اليوم بلغناها ثم قصدنا الحرم الشريف والمسجد العظيم. وهذا المسجد الشريف هو أعظم مباني الدنيا، طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً. . . وسواريه أربعمايـة وأربعة عشر سارية وأبوابه خمسون باباً يطوف به سور سعته ثلاث

خطوات قد أسس بالحجارة العظيمة وألواحها الكبار المنحوتة الهائلة... والمفتوحة الآن من أبوابه اثنا عشر باباً... وبشرق هذا المسجد داخلاً فيه ومتصلاً به المسجد المبارك الذي بناه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه...»(٢٦٣). ويستطرد الزياني في وصف الأماكن المقدسة هذه في القدس ثم يقول ان أبواب مدينة القدس هي سبعة: باب العمود الذي دخل منه، باب الزاهرة (الساهرة)، باب الأسباط، باب المغاربة، باب النبي داود، باب الخليل، وباب حُطّة. وبعد القدس يقول الزياني انه توجه لزيارة دمشق ومنها إلى انطاكية ثم إزمير(٢٦٤). وتتشابه معلومات الزياني حول ضيافة الخليل مع ما ذكره النابلسي بتفصيل أكبر في رحلته **الحضرة الأنسية** في عام ١٦٩٠م حين سمّى هذه الضيافة باسم سماط الخليل(٢٦٥).

يلاحظ في جميع الرحلات السابقة أن أصحابها من عرب وأوروبيين تتمّم أوصافهم بعضها البعض الآخر. فالمسلمون منهم يهتمون بالدرجة الأولى بمواقع الزيارات الإسلامية، والمسيحيون بالمواقع المسيحية. وبالرغم من ذلك نلاحظ اهتماماً عند الجميع، مع تباين بالتفاصيل، بمختلف المواقع نظراً لاحترام الديانات لها وبالتالي لأهميتها لدى جميع الطوائف. ويلاحظ أنه ليس هناك من مواقع يهودية صرفة لأن مختلف هذه المواقع في أصولها القديمة مشتركة ومحترمة لدى المسلمين والمسيحيين على حد سواء.

ويلاحظ في رحلات الرحالة المسلمين وجميعهم من العلماء أو المتدينين أنها بمعظمها كانت تتمّ في الربيع بمناسبة العبور من مصر إلى الشام أو بالعكس، أو لمجرد زيارة الأماكن الدينية والعلماء في فلسطين. ومهما يكن سبب الرحلة أو مناسبتها فإنها شملت زيارة العلماء والمتصوفة الأحياء وكذلك الأماكن التي اشتهرت بسكن هؤلاء في الماضي حيث توجد قبورهم. واقتضى ذلك وصف هذه الأماكن من قرى ومدن والطرق المؤدية إليها. وبالرغم من أن هذا الوصف لم يكن في غالب الأحيان، لدى هؤلاء الرحالة، هو المقصود بالدرجة الأولى فإنه يقدم لنا صورة حيّة وهامة عن واقع هذه المدن في الزمن الذي تمت فيه الزيارة. وبالاطلاع على هذه الأوصاف المتتالية تتشكل لدينا صورة عن التطورات التي لحقت بهذه الأماكن عبر السنين. وثمة أمر هام في كتب الرحالة من العلماء المسلمين أنهم اطلعوا على الكتب المتعلقة بتاريخ فلسطين، مثل **إتحاف الأخصا** للسيوطي، **والأنس الجليل** لابن الحنبلي، وهذه بدورها نقلت عن علماء وأخباريين سابقين، وهو ما يجعل وصف هؤلاء الرحالة لمدن فلسطين وقراها بمثابة تاريخ شامل لكل منها.

وبالنسبة للرحالة الأوروبيين فقد قاموا برحلاتهم غالباً في موسم عيد الفصح، ونظراً لأن بعضهم كانوا من رجال الدين المسيحي فقد تتبعوا تاريخ الموقع أو البلد منذ أقدم العصور مع اهتمام بالتاريخ المسيحي معتمدين في ذلك، هم أيضاً، على الكتب القديمة التي تعنى بتاريخ فلسطين. وبما أن الرحالة هؤلاء، سواء منهم المسلمون والمسيحيون، يكتبون من وجهة نظر دينيّة هي، في الغالب، الباعث الرئيسي لزيارتهم إلى فلسطين فإن الاطلاع على كتاباتهم، يبين استمرارية تاريخ فلسطين العربية عبر العصور في عهد الأقوام الذين خرجوا من الجزيرة العربية وتوطنوا فيها سواء ما قبل الإسلام أو في عهد العرب المسلمين. ونستدل من ذلك على أن الأرومة الحضارية العربية لمختلف الثقافات في فلسطين هي واحدة بلغت ذروتها في اللغة العربية وما يرتبط بها من ثقافة وحضارة. وهكذا فالجذور التاريخية والثقافية في فلسطين التي عني هؤلاء الرحالة بجانب أو بآخر منها تعكس قاسماً مشتركاً في تاريخ المنطقة. ولم يستطع الرحالة أنفسهم إهمال ذكر الآثار التي لا ترتبط بديانة كل منهم مما يؤكد شمولية التراث المشترك لفلسطين والمنطقة بعامة. وفي الواقع يعكس الرحالة أنفسهم هذا التراث المشترك في فلسطين، وبخاصة بالنسبة للعرب المسلمين منهم، بما أثاره بينهم من روح التسامح والاحترام تجاه هذا التراث. فالنابلسي مثلاً في رحلته **الحضرة الأنسية** زار في بيت لحم كنيسة المهد التي أسهب في نقل أوصافها بإعجاب وذلك قبل أن يزور المسجد العمري فيها ويقول: «ثم خرجنا من «مغارة المهد» وذهبنا إلى مسجد هناك في قرية بيت لحم يقال انه مسجد عمري». كما أنه اشترى من مسابحها المصنوعة من خشب الزيتون «لأجل التبرُّك»(٢٦٦). وزار النابلسي في رحلته التالية **الحقيقة والمجاز** إلى فلسطين مدينة بيت لحم من جديد واكتفى بذكر زيارته كنيسة المهد فيها، ونراه يقول «وقد أضافنا هناك بعض الرهبان بما تيسّر من الزاد ومن معنا من الإخوان وأسمعونا فيه صوت الأرغلا (الأرغن) فكأنهم استنطقوا شحروراً وهزاراً وبلبلاً»(٢٦٧). ويمثل هذا مظهراً من مظاهر التسامح الديني لدى الشيخ عبد الغني النابلسي مفتي دمشق الحنفي وأحد كبار علمائها ذوي الأصول الفلسطينية.

وفضلاً عن هذا التاريخ المتكامل لكل موقع ومدينة في فلسطين، وبالتالي لمجموعها ككل، منذ أقدم العصور، نلاحظ أن أوصاف الرحالة لفلسطين يشترك بعضها مع بعض في التأكيد على أربعة أمور رئيسية: الآثار والسكان والاقتصاد والأمن. ونستفيد من ذلك الشيء الكثير لأنه يمكننا من مقارنة الواقع في كل فترة مع ما أصبح عليه في الفترة أو الفترات اللاحقة، وهكذا نتمكن من

تتبع بلدانية فلسطين التاريخية. ففي القرن السادس عشر مثلاً نلاحظ سيطرة الدولة العثمانية، في فترة ذروة قوتها آنذاك في عهد السلطانَيْن سليم وسُليمان القانوني، المتمثلة ببنائها القلاع والحصون وإقامتها الحاميات في عدد من مناطق فلسطين وبخاصة طرقها الرئيسية لإثبات نفوذها وإقامة الأمن. ويندرج ضمن ذلك اعترافها بالأمراء المحليين واستخدامهم كملتزمين وأمراء لقافلة الحج الشامي وذلك لتطويعهم واستخدامهم للصالح العثماني. ولم تتردد، في الوقت نفسه، في إرسال الحملات لتأديب العصاة. وينعكس هذا الواقع في كتابات الرحالة من ذلك القرن. ونلاحظ في كتابات الرحالة الأجانب بخاصة تقديرات لأعداد سكان فلسطين تفيدنا في مقارنتها مع ما يتوفر من إحصاءات عثمانية. وبالرغم من أن إحصاءاتهم قد تكون غير دقيقة، فإن مبالغاتهم فيها، كثرت أو قلّت، بالنسبة لأتباع كل ديانة، تعكس في كثير من الأحيان، انتماءاتهم وحبهم أو كراهيتهم لفريق من الناس أو لآخر.

ولم تكن الناحية الاقتصادية متطورة في فلسطين في القرن السادس عشر ومعظم القرن السابع عشر لأن حلب استقطبت التجارة الأوروبية، وبخاصة الإنكليزية المتمثلة في شركة بلاد المشرق، نظراً لموقع حلب الهام في التجارة الدولية. وتعكس كتابات الرحالة ركود الوضع الاقتصادي في فلسطين آنذاك. وإذا كان الوضع السياسي في فلسطين قد استقطب في النصف الأول من القرن السابع عشر مَن حول فخر الدين المعني الثاني أمير جبل لبنان (١٥٩٠ ــ ١٦٣٥م) الذي استولى على المناطق الشمالية من فلسطين فإن الفترة التي أعقبت مقتله وما تسبب به من تدمير لميناء عكا وملئه بالأنقاض لمنع الأسطول العثماني من قتاله كانت فترة ركود سياسي واقتصادي فيها. ويتزامن هذا الوضع مع الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، باستثناء فترتي قوة في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠م) والوزراء العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦ ــ ١٦٧٦م). وينعكس ذلك، قوة أو ضعفاً، على الوضع في فلسطين كما تصفه كتابات الرحالة التي اهتمت بالوضع الأمني المتردّي وبعدم استغلال الأرض، بنتيجة ذلك، رغم خصوبتها الكبيرة. ويتبدل الوضع في القرن الثامن عشر باشتهار ظاهر العمر في منطقة الجليل ومدّ سلطته على معظم النصف الشمالي من فلسطين ومنه الساحل وتنشيطه الاقتصاد المحلي والدولي مستفيداً من الاهتمام المتزايد للتجار الفرنسيين بفلسطين. وينعكس الأمن والازدهار اللذان حققهما ظاهر العمر في كتابات الرحالة الذين وجدوهما في الريف والمدن على حدّ سواء. ثم تأتي فترة الاضطرابات السياسية التي رافقت أخريات عهده وتلت القضاء عليه وحلول الجزار المتعسف مكانه، فتنعكس آثارها السياسية والأمنية والاقتصادية في كتابات الرحالة الذين زاروا فلسطين في تلك الفترة.

وإذا ما انتقلنا من هذه الملاحظات العامة التي تميز كتابات الرحالة إلى دراسة أكثر خصوصية وجدنا نواحي كثيرة جديرة بالاهتمام سنشير إليها بإيجاز. مثال ذلك: أعمار الرحالة حين قيامهم برحلاتهم، وأهداف رحلاتهم، والبيئات الاجتماعية والاقتصادية التي ينتسبون إليها، وتأثر نظرتهم بالتالي بهذه البيئات، وكذلك المدة التي أمضوها في فلسطين، والمصادر التي استقوا منها معلوماتهم القديمة وحتى الحديثة، ومدى تأثر الواحد منهم بكتابات من سبقه، ونوعية القراء الذين يكتبون لهم. ويمكننا بهذا أن نخرج بدراسة متخصصة لا عن الرحالة أنفسهم فحسب، بل عن فلسطين كما انعكست في كتاباتهم وفي المجتمعات التي يمثّلونها. ويكفي أن نشير هنا إلى مثال فولني الذي يمثّل بفكره ونظرته إلى الشعوب الأخرى الطبقة البورجوازية التجارية في فرنسا، والذي بالرغم من سنّه المبكرة ــ كان لم يتجاوز الخامسة والعشرين حين قام برحلته ــ تمكّن من إثارة أسئلة في العمق حول التكوين الثقافي للسكان المحليين، ومنهم سكان فلسطين، ومدى سيطرة التقاليد المحلية على سلوكهم، وانعكاس ذلك على مفهومهم للعمل والأمن والحكم، وبالتالي سلوكهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وقيمهم الأخلاقية والجماعية، ومردود ذلك على تاريخ المنطقة ككل. ويمكن عقد مقارنة مثلاً بين فكر فولني وفكر موندريل رجل الدين الأكسفوردي الثقافة الذي يمثل المصالح التجارية في فترة انتقال انكلترا من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ــ عصر الاكتشافات الجغرافية والعلمية التي تعتمد العقل، والتي رفعت إنكلترا إلى القمة تجارياً وسياسياً. وعلى غرار فولني كان موندريل شاباً لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره حين قام برحلته. وتتساوى سن فولني مع سن دارفيو وتقترب من سن مصطفى الصديقي الذي قام برحلته إلى فلسطين وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر. كما أن سن موندريل تقترب من سن مصطفى اللقيمي الذي وصف فلسطين وهو في سن السابعة والثلاثين. وعبد الغني النابلسي نفسه لم يتجاوز عمره الخمسين حين قام بأولى رحلتيه إلى فلسطين. وإذا ما ربطنا ذلك بالبيئة التي قدم منها كل من هؤلاء وبالتكوين الفكري الذي كانوا عليه يمكننا عندئذ أن نتبيّن مغزى ما رآه كل منهم وأهمية ما استنتجه من زيارته وما فشل في استنتاجه.

ويلاحظ في تغطية الرحالة لمناطق فلسطين أن أكثر هذه المناطق وصفاً تلك الواقعة على الطريق الرئيسي بين يافا ــ الرملة ــ القدس للقادمين من البحر أو من لبنان، وتلك الواقعة على طريق جسر بنات يعقوب ــ خان المنية ــ عيون التجار ــ الناصرة ــ جنين ــ نابلس ــ البيرة ــ القدس للقادمين من دمشق إلى القدس أو القادمين من عكا إلى القدس عبر الناصرة. وهناك الطريق الدولية المتجهة من دمشق إلى القاهرة حيث تفترق في عيون التجار لتذهب إلى قاقون ــ رأس العين ــ اللد ــ الرملة ــ غزة. ومن الطرق الفرعية التي يرد ذكرها باستمرار وتقتضيها طبيعة الرحلات الدينية نذكر زيارة بيت لحم وأريحا ونهر الأردن وجبل طابور. وتبقى غزة أقل المناطق زيارة وبالتالي وصفاً إلا من قبل أولئك المتوجهين من الشام إلى مصر، أو بالعكس، الذين يمرون بغزة.

ولم يميز قطّاع الطرق بين الرحالة فتهددوا الجميع في المناطق التي سيطروا عليها، واضطر الرحالة على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم إلى شراء سلامتهم بالمال المعروف بمال الخفارة. ومن الطبيعي أن يفيد النفوذ الذي يتمتع به رحالة ما محلياً أو دولياً في تأمين طريقه، فتوصية من حاكم أو زعيم محلي أو قنصل أجنبي قمينة بإيصال المسافر إلى هدفه آمناً. مثال ذلك الرحالة الإنكليزي بوكوك الذي ذكر أن شيخ قرية المشهد، قرب الناصرة، قد رحّب به حين سمع أنه تابع للقنصل الإنكليزي. كما أن شخصية علمية وصوفية متميزة مثل الشيخ عبد الغني النابلسي كانت تلقى الترحاب حيثما حلّت من قبل الصوفيين ورجال الدين المحليين. ويذكر النابلسي أن والي صيدا زوّده بتوصية رسمية (بيورلدو بالتركية) إلى حاكم عكا وهو في طريقه إليها في عام ١٦٩٣م.

ويعلّق النابلسي على ذلك «ولا احتجنا إلى إخراج هذا البيراوالدي ولا غيره ولا أريناه لأحد من الناس واعتمادنا على الله تعالى وحده في كل حال، حين الإقامة وحين الترحال»[٢٦٨].

وتفيد كتابات الرحالة في معرفة القرى التي كانت معمورة في فلسطين في زمن ما، ثم خربت في وقت لاحق، وبالعكس. ويمكن تبعاً لذلك رسم حدود المعمورة وما طرأ عليها من تبدّل عبر الزمان. ونلاحظ في أوصاف الرحالة لأوضاع هذه القرى أنها كثيراً ما تقاس بماضيها المزدهر أو ينظر إليها بمنظور المدينة التي قدم منها الرحالة وبخاصة إذا كان أوروبياً، في حين أن أوضاع هذه القرى تصبح عادية من منظور القرى الأخرى في المنطقة ذاتها أو المجاورة لها والتي خضعت للتطورات السياسية والاقتصادية ذاتها. وتتميز الرحلات العربية بأن أصحابها برعوا في إعطاء اللفظ العربي الصحيح لاسم القرية أو المدينة أو الموقع وهذا أمر هام في تثبيت صحة اللفظ من ناحية وفي متابعة التطورات التي لحقت به من ناحية أخرى. أما الرحالة الأجانب فكثيراً ما أخطأوا في لفظ الاسم العربي ولكنهم تقصُّوا، بالمقابل، التسميات القديمة للموقع والأحداث التي ترتبط بها.

وثمة ملاحظة أخيرة وهي أن الرحالة الأجانب قدّروا المسافات بين المواقع بالأميال أو الفراسخ أو أجزائها أو بأجزاء اليوم، في حين قدّرها الرحالة العرب بأوقات الصلاة أو بطلوع الصبح أو بداية الغسق أو بالأيام بحسب بطء السير أو سرعته، مثال ذلك تقدير النابلسي طول فلسطين من رفح إلى حد اللجون للراكب المجدّ يومين، أما سير الأثقال فأكثر من أربعة أيام[٢٦٩]. والجدير بالذكر أن الخيل كانت أكثر ما استعمل لتنقل الرحالة تليها البغال والحمير، وقلما استعمل الجمل بسبب وعورة الأراضي الجبلية.

الفصل الثالث

مظاهر من الحياة الاجتماعية والثقافية في فلسطين

تحظى فلسطين، شأنها شأن بقية أقطار بلاد الشام والأقطار العربية بعامة، بمصادر هامة لدراسة النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية منذ مطلع الحكم العثماني. وتضم هذه المصادر بالإضافة إلى كتب التراجم والرحلات والعلوم الدينية كالفتاوى وغيرها وثائق المحاكم الشرعية. وتعود أقدم هذه الوثائق في بلاد الشام قاطبة إلى مدينة القدس حيث تبدأ في عام ١٥٣٠م[١]. وتفيد هذه الوثائق في معرفة البنى التحتية للمجتمع الفلسطيني بتعدديته وخصائصه المميزة. ففي مراكز المدن حيث وجدت المحاكم الشرعية يمكننا التعرف من خلالها على الفئات الاجتماعية الساكنة فيها، وتوزّع هذه الفئات في أحيائها وأزقّتها، واختلاطها بعضها مع بعض، بقطع النظر عن مذاهبها وأجناسها كما تدلنا مواقع الدور. وتفيد الوثائق كذلك في التعريف بحجم الأسرة الواحدة وعلاقة عدد أفرادها بمستواها الاقتصادي والاجتماعي، كما تعرّفنا بدور المرأة في المجتمع وفي الاقتصاد المحلي، وكذلك بأنماط الزواج بين الفئات الاجتماعية في المدينة وبينها وبين الريف. كما أن هذه الوثائق تدلنا على الحِرف المختلفة داخل

المدينة، وعلى نظمها ومراتبها الوظيفية والمهنية، وطرق اختيار شيوخها، ومستويات الإنتاج والخدمات التي تقدمها وتسويق المنتجات، وعلاقة الطوائف الحِرفية بعضها مع بعض ومع السلطة، وكذلك الأخلاقية المهنية بوجه عام. وتفيد الوثائق كذلك في التعرف على بنية الريف، والتصرف بالأرض، وطرق الزراعة، والعلاقة بين الريف والمدينة، وعمليات المداينة، وتنوع توظيف رأس المال سواء في المدينة أو في الريف أو فيما بينهما. ونتعرف من خلال ذلك على تعامل مختلف فئات السكان بعضها مع بعض في هذه المجالات المختلفة. وتدلنا الوثائق على الأوقاف، بنوعيها الخيري والأهلي، وأهميتها في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والدينية وعلاقة ذلك بمصادر ثروة العلماء سواء منهم العاملون في الأوقاف أو المستفيدون منها. وتعرّفنا سجلات المحاكم الشرعية أيضاً بهويّة القائمين بالوظائف الدينية، ومقدار دخلهم منها، وأسباب التخلي عنها، وأهمية ذلك بالنسبة لبروز الأسر الفلسطينية على الصعد الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية[٢].

ومن أُولى المشكلات في تاريخ فلسطين، كغيرها من الأقطار العربية، معرفة أعداد السكان ككل أو حسب طوائفهم في فترة أو أخرى قبل إجراء الإحصاءات الرسمية. وقد ظهرت بعض الدراسات المبنية على دفاتر الطابو العثمانية في القرن السادس عشر التي تلقي أضواء على ذلك وإن يكن بشكل تقريبي وغير نهائي. ولو استعرضنا أعداد السكان كما وردت في كتابات الرحالة الذين سبقت الإشارة إليهم، بالنسبة لبعض مدن فلسطين لتكونت لدينا فكرة عن مدى الازدياد أو التناقص في سكان مدينة ما في فترة معينة والأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أدّت إلى ذلك، آخذين بعين الاعتبار إمكانية الخطأ في الأرقام التي أوردها هؤلاء الرحالة لجهلنا الأسس التي بنوا عليها أرقامهم. ويمكن مقارنة تقديرات الرحالة لأعداد السكان بما يتوفر من إحصاءات عثمانية.

وسنورد في الجدول رقم (٣ ــ ١) أسماء المدن التي يتوفر أكثر من تقدير واحد عن سكانها لتستقيم المقارنة.

الجدول رقم (٣ ــ ١)
تقديرات الرحالة لسكان تسع مدن فلسطينية مصنّفة بحسب سنوات رحلاتهم

السنة	القدس	بيت لحم	أريحا	نابلس	الناصرة	صفد	عكا	يافا	الرملة
١٤٨٤ ــ ١٥٢٤[٣]			٥٠٠					٤٠٠ ــ ٥٠٠[٤]	
١٥١٩[٥]	٢,٠٠٠								
١٥١٩[٦]	٣,٠٠٠								
١٥٢٥[٧]						١,٠٠٠			
١٥٢٧		١٠٠	٢٠٠		١٠٠				
١٥٣٠	٤,٠٠٠			٢,٠٠٠					
١٥٣٤					٥٠٠				
١٥٤٧									٦٦
١٥٥٣						١٦ ــ ٢٠ ألفاً (نصفهم يهود)			
١٥٦٣ ــ ١٥٦٤	٥,٠٠٠			٢,٥٠٠					
١٥٦٨						٢,٠٠٠ يهودي			
١٥٩٥									٨٠٠
١٧٦٧[٨]		٥,٠٠٠					١٦,٠٠٠		
١٧٨٤[٩]				١٢ ــ ١٤ ألفاً					١,٠٠٠
١٧٩٧[١٠]	١٨ ــ ٢٠ ألفاً						١٥ ــ ٢٠ ألفاً		
١٧٩٩[١١]	١٢ ــ ١٥ ألفاً						١٠ ــ ١٢ ألفاً	٦,٠٠٠	

يلاحظ في تقديرات الرحّالة الظاهرة في الجدول رقم (٣ ــ ١)، مهما تكن صحتها، ازدياد ضئيل في أعداد السكان في القرن السادس عشر، ثم يطرأ ازدياد كبير في القرن الثامن عشر. وإذا كان قد حدث تناقص في أعداد سكان القدس وعكّا في سنة ١٧٩٩م، كما قدرها تقرير فرنسي عن الحملة الفرنسية آنذاك، عما كان عليه الأمر في ١٧٩٨م، وفق تقديرات الرحالة الإنكليزي براون، فإن تفسير ذلك يكمن، كما يبدو، في خوف ساكني المدن من أخطار حملة نابليون بونابرت وانسحاب بعضهم منها، أو أن الأمر مجرد اختلاف في التقدير. أما اختلاف تقديرات عدد اليهود في صفد خلال خمسة عشر عاماً وهبوط عددهم في عام ١٥٦٨م إلى الخمس تقريباً عما كان عليه في عام ١٥٥٣م فيفسِّر ذلك أن التقدير الأول ربما تضمن أعداد اليهود الزائرين مضافة إلى الذين لا يدفعون الضرائب وهم الذين أشار إليهم دفتر الطابو العثماني لعام ٩٦١هـ / (١٥٥٣ ــ ١٥٥٤م) على أنهم ٣,٦٣٦ نسمة. والجدير بالذكر أن تكاثر اليهود في صفد آنذاك مصدره هجرة يهودية من مدن إسبانيا (السفارديم) في أعقاب رد الفعل فيها ضد اليهود[١٢].

ويمكننا مقارنة الأرقام التي ذكرها الرحالة عن سكان بعض مدن فلسطين مع بعض ما نشر عن أعداد سكان هذه المدن بالاستناد إلى دفاتر الطابو العثمانية كما يبين ذلك الجدول رقم (٣ ــ ٢) المبني على أحدث البحوث التي اعتمدت هذه الدفاتر للدكتور محمد عدنان البخيت[١٣]. وتصنف المعلومات وفق تواريخ دفاتر المفصل وبحسب مذاهب السكان. وتعتمد هذه الدفاتر: الخانة (تعني هنا البيت أو الأسرة) للمتزوجين ثم المجرَّد (العازب)، ثم المعاف، أي المعفيين من رجال الدين والعاجزين.

الجدول رقم (٣ ــ ٢)

	خانة	عازب	رجل دين	عاجز	خانة	عازب	رجل دين	عاجز
	(سجل رقم ٤٢٧، حوالي ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م)				(سجل رقم ١٠١٥، حوالي ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م)			
القدس								
مسلمون	٦٣٥	٢	١	ـ	٩٣٧	٥٥	٢٠	ـ
مسيحيون	١٢٩	ـ	ـ	ـ	١٦٤	٢٦	ـ	١
يهود	١٩٩	ـ	ـ	ـ	٢٢٤	١٩	ـ	ـ
المجموع	٩٦٣	٢	١	ـ	١,٣٢٥	١٠٠	٢٠	١
بيت لحم								
مسلمون	٣٩	ـ	ـ	ـ	٤٦	ـ	١	ـ
مسيحيون	٦١	ـ	ـ	ـ	٨٢	٢	ـ	ـ
المجموع	١٠٠	ـ	ـ	ـ	١٢٨	٢	١	ـ
					(سجل رقم ١٠٣٨، تاريخ ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م)			
الناصرة								
مسلمون	٤٣	ـ	ـ	ـ	٩٥	١	ـ	ـ
مسيحيون	٦[١٤]	ـ	ـ	ـ	٨	ـ	ـ	ـ
المجموع	٤٩	ـ	ـ	ـ	١٠٣	١	ـ	ـ
					(سجل رقم ١٠٣٨، تاريخ ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م)			
نابلس								
مسلمون					٩٨٤	٤٣	١٧	٥
سامريون					٢٩	٤	ـ	ـ
يهود					٧١	ـ	ـ	ـ
مسيحيون					٧	ـ	ـ	ـ
المجموع					١,٠٩١	٤٧	١٧	٥

	خانة	عازب	رجل دين	عاجز	خانة	عازب	رجل دين	عاجز
	(سجل رقم ٤٢٧، تاريخ ٩٣٢هـ/١٥٢٥م)				(سجل رقم ١٠١٥، تاريخ ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م)			
غزة								
مسلمون	٥٢٨	١٤	٢٥	–	١,٤٢٨	١١٤	٣٧	١
يهود	٩٥	–	–	–	٩٨	–	–	–
سامريون	٢٥	–	–	–	١٥	–	–	–
مسيحيون	٢٣٣	–	–	–	٢٧١	–	–	–
المجموع	٨٨١	١٤	٢٥	–	١,٨١٢	١١٤	٣٧	١
	(سجل رقم ٥١٦، ٩٧٠هـ / ١٥٦٢م)				(سجل رقم ٢٩٨، حوالي ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)			
القدس								
مسلمون	١,٦٢٧	٩١	١٠٩	٤	١,٩٨٥	١٤٣	١٢	٢
مسيحيون	٣٨٧	–	–	–	٣٨٨	٢٥	–	٣
يهود	٢٧٠	–	–	–	٣٢١	١٣	–	١
المجموع	٢,٢٨٤	٩١	١٠٩	٤	٢,٦٩٤	١٨١	١٢	٦
بيت لحم								
مسلمون	١٠٦	١	–	–	١٥٢	١٠	–	–
مسيحيون	١٤٤	٥	–	–	١٥٢	١٢	–	–
المجموع	٢٥٠	٦	–	–	٣٠٤	٢٢	–	–
	(سجل رقم ٧٢، تاريخ ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م)				(سجل رقم ٣٠٠، تاريخ ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م)			
الناصرة								
مسلمون	٢٥٤	٢٩	–	–	٢٠٠	١١	٣	٤
مسيحيون	١٧	٣	–	–	١٧	–	–	–
المجموع	٢٧١	٣٢	–	–	٢١٧	١١	٣	٤
	(سجل رقم ٩٥٥، تاريخ ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م)				(سجل رقم ١٠٠، تاريخ ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م)			
نابلس								
مسلمون	٧١٧	١٠٩	١٣	٦	٧٩٦	١٠	–	–
سامريون	٣٤	–	–	–	٢٠	–	–	–
يهود	٣٧	٤	–	–	١٥	–	–	–
مسيحيون	١٦	–	–	–	١٨	–	–	–
المجموع	٨٠٤	١١٣	١٣	٦	٨٤٩	١٠	–	–

	خانة	عازب	رجل دين	عاجز	خانة	عازب	رجل دين	عاجز
	(سجل رقم ٣٠٤، تاريخ ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م)				(سجل رقم ١٩٢، تاريخ ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م)			
غزة								
مسلمون	١,٦٥٥	—	٥٩	٢٠	٦٩٧	١١٣	٣٤	١٩
يهود	٧٨	—	—	—	٧٠	—	—	—
سامريون	١٨	—	—	—	٨	—	—	—
مسيحيون	٣٣١	—	—	٢	٢٧٢	—	—	٧
المجموع	٢,٠٨٢	—	٥٩	٢٢	١,٠٤٧	١١٣	٣٤	٢٦

ويلاحظ في الجدول رقم (٣ ــ ٢) ازدياد مطّرد في أعداد السكان في كل من القدس وبيت لحم في حين أن الناصرة تراجع أعداد سكانها في عام ١٥٥٥م وكذلك نابلس بالنسبة لعام ١٥٤٨م وغزة بالنسبة لعام ١٥٩٦م. وليس من السهل تفسير ذلك في ضوء المعطيات الحالية المحدودة. ومما يزيد الأمر غموضاً والتباساً حتى بالنسبة لهذه الأرقام المأخوذة من دفاتر الطابو العثمانية الاختلاف بين الباحثين في قراءتها بالنسبة لبعض السجلات، مثال ذلك أعداد الخانات في القدس في سجل رقم ٤٢٧ (تاريخ ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م) التي وردت في الجدول على أنها: مسلمون ٦٣٥، مسيحيون ١٢٩، يهود ١٩٩ (المجموع ٩٦٣) وردت في مصدر آخر، بالنسبة للسجل ذاته، على أنها مسلمون ٦١٦، مسيحيون ١١٩، يهود ١٩٩ (المجموع ٩٣٤)[١٥] ثم وردت في مصدر ثالث بأنها مسلمون ٦٢٣، مسيحيون ١١٩، يهود ١٩٩ (المجموع ٩٤١)[١٦]. ويلاحظ أن هذا المصدر الأخير يجمل تفاصيل هذه الأرقام في جدول موجز لاحق كما يلي: مسلمون ٦١٦، مسيحيون ١١٩، يهود ١٩٩ (المجموع ٩٣٤)[١٧]. وتختلف الأرقام بشكل أكبر في مثال آخر، ففي الجدول أعلاه تعطى الأعداد بالنسبة للخانات في مدينة القدس في سجل رقم ٥١٦ / تاريخ ٩٧٠هـ / ١٥٦٢م كالتالي: مسلمون ١٦٢٧، مسيحيون ٣٨٧، يهود ٢٧٠ (المجموع ٢٢٨٤)، في حين أن مصدراً آخر يجعلها: مسيحيون ٢٨١، مسلمون ١٩٢٩، يهود ٢٣٧ (المجموع ٢٤٤٧)[١٨]، ثم تصبح بعد بضع صفحات في المصدر نفسه: مسلمون ١٩٣٣، مسيحيون ٢٨١، يهود ٢٣٧ (المجموع ٢٤٤٣)[١٩]. وتظهر مثل هذه الاختلافات، أحياناً بشكل حاد، بالنسبة لبقية المدن في فلسطين وكذلك بالنسبة لأعداد السكان في الألوية المختلفة في فلسطين، وأيضاً بالنسبة لأعداد القرى[٢٠].

ومن الباحثين من يقارن التراجع السكاني في بعض مدن فلسطين في أواسط القرن السادس عشر وفي أواخره بتراجع مماثل جرى في حلب ودمشق[٢١]، ولكن باحثين آخرين، هما هوتروت وعبد الفتاح[٢٢] يريان أنّ ذلك لا ينطبق على مدن فلسطين إذ يذكران أن سجل ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م مثلاً لا يُورِد إلّا بشكل ضئيل آثار الخراب وقلة السكان في فلسطين. فالقرى التي ذكرت فيه أنها خالية أو خالية وخربة قليلة جداً. وحتى هذه الخرب وبخاصة الأراضي المحيطة بها التي وجدت قرب آبار المياه أنشئت حولها المزارع في القرن السادس عشر. ويخلص الباحثان إلى القول انه لم تكن هناك زيادة سكانية كبيرة كما لم تكن هناك دلائل على انحطاط سكاني كبير. وبمقارنة القرن السادس عشر بالقرن التاسع عشر يجد هذان الباحثان أن الكثافة السكانية وحدود المعمورة في القرن التاسع عشر قد تضاءلت كثيراً عما كانت عليه في القرن السادس عشر ولكن بالمقابل ازداد سكان المدن وكذلك سكان القرى القائمة والسبب الرئيسي لهذا التحول هو استبدال نظام التيمار (الإقطاع العسكري) بنظام الالتزام في جباية الضرائب.

وبالعودة إلى تقديرات الرحالة لسكان فلسطين فإنها بالرغم من تباينها الكبير مع الإحصاءات العثمانية فإنها تفسر الشيء الكثير حول الواقع السكاني لأن الإحصاءات العثمانية تقوم على أساس أعداد دافعي الضرائب أو الجزية وربما هجر عدد من هؤلاء أماكن إقامتهم تهرباً من الدفع ولهذا يحدث تناقض بين عدد السكان النظري وعددهم الواقعي. ونظراً لهذا التباين، بل التناقض، في أعداد السكان وفي قراءة المصادر العثمانية، واختلاف الأعداد بالتالي قلة أو كثرة، من باحث إلى آخر، وما يبنى على ذلك من تفسيرات واستنتاجات تظل الحاجة قائمة إلى إجراء مسح دقيق لمدن فلسطين وقراها ونواحيها في كل لواء بالاستناد إلى السجلات العثمانية وربط الواقع الاقتصادي بالواقع البشري والعمراني، على غرار الدراسة المتميزة للباحثين هوتروت

وعبد الفتاح، وبذلك نصل إلى تحليل منهجي للواقع البشري والاقتصادي.

وثمة ناحية هامة في سجلات الطابو العثمانية وهي تعريفها بأصول السكان المهاجرين إلى فلسطين وتوضّعاتهم في الأحياء المختلفة في المدن. ويذكر في هذا المجال تعريف سجلات صفد من أواسط القرن السادس عشر لجماعات (تشير إلى الواحدة منها بلقب قبيلة) اليهود الساكنة فيها بذكر أصولهم الجغرافية التي لحقت بأسمائهم، فقد وجد بينهم مستعربون (أندلسيّون) ومغاربة وبرتغاليون وصرطونيّة (من ساردينيا)، وقشتاليون واشبيليون وأراغونيون وقتالانيون وصقليون وكالابريون وإيطاليون ومجر وألمان. كما وصفت جماعات يهودية أُخرى في السجلات نفسها بأنهم مسافرون أي سُيَّاح[٢٣]. ونستدلّ من هذا على الأصول الأجنبية لقسم كبير من يهود صفد في القرن السادس عشر وكذلك على التباين الجغرافي لمختلف قبائلهم. ونظراً لحداثة ورود هذه الجماعات / القبائل اليهودية إلى صفد لم تستوعبها المحلات السبع القائمة في المدينة لذلك عاشت في محلات خاصة بها. والملاحظ في فلسطين أن السكان ذوي الأصول المحلية يتعايشون بعضهم مع بعض في أحياء واحدة يتقاسمون السكن فيها كما تدل على ذلك وثائق المحاكم الشرعية حين تورد حدود العقارات السكنية وأسماء ساكني العقارات التي تتشكل منها هذه الحدود. وقد أكدت الوثائق العثمانية هذا التعايش بين السكان على مستوى المحلات داخل المدن. فإحدى محلات الرملة مثلاً تضم ٢٩ خانة من المسلمين و ٧٧ خانة من المسيحيين[٢٤].

وإذا ما انتقلنا من تقديرات أعداد السكان الشائكة إلى جوانب أخرى من الحياة الاجتماعية وجدنا هنا أيضاً ندرة في المعلومات. ويميل بعض الباحثين إلى إطلاق مظاهر خاصة بفترة أو منطقة معينة على فترات ومناطق أخرى، وفي هذا مجافاة للواقع وللحقيقة العلمية لأنّ لكل فترة أو منطقة خصوصيتها، ويحسن عدم تعميم الجزء على الكل. وهنا تبرز أهمية دراسة الوثائق الشرعية لكل مدينة وفي مختلف الفترات لتبيان التطورات الخاصة بها. وكلما قدم العهد قلّت المعلومات المعاصرة للأحداث، ولهذا فمن المفيد أن نذكر هنا ما يتوفر من معلومات من تلك الفترات وردت في الوثائق أو في كتابات الرحالة أو مراسلات القناصل الأجانب الذين عايشوا الأحداث ووصفوها. وبالرغم من تبعثر هذه المعلومات وقلتها فإنها بمجموعها تفيد في تعريفنا بجوانب من الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك.

ولعل أبرز مظهر سياسي ـ قبلي في حياة سكان الريف الذين يشكلون معظم سكان فلسطين آنذاك انقسامهم إلى قيسيّة ويمنيّة، وهذا من بقايا العصبيات القبلية التي حملها العرب معهم من الجزيرة العربية إلى مختلف مناطق بلاد الشام وغيرها. وقد بقيت هذه الانقسامات وما ترتب عليها من منازعات بين الزعماء المحليين والقرى التي تتبعهم قائمة ما دام الحكم العثماني ضعيفاً والسلاح متوفراً بأيدي السكان. وقد أشار أحد الفرمانات العثمانية الموجّه إلى والي الشام بتاريخ ١٠ ذي القعدة ٩٥٩هـ / ٢٨ تشرين الأول/اكتوبر ١٥٥٢م إلى قيام المنازعات في صنجق نابلس بين القيسيّة واليمنيّة وأن أحد أصحاب التيمارات يتزعم الحزب اليمني الذي يرفع الراية البيضاء ضد الحزب القيسي الذي يتخذ الراية الحمراء شعاراً له. ويضيف أن هذا الزعيم قد استغل منصبه وقوّته للاستيلاء على عدد من المؤسسات العامة في المنطقة. وقد ذكر الفرمان أنه بسبب الاصطدامات بين القيسية واليمنية في مدينة الخليل تعذّر إقامة صلاة الجمعة والخطبة فيها في إحدى المناسبات في عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م[٢٥].

وكان البدو يشكّلون عنصر عدم استقرار في الريف وعلى الطرق الرئيسية كما جاء في بعض الشكاوى التي رفعت إلى السلطات العثمانية. وقد ذكر مثلاً في عام ٩٩١هـ / ١٥٨٣م تمرّد البدو في منطقة نابلس وقتلهم عدداً من السكان وفرضهم الإتاوات على المسافرين إلى القدس والخليل[٢٦]. كما ذكر في منتصف القرن أنّ البدو الثائرين في منطقة نابلس واللجون هم من بني طراباي وبني توبة وبني حسن[٢٧]. وتتبدل الصورة بعد ذلك فيصبح الثائر طائعاً والطائع عاصياً بحسب موقف الدولة منه وما تمليه مصلحته. فآل طراباي مثلاً أصبحوا بعد قرن من ذلك طائعين للدولة التي استخدمتهم لقمع الثائرين. وبعد أربعين سنة من ثورة هؤلاء البدو ذكر أن زعماء الثائرين في منطقة بني صعب في لواء نابلس هم من آل الجيوسي[٢٨].

وكان أهم الأسباب التي أعطاها الموظفون العثمانيون لتمرّد البدو والفلاحين والقتال فيما بينهم هو غياب السلطة محلياً بسبب استدعاء حكام الصناجق وجنودهم للمشاركة في حروب الدولة العثمانية خارج فلسطين، الأمر الذي مكّن الثائرين الذين يقدَّرون في صنجق نابلس وحده بحوالي سبعة آلاف بندقيّة، من مهاجمة القرى وسلب المارة وقتل الناس[٢٩].

وإلى جانب الوثائق العثمانية هذه تؤكد كتابات الرحالة اضطراب الأمن في فلسطين وكذلك تبدُّل علاقات الثائرين بالسلطة العثمانية من فترة إلى أخرى. وقد وصف الرحالة الفرنسي دارفيو في صيف عام ١٦٦٤ علاقة السلطة العثمانية،

ممثّلة بحاكم نابلس، بالفلاحين المستغَلّين (بفتح الغين) في المنطقة وبالبدو ممثّلين بآل طراباي حكام اللجون وجبل الكرمل الذين استخدمهم العثمانيون في قمع الفلاحين المتمرِّدين[٣٠].

ويضمّن دارفيو مذكّراته وصفاً مطوّلاً ودقيقاً لزيارتين قام بهما في صيف عام ١٦٦٤م وفي ربيع العام التالي للأمير محمد طراباي في جبل الكرمل. ويشغل هذا الوصف معظم الجزء الثالث من هذه المذكرات. وقد سبق لدارفيو أن زار في عام ١٦٥٩م أمير بدو طراباي لتسوية خلاف بينه وبين الآباء الكرمليين المقيمين في جبل الكرمل. وكانت شؤون هذا الجبل مع بلاد السامرة والجليل تقع ضمن صلاحيات القنصلية الفرنسية في صيدا التي كان دارفيو ملحقاً بها آنذاك. وكانت فرنسا في عهد الملك لويس الرابع عشر الذي كان يوجّه سياسة فرنسا التجارية في الخارج في عهده وزير الدولة لشؤون البحرية كولبير Colbert قد اهتمت برعاية أمور الإرساليات الكاثوليكية في الخارج، إلى جانب رعايتها المصالح التجارية الفرنسية. ومن هنا اختيار دارفيو الذي كان يتقن اللغتين العربية والتركية، وعلى علاقة طيبة مع الأمير البدوي محمد طراباي، ليتوسط لديه في القضايا الدينية والتجارية التي تهم فرنسا.

يعالج دارفيو في وصفه لحياة البدو من آل طراباي نواحي متعددة تتعلق بعاداتهم وتقاليدهم وتديّنهم وشعوذتهم وعداتهم وخيامهم وملابسهم وطعامهم وجمال نسائهم وحبهم وتحاسدهم وغير ذلك. وقد قام الفرنسي دو لاروك de la Roque بتلخيص مذكرات دارفيو هذه حول البدو ونشرها في كتابه رحلة إلى فلسطين[٣١] قبل أن ينشرها الأب لابا Labat في المجلد الثالث من المذكرات الأصلية بحوالي ثمانية عشر عاماً[٣٢]. وبالرغم من أن دو لا روك يقول انه بنى كتابه على مخطوطة مذكرات دارفيو وعلى ما رواه له أصدقاؤه وبخاصة أحد الآباء اليسوعيين من أصدقاء دارفيو في حلب، فإنّ دارفيو لم يطّلع على ما كتبه دو لا روك. ومن هنا الاضطراب في كتابة دو لا روك ورجوعنا إلى مذكرات دارفيو المنشورة ومقارنتها بما كتبه دو لا روك[٣٣].

يذكر دارفيو أنه حين زار الأمير محمّد طراباي كان وصحبه يدخّنون الأفيون ونباتاً آخر مشتقاً منه يسمّونه برجه Bergé (لعله البرش)، كما أنهم كانوا يدخّنون التبغ بالغليون ويشربون الخمر. وحين سأل دارفيو الأمير محمد عن تأثير الأفيون والبرجه قال انه يحلم برؤية كل ما هو حسن، وان ذلك يبهجه ويقوّي ذاكرته ومحادثته. ولكن دارفيو لاحظ أن تعاطي هذه المخدرات يضعف الأعصاب وأنّ الأمير كان يرتجف باستمرار، وأنّ يديه لا تقويان على الإمساك بثبات، وجسمه يترنّح لدى قيامه بأقلّ مجهود[٣٤].

ويقول دارفيو ان عدد أمراء آل طراباي في عام ١٦٦٤م كان ثمانية عشر أميراً، ينتخبون أكبرهم سنّاً ليكون أميراً أكبر عليهم. وقد انتخبوا الأمير محمد للإمارة خلفاً لأخيه زين المتوفّى عام ١٦٦٠م. وقد رضي العثمانيون أن يكون الأمير محمد حاكماً على صنجق اللجون، ومنه جبل الكرمل، وملتزماً على القرى والموانىء الخاضعة له طالما أنه يؤمّن سلامة الطرق ويحمي موظّفي الدولة والقوافل التجارية في مناطقه. وكان يحارب إلى جانب الدولة ويتمتع بجميع الامتيازات الخاصة بمنصبه. وكان حكم آل طراباي شبه وراثي ما دامت الدولة راضية عنهم، وكانوا يشترون رضاها من وقت لآخر، وكذلك حين اعتلاء السلطان العرش، بالهدايا وأهمها الخيول الأصيلة والجمال الكبيرة القويّة. ويلاحظ دارفيو أن الأمير من آل طراباي لا يرسل أيّ بدوي لتقديم الهدايا إلى سلطات استانبول ويعلّق على ذلك بأنّ البدو لا يثقون بالأتراك، لذا في حال تقديمهم الهدايا يعطونها إلى أحد الباشاوات من أصدقائهم ليأخذها إلى استانبول[٣٥].

ويذكر دارفيو أن أمراء آل طراباي يخيم الواحد منهم بعيداً عن الآخر نحو فرسخ (٨ كم) أو اثنين، والذين منهم لا يتمتّعون بلقب صنجق بك يقدّمون الولاء لزعيمهم الذي يحمل هذا اللقب ويدعمونه مع أتباعهم. وعندما يحشدون قواتهم للقيام بحملة مشتركة فإنهم يجنّدون حوالي أربعة إلى خمسة آلاف مقاتل. ويضيف دارفيو أن خيمة الأمير الكبير تكون في وسط خيام أتباعه على جبل الكرمل. ولا يحتمون بأسوار أو خنادق لأنها تمنع حريتهم في التحرك، لذا يعتمدون على حماية بعضهم بعضاً، مشكّلين ما يشبه السور البشري. ويفضّل البدو العيش تحت الخيام. ويقول دارفيو ان الأمير محمد طراباي لا يوجد له قصر خاصّ به في جبل الكرمل، وانه لا يستعمل حتى القصر الذي بناه فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ ــ ١٦٣٥م) حين حكم المنطقة، والذي تهدم بمرور الزمن وذلك خوفاً من مفاجأة الأتراك له ولأتباعه.

وإلى جانب أتباعه من البدو الذين يشكّلون القوّة الضاربة للأمير توجد، في المناطق التي يسيطر عليها، جماعات من المسيحيين والمسلمين الذين يسكنون قرى الكرمل ويعملون في الأرض ويجمعون غلّاتها، ويشار إليهم برعيّة الأمير. والواسطة بينهم وبين الأمير هو شيخ القرية الذي يجمع بالنيابة عن الأمير ــ الملتزم للضرائب ــ عائدات هذه الضرائب من منطقته. ويقول دارفيو ان مدخول الأمير لا يشكّل ثروة كبيرة إذ ان كل ما يبقى له

مما يجمعه من ضرائب القرى ومن عائدات الجمارك في الموانىء لا يزيد على مائة ألف أقجة في السنة. لذا فهو لا ينفق شيئاً على الدفاع ولا يعطي مرتبات إلى قواتـه، كما أن القمـح واللحم لا يكلفانه شيئاً، فمعظم البدو يربّون المواشي. وثروة الأمراء الرئيسية تتألف من الخيول والجمال والأبقار والخراف والماعز، وأيضاً الحبوب. ويبادلون ذلـك في الموانىء لقـاء البنّ والرز والأقمشة، كما يبيعون الفائض من المنتجات لديهم ويخبئون المال إلى حين الحاجة إليه. ويفضّلون العملة الذهبية على غيرها، ويتجمّع لديهم الكثير منها، ويخبئونها في خيامهم، كما أنه يسهل حملها معهم إذا ما اضطرتهم الظروف إلى التنقل. ويذكر دارفيو أنه كان بحوزة الواحد من بعض أمراء البدو من المسنين أكثر من مليون قطعة ذهبية إيطالية تعرف باسم سكين Sequin، وهوسكين البندقية الذي احتفظ على الدوام بقيمة أكبر من قيمة الأشرفي الذهبي العثماني.

ويقول دارفيو ان الأمير محمد طراباي مسلم لأنـه ولد كذلك، ولكنه غير متعمّق في الدين. ولا يوجد جامع حيث يقيم. ويصلّي وأتباعه في الخيام أو خارجها دون التقيد بأوقات الصلاة. ويعلّق دارفيو على ذلك بأنهم يحبّون حرّيتهم في كل مكان وزمان، في الدين كما في غيره. ومع ذلك يصلّون عادة أيام الجمعة وفي شهر رمضان. وللأمير سكرتير أو كاتب يكتب رسائله وأوامره، وأحياناً يكون له كاتبان يعمل أحدهما كإمام حين يريد الأمير الصلاة جماعة. ويصوم البـدو حين يستـطيعون ذلـك، وحين لا يتضايقون. وتعفى النساء من الصيام، كما يقول دارفيو، بسبب بنيتهنّ الرقيقة ولأنهن يعتقدن أنهن لا تكافأن على ذلك في الجنة. لذا يصف البدو أنهم مسلمون متساهلون. ويعمد البدو إلى ختان أولادهم في سن معينة وفي مجموعات، ويشكل الختان والزواج أهمّ حدثين يحتفلون بهما.

ويقضي الأمير في الخلافات على أنواعها بين أتباعه وبين الأمراء من أسرته. وقلّما يصدر الحكم بالموت، والغالب أن تكون العقوبة نقدية ليستفيد منها.

ولا يستخدم أمراء البدو غير أناس من بينهم وذلك مدعاة فخر لهؤلاء. وللأميرات في خدمتهن خصيان سود. ويرغبن أكثر شيء بأكثر هؤلاء الخصيان قُبحاً كما يقول دارفيو. ويضيف أن تجاراً من دمشق يقومون بالمتاجرة بهؤلاء السود مقابـل الخيول والحيوانات الأخرى. ويستخدم أمراء البدو فتياناً من المسلمين وآخرين من العبيد السـود لتقديم القهـوة وغلاييـن التدخيـن للزائرين. ولا يحتفظون برقيق من الفرنجة باستثناء أولئك الذين يأسرونهم من القراصنة حين يهاجمون السواحل. ولكنهم يبيعونهم لقاء المال[٣٦].

وإلى جانب هذه الصورة عن الحياة الاجتماعية لأسرة بدوية حاكمة في منطقة الكرمل تتوفر صور أخرى مجتزأة، بعد قرن من ذلك، عن حياة سكان مدن فلسطين وقراها وعاداتهم الاجتماعية وصفها الرحالة الإيطالي جيوفاني ماريتي Giovanni Mariti. فقد ذكر عن ملابس سكان عكا حين زارها لأول مرة في عام ١٧٦٠ أنها تشبه الملابس التركية من حيث سعتها وطولها، والفارق الوحيد هـو غطاء الـرأس، فالأتـراك يستخدمـون غطاء رأس (قاووق) بسيط هو عبارة عن طاقية كبيرة تحيط بها لفّة. أما سكان عكا من الرجال فيلبسون الطربوش الأحمر الذي يلفّون من حوله قماشاً حريرياً أو قطنياً عليه أشكال ورد ذهبيّة أو فضيّة وله شُرّابة. أما ملابس النساء فتتبع الزي العثماني، وعندما يخرجن يلففن أنفسهن من الرأس إلى القدمين بغطاء أبيض وتستعمل الغطاء نفسه النسوة الكاثوليكيات والأوروبيات كما يقول ماريتي[٣٧].

ويخصّ ماريتي ملابس نساء الناصرة بوصف دقيق لأن لهذه الملابس، كما يقول، خصوصيتها التي لا توجد في مدن غيرها. فهن يرتدين قميصاً تركياً ذا أكمام واسعة وطويلة تلامس الأرض ومخططة بالأحمر والأبيض. ويميّز هذا القميص الأبيض، بألوان أكمامه الفاقعة وزخرفته الفاخرة، النساءَ اللواتي يلبسنه بكونهن الفتيات. وفوق هذا القميص يضعن آخر من قماش مشابه يحزمنه عند الخصر بكمر عريض من الجلد. وطراز الأكمام فيه يشابه طراز القميص. وإذا لم يسرن حفاة فإنهن يلبسن أحياناً بابوجاً أو خفّاً. ويغطين رؤوسهن بقبعة مسطحة ملفوفة بنسيج تركي وبقطع كبيرة من الحرير الأحمر. ولا يمكن تمييز جبهتهن تحت العصابة التي تلفهـا. ويربـطن العصابـة من الخلف بشنبرين (بملاءتين) أحدهما يتدلّى على الأكتاف والآخر يستعمل لتغطية الذقن والفم. ويعلق ماريتي على هذا الطراز من الملابس بأن له فوائد كثيرة فهو يوحي بالجمـال حيث لا يكون هنـاك جمال، وهو يستأثـر باحتـرام الرجـل للجنس الضعيف الذي يشكّـل احتشامه أقوى سلاح لديه[٣٨].

الحياة الثقافية في فلسطين:

تبرز في مجال الحياة الاجتماعية الناحية الثقافية، وكانت بمجملها دينية الإطار والمحتوى كمثيلاتها في بقية الأقطار العربية والإسلامية في ذلك الزمن. وتعتبر بحكم شموليتهـا وتلاقـح الأفكار فيها بين العلماء المسلمين من مختلف الأقطار العربيـة

بخاصة والإسلامية بعامة واسطة ترابط بين هذه الأقطار. فالمقدسي أو النابلسي أو الرملي كان يدرس أو يدرّس في دمشق أو القاهرة، وبالمقابل كان الدمشقي أو القاهري ينتقل من بلد فلسطيني إلى آخر نزيلاً أو مقيماً، طالباً أو شيخاً، بدون حدود سياسية تقف في وجهه ولا عقبات جغرافية أو مصاعب سفر تثنيه عن عزمه. وإذا كان هناك من مجال تأكدت فيه وحدة العرب في تلك الأزمان من خلال تقارب إسلامي أشمل فذلك في مجال الثقافة التي كانت اللغة العربية عمادها والعلوم الإسلامية مجال بحثها، وقد أُرسيت قواعد هذه العلوم في البلاد العربية الإسلامية.

وقد ساهم علماء فلسطين بقدر وافر في هذا النشاط الثقافي الديني وبخاصة في القرون الثلاثة الأولى من العصر الحديث، أي بين مطلع القرن السادس عشر ومطلع التاسع عشر. وتحفل كتب التراجم الدمشقية من هاتيك القرون بأخبار هؤلاء العلماء وتنقلاتهم ومنجزاتهم وما اشتهروا به من علم وما أسهموا به في تطوير الثقافة الدينية بعامة. وسنعتمد كتب التراجم هذه في دراسة علماء فلسطين لعدة أسباب، منها: اهتمام هذه الكتب بتقصّي أخبار هؤلاء العلماء الذين اشتهروا سواء في بلدهم أو في الأماكن التي زاروها أو أقاموا فيها مثل دمشق والقاهرة، وحقّ لهم بذلك أن يدرجوا ضمن النخبة المثقفة التي عرفت بالأعيان في عناوين كتب التراجم هذه. ثم إننا باعتماد أسماء علماء فلسطين التي أوردتها كتب التراجم الدمشقية نكون قد سلّطنا الأضواء على العلماء الذين تجاوزت شهرتهم حدود فلسطين واعترف بعلمهم في الحواضر الرئيسية للعالم الإسلامي. وسنستبعد من قوائم هذه الأسماء كل عالم لم يُقم في فلسطين أو يعمل في العلم فيها، متعلماً كان أم عالماً، ذلك أن أعداد العلماء الذين يعودون بأصولهم إلى فلسطين ويحملون نسبتهم إليها في أسمائهم، كالنابلسي والغزي، ولكنهم ولدوا وعاشوا وعملوا واشتهروا خارجها، هم من الكثرة بحيث يستوجبون دراسة خاصة تحت عنوان: علماء دمشقيون أو قاهريون (أو علماء عرب مسلمون) من أصول فلسطينية. ولهذه الدراسة أهميتها في التدليل على دور علماء فلسطين خارجها عبر التاريخ(٣٩)، ولكن ذلك يخرج عن نطاق الفترة التي نعالجها. وثمة سبب آخر لاعتماد كتب التراجم الدمشقية هو أن أصحابها خبروا شؤون فلسطين الثقافية إما لأنهم من أصول فلسطينية، قريبة أو بعيدة، مثل نجم الدين الغزي والحسن البوريني، أو قاموا بزيارتها للتبرك أو للدراسة والتدريس أو توقفوا فيها أثناء سفرهم إلى الحجاز أو مصر، أو أنهم اعتمدوا على مراسلين فيها لتغطية أخبار علمائها كما فعل مفتي دمشق محمد خليل المرادي صاحب **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** الذي طلب من حسن بن عبد اللطيف الحسيني القدسي أن يوافيه بأخبار علماء بيت المقدس(٤٠).

ومما يدعو كذلك إلى اعتماد كتب التراجم الدمشقيّة في دراسة علماء فلسطين أن كتب الرحالة من العرب المسلمين الذين زاروا فلسطين خلال القرون التي نعالجها، كما رأينا في أمثلة إبراهيم الخياري وعبد الغني النابلسي ومصطفى الصديقي ومصطفى أسعد اللقيمي، قد ذكرت كثيراً من أخبار علماء فلسطين وصوفيّيها في المدن والقرى التي زاروها في فلسطين. وبالرغم مما لكثير من هؤلاء العلماء والصوفيين من شهرة محلية واعتقاد بين عامة الناس فإنهم لم ينتجوا علمياً ولم تتعدَّ شهرتهم حدود مناطقهم، وبالتالي لم يحصلوا على اعتراف العلماء في الخارج بهم، ولذلك لم يصنفوا ضمن الأعيان من العلماء. أما أولئك منهم الذين اشتهروا في العلم فقد ذكرهم الرحالة وأصحاب كتب التراجم الدمشقية على حد سواء، وسنشير إلى ذلك في حينه. وقد يكون في إغفال أسماء العلماء الذين ذكرهم الرحالة ولم تأت على ذكرهم كتب التراجم إجحاف بحق هؤلاء العلماء المحليين الذين لم تذع شهرتهم. ويبدو أن إهمال كتب التراجم لذكرهم يعود في الأغلب إلى كونهم صوفيين محليين اشتهروا بكراماتهم واعتقاد العامة بهم أكثر منهم بإسهامهم في مجال العلوم الدينية وتدريسهم في المدارس وقيامهم بوظائف دينية هامة. ومما يؤيد موقف أصحاب كتب التراجم منهم وعدم وجود ما يبرر ذكرهم لهم أنهم غلموا بأسمائهم وشهرتهم المحلية التي لم ترْقَ في نظرهم إلى رتبة أعيان العلماء، لذا أهملوهم، ومثال ذلك ما ذكره محمد خليل المرادي في مقدمة **سلك الدرر** من «أنه اجتمع لديّ جملة من الرحلات والأثبات والتراجم مع كثرة التنقير والتفحص الكثير والأخذ من الأفواه شفاهاً وبالمكاتبات إلى البلدان التي كنت لست أراها»(٤١). ومن الرحلات التي اطّلع عليها المرادي رحلتا النابلسي الكبرى والصغرى ــ الحجازية والقدسية(٤٢)، وهما اللتان ذكرتا أسماء كثير من العلماء المحليين المحدودي الشهرة من الصوفيين وأصحاب الكرامات في فلسطين مما يتفق واهتمامات النابلسي الصوفية ولكن هذه الأسماء لم ترقَ علمياً إلى مستوى الأخذ بها من قبل المفتي المرادي. ويطرح هذا الأمر قضية هامة حول تعريف العالم في ذلك الزمن من وجهة نظر مفتٍ مثل المرادي أو صوفي ومفتٍ مثل النابلسي، أو من وجهة نظر السكان المحليين الذين ينتمي العالم أو الصوفي إليهم. وفي غياب مثل هذه الدراسات المعمقة والشاملة للحياة الثقافية في فلسطين التي تدرس مقاييس شهرة العلماء إسلامياً ومحلياً، والدور الذي يقومون به كأعيان بين علماء المدن

أو كقادة شعبيّين يعتقد بهم عامة الناس، يبقى الاعتماد على أسماء العلماء الواردة في كتب التراجم المعيار الوحيد لتتبع أخبار أصحاب الشهرة العلمية في فلسطين. واعتماد كتب التراجم هذه يضفي على هؤلاء العلماء، في الواقع، بعداً عربياً وإسلامياً يخرجهم من محليتهم ويقوّمهم من منظور أشمل ويقارن بيْنهم وبين غيرهم من العلماء المسلمين حين تصنّفهم هذه الكتب في عداد من اشتهر من العلماء ــ أعيان العلماء ــ في العالم الإسلامي بعامة وبلاد الشام بخاصة. وعلى هذا سنعتمد كتب التراجم الدمشقيّة في دراستنا لعلماء فلسطين بين القرنين العاشر والثالث عشر للهجرة / السادس عشر والتاسع عشر للميلاد. وسنركز في دراستنا على نقاط هامة مثل التوزع الجغرافي لعلماء فلسطين بحسب هذه القرون، وفئات أعمارهم، والأماكن التي سافروا للدراسة فيها أو التي اشتهروا كمدرّسين فيها، والوظائف التي شغلوها والتخصصات التي برعوا فيها ومقارنة ذلك بين قرن وآخر، ومدينة وأخرى، لتبين أوجه الاختلاف والأسباب الكامنة وراء ذلك.

ويدلنا الجدول رقم (٣ ــ ٣) على توزع علماء فلسطين في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بين مختلف مدن فلسطين. وقد ألحقنا في بعض الحالات اسم القرية التي ينتسب إليها العالم باسم المدينة التي تتبعها كما في قرية الشويكة التي تتبع نابلس، وصفورية التي تتبع صفد.

يتبين من الجدول رقم (٣ ــ ٣) أن القدس تستأثر بأكثر من نصف العلماء. ويلاحظ كذلك أن مدن فلسطين الداخلية التي تقع على طريق دمشق ــ القدس، وهي صفد ــ نابلس ــ القدس، فضلاً عن الخليل، وهي مركز ديني مشهور وتقع على امتداد طريق القدس إلى الجنوب، تضم فيما بينها ٨٨,٥٢ ٪ من أعداد علماء فلسطين في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد، في حين أن المدن الساحلية أو القريبة من الساحل ممثلة بالرملة وغزّة، اللتين تقعان بدورهما على طريق دمشق القاهرة، لا تضمّ سوى ١١,٤٨ ٪ من مجموع العلماء. وطبيعي أن المراكز ذات الشهرة الدينية والمدارس الرفيعة المستوى هي التي تستقطب

الجدول رقم (٣ ــ ٣)

التوزُّع الجغرافي لعلماء فلسطين في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد

	القدس	نابلس	صفد	الخليل	الرملة	غزة	المجموع
العدد	٣١	٥	١٢	٦	٤	٣	٦١
النسبة	٥٠,٨٢ ٪	٨,٢٠ ٪	١٩,٦٧ ٪	٩,٨٣ ٪	٦,٥٦ ٪	٤,٩٢ ٪	١٠٠,٠٠ ٪

يذكر نجم الدين الغزّي (٩٧٧ ــ ١٠٦١هـ / ١٥٧٠ ــ ١٦٥١م) صاحب **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**[٤٣] واحداً وستين عالماً من فلسطين في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. وقد أتبع ذلك بتسعة علماء آخرين في ذيل **الكواكب السائرة** المسمّى **لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر**[٤٤]. ونظراً لأن معظم هؤلاء التسعة ترد تراجمهم في القرن التالي فقد اعتمدنا الأسماء الواحد والستين كما وردت في **الكواكب السائرة**. كما أننا قارنا بعض التراجم في **الكواكب السائرة** بمثيلاتها في كتاب تراجم آخر لمعاصر للغزّي فلسطيني الأصل ومقيم في دمشق هو الحسن البوريني (توفي ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م)[٤٥] صاحب **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**[٤٦].

أو تخرّج العلماء الأكفاء ذوي الشهرة الكبيرة.

وباستعراض مذاهب العلماء هؤلاء نلاحظ توزعهم وفق الجدول رقم (٣ ــ ٤).

يتبين من الجدول رقم (٣ ــ ٤) أن أعلى نسبة للعلماء بين المذاهب تعود للمذهب الشافعي وهو المذهب السائد في بلاد الشام بعامة، وكذلك في مصر، قبل الحكم العثماني. ولم يبدّل السلاطين المماليك (٦٥٩ ــ ٩٢٣هـ / ١٢٦٠ ــ ١٥١٧م) من أولويات المذاهب السائدة في سلطنتهم التي ضمّت بلاد الشام ومصر، بل اعترفوا بجميع المذاهب على حد سواء. ولكن العثمانيين تبنوا المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة، الأمر الذي بدّل في نسبة اتباعه في المناطق التي حكموها. وتحوّل كثير من

الجدول رقم (٣ ــ ٤)
مذاهب علماء فلسطين في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد

المدينة	الحنفي	الشافعي	الحنبلي	المالكي	غير معروف	المجموع
القدس	٣	١٩	١	ـ	٨	٣١
نابلس	ـ	٣	٢	ـ	ـ	٠٥
صفد	ـ	٩	ـ	ـ	٣	١٢
الخليل	ـ	٤	ـ	ـ	٢	٠٦
الرملة	ـ	٣	ـ	ـ	١	٠٤
غزة	ـ	٢	ـ	١	ـ	٠٣
المجموع	٣	٤٠	٣	١	١٤	٦١
النسبة	٪٤,٩٢	٪٦٥,٥٧	٪٤,٩٢	٪١,٦٤	٪٢٢,٩٥	١٠٠,٠٠

أصحاب المناصب الدينية إلى المذهب الحنفي للإبقاء على امتيازاتهم في العهد العثماني. وسنرى في عينات القرون التالية مقدار تبدل النسب بين المذاهب. ويلاحظ كذلك في الجدول رقم (٣ ــ ٤) وجود أصحاب المذهب الحنبلي فقط في نابلس والقدس. وفي الواقع سنرى في العينات التالية تمركز هذا المذهب أكثر شيء في نابلس. وبالنسبة للمذهب المالكي فامتداده الرئيسي هو في المغرب العربي. أما لماذا ينتشر مذهب دون آخر في منطقة دون أخرى فهذا يرتبط بطبيعة السكان في المنطقة وأصولهم القبلية أو المدينية ومدى ثقافتهم وتفهمهم لمذهب أو آخر، وسهولة اعتماد المذهب في قضايا حياتهم. فالمذهب الحنبلي مثلاً أقرب إلى بساطة الريفيين وملائم لحاجاتهم الحياتية ولهذا نجد مركزيه الرئيسيين في بلاد الشام هما منطقة نابلس ومنطقة بعلبك. أما المذهب المالكي فيتلاءم مع طبيعة المغرب العربي. ويتوزع المذهبان الشافعي والحنفي بين سكان المدن حيث التعمق العلمي والمدارس والإرث الإسلامي الحضاري. وقد شرح أحمد تيمور باشا نشأة هذه المذاهب وأماكن انتشارها في كتابه: **نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة**، (القاهرة، المطبعة السلفية ١٣٤٤هـ).

ويظهر جدول آخر فئات أعمار العلماء الذين توفرت معلومات عن تاريخ ولادتهم ووفاتهم مصنّفة بحسب البلد الذي ينتسبون إليه كما في الجدول رقم (٣ ــ ٥):

الجدول رقم (٣ ــ ٥)
فئات أعمار علماء فلسطين في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد

المدينة	دون ٢٠	٢٠ ــ ٣٠	٣١ ــ ٤٠	٤١ ــ ٥٠	٥١ ــ ٦٠	٦١ ــ ٧٠	٧١ ــ ٨٠	فوق ٨٠	غير معروف	المجموع
القدس	ـ	ـ	ـ	ـ	١	٢	٥	ـ	٢٣	٣١
نابلس	١	ـ	ـ	ـ	ـ	٢	١	ـ	١	٠٥
صفد	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١	١	١	٩	١٢
الخليل	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١	٥	٠٦
الرملة	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢	ـ	ـ	٢	٠٤
غزة	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١	ـ	١	١	٠٣
المجموع	١	ـ	ـ	ـ	١	٨	٧	٣	٤١	٦١

ويبدو من هذه النسبة من العلماء الذين عرفت أعمارهم والتي لا تتجاوز ثلث المجموع أن معظم العلماء الذين لم تعرف أعمارهم، وبخاصة تواريخ ولادتهم، هم الذين تُوفُّوا في أوائل القرن السادس عشر، أي أنهم ولدوا خلال القرن الخامس عشر وهو أمر لم يمكِّن الغزّي المتوفّى في ١٦٥١م من معرفة تـواريخ ولادتهم في حين أنه ذكر تاريخ الوفاة لمعظمهم لقرب ذلك منه. ومهما يكن أمر ذلك، فالملاحظ أن الغالبية العظمى من العلماء الذين عرفت أعمارهم كانوا من المسنّين الذين تجاوزوا الستين من العمر، وهذا يرجّح نضجهم ورسوخ علمهم واعتراف الناس بهم على مدى سنوات طويلة. وسنقارن مستويات الأعمار في هذه العينة مع مستوياتها في العينات التالية لنتبين الاختلاف في النسب وأسبابه.

وفيما يتعلق بطرق اكتساب العلم وأماكن الدراسة تبين التراجم أن علماء فلسطين إما أنهم اكتفوا بالثقافة التي حصلوا عليها محلياً كل في بلده، أو في بلد آخر في فلسطين، أو أنهم توجهوا خارج فلسطين طالبين العلم من مظانّه. ويبين الجدول رقم (٣ ــ ٦) الأماكن التي قصدها علماء فلسطين في الخـارج للاستزادة من العلم:

الجدول رقم (٣ ــ ٦)
أماكن الدراسة في الخارج لعلماء فلسطين في القرن العـاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد

مدينة العالم	الدراسة في القاهرة	الدراسة في دمشق
القدس	٤	١
نابلس	ــ	ــ
صفد	٢	٤
الخليل	١	ــ
الرملة	١	١
غزة	ــ	١
المجموع	٨	٧

لا يمكن القول ان خمسة عشر عالماً فقط من أصل واحد وستين قد درسوا في الخارج لأننا لا نعرف، أو بالتالي لا يعرف المترجِم الغزّي، أشياء كثيرة ومؤكدة عن أماكن دراسة العلماء الآخرين. كما أن الأعداد في الجدول نفسه لا تمثّل أرقاماً قائمة بذاتها لأعداد العلماء الدارسين في القاهرة أو في دمشق لأن بعض العلماء ذهبوا إلى مصر وإلى دمشق للدراسة. وحرصنا في الجدول أن نذكر عدد مرات التوجّه إلى كل مكان وليس أعداد العلماء المتوجهين إلى بلد أو آخر. ومع ذلك، تدل أرقام الجدول على أن الاتجاه للدراسة في القاهرة ودمشق متقارب رغم بعد الواحدة وقرب الأخرى. ومما يفسر ذلك اشتهار الأزهر على ما عداه في دمشق. ويمكن أن نلاحظ، بالإضافة إلى أهمية التوجه إلى الأزهر، أنّ القرب الجغرافي وأهمية المدينة، وبالتالي حرص علمائها على التثقف ثقافة عليا، كان لهما تأثير في انتقاء مكان أو آخر للدراسة. فمدينة صفد مثلاً يتجه معظم علمائها إلى دمشق لقربها منها. وتشذ غزّة عن القاعدة لأن لها تقاليد قديمة في التعامل الثقافي مع دمشق لوقوعها على الطريق الدولي المؤدي إليها وبدليل كثرة علماء دمشق من أصول غزّاوية. وبالرغم من أن نسبة غزّة في العينة ضئيلة وغير ممثلة فإنها تتأكد في الجداول اللاحقة.

وإذا كانت مصر، وبخاصة الأزهر، تشد العلماء للدراسة فيها فإن هؤلاء عندما يقررون الإقامة المؤقتة كنزلاء، أو الدائمة كمتوطنين خارج بلدهم، فإنهم يختارون دمشق بأغلبية ساحقة لأنها المركز الرئيسي للنشاط العلمي في بلاد الشام عموماً، وهي قريبة من بلدهم تتسع لهم في حين أن مجالي العمل والشهرة في مصر صعبان لكثرة العلماء فيها من محليين وأغراب، ويبين ذلك الجدول رقم (٣ ــ ٧):

الجدول رقم (٣ ــ ٧)
أماكن إقامة علماء فلسطين في الخارج كنزلاء أو متوطنين في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد

مدينة العالم	القاهرة	دمشق	الحجاز	المجموع
القدس	٢	١٢	١	١٥
نابلس	ــ	٤	١	٥
صفد	ــ	٢	ــ	٢
الخليل	ــ	٣	ــ	٣
الرملة	ــ	٢	ــ	٢
غزة	ــ	١	ــ	١
المجموع	٢	٢٤	٢	٢٨

إن تفضيل علماء فلسطين في القـرن العاشـر للهجرة / السادس عشر للميلاد الإقامة في دمشق لم يكن بالأمر الجديد إذ ان

ذلك ينسجم مع اتجاه دائم، سابق ولاحق، لكون دمشق تشكل مركزاً علمياً متميزاً في بلاد الشام ولكونها مركز تجمع الحجّاج المتجهين إلى الحجاز، الأمر الذي يستقطب العلماء إليها، ويغني هذا التجمع جوّها العلمي كما أنه يقرّب ما بين العلماء القادمين من الأقطار المترامية إليها. ولهذا تضم دمشق كل جديد في العلوم الدينية والطرق الصوفية التي تتفاعل معها وتطور فيها أو تتبناها ثم تنشرها من خلالها. وليس غريباً أن تكون أكبر نسبة من علماء فلسطين المقيمين في دمشق هي من القدس لأهمية القدس كمركز ديني من ناحية، ولكثرة علمائها ذوي الشهرة الواسعة من ناحية أخرى.

والملاحظ أن الاتجاه للإقامة في الحجاز كان ضعيفاً ويتساوى في ذلك مع الاتجاه للإقامة في القاهرة. ومما يلفت النظر أيضاً أن أداء فريضة الحج بين علماء فلسطين، وفي الواقع بين علماء بلاد الشام بعامة، في ذلك القرن كان قليلاً هو الآخر. فمن بين العلماء الواحد والستين في العينة التي ندرسها تذكر تراجمهم كما أوردها الغزّي أن أربعة فقط قاموا بالحج: واحد من كل من القدس ونابلس، واثنان من غزّة. ويبدو أنّ تكاليف الحج كانت العقبة

الواحد منهم يحج إلا مرة واحدة فأنتم أرغب في الخير منا». ورد الشربيني قائلاً: «يا مولانا الواحد منا يستأجر بعيراً بعشرة ذهباً ويحمل تحته القريقشات والبصلات ويحج، وأنتم إذا حج أحدكم يتكلف كلفة زائدة تكفي عدة منا، وطريقكم أشد من طريقنا والأجر يكون على قدر النَّصَب والنفقة كما في الحديث، فحجة الواحد منكم تعدل حجات الواحد منا»[٤٧].

ويلاحظ في تراجم علماء فلسطين في هذه العينة أن معظمهم شغل وظائف علمية رئيسية سواء في بلده أو في مدن أخرى من فلسطين أو في الأقطار العربية التي أقام فيها كما يبين ذلك الجدول رقم (٣ ــ ٨).

يتبين من الجدول رقم (٣ ــ ٨) أن نسبة المناصب المتميزة التي شغلها علماء فلسطين في الإفتاء والقضاء والتدريس والإمامة والخطابة تشكّل حوالي ٩٠٪ من مجموع الوظائف. ولم تكن هذه الوظائف مقتصرة على فلسطين وإنما شملت الأماكن التي أقام فيها هؤلاء العلماء خارجها. وهذا دليل على تميز نوعية علماء فلسطين وإمكاناتهم في التفوق إذا توفرت لهم الأجواء العلمية المناسبة.

الجدول رقم (٣ ــ ٨)

الوظائف التي شغلها علماء فلسطين في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد

المدينة	مُفتٍ	قاضٍ	مدرّس	إمام	خطيب	واعظ	شيخ القراء	مقرىء أطفال	مؤذّن	المجموع
القدس	٤	٣	٤	٤	٤	ــ	ــ	ــ	ــ	١٩
نابلس	١	ــ	ــ	ــ	ــ	١	ــ	ــ	ــ	٢
صفد	٢	ــ	٢	١	ــ	ــ	ــ	١	١	٧
الخليل	١	١	١	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٣
الرملة	ــ	٢	١	٢	ــ	ــ	١	ــ	ــ	٦
غزة	١	١	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٢
المجموع	٩	٧	٨	٧	٤	١	١	١	١	٣٩

الرئيسية التي حالت دون ذلك بدلالة ما ذكره الغزّي نفسه بشأن حديث جرى بينه وبين عالم مصري هو عبد الرحمن الشربيني، الذي يصفه بالإمام العمدة، في المدينة المنوّرة في أواسط محرم ١٠٠٢هـ / أواسط تشرين الأول/أكتوبر ١٥٩٣م. قال الشربيني انه حج أربعاً وعشرين مرّة فأجابه الغزي: «أنتم يا مولانا معاشر علماء مصر يحج الواحد منكم مرات وأما أهل الشام فلا يكاد

ومن المدارس المشهورة التي درّس فيها علماء فلسطين هؤلاء: الصلاحية والختنية (الخاتونية) في القدس[٤٨]، والشامية البرّانية والسيبائية والتقوية في دمشق، وجميعها باستثناء السيبائية الحنفيّة من مدارس الشافعية، وهو المذهب المحلي السائد بين الناس آنذاك[٤٩].

ويلاحظ كذلك أن قلة من علماء فلسطين، أو من علماء

بلاد الشام، قد برزوا في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد في ميدان الطرق الصوفية، ربما لأن هذه الطرق لم تتكاثر وتنتشر بعد بشدة كما حدث في القرون التالية، أو لأن العلماء، مثل الغزّي، أغمطوا ذكر أولئك الصوفيين، الذين لا ينتسبون إلى الطرق، لأنهم توجّهوا إلى اجتذاب عامة الشعب إليهم. ومن العلماء الذين أطلق عليهم لقب صوفي في عينة التراجم هذه ترد أسماء أربعة من القدس واثنين من صفد وواحد من كل من الخليل والرملة وغزة.

وبمقارنة تراجم العلماء في عينة القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد يصعب تفضيل عالم على آخر لأن ذلك يعتمد على المقياس الذي نقيس به شهرة العالم والهدف من ذلك. وبقراءة دقيقة وموضوعيّة للتراجم يمكن اختيار علي بن محمد المقدسي[٥٠] كنموذج للعالم الفلسطيني في ذلك القرن من حيث ثقافته والمناصب التي شغلها محلياً وفي الخارج وجرأته في قول الحق والدفاع عنه، وهو ما أدّى إلى اصطدامه بالعثمانيين، وهم في أوج قوتهم آنذاك، لمخالفتهم قواعد الشريعة والتقاليد المحلية. وقد ولد علي بن محمد المقدسي في بيت المقدس في جمادى الأولى ٨٥٠هـ / آب/أغسطس ١٤٤٦م، ودرس في مصر الفقه والحديث، وأخذ عن علماء فلسطين، واستوطن دمشق حيث

توفي في ١٥ صفر ٩٣٤هـ / ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٢٨م، وصلي عليه مرتين: مرة في محلته بميدان الحصا ومرة بجامع المصلّى ودفن بمقبرة باب الصغير.

وفي العينة الثانية من علماء فلسطين من القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد يرد سبعة وستون اسماً أخذت من التراجم الواردة في كتاب محمد أمين المحبّي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**[٥١]، وبعضها يرد في كتاب الحسن البوريني **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**. وسنستعرض في الجدول رقم (٣ ــ ٩)، قياساً على العينة السابقة، ما يتصل بهؤلاء العلماء من تعريف بهم وبأنشطتهم.

يقترب عدد علماء فلسطين البالغ سبعة وستين في هذا القرن من عددهم في القرن السابق والبالغ واحداً وستين. وترتفع نسبة علماء القدس من ٥٠,٨٢ ٪ في العينة السابقة إلى ٥٥,٢٢ ٪ في العينة الحالية. كما أنّ الترتيب الجغرافي لتوزيع العلماء يختلف في هذه العيّنة عن سابقتها فتحتل غزة المرتبة الثانية محل صفد في العينة الأولى. ويحل محل الترتيب السابق: القدس ــ صفد ــ الخليل ــ نابلس ــ الرملة ــ غزة ترتيب جديد هو: القدس ــ

الجدول رقم (٣ ــ ٩)

التوزُّع الجغرافي لعلماء فلسطين في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد

	القدس	نابلس	صفد	الخليل	الرملة	غزّة	المجموع
العدد	٣٧	٦	٨	٢	٥	٩	٦٧
النسبة	٪ ٥٥,٢٢	٪ ٨,٩٦	٪ ١١,٩٤	٪ ٢,٩٩	٪ ٧,٤٦	٪ ١٣,٤٣	١٠٠,٠٠

حضر دروس أبرز علمائها، كما أنه جاور فترة بمكة وحضر دروس شيوخ الإسلام فيها. وبعد هذه الدراسات المتنوعة في مراكز العلم المشهورة انتقل إلى الممارسة فأفتى ودرّس بالجامع الأموي بدمشق، وكانت «له همة مع الطلبة ومهابة وموادة للخاص والعام. . . وتمنّى الموت لفتنة حصلت في الدين لما دخلت هذه الدولة العثمانية وضربت المكس (الضرائب) على الأحكام الشرعية حتى على فروج النساء، وكان يقول: أي فتنة أعظم من ذلك؟». ويقول الغزّي ان علي بن محمد المقدسي أخبره «أنه تنخّع الدم وأنه من كبده لما لحقه من القهر والغيرة على دين الإسلام وتغيير الأحكام». وقد

غزة ــ صفد ــ نابلس ــ الرملة ــ الخليل. وتبقى القدس في العينتين لها الأولوية في عدد العلماء. وهذا يعني أنه باستثناء القدس التي تتميز إطلاقاً على سواها لا تحتكر أية مدينة من مدن فلسطين المرتبة الثانية في عدد العلماء كما لا ينعدم العلماء في مدينة ويكثرون في أخرى مما يدل على إسهامات متكافئة نسبياً لمدن فلسطين في المجال الثقافي.

وبالنسبة لمذاهب علماء فلسطين نجد تحولاً هاماً نحو المذهب الحنفي الذي اعتمدته الدولة العثمانية كما يبين ذلك الجدول رقم (٣ ــ ١٠).

الجدول رقم (٣ ــ ١٠)
مذاهب علماء فلسطين في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد

المدينة	الحنفي	الشافعي	الحنبلي	المالكي	غير معروف	المجموع
القدس	١١	٩	ــ	ــ	١٧	٣٧
نابلس	ــ	١	٤	ــ	١	٠٦
صفد	٤	٤	ــ	ــ	ــ	٠٨
الخليل	ــ	١	ــ	ــ	١	٠٢
الرملة	٤	ــ	ــ	ــ	١	٠٥
غزة	٥	٢	ــ	ــ	٢	٠٩
المجموع	٢٤	١٧	٤	ــ	٢٢	٦٧
النسبة	٪٣٥,٨٢	٪٢٥,٣٧	٪٥,٩٧	ــ	٪٣٢,٨٤	١٠٠,٠٠

وبالمقارنة مع العينة السابقة يلاحظ أن أتباع المذهب الحنفي بين العلماء في الجدول رقم (٣ ــ ١٠) قد ازدادوا بنسبة تقرب من ثمانية أضعاف ما كانوا عليه في العينة السابقة، في حين تناقص أتباع المذهب الشافعي بحوالي ٣٨٪. ويعزى هذا التبدل إلى حرص العلماء على الحصول على المناصب الدينية الرئيسية التي كان يشترط في صاحبها في الدولة العثمانية أن يكون حنفياً. ويرد في تراجم هؤلاء العلماء أن عالمين من القدس وعالماً من صفد وآخر من غزة بدّلوا مذهبهم الشافعي إلى الحنفي للحصول على المناصب في حين أن عالماً واحداً فقط من القدس بدّل مذهبه الحنفي إلى الشافعي. وكمثال على الحالات الأولى ما ذكره المحبّي في **خلاصة الأثر**[٥٢] في ترجمة عمر بن عبد القادر المشرقي الغزّي أنه عندما توفي مفتي الحنفية بغزّة في سنة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م «لم يوجد بغزّة من له شهرة بفقه الحنفية ليكون مفتياً فاتفق رأي حاكمها حسين باشا وأكابر البلد أن يكون الشيخ عمر المترجم مفتياً وأنه ينتقل إلى مذهب الحنفي فألزموه بذلك لحاجتهم إلى مفتٍ حنفي فجاء من غزة إلى الرملة. . . ومكث بها مدّة وقرأ على شيخ الحنفية الشيخ خيرالدين الرملي دروساً في الفقه من **الكنز** [لعلّه كنز الدقائق في فروع الحنفية للشيخ عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النَّسفي المتوفى ٧١٠هـ / ١٣١٠م] وغيره وأجازه بالإفتاء والتدريس ومكث مفتياً حنفياً إلى أن توفي». وكما في العينة السابقة، تستأثر نابلس بوجود العلماء الحنابلة فيها كونها مركزاً رئيسياً لهذا المذهب. والجدير بالذكر أن حنابلة نابلس كانوا يتجهون باستمرار إلى دمشق للإقامة فيها. وتبيّن إحدى الدراسات حول حنابلة دمشق في القرن الثامن عشر أن هؤلاء يعودون بأصولهم إلى نابلس أو بعلبك[٥٣].

وبالنسبة لفئات أعمار العلماء في هذه العينة يوضح ذلك الجدول رقم (٣ ــ ١١):

الجدول رقم (٣ ــ ١١)
فئات أعمار علماء فلسطين في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد

المدينة	دون ٢٠	٢٠ ــ ٣٠	٣١ ــ ٤٠	٤١ ــ ٥٠	٥١ ــ ٦٠	٦١ ــ ٧٠	٧١ ــ ٨٠	فوق ٨٠	غير معروف	المجموع
القدس	ــ	ــ	ــ	ــ	٢	٢	ــ	١	٣٢	٣٧
نابلس	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٢	٤	٠٦
صفد	ــ	ــ	ــ	ــ	١	١	ــ	ــ	٦	٠٨
الخليل	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٢	٠٢
الرملة	ــ	ــ	ــ	١	ــ	ــ	ــ	١	٣	٠٥
غزة	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	١	٢	ــ	٦	٠٩
المجموع	ــ	ــ	ــ	١	٣	٤	٢	٤	٥٣	٦٧

يلاحظ في الجدول رقم (٣ ــ ١١) المتعلق بـالأعمار أن المحبّي والبوريني ذكرا أعمار قلة من العلماء ولكنهما ذكرا وفيات الكثيرين الذين لم تعرف تواريخ ولادتهم، لذا صنفـوا في فئة الأعمار غير المعروفة. ومع ذلك تتشابه هذه العينة مع العينة السابقة بأن علماء فلسطين المعروفة أعمارهم قد عاشوا إلى سن القاهرة ودمشق بشكل متساوٍ تقريباً نجد في العينة الثانية أن بلاد الروم استقطبت اهتمام الدارسين من علماء فلسطين. وتـأتي القاهرة في مقدمة المدن في استقطاب الدارسين، ونسبة الرحلات إليها تشكل ٧٠ ٪ من مجموع الرحلات. والسبب واضح في ذلك وهو شهرة الأزهر وإقامة عدد من علماء فلسطين للتدريس فيه

الجدول رقم (٣ ــ ١٢)
أماكن الدراسة في الخارج لعلماء فلسطين في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد

مدينة العالم	الدراسة في القاهرة	الدراسة في دمشق	الدراسة في الروم (استانبول)	المجموع
القدس	١٧	٣	٧	٢٧
نابلس	٤	ـ	ـ	٠٤
صفد	٣	٤	١	٠٨
الخليل	١	ـ	ـ	٠١
الرملة	٣	ـ	ـ	٠٣
غزّة	٧	ـ	ـ	٧
المجموع	٣٥	٧	٨	٥٠

تجاوزت الخمسين وزادت عن الثمانين مما يدل على خبرتهم وتمرسهم في العلم من ناحية، وتوفر الزمن لهم للدراسة والإقامة خارج فلسطين فترات طويلة. وقد سافر علماء فلسطين في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي للدراسة في الخارج بنسبة أكبر مما كان عليه الأمر في العينة الأولى كما يبين الجدول رقم (٣ ــ ١٢).

يلاحظ في الجدول رقم (٣ ــ ١٢) أن خمسين رحلة (إن لم نقل عالماً لأن العالم قد يدرس في أكثر من مكان) للدراسة في الخارج سُجِّلت بين العلماء الفلسطينيين السبعة والستين في حين أن خمس عشرة قد سُجِّلت في العينة الأولى بين علماء فلسطين الواحد والستين مما يدل على ازدياد في نسبة الدراسة في الخارج بحوالي ثلاثة أمثال. وربما دلّ هذا على أن تسهيلات السفر والإقامة في القرن السابع عشر أكثر توفراً من القرن السابق. والأهم من ذلك أن هذا الانفتاح العلمي نحو الخارج كان للاستزادة من العلم ورفع مستواه في فلسطين. ولا أدل على هذه الأسباب المشجعة على السفر من أن عالماً من القدس سافر إلى القاهرة مرتين للدراسة، وعالمين آخرين من القدس أيضاً سافرا كذلك مرتين الى استانبول، وثالثاً سافر إلى هناك مراراً، كما أن عالماً من غزّة سافر أربع مرات إلى القاهرة.

وفي حين أن السفر للدراسة في العينة الأولى اقتصر على مما شجع آخرين للتوجه إليه. وينحدر مركز دمشق في استقطاب الدارسين من علماء فلسطين إلى المرتبة الثالثة بعد القاهرة والروم في حين أنها كانت على قدم المساواة تقريباً مع القاهرة في العينة الأولى. وطبيعي أن شهرة الأزهر وازدياد التآلف مع عاصمة السلطنة استانبول وضرورة الدراسة في بعض مدارسها للحصول على مناصب دينيّة عليا قد طغت على دور دمشق.

ويلفت النظر أن السفر إلى الروم للدراسة لم يقتضِ معرفة اللغة التركية. وفي مثال واحد لعالم من صفد تذكر ترجمته أنه تعلم الفارسية والتركية، في حين أن تراجم العلماء الآخرين لا تذكر شيئاً من هذا، وليس مرد ذلك، كما يبدو، عدم معرفة مؤلفي كتب التراجم بالمترجمين فقد اجتمعوا بالكثيرين منهم كما ذكروا تفاصيل دقيقة عن علومهم وتحركـاتهم ومن التقوه من العلماء الآخرين. والمهم في الأمر أن معرفة اللغة العربية كانت وحدها كافية للتبحر في العلوم الدينية والتأليف فيها حيثما ذهب العلماء حتى ولو إلى بلاد إسلامية غير عربية مثل بلاد الروم (إستانبول) حيث تعلم الأتراك اللغة العربية وهي لغة القرآن الكريم والعلوم الدينية بعامة.

ويلاحظ كذلك أن عدداً أكبر من علماء القدس في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي قد أقاموا خارج

فلسطين كنزلاء أو متوطنين يدرّسون العلوم التي أتقنوها. وهذا، بحد ذاته، دليل على علو باعهم في العلم وترحيب جمهور المتعلمين في الخارج بهم واندماجهم في جو ثقافي يشترط قبل كل شيء توفر المقدرة العلمية والكفاءة لأنه لا ضمانة لاستمرار العالم في حلقة درسه سوى قدرته على تعليم طلابه والإجابة عن أسئلتهم. (انظر الجدول رقم (٣ ــ ١٣)):

الجدول رقم (٣ ــ ١٣)

أماكن إقامة علماء فلسطين في الخارج كنزلاء أو متوطنين في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد

مدينة العالم	القاهرة	دمشق	الحجاز	الروم	المجموع
القدس	١	٩	١	١	١٢
نابلس	١	١	ـ	ـ	٢
صفد	ـ	٣	ـ	ـ	٣
الخليل	ـ	ـ	٢	ـ	٢
الرملة	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
غزة	١	ـ	ـ	ـ	١
المجموع	٣	١٣	٣	١	٢٠

وبالمقارنة مع عينة القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد التي كانت فيها نسبة النزلاء والمتوطنين من علماء فلسطين في الخارج هي حوالي ٤٦ ٪ نجد أن نسبتهم تنحدر في الجدول رقم (٣ ــ ١٣) إلى حوالي ٣٠ ٪. وليس مردّ ذلك، كما يبدو، إلى كساد علم علماء فلسطين وإنما إلى تفضيلهم البقاء في فلسطين حيث كانوا ناشطين في أكثر من مجال، بدليل مقابلة الرحالة المسلمين عدداً منهم حين زيارتهم فلسطين في أواخر القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر.

ويلاحظ في الجدول رقم (٣ ــ ١٣) أن دمشق استقطبت أعلى نسبة (٦٥ ٪) من علماء فلسطين المقيمين في الخارج تماماً كما استقطبتهم ــ ولكن بنسبة أكبر بكثير (حوالي ٨٦ ٪) ــ للإقامة فيها في القرن السادس عشر. وبالرغم من قلة النسبة في القرن السابع عشر فإن علماء فلسطين انتشروا في دمشق في عدد أكبر من المدارس عما سبق. ومن هذه المدارس التي تذكرها تراجمهم: الناصرية الجوّانية والشامية البرانية والعادلية الصغرى والفارسية والكلاسة والأتابكية، وأهم من ذلك برزوا في بقعة التدريس في الجامع الأموي(٥٤). والجدير بالذكر أن جميع هذه المدارس كانت للشافعية(٥٥) مما يدل على أن الشوافع من العلماء الفلسطينيين لاقوا الترحاب في هذه المدارس في دمشق.

ويلفت الانتباه في جدول الأماكن التي نزل أو توطّن فيها العلماء الفلسطينيون في الخارج أن القاهرة التي استقطبت أكبر عدد منهم للدراسة كانت أقل مكان استقطبهم للإقامة وذلك في العينتين. ويبدو أن سبب ذلك هو اكتظاظ السوق العلمية في القاهرة بالعلماء، إلّا بالنسبة للمبرّزين منهم وأصحاب الحظوة، خلافاً لما كان عليه الأمر في دمشق الأكثر قرباً وترحاباً والأقل اكتظاظاً. كما أن هناك تقاليد راسخة في اتجاه علماء فلسطين إلى دمشق للتوطن أكثر من التعلم فيها بينما الأمر بالنسبة للقاهرة هو عكس ذلك. ومما يدل على هذا الانفتاح نحو السفر إلى الخارج بين علماء فلسطين كثرة الذاهبين منهم لأداء فريضة الحج في القرن السابع عشر بالمقارنة مع القرن السابق. فهناك سبعة مترجمين من عينة القرن السابع عشر ذكر أنهم ذهبوا إلى الحج، خمسة منهم من القدس وواحد من كل من صفد والرملة. وذكر المحبّي أن أحد الخمسة من القدس حج ثلاث مرات وهو ما لفت نظره واقتضى تسجيله كأمر غير عادي وذلك يؤكد عدم سفر الكثيرين من العلماء إلى الحج.

الجدول رقم (٣ ــ ١٤)

الوظائف التي شغلها علماء فلسطين في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد

المدينة	مفتٍ	قاضٍ	مدرّس	إمام	خطيب	واعظ	المجموع
القدس	١٣	٦	١٧	٤	١	١	٤٢
نابلس	٣	ـ	١	ـ	ـ	ـ	٤
صفد	٣	١	٤	٢	١	١	١٢
الخليل	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
الرملة	٢	ـ	٢	ـ	ـ	ـ	٤
غزة	٤	ـ	١	ـ	ـ	ـ	٥
المجموع	٢٥	٧	٢٥	٦	٢	٢	٦٧

إن الوظائف التي شغلها علماء فلسطين في العينة الثانية ذات مدلولات هامة بالنسبة لتنوعها وطبيعتها. كما أن كثرة التخصصات في مدينة ما دليل على غنى الحياة العلمية ــ الدينيّة فيها. ويوضح الجدول رقم (٣ ــ ١٤) ذلك.

وتجدر الإشارة أولاً إلى أن الوظائف التي شغلها علماء كل مدينة لم تكن حصراً في مدينتهم وإنما مارسوها أحياناً في الأماكن التي توطنوا فيها. والمهم أن نلاحظ أن علماء مدينة ما قد مارسوا تخصصات معينة تزيد، أو تختلف عن تخصصات العلماء في المدن الأخرى. ويعتمد ذلك على طبيعة المؤسسات العلمية في كل مدينة وعلى تلبية الحاجات القائمة فيها.

ويلاحظ أن الإفتاء على اختلاف مذاهبه يحظى بنسبة عالية بين الوظائف التي يشغلها علماء فلسطين ولا ينافسه في ذلك سوى التدريس، ويشكل كل منهما نسبة تعادل حوالي ٣٧٪ من مجموع التخصصات ويؤلفان معاً حوالي ٧٤٪ منها، في حين أن نسبة الإفتاء والتدريس في العينة الأولى وهما أيضاً أعلى نسبتين فيها تشكلان معاً حوالي ٤٣٪ من المجموع. إن ازدياد نسبة التخصصات العلمية عموماً في العينة الثانية وبلوغ الإفتاء والتدريس فيها نسباً عالية هما دليلان على نشاط الحياة العلمية في فلسطين، الأمر الذي يؤكده كثرة السفر إلى الخارج للدراسة وكثرة العمل والتوطن في الخارج أيضاً. والسؤال الرئيسي الذي يطرح هو: لماذا يحتل الإفتاء والتدريس هذه النسب العالية بين الوظائف الدينية وليس القضاء أو الإمامة أو الخطابة مثلاً؟ إن هذا يرتبط بدوره بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة في بلد ما وفترة ما حين تسود نوعية معينة من الحياة تستلزم نوعاً معيناً من العلم وحين تبرز فئة اجتماعية معينة يرتبط بها نوع من العلوم دون آخر، وهو ما يستدعي التوسع في ذلك النوع من العلم. فكثرة وظائف التدريس مثلاً تدل من ناحية على اكتساب العالم المدرّس خبرات في هذا المجال، كما تدل من ناحية أخرى على ازدياد رغبة الشعب في التعلم. ويكثر تبعاً لذلك ترداد أسماء المدارس في القدس في التراجم لتشمل أكثر من الصلاحية والخاتونية الواردتين في عينة القرن السادس عشر للميلاد، إذ يضاف إليهما في عينة القرن السابع عشر أسماء العثمانية والتنكزية والمأمونية ودار الحديث. ولكن الإقبال على الإفتاء له مدلولاته الأقوى. فضعف الحكم العثماني في القرن السابع عشر انعكس بازدياد ظلم الحكام وابتزازهم أموال الشعب وبخرق المؤسسات الحاكمة لقواعد الشريعة وللتقاليد المعترف بها في مجالات كثيرة مثل جباية أموال الميري ونوعية الإنتاج الحرفي والزراعي وتحديد الأسعار بشكل لم يعد القاضي قادراً معه أن يقيم العدل كما في أوقات قوّة الدولة مما ألجأه والمتقاضين معه إلى طلب رأي المفتي في هذه القضايا. ولعل فتاوى الشيخ خير الدين الرملي، المعروفة بالفتاوى الخيرية، التي كتبها في القرن السابع عشر، هي خير دليل على الارتباك في تطبيق السلطة للشريعة في ذلك القرن، وذلك بسبب كثرة المشاحنات والاختلافات، الأمر الذي استدعى تدخّل المفتي بشكل أكبر. ومن هنا الدور الكبير الذي كان لرجال الإفتاء وأعدادهم الكبيرة بين العلماء في ذلك القرن، وبالتالي احترام الشعب لأرائهم والتزامه بها في القضايا الخلافيّة.

وإلى جانب هذه الوظائف الدينية التقليدية يكثر في عينة القرن السابع عشر تعاطي علماء فلسطين للتصوف وما يرتبط به من اعتقادات شعبية بالكرامات والجَذْبة وغيرها. ففي القدس مثلاً يبرز سبعة علماء في التصوف من مجموع عددهم البالغ سبعة وثلاثين. ولعل في انتشار التصوف دليلاً، وربما وسيلة، على إلهاء الشعب عن الواقع السيّىء المحيط به من انعدام للأمن وتعديات من قبل السلطة على الشعب وقتال بين الأحزاب والقوى المحلية كما وصفت ذلك كتابات الرحالة وغيرهم. ولم يتبلور التصوف بعد في طرق صوفية محدّدة كما حدث في القرن الثامن عشر وما بعده، بل بقي عفوياً دون أُطر تنظيمية. والطريقة الوحيدة التي أشير إليها في إحدى المناسبات هي الرفاعية (أسسها أحمد بن علي الرفاعي (٥١٢ ــ ٥٧٨هـ / ١١١٨ ــ ١١٨٢م)، ولد وعاش في منطقة البطائح بين البصرة وواسط في العراق، وقبرهُ محجة في قرية أم عبيدة). وكانت التراجم تُعرِّف الصوفي بأنه «العابد الزاهد المرشد»، أي الذي يقبل بالواقع ويقنع الناس به دون أن يحاول إصلاحه، وأقل من ذلك تبديله. ويفسح هذا الوضع الاستسلامي المجال للمغامرين في الظهور واستقطاب عنصر العنف بين السكان لإثارتهم ليس فقط ضد السلطة، وإنما ضد العلماء الذين لا يفعلون شيئاً لتغيير الأوضاع. ولعل خير مثال على ذلك من القرن السابع عشر هو يحيى الكَرَكي من الكرك (في جنوب الأردن)، الذي درس في مصر وأثنى على علمه كثير من علماء دمشق وغيرها، ثم دخل دمشق وسكنها، واجتمع من حوله في الجامع الأموي، كما يقول الغزّي والبوريني والمحبّي[٥٦]، «عوامّ هوام لا يفرّقون بين الصحيح والمعتل ولا يميّزون بين المنتظم والمختلّ». وقد اتهمته السلطة وبعض العلماء بالإلحاد والزندقة، وسجن ثم قتل في ٨ ذي القعدة ١٠١٨هـ / ٢ شباط/فبراير ١٦١٠م، خوفاً، كما يقول المحبّي بلسان قاضي دمشق، «من أن تغلب علينا العامة وتستخرجه خصوصاً وقد بلغني أن بعض أكابر الجند وأشقاهم يعتقده». ويقابل مثال الكَركي الذي تجمّع من

حوله العامة وأشقياء الجند للثورة على الأوضاع السيّئة، وقوف العلماء، وفي طليعتهم المُفْتون، وهم يحاولون إيجاد حلول لمشكلات الشعب وأزمات العصر بتطبيق الشريعة وإنصاف المظلومين.

ويأتي في طليعة علماء فلسطين في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد مفتي الرملة الشيخ خير الدين الرملي (أوائل رمضان ٩٩٣ ـ ٢٧ رمضان ١٠٨١هـ / أواخر آب/اغسطس ١٥٨٥ ـ ٧ شباط/فبراير ١٦٧١م) وقد ترجم له معاصره المحبّي صاحب **خلاصة الأثر** الذي بنى ترجمته(٥٧) على ما ذكره تلميذ خير الدين ونزيل دمشق إبراهيم الجينيني(٥٨). ويلاحظ في فترة تكوين ثقافة خير الدين أنه درس أولاً في بلدته الرملة وقرأ الفقه الشافعي على المتصوف موسى بن حسن القبي الرملي(٥٩)، ثم سافر إلى مصر، كعادة معظم علماء فلسطين في عصره، للدراسة على علماء الأزهر، وكان بذلك يسير على نهج أخويه الكبيرين اللذين توجّها أيضاً إلى مصر للدراسة. وقد سافر خير الدين إلى مصر في عام ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨ ـ ١٥٩٩م، حين كان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره. وأراد الاشتغال هناك بالفقه الشافعي ولكن أخاه ضغط عليه وجعله يشتغل بمذهب الحنفية. ولا ندري إذا كان هذا التحوّل في التخصص اقتضى تحوّلاً في المذهب لأن الذين كتبوا عن خير الدين لم يشيروا إلى مذهبه الأصلي وإن يكن من المرجّح أنه كان شافعياً بسبب بداية دراسته في الفقه الشافعي. ولكن مما يلفت النظر أنه بعد أقل من سنتين من إقامته في الأزهر أجازه محمد الحانوتي أحد كبار علماء الحنفية «صاحب الفتاوى المشهورة»، كما يقول المحبّي، وكان ذلك في أواسط محرم ١٠٠٩هـ / أواخر تموز/يوليو ١٦٠٠م، أي حين لم تتجاوز سنّه الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. ويبدو أنه كان لهذا المدرّس المتخصص في الفتاوى أثره في اتجاه خير الدين نحو كتابة الفتاوى فيما بعد. وفي السنوات الست التي أمضاها خير الدين في مصر درس على عدد من العلماء، واشتغل في تخصصات متعددة، وحصل على إجازات كما قام بالإفتاء. ثم غادر مصر متجهاً إلى الرملة في ذي القعدة ١٠١٣هـ / آذار/مارس ـ نيسان/ابريل ١٦٠٥م. وتعد هذه الفترة التأسيسية في ثقافته من الأهمية بمكان، وهي بحاجة، بالتالي، إلى الكثير من الدراسة لنشاطاته العلمية في مصر لتوضيح العوامل التي كيّفت نشأته العلمية في هذه السن المبكرة والمناحي التي نحاها في حياته العامة إثر ذلك، وبخاصة المؤثرات العلمية والمذهبيّة التي كيّفت فتاواه إلى جانب ممارسته الحياة العملية. وتزداد أهمية هذه الفترة من الدراسة في مصر في تكوين فكر خير الدين إذا علمنا أنه لم يقم، كما يبدو، بزيارات أو دراسات أخرى في بلدان غير مصر. وهكذا سرعان ما أصبح ابن العشرين عاماً شخصية علمية مرموقة في فلسطين.

عمل خير الدين في الزراعة إلى جانب تخصصه في الفتاوى. وحصل على أملاك وعقارات مما يجعله نموذجاً للعالم ـ الملاّك في فلسطين. وربما هذا التعايش مع الأرض والزراعة والخلافات التي كانت تُثار من خلال ذلك قد أغنت فتاواه المعروفة بالفتاوى الخيرية(٦٠) إلى حد كبير. وفي الواقع تُطلعنا هذه الفتاوى على أنواع الملكية والوقف وطرق استغلال الأرض وأنواع الضرائب والعلاقة بين المالكين والمزارعين والتعابير الفنيّة المستخدمة آنذاك(٦١). وأهمية هذه الفتاوى لا تكمن فقط في وصف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة في الرملة وفلسطين بعامة، بل انها تعكس أوضاعاً عامة شائعة في بلاد الشام ككل، وربما مصر آنذاك، لأن الأسئلة التي كانت ترد إلى الشيخ خير الدين لم تكن محلية فقط كما أن تأثيراتها تجاوزت فلسطين. وقد «شاعت فتاواه في الآفاق ووردت إليه الأسئلة في كل جانب حتى انه لا يكاد يفرغ من الاشتغال بالفتوى لكثرة ما يرد عليه منها، لجودة كتابته عليها»(٦٢).

وهكذا نلاحظ أن كثرة المفتين في فلسطين في القرن السابع عشر واتصالهم واتصال غيرهم من مفتي بلاد الشام والحجاز والمغرب وبلاد الروم بكبير المفتين آنذاك الشيخ خير الدين الرملي للاستئناس والأخذ بآرائه إنما تدل على اضطراب العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة لا في فلسطين فحسب ولكن في بلاد الشام والدولة العثمانية ككل. ويذكر صاحب **خلاصة الأثر**(٦٣) عن الشيخ خير الدين أنه «قلّ أن تقع واقعة مشكلة في دمشق أو في غيرها من المدن الكبار إلّا ويُستفتى فيها، مع كثرة العلماء والمفتين. وكانت أعراب البوادي إذا وصلت إليهم فتواه لا يختلفون فيها مع أنهم لا يعملون بالشرع في غالب أمورهم». ومن هنا أهمية **الفتاوى الخيرية** في التعريف بهذه الأوضاع، وأهم من ذلك بموقف الشريعة الإسلامية منها، وبالتالي من الدولة العثمانية المسؤولة أساساً عن هذه الأوضاع التي لم تستطع إيجاد حل لها يتفق والشريعة. وبمعنى آخر تفيدنا الفتاوى في معرفة التشريعات العثمانية ومدى تطابقها مع الشريعة الإسلامية. وغنيّ عن القول ان اللجوء إلى الفتاوى ليس فقط لتنوير القاضي ومساعدته في إصدار حكمه بل هي في الغالب لنقض الحكم، بدليل ما ذكره المحبّي: «فإنه كان إذا حكم على إنسان بغير وجه شرعي جاءه المحكوم عليه بصورة حجة القاضي

فيفتيه ببطلانه فتنفذ فتواه»(٦٤). وفي هذا دليل على أهمية التفسير الديني المحلّي، أو العربي ــ الإسلامي، للشريعة الإسلامية، وإشارة، من ناحية أخرى، إلى ضعف القضاة الأروام الذين كان يعيّنهم العثمانيون، وكذلك ضعف المحليين منهم الذين تعتمد الدولة أحكامهم بعد مصادقة القاضي الحنفي عليها. وبهذا يكون خير الدين قد قوّم مفهوم العدل.

وتفيد الفتاوى الخيرية إذا ما قورنت بفتاوى أُخرى صدرت في فلسطين أو بلاد الشام في الفترة ذاتها في معرفة مدى تطابقها أو اختلافها في القضايا المتشابهة، وبالتالي التعرف على خصوصية أوضاع كل منطقة ومستوى علم المفتين فيها. وما هذا الإجماع على أهمية الفتاوى الخيرية والأخذ عن صاحبها حتى آخر سني حياته المديدة (عاش ستة وثمانين عاماً) إلاّ اعترافاً بأهميته وانسجام علمه مع مبادىء الشريعة. وعلى هذا فأهمية الشيخ خير الدين وفتاواه والأخذ عنه من جميع أطراف الدولة العثمانية إنما هي برهان على علو شأن الإفتاء في فلسطين، بل في المنطقة العربية ككل، ضمن الإطار العثماني. وإذا ما قُرِن ذلك بمنجزات ثقافية أخرى لعلماء آخرين من فلسطين برعوا في شروح الحديث وفي الفقه والتصوف وغيرها من العلوم يتّضح عندئذ عمق المنجزات الثقافية العربية ــ الإسلامية آنذاك وأبعادها ودور الفلسطينيين الرائد فيها. وإذا كان الشيخ خير الدين قد رفع قيمة الإفتاء في فلسطين والمنطقة العربية ككل إلى درجة عليا من الأهمية والعلمية، اعترف بها عربياً وعثمانياً، فإنّ فكره استمر مثالاً يُحتذى من قبل تلاميذه وخلفائه واتُّخذ مقياساً لما أنتج من بعده ومن قبله. وتبقى نقطة أخيرة حول ما ذُكر بشأن جلل وفاته من أنه شارك في جنازته جمع من المسلمين والنصارى واليهود، ويجعلهم بعضهم من سكان الرملة، وهذا ما لم يذكره معاصره المحبّي. وإذا كان المقصود من ذلك التدليل على عدم تحيّز الشيخ خير الدين لأتباع مذهب أو دين على حساب آخر فإنه يشير إلى وجود اليهود في الرملة آنذاك، وهو ما لم تذكره السجلات العثمانية ولا المصادر الأخرى، وقد أكّد الباحثان كوهين ولويس في كتابهما عن سكان مدن فلسطين في القرن السادس عشر على عدم وجود اليهود في الرملة. وذكر مصدر لاحق أن الوجود اليهودي في الرملة يعود إلى عام ١٨٨٩م فقط(٦٥).

تبقى دراسة العينة الثالثة والأخيرة من علماء فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد ونستمدها من كتاب تراجم مفتي دمشق محمد خليل المرادي، وعنوانه: **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**(٦٦). وعلى غرار المؤلفين السابقين، يردف هذا المؤلف بكتاب تراجم إضافي اطلع عليه المرادي الذي كان السبب في تأليفه وهو **تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري** لحسن بن عبد اللطيف الحسيني الذي سبقت الإشارة إليه.

تتألف عيّنة القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد من واحد وستين عالماً من فلسطين وردت تراجم لسبعة عشر منهم في كتاب حسن بن عبد اللطيف الذي يضم ثمانياً وثلاثين ترجمة. ولا تضيف هذه التراجم أية معلومات ذات أهمية إلى تراجم المرادي الذي اطلع عليها. وبدراسة التراجم الإحدى والعشرين في كتاب حسن بن عبد اللطيف التي لم يرد ذكر لها في كتاب المرادي يتبين لنا أنها غير ذات أهمية. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل المرادي يستبعدها من كتابه. ويكتنف كثير من الغموض أسرة حسن بن عبد اللطيف وهوية أبيه وجده بين ما ذكره هو وما ذكره المرادي والجبرتي(٦٧). كما أن بضاعة حسن بن عبد اللطيف العلمية لم تكن متميزة، بدليل ما أقرّ به هو عن حق وليس عن مجرد تواضع أو أسلوب في الحديث حين قال: «والفقير قليل البضاعة قصير البراعة في هذه الصناعة»(٦٨). ولهذا ليس غريباً أن يعتمد المرادي سبع عشرة ترجمة فقط من تراجم حسن بن عبد اللطيف. وفي التراجم المتماثلة بين كتابي المرادي وابن عبد اللطيف نجد تراجم الأول أكثر دقّة وأقل إسرافاً في الكلام واستطراداً في الشعر من تراجم الثاني، كما جاء مثلاً في ترجمة «أبو الوفا القدسي»(٦٩). وفي بعض التراجم الأخرى نجد ابن عبد اللطيف يستطرد في ذكر أبناء المترجم ووظائفهم كأنها عدة تراجم في ترجمة واحدة، ويصحّ معها القول انها ترجمة أسرة بكاملها، في حين أن المرادي يذكر من اشتهر من أفراد الأسرة في تراجم خاصة كما جاء مثلاً في تراجم «أبو بكر العلمي» وأحمد العلمي، ومحمد بن عبد الرحيم اللُّطْفي (محمد بن أبي اللطف) والشيخ محمد الخليلي ومحمد التافلاتي ويحيى الدجاني(٧٠). وفي تراجم أخرى نجد حسن بن عبد اللطيف المقيم في القدس أقل كلاماً عن بعض علمائها من المرادي المقيم في دمشق، كما في ترجمتي خالد القدسي وعامر القدسي(٧١). وفي بعض التراجم يمكن أن يصحح الكتاب الواحد الكتاب الآخر كما في ترجمة عبد القادر الصوفي في **سلك الدرر** (ج ٣، ص ٦٢) التي ورد فيها بياض قبل نهايتها في حين أن نصّ الترجمة ذاتها عند ابن عبد اللطيف (ص ١٧٤) الذي يورده المرادي بكامله تقريباً لا يحتوي على هذا البياض.

ونظراً لما سبق، وانسجاماً مع العينتين السابقتين في اعتماد

الجدول رقم (٣ ـ ١٥)
التوزع الجغرافي لعلماء فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد

	القدس	نابلس	جنين	صفد	الخليل	الرملة	عكا	غزة	المجموع
العدد	٢٧	٢٥	١	١	٣	—	١	٣	٦١
النسبة	٤٤,٢٦ ٪	٤٠,٩٨ ٪	١,٦٤ ٪	١,٦٤ ٪	٤,٩٢ ٪	—	١,٦٤ ٪	٤,٩٢ ٪	١٠٠,٠٠

الجدول رقم (٣ ـ ١٦)
مذاهب علماء فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد

المدينة	الحنفي	الشافعي	الحنبلي	المالكي	غير معروف	المجموع
القدس	١٤	٥	—	١	٧	٢٧
نابلس	٧	٩	٦	—	٣	٢٥
جنين	١	—	—	—	—	١
صفد	—	—	—	—	١	١
الخليل	—	٣	—	—	—	٣
الرملة	—	—	—	—	—	—
عكا	١	—	—	—	—	١
غزّة	—	٣	—	—	—	٣
المجموع	٢٣	٢٠	٦	١	١١	٦١
النسبة	٣٧,٧٠ ٪	٣٢,٧٩ ٪	٩,٨٤ ٪	١,٦٤ ٪	١٨,٠٣ ٪	١٠٠,٠٠

كتب التراجم الدمشقية للتعريف بعلماء فلسطين الذين ثبتت شهرتهم في الخارج، فإننا نعتمد هنا أيضاً كتاب سلك الدرر للمرادي لتكون العينات الثلاث من منظور متماثل. وتضم عينة سلك الدرر واحداً وستين عالماً من فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد. ويتوزع هؤلاء العلماء جغرافيّاً على مدن فلسطين وفق الجدول رقم (٣ ـ ١٥).

نلاحظ في عينة الجدول رقم (٣ ـ ١٥) مشاركة جنين وعكا بعالم واحد لكل منهما في حين أنهما لم تبرزا في عينتي القرنين السابقين. وتتفوق القدس في عدد العلماء وتقترب نابلس منها مشكّلتين معاً حوالي ٨٥ ٪ من مجموع علماء فلسطين في ذلك القرن. ويعدّ تفوّق نابلس بالمقارنة مع العينة السابقة هاماً جداً في حين تتأخر صفد والرملة وغزة في أعداد علمائها. وبالرغم من تفوق القدس فإنّ نسبة تفوقها (٤٤,٢٦ ٪) تقل عن نسبة تفوقها في عينة القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد (٥٥,٢٢ ٪) وكذلك نسبة تفوقها في عيّنة القرن الذي سبقه (٥٠,٨٢ ٪). ويفسّر عدم تفوُّق القدس بعدد العلماء إلى أن المدن الأخرى وبخاصة نابلس ازدادت حصصها من العلماء، ربما لأنهم استقرّوا فيها.

ونلاحظ بالنسبة للمذاهب شبه استقرار في أعداد أتباعها سواء بالنسبة للمذهبين الرئيسيين أو المذهبين الأقل عدداً كما يبيّن ذلك الجدول رقم (٣ ـ ١٦).

يتبين من الجدول رقم (٣ ـ ١٦) أن هناك تقارباً في العدد بين مذهبي الحنفية والشافعية بمعنى أن الحنفية من العلماء استقرت أعدادهم ولم تشهد التزايد الذي شهدته في القرن السابق حين بدّل عدد من الشافعية مذهبهم ليصبحوا حنفية. فبعد مضي

الجدول رقم (٣ ــ ١٧)
فئات أعمار علماء فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد

المدينة	دون ٢٠	٢٠ ــ ٣٠	٣١ ــ ٤٠	٤١ ــ ٥٠	٥١ ــ ٦٠	٦١ ــ ٧٠	٧١ ــ ٨٠	فوق ٨٠	غير معروف	المجموع
القدس	ــ	ــ	ــ	١	٣	٣	٢	ــ	١٨	٢٧
نابلس	ــ	ــ	ــ	٥	ــ	١	٤	ــ	١٥	٢٥
جنين	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	١	١
صفد	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	١	١
الخليل	ــ	١	ــ	ــ	ــ	ــ	١	ــ	١	٣
الرملة	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ
عكا	ــ	ــ	ــ	ــ	١	ــ	ــ	ــ	ــ	١
غزة	ــ	ــ	ــ	١	ــ	١	ــ	ــ	١	٣
المجموع	ــ	١	ــ	٧	٤	٥	٧	ــ	٣٧	٦١

قرابة قرنين على بداية الحكم العثماني بدّل مذهبه من أراد تبديله، وأصبح الحكم العثماني مألوفاً وطرق الحصول على الـوظائف معروفة، وغدت الفئات الاجتماعية المنتظمة في السلك الإداري العثماني معروفة هي الأخرى لأن عدداً من الوظـائف أصبح متوارثاً في أسر معينة في القرن الثامن عشر وهو ما يؤكد تسرّب الأسر المحلية إلى الوظائف القضائية واحتكارها، خلافاً للقرنين السابقين. ولم يعد في الحكم العثماني الضعيف في القرن الثامن عشر ما يغري أصحاب المذاهب غير الحنفية على تغيير مذاهبهم للحصول على الوظائف. وقد انصرف هؤلاء العلماء إلى إثبات نفـوذهم العلمي من خلال مؤلفـاتهم وتقديـر الناس لعلمهم وتعلقهم بهم.

وبالنسبة لفئات أعمار العلماء في هذه العينة نشاهد اتجاهاً نحو تدنّي أعمار العلماء، خلافاً للعينتين السابقتين، كما يظهر ذلك الجدول رقم (٣ ــ ١٧).

يلاحظ في الجدول رقم (٣ ــ ١٧) أن فئات الأعمار تتوزع وفق النسب التالية: الثلث دون الخمسين من العمر والثلثان فوق الخمسين. وتدني الأعمار هذا بين العلماء جزء من ظاهرة عامة في القرن الثامن عشر نتجت عن تفشي الطواعين على فتـرات، وبخاصة في السنة التي أعقبت حدوث الزلازل المدمرة في عام ١٧٥٩م[٧٢]، وخلّفت هذه الزلازل آلاف القتلى في فلسطين ودُمّر كثير من المدن فيها. وقد وصف الطاعون الذي ألمّ ببلاد الشام في عام ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م بأنه «شيء ما سمع به من عهد طاعون عمواس»[٧٣]. وغدا تدنّي وسطي العمر أمراً ملحوظاً في ذلك القرن كما تدل أعداد التراجم في بلاد الشام بعامة الذين «طُعن» أصحابها، وكذلك سجلات تركات المتوفين (المخلفات) في محكمة القسام المدني الشرعية (وهي التي تنظر في تقسيم التركات بين الوارثين وتعنى بقضايا القاصرين)[٧٤].

وبالمقارنة مع عينة القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد نجد أن نسبة المتوفين آنذاك بين علماء فلسطين ممن هم تحت سن الخمسين بلغت ٧,١٤ ٪ وفوق سن الخمسين بلغت ٩٢,٨٦ ٪. كما أن نسبة من توفي فوق سن الثمانين في تلك العينة بلغت ٢٨,٥٧ ٪ في حين أن تراجم علماء القدس في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد لم تورد اسم أيّ عالم توفي فوق سن الثمانين.

ونلاحظ في عينة علماء فلسـطين في القرن الثـاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد استمراراً في تحرّك العلماء نحو السفر إلى الخارج للاستزادة من العلم مما يدل على رسوخ تقاليد الدراسة في الخارج كما يبين الجدول رقم (٣ ــ ١٨).

ونستدل من الجدول رقم (٣ ــ ١٨) على أن القاهرة بقيت تستقطب معظم علماء فلسطين الذين أغرتهم الدراسة في جامعها الأزهر. وتتفوق القاهرة بذلك على دمشق وبلاد الروم (استانبول)

الجدول رقم (٣ ـ ١٨)

أماكن الدراسة في الخارج لعلماء فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد

مدينة العالم	الدراسة في القاهرة	الدراسة في دمشق	الدراسة في الروم	المجموع
القدس	٦	٤	٨	١٨
نابلس	٧	٥	–	١٢
جنين	١	–	–	١
صفد	–	–	–	–
الخليل	٢	–	–	٢
الرملة	–	–	–	–
عكا	–	–	–	–
غزة	٢	–	–	٢
المجموع	١٨	٩	٨	٣٥

مجتمعتين. ومع ذلك فإن أعداد المسافرين إلى الخارج في هذه العينة تقل بحوالي الثلث عن أعداد العلماء المسافرين في عينة القرن السابع عشر. وأثّر هذا التدنّي في الأعداد على نسبة المسافرين إلى القاهرة فانحدرت من ٧٠٪ في العينة السابقة إلى ٥١,٤٣٪ في العينة الحالية. وربما يفسّر هذا التناقص في السفر إلى القاهرة إلى جانب التناقص عموماً في أعداد العلماء المسافرين إلى الخارج، بالاضطرابات التي عمّت منطقة فلسطين في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر في أعقاب هجوم القوات المملوكية التي قام بها كل من علي بك في ١٧٧٠م ومحمد بك أبي الذهب في ١٧٧٥م، وتهديد المواصلات البحرية من قبل الأساطيل الأوروبية، ثم السياسة التعسفية لأحمد باشا الجزّار في فلسطين، وفي نهاية القرن قيام نابليون بونابرت بحملته على مصر وبلاد الشام وما ترتب على ذلك من أزمات اقتصادية أيضاً.

وتزداد بالمقابل نسب رحلات علماء فلسطين إلى دمشق والروم في القرن الثامن عشر بمعدلات (٢٥,٧٠٪ و ٢٢,٨٦٪ على التتالي) تفوق معدلات عينة القرن السابع عشر (١٤٪ و ١٦٪). وبالرغم من السفر إلى الروم لم يذكر المرادي أن أياً من علماء فلسطين تمّ تعلّم أو كتب باللغة التركية. فاللغة العربية هي جواز السفر المعتمد باستمرار للاندماج في مراكز العلم الإسلامية.

وترتبط بظاهرة السفر إلى الخارج للدراسة ظاهرة توطّن علماء فلسطين في الخارج. ويشير الجدول رقم (٣ ـ ١٩) إلى ذلك:

الجدول رقم (٣ ـ ١٩)

أماكن إقامة علماء فلسطين في الخارج كنزلاء أو متوطّنين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد

مدينة العالم	القاهرة	دمشق	الحجاز	الروم	بغداد	اليمن	المجموع
القدس	١	١	–	٣	١	–	٦
نابلس	١	–	–	–	–	–	١
جنين	١	–	–	–	–	–	١
صفد	–	–	–	–	–	–	–
الخليل	–	–	–	–	–	–	–
الرملة	–	–	–	–	–	–	–
عكا	–	–	–	–	–	–	–
غزّة	٢	–	١	–	١	١	٥
المجموع	٥	١	١	٣	٢	١	١٣

يلاحظ في الجدول رقم (٣ ـ ١٩) انخفاض أعداد العلماء النزلاء أو المتوطنين خارج فلسطين بالمقارنة مع العينة السابقة. وبالرغم من أن هذا الانخفاض يرافقه انخفاض آخر في أعداد علماء فلسطين الدارسين في الخارج فإنَّ النسبة الآن أدنى من السابق. ويلفت النظر أيضاً أن دمشق التي كانت في طليعة المدن التي استقطبت علماء فلسطين في العينة السابقة، خسرت مركزها المتميز هذا لصالح القاهرة في العينة الحالية. ويبدو أن الشهرة التي بلغها مفتي الرملة الشيخ خير الدين في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، بعد أن أخذ العلم عن كبار الشيوخ في الأزهر منذ صغره قد شجعت علماء فلسطين من بعده على الاتجاه إلى القاهرة أكثر من غيرها. كما أن شهرته في الإفتاء التي طبقت آفاق العالم الإسلامي كانت خير تعريف بعلماء فلسطين ومشجعة لهم على السفر إلى أكبر مراكز العلوم الإسلامية وقبولهم فيها. وربما كان أيضاً للاضطرابات السياسية التي شهدتها دمشق في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي والتي فاقت

بعضهم إلى استانبول. ويبرز بين علماء فلسطين في نشر علومهم في الخارج مصطفى الصديقي البكري الذي أكثر من الأسفار والإقامة في عدد من الحواضر الإسلامية بهدف نشر الطريقة الخلوتية التي بويع شيخاً لها. وهذا الامتداد في نشاطات علماء فلسطين لا يوازيه ازدياد في أعداد العلماء الذين أدّوا فريضة الحج، إذ ذكر المرادي خمسة علماء فقط أدّوا هذه الفريضة.

وقد تنوعت التخصصات العلمية التي مارسها علماء فلسطين في القرن الثامن عشر كما يبين ذلك الجدول رقم (٣ ـ ٢٠).

يلاحظ في الجدول رقم (٣ ـ ٢٠) أن القدس استقطبت كعادتها العدد الأكبر من الموظفين الدينيين الكبار الذين اختيروا من بين علمائها. وتلي القدس في ذلك نابلس التي تتفوق على صفد في هذه الناحية بالقياس مع عينة القرن السابق حيث جاءت صفد بعد القدس بالنسبة لأعداد الوظائف التي شغلها علماؤها. وينسجم هذا الدور المتطور لنابلس مع تزايد عدد العلماء فيها بالنسبة لصفد أيضاً كما سبقت الإشارة في جدول التوزع الجغرافي

الجدول رقم (٣ ـ ٢٠)

الوظائف التي شغلها علماء فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد

المدينة	مُفتٍ	قاضٍ	مدرّس	نقيب أشراف	إمام	خطيب	شيخ الحرم	المجموع
القدس	١٠	٢	٥	١	٤	٥	٢	٢٩
نابلس	٨	ـ	٤	٣	ـ	١	ـ	١٦
جنين	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
صفد	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
الخليل	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
الرملة	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
عكا	١	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١
غزة	٢	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢
المجموع	٢١	٢	٩	٤	٤	٦	٢	٤٨

بكثير ما حدث في القاهرة آنذاك على أيدي المماليك والقوى العسكرية كان لها أثرها في تحول علماء فلسطين عن الإقامة في دمشق مفضلين القاهرة. ولكن علماء فلسطين أقاموا الآن في غير المناطق المألوفة إذ وصلوا إلى اليمن وبغداد كما ازدادت أعدادهم في الروم عن ذي قبل. وفي هذا دليل على طموح علماء فلسطين في التوجه إلى العواصم الإسلامية، السابقة واللاحقة، لتبيان علومهم أو للحصول على المناصب الدينية العليا كما في سفر

للعلماء في هذه العينة. أما ضآلة العلماء الكبار الذين يشغلون مثل هذه الوظائف، المتميزة، أو انعدامهم في المدن الأخرى فمردّ ذلك، كما يبدو، إلى انصراف القلّة من هؤلاء العلماء إلى التصوف وطرقه التي أخذت تغزو فلسطين في هذا القرن. وطبيعي أنه لا بدّ من أناس في هذه المدن يشغلون تلك الوظائف ولكن يبدو أنّ الشاغلين لها لم يرقوا، بمقياس المرادي، إلى مستوى الأعيان من العلماء الذين قصر عليهم سلك درره.

ويلفت النظر في الجدول رقم (٣ ــ ٢٠) أن المفتين، شأنهم في كل عينة، هم الأكثر عدداً. ويبقى المذهبان السائدان وهما الحنفي والشافعي (وبالنسبة لنابلس الحنبلي أيضاً)، يستقطبان العدد الأكبر من المفتين. وكثرة أعداد هؤلاء تأكيد على الحرص في تطبيق الشريعة في مختلف الميادين وضمانة كذلك ضد جهل أي من القضاة أو تعسفهم. وتتناقص أعداد المدرّسين في العينة في الجدول رقم (٣ ــ ٢٠) عن سابقتها، مما يدل على أن التدريس لم يعد يمارسه أعيان العلماء، أو أنه ليس الأكثر مدعاة للاهتمام بين صفوفهم. والمدارس التي ترد أسماؤها في القدس بمناسبة التدريس فيها هي، إلى جانب الصلاحية المشهورة، الأفضلية والعنانية والمأمونية والملكية والحسنية والفنارية (الفِنرية) وهو ما يدل على أن هذه المدارس كانت في وضع جيد آنذاك يسمح لها بالعمل.

ويزداد انتشار التصوف بين علماء القدس في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد وتصبح له طرقه الخاصة أكثر من ذي قبل. ويوضح الجدول رقم (٣ ــ ٢١) الأماكن التي انتشر فيها التصوف وأعداد العلماء الذين تبنّوه والطرق التي سادت بينهم في هذه الحقبة:

الجدول رقم (٣ ــ ٢١)

الصوفيون وأصحاب الطرق بين علماء فلسطين في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد

	القدس	نابلس	الخليل	غزة	المجموع
صوفيون	٦	ــ	ــ	ــ	٦
شاذلية	١	٤	ــ	ــ	٥
خلوتية	١	٣	ــ	٢	٦
قادرية	ــ	ــ	١	ــ	١
المجموع	٨	٧	١	٢	١٨

بالمقارنة مع عينة القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد حين بلغت أعداد الصوفيين بين علماء فلسطين ثلاثة عشر (عشرة في القدس وواحد في كل من نابلس وصفد والرملة)، نلاحظ ازدياد أعدادهم الآن، والأهم من ذلك توزع غالبهم على طريقتين رئيسيتين هما الشاذلية والخلوتية، في حين أن عالماً واحداً فقط ذكر في العينة السابقة على أنه ينتمي إلى الطريقة الرفاعية. أما غير المنضمين إلى الطرق فهم صوفيون على الطريقة التقليدية بوجه العموم، يشار إلى واحدهم بالزاهد المرشد. وتبرز نابلس في الجدول رقم (٣ ــ ٢١) موازية للقدس تقريباً في أعداد صوفييها عموماً. ومما يلاحظ في تراجم الصوفيين من العلماء أنها لا تذكر لهم، في الغالب، وظائف دينية يقومون بها، أي أنهم منقطعون إلى قضايا التصوف وما يرتبط بها من مقابلة الأتباع وممارسة طقوس التصوف والتبشير بالطريقة ونشرها.

وقد تخصص في نشر الشاذلية والخلوتية بين علماء القدس اثنان: أولهما محمد بن أحمد المزطاري المغربي المكناسي الشاذلي المالكي الذي قدم دمشق في غرة جمادى الأولى ١٠٩٦هـ / ٥ نيسان/ابريل ١٦٨٥م وأخذ ينشر طريقته في فلسطين[٧٥] وبلاد الشام. «ومن ذلك الوقت اشتهرت الطريقة الشاذلية بدمشق وكثر أتباعها والآخذون بها» كما يقول المرادي[٧٦]. وثانيهما مصطفى الصديقي البكري الذي نشر الطريقة الخلوتية في بلاد الشام. ويذكر المرادي كيف «انتشرت طريقته وخفقت في الإقليم الشامي ألويته»، وكيف «نزل خلوة في المسجد الأقصى وأقام هناك في إقامة الطريق والاذكار ونشر العلم»[٧٧] حتى انه استغل موسم الحج لنشر طريقته. ويذكر المرادي أن يوسف الغزي الشهير بالمغربي «أخذ عهد الخلوتية بمكة المشرفة عن الأستاذ السيد مصطفى البكري»[٧٨].

وفي البحث عن عالِم متميز نختاره كنموذج لعلماء فلسطين في القرن الثامن عشر يحار المرء أي مقياس يعتمد، وما هو تعريف التميز أو الشهرة آنذاك. ففي القرن السابق كان هناك إجماع لا يقاوم على شهرة الشيخ خير الدين الرملي. أما في العينة الحالية فيمكن اختيار محمد السفاريني كمثال للعالم المتنوع التخصص، البارع في العلوم الدينية والأدبية، ومصطفى الصديقي البكري كعالم متميز برز في نشر الطريقة الخلوتية وتأليف الرحلات وغيرها من العلوم. الأول ريفي مغمور ولكنه فلسطيني صميم والثاني مدني مشهور ولكنه متعدد الانتماءات وفلسطيني بحكم الزواج والإقامة ارتبط اسمه بفلسطين واشتهر فيها وبها، وكلاهما يعكسان صورة شبه متكاملة لعلماء فلسطين في القرن الثامن عشر.

محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الشهرة والمولد النابلسي الحنبلي (١١١٤ ــ ٨ شوال ١١٨٨هـ / ١٧٠٢ ــ ١٧٠٣ ــ ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٧٧٤م)[٧٩] ولد بقرية سفارين من قرى نابلس ونشأ وتثقف بها ثم رحل إلى دمشق لطلب العلم فأخذ عن خيرة الأساتذة فيها مثل الشيخ عبد الغني النابلسي وشيخ الإسلام الشمسي (شمس الدين) محمد الغزي والشهاب (شهاب الدين) أحمد المنيني وغيرهم. ويعلّق المرادي على سرعة تعلّم السفاريني بقوله: «حصل في الزمن اليسير ما لم يحصله غيره في الزمن

الكثير». ثم عاد إلى نابلس وتوطّن فيها «ودرّس وأفتى وأفاد وألّف تآليف عديدة». ويعدد المرادي مؤلفاته الكثيرة في الحديث والفقه والأدب ومعرفته بالتاريخ والشعر. ويخص فتاواه بالوصف التالي «وأما الفتاوى التي كتب عليها الكراس والأقل والأكثر فكثيرة ولو جمعت لبلغت مجلدات». وإلى جانب العلم تميز السفاريني بمستوى خلقي عالٍ أعجب به المرادي إذ قال: «إذا رأى منكراً أخذته رعدة وعلا صوته من شدة الحدة وإذا سكن غيظه وبرد قيظه يقطر رقة ولطافة وحلاوة وظرافة».

أما مصطفى بن كمال الدين الصديقي الحنفي البكري (ذو القعدة ١٠٩٩ ــ ١٨ ربيع الثاني ١١٦٢هـ / آب/اغسطس ــ أيلول/سبتمبر ١٦٨٨ ــ ٧ نيسان/ابريل ١٧٤٩م)[٨٠]، فهو موزع بين دمشق حيث ولد وعاش يتيم الأب، واشتهر واتخذ المدرسة الباذرائية سكناً والخلوتية طريقة، وإليها وحدها ينسبه المرادي، وفلسطين حيث تزوج واتخذ فيها بيت المقدس بلداً له وعاش معظم سني حياته وطغت شهرته، والقاهرة حيث درس ودرّس ودفن. وكأن حسن بن عبد اللطيف صاحب تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر والذي يقول عن الصديقي «سيدي وأستاذي وملاذي» قد حرص أن يقرن الصديقي بفلسطين دون غيرها فأغفل ذكر مكان ولادته في ترجمته واكتفى بالقول: «قدم للبيت المقدس ولم ينبت الله عذاره. . . وجعل المسجد داره ثم سافر إلى الشام ثم رجع وتزوج ببيت المقدس وسكن بها في بيت بجوار المسجد الشريف. . .»[٨١].

يذكر المرادي الأساتذة الذين أخذ الصديقي عنهم في دمشق وبينهم عدد ممن درس السفاريني عليهم، ويقول إن الخلوتيين في دمشق بايعوا الصديقي خلفاً لشيخه عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي المتوفى. وكانت أوّل زيارة للصديقي إلى بيت المقدس في ١٩ محرم ١١٢٢هـ / ٢٠ آذار/مارس ١٧١٠م حين كان في الثانية والعشرين من عمره. وقد وصف الصديقي زيارته هذه في رحلته: الخمرة الحسية في الرحلة القدسية التي سبق الحديث عنها[٨٢]. ويلاحظ في حياة الصديقي وتنقلاته الكثيرة أن نقطة التحول فيها من حيث الانتماء الجغرافي هي عام ١٧١٨ حين سافر إلى القدس وتزوج فيها وجعلها موطناً له. واستمرت دمشق مقراً مؤقتاً له لم تتعد إقامته فيها حجرة في مدرسة الباذرائية بالرغم من وجود أمّه فيها. وإذا اعتبرنا فترة ما قبل زواجه بالمرحلة الدمشقية من حياته فتكون مدتها ثلاثين سنة، وتمتد المرحلة المقدسية من حياته حوالي إحدى وثلاثين سنة أخرى.

ويطرح تنقّل الصديقي باستمرار وعدم امتلاكه الأطيان على غرار خير الدين الرملي قضية موارده المالية. ويدهش المرادي بالنسبة لأحوال الصديقي المالية فيقول: «وكان مصرفه مثل مصرف أكبر من يكون من أرباب الثروة وأهل الدنيا ولم تكن له جهة تعلَم يدخل منها ما يفي بأدنى مصرف من مصارفه ولكن بيده مفتاح التوكل لكنز هذا عطاؤنا هذا»[٨٣]. ولا شك أن أتباع الصديقي من الخلوتيّين ومعتقديه من أهل الدين وإقامته في المدارس التي ترصد لها الأوقاف ومدخوله من وظائفه الدينية كالتدريس التي تموّل هي الأخرى من الأوقاف كانت تؤمّن له نفقات معيشته وأسفاره. وينطبق هذا على كبار العلماء كالنابلسي والسفاريني وغيرهما.

أما تقويم إنتاج الصديقي وفكره فلا يتأتّى إلّا بدراسة معمقة لثقافة عصره وإسناد العلوم المختلفة التي سادتها إلى الفئات الاجتماعية التي تبنتها والأوضاع الاقتصادية والسياسية السائدة التي جعلت الطرق الصوفية كالخلوتية والنقشبندية وغيرهما تنتشر ذلك الانتشار السريع في القرن الثامن عشر، وعندئذ يمكن معرفة موقع الصديقي من تلك الثقافة وبين الفئات الاجتماعية التي تتبنى جانباً منها أو آخر. ومما تجدر ملاحظته ذلك الامتداد العربي الواسع بل العثماني، في القبول الذي لاقته دعوة الصديقي إلى الخلوتية، ودعوة غيره من أصحاب الطرق بين جماهير الشعب والعلماء على حد سواء، مما أثار حركات احتجاج عربية الامتداد أيضاً بدأت في القرن الثامن عشر بالدعوة إلى العودة بالإسلام إلى صفائه الأوّل كما كان في عهد السلف الصالح بعهدة العرب وفي مهدهم في الجزيرة العربية، والتخلي عن التطرف الصوفي. وظهرت أصداء ذلك في دمشق في القرن التالي بدعوة كبار علمائها إلى اعتماد السلفية للنهوض بالعالم الإسلامي.

وتتضح الخطوط العامة للمميزات والمتغيرات الثقافية في فلسطين في القرون الثلاثة الأولى من العصر الحديث التي سبقت دراستها بإجراء دراسة مقارنة بين العينات الثلاث التي سبق استعراضها. ففي مجال التوزيع الجغرافي للعلماء بين القرنين السادس عشر والثامن عشر نلاحظ في الجدول رقم (٣ ــ ٢٢) بعض المتغيرات.

إن أول ما يلفت النظر في العينات الثلاث تقارب أعداد علماء فلسطين المعترف بهم في الخارج بين أعيان المسلمين. وهذا يعني استمرارية الحياة العلمية في فلسطين بعامة بشكل متوازن طيلة القرون الثلاثة. ويؤكد ذلك، من ناحية أخرى، المحافظة على مستوى متميز من العلم بشكل استحق معه هؤلاء العلماء أن يبرزوا في عداد أعيان علماء المسلمين آنذاك. وتتضح أهمية

الجدول رقم (٣ ــ ٢٢)
التوزع الجغرافي لعلماء فلسطين في ثلاثة قرون

العينة	القدس	نابلس	جنين	صفد	الخليل	الرملة	عكا	غزة	المجموع
القرن ١٠هـ / ١٦م	٣١	٥	–	١٢	٦	٤	–	٣	٦١
القرن ١١هـ / ١٧م	٣٧	٦	–	٨	٢	٥	–	٩	٦٧
القرن ١٢هـ / ١٨م	٢٧	٢٥	١	١	٣	–	١	٣	٦١

المحافظة على نسبة متقاربة من العلماء في فلسطين وعلى مستوى متميز لهم من قرن إلى آخر بدراسة أعداد أعيان العلماء في مناطق أخرى من بلاد الشام أو المشرق العربي في القرون ذاتها ومقارنة ذلك بوضع العلماء في فلسطين.

وإذا ما انتقلنا إلى دراسة توزع علماء فلسطين بين مدنها في القرون الثلاثة نلاحظ تقارب نسبة العلماء في بعضها وتغيرات كبيرة في بعضها الآخر. فنسبة العلماء في القدس مثلاً متقاربة في القرون الثلاثة مما يدل على استمرار القدس كمركز ديني متميز وفعال يساهم في أنشطتها الثقافية أبناؤها من العلماء ومَن تستقطبهم من علماء المدن الأخرى في فلسطين، وكذلك من خارجها من الذين يتوطّنونها ويشاركون في حياتها العلمية. والتبدل الذي يلفت الانتباه هو زيادة عدد علماء نابلس في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد بأكثر من أربعة أضعاف عددهم في كل من القرنين السابقين. ويدل هذا على انفتاح النابلسيين أكثر من ذي قبل على العلم والتعلم لأن ازدياد أعداد العلماء يفترض ازدياد أعداد المتعلمين في حلقاتهم وما يرتبط بذلك من محافظة على المساجد ودور العلم واستمرار رفدها بأموال الأوقاف. وسنلاحظ في جدول أماكن دراسة العلماء في الخارج بروز علماء نابلس في أخذ العلم خارج فلسطين في القرن الثامن عشر بنسبة تفوق نسبتهم في القرنين السابقين وهو ما يدل على ازدياد مشاركة علماء نابلس في هذا الميدان واشتهارهم بالتالي في الخارج بحيث ارتفعوا إلى مصاف أعيان العلماء في كتب التراجم.

ويلفت النظر في الجدول رقم (٣ ــ ٢٢) تدنّي أعداد علماء صفد في عينتي القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبخاصة في القرن الأخير، عما كانت عليه في القرن السادس عشر مما يدل على أن عدد علماء صفد المعترف بهم في الخارج على مستوى أعيان العلماء أخذ بالتضاؤل. وربما كان السبب في ذلك انعدام الأمن في صفد ومنطقتها في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبخاصة فقدان صفد لأهميتها في عهد ظاهر العمر الذي نقل مركز الثقل في إمارته من منطقة صفد ــ طبرية إلى عكا. وتبقى أعداد العلماء في الخليل والرملة وغزة شبه متقاربة، وإن كان يلفت النظر ازدياد علماء غزة المشهورين في القرن السابع عشر، ولا غرابة في ذلك

الجدول رقم (٣ ــ ٢٣)
مذاهب علماء فلسطين في العينات الثلاث

العينة	الحنفي		الشافعي		الحنبلي		المالكي		المجموع
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
القرن ١٠هـ/١٦م	٣	٦,٣٨ ٪	٤٠	٨٥,١١ ٪	٣	٦,٣٨ ٪	١	٢,١٣ ٪	٤٧
القرن ١١هـ/١٧م	٢٤	٥٣,٣٣ ٪	١٧	٣٧,٧٨ ٪	٤	٨,٨٩ ٪	–	–	٤٥
القرن ١٢هـ/١٨م	٢٣	٤٦,٠٠ ٪	٢٠	٤٠,٠٠ ٪	٦	١٢,٠٠ ٪	١	٢,٠٠ ٪	٥٠
المجموع والنسبة	٥٠	٣٥,٢١ ٪	٧٧	٥٤,٢٣ ٪	١٣	٩,١٥ ٪	٢	١,٤١ ٪	١٤٢

نظراً لعمق التقاليد العلمية في غزة بدلالة الأعداد الكبيرة للجوامع والزوايا، الخربة منها والقائمة فيها[٨٤]. كما أن وقوع غزة على الطريق الدولية بين القاهرة ودمشق ومرور العلماء بين البلدين فيها لا بد أنه نشّط الحياة العلمية فيها ضمن إمكاناتها البشرية. ويلاحظ كذلك عدم اشتهار أي من علماء الرملة في القرن الثامن عشر وكأن شخصية خيرالدين الرملي التي فاقت ما عداها من علماء فلسطين في القرن السابع عشر قد غطّت على جميع علماء الرملة في القرن التالي وجعلتهم يعيشون في ظلها.

ويتوزع علماء فلسطين بين ثلاثة مذاهب رئيسية: الشافعي والحنفي والحنبلي. وقد حدث تبدل في نسب العلماء المنتمين إلى هذه المذاهب بين قرن وآخر كما يبين ذلك الجدول رقم (٣ ـ ٢٣).

يرتبط بتوزيع العلماء حسب المذاهب نوعية العلوم التي يتخصّصون فيها أو يدرسونها وكذلك أعداد المدارس المختصة كـل بالمذهب الذي بنيت على أساسه وأوقفت عليها الأوقاف تبعاً لذلك. ولهذا فكثرة أتباع مذهب ما تتلاءم مع أعداد المدارس المرتبطة بذلك المذهب وبالتالي مع أعداد الطلاب الذين يرتادونها ونوعية العلوم التي تقدم لهم. كما أن ذلك يرتبط بالعلاقة بين السلطة والمذهب. فالسلطة المملوكية لم تتبنَّ رسمياً مذهباً معيناً دون المذاهب الأخرى، وبقي المذهب الشافعي هـو السائـد نظراً لانتشاره في بلاد الشام ومصر من قبل. وحين اعتمد العثمانيون المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة يعتمدونه بالدرجة الأولى ويكيّفون تشريعهم بالنسبة له حدث تخلخـل في العلاقـة بين السلطة وأتباع المذاهب الأخرى لأنّ المناصب العليا المعتمدة في القضاء وفي الإفتاء قُصِرَت على أتباع المذهب الحنفي.

ويلاحظ في الجدول رقم (٣ ـ ٢٣) أن العلماء الشافعية كـانوا الأكثرية في القـرن العاشـر للهجرة / السـادس عشـر للميلاد بين علماء فلسطين ثم بدأ التحول في القرنين التاليين لصالح المذهب الحنفي نظراً لاعتماد الدولة العثمانية له ولرغبة بعض العلماء في إشغال الوظائف الدينية الرسمية في الدولة. وبالرغم من كل ذلك يبقى للمذهب الشافعي في المجموع العام الأكثرية ولكن بحدود ضيقة. وبالنسبة للمذهب الحنبلي يبقى أقلية منحصرة في الغالب في منطقة نابلس. ونظراً لهذا الانحصار والقلة في العدد لم يتعرّض أتباع هذا المذهب إلى تناقص أو تزايد أو انتشار يلفت النظر. كما أن المالكية قلة محلية، ويشكل المغاربة في الغالب عمادهم. وسيزدادون إلى درجة كبيرة في القرن التاسع عشر بسبب هجرات المغاربة إلى بلاد الشام بأعداد كبيرة في أعقاب احتلال فرنسا لبلدان المغرب والقضاء على ثورات أهلها.

وباستعراض فئات أعمار علماء فلسطين بعامة في العينات الثلاث تتضح الإحصاءات المبيّنة في الجدول رقم (٣ ـ ٢٤).

نلاحظ في الجدول رقم (٣ ـ ٢٤) أمرين هامّين: أولهما أن أعداد العلماء الذين توفوا دون سن الخمسين ازدادت في عينة القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد، ومن المحتمل أن يكون ذلك بسبب الطاعون والزلازل التي حدثت، وتدني وسطي العمر بين الناس بعامة، وثانيهما أن اشتهار حوالي ١٧ ٪ فقط من مجموع العلماء قبل بلوغهم سن الخمسين يدل على ما يقتضيه العلم والاشتهار فيه من جهد عبر سنين طويلة. ويتأكد هذا بارتفاع نسبة العلماء الذين يشتهرون فوق سن الخمسين. وتشكل فئة الأعمار المتوسطة بين سن ٥٠ ـ ٧٠ الغالبية بين العلماء، وهذا أمر له دلالته بالنسبة للإنتاج العلمي ولعملية التدريس وحتى التعليم بين العلماء.

الجدول رقم (٣ ـ ٢٤)
جدول فئات أعمار علماء فلسطين في العينات الثلاث

العينة	حتى سن ٥٠		٥٠ ـ ٧٠		ما فوق ٧٠		المجموع
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
القرن ١٠هـ / ١٦م	١	٪ ٥,٠٠	٩	٪ ٤٥,٠٠	١٠	٪ ٥٠,٠٠	٢٠
القرن ١١هـ / ١٧م	١	٪ ٧,١٤	٧	٪ ٥٠,٠٠	٦	٪ ٤٢,٨٦	١٤
القرن ١٢هـ / ١٨م	٨	٪ ٣٣,٣٣	٩	٪ ٣٧,٥٠	٧	٪ ٢٩,١٧	٢٤
المجموع	١٠	٪ ١٧,٢٤	٢٥	٪ ٤٣,١٠	٢٣	٪ ٣٩,٦٦	٥٨

الجدول رقم (٣ ـ ٢٥)
جدول أماكن دراسة علماء فلسطين في الخارج في العينات الثلاث

العينة	القاهرة		دمشق		الروم		المجموع
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
القرن ١٠هـ / ١٦م	٨	٤٤,٤٤ ٪	١٠	٥٥,٥٦ ٪	ـ	ـ	١٨
القرن ١١هـ / ١٧م	٣٥	٧٠,٠٠ ٪	٧	١٤,٠٠ ٪	٨	١٦,٠٠ ٪	٥٠
القرن ١٢هـ / ١٨م	١٨	٥١,٤٣ ٪	٩	٢٥,٧١ ٪	٨	٢٢,٨٦ ٪	٣٥
المجموع	٦١	٥٩,٢٢ ٪	٢٦	٢٥,٢٤ ٪	١٦	١٥,٥٤ ٪	١٠٣

ويحدث تبدّل في العينات الثلاث عدد العلماء الفلسطينيين وتوزعهم حسب الأماكن التي يتجهون إليها للدراسة في الخارج كما يبين ذلك الجدول رقم (٣ ـ ٢٥).

يلاحظ في العينة الأولى أنّ دمشق اجتذبت علماء فلسطين للدراسة فيها أكثر من القاهرة. ثم تحولت النسبة بشكل كبير لصالح القاهرة في العينتين الثانية والثالثة. وتضاءل دور دمشق في اجتذاب طلاب العلم من فلسطين للدراسة فيها بسبب اجتذاب الروم بعضهم إليها. ولا شك أن الأولوية التي تتمتع بها القاهرة في اجتذاب العلماء للدراسة فيها نابعة بالدرجة الأولى من اشتهار الأزهر فيها، ويرتبط ذلك أيضاً بطموح المتعلمين في فلسطين بأخذ العلم من مظانّه ويأملهم بالاشتهار فيها على مستوى العالم الإسلامي ان حالفهم الحظ في الشهرة. ويلفت الانتباه أن عاصمة الدولة، استانبول، لم تتمكن من منافسة مراكز العلم العربية في اجتذاب الطلاب إليها.

ويرتبط بأماكن الدراسة هذه، الأماكن التي أقام فيها علماء فلسطين كنزلاء أومتوطنين. والتبدلات التي حدثت في ترتيب هذه الأماكن عبر ثلاثة قرون نتبيّنها في الجدول رقم (٣ ـ ٢٦).

إن دور القاهرة المتميز في اجتذاب طلبة العلم من فلسطين إليها يتضاءل لصالح دمشق التي تتفوق في اجتذاب علماء فلسطين للإقامة فيها كنزلاء أومتوطنين. ولا شك أن كثرة العلماء في القاهرة تجعل مجال الشهرة لغير أبنائها ضئيلاً إلا بالنسبة للمتميزين منهم الذين يثبتون علمهم ووجودهم فيها. ولأنّ دمشق أقرب من القاهرة، ولأن دمشق أقلّ ازدحاماً بالعلماء، كان مجال الشهرة فيها أكبر، لذلك اتجه إليها علماء فلسطين. وهناك أيضاً الروابط الكثيرة التي تربط بين دمشق والمدن الشامية الأخرى. وبالرغم من اختلاف نسب علماء فلسطين المقيمين في دمشق من قرن إلى آخر فإنهم في الحصيلة النهائية يفوقون بأعدادهم المقيمين

الجدول رقم (٣ ـ ٢٦)
أماكن إقامة علماء فلسطين في الخارج في العينات الثلاث

العينة	القاهرة		دمشق		الحجاز		الروم		المجموع
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
القرن ١٠هـ / ١٦م	٢	٧,١٤ ٪	٢٤	٨٥,٧٢ ٪	٢	٧,١٤ ٪	ـ	ـ	٢٨
القرن ١١هـ / ١٧م	٣	١٥,٠٠ ٪	١٣	٦٥,٠٠ ٪	٣	١٥,٠٠ ٪	١	٥,٠٠ ٪	٢٠
القرن ١٢هـ / ١٨م	٥	٥٠,٠٠ ٪	١	١٠,٠٠ ٪	١	١٠,٠٠ ٪	٣	٣٠,٠٠ ٪	١٠
المجموع	١٠	١٧,٢٤ ٪	٣٨	٦٥,٥٢ ٪	٦	١٠,٣٤ ٪	٤	٦,٩٠ ٪	٥٨

الجدول رقم (٣ ــ ٢٧)

الوظائف التي شغلها علماء فلسطين في العينات الثلاث

العينة	مُفتٍ		قاضٍ		مدرّس		قائم بخدمات المصلين		المجموع
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
القرن ١٠هـ / ١٦م	٩	٪ ٢٣,٦٩	٧	٪ ١٨,٤٢	٨	٪ ٢١,٠٥	١٤	٪ ٣٦,٨٤	٣٨
القرن ١١هـ / ١٧م	٢٥	٪ ٣٧,٣١	٧	٪ ١٠,٤٥	٢٥	٪ ٣٧,٣١	١٠	٪ ١٤,٩٣	٦٧
القرن ١٢هـ / ١٨م	٢١	٪ ٤٧,٧٣	٢	٪ ٤,٥٥	٩	٪ ٢٠,٤٥	١٢	٪ ٢٧,٢٧	٤٤
المجموع	٥٥	٪ ٣٦,٩١	١٦	٪ ١٠,٧٤	٤٢	٪ ٢٨,١٩	٣٦	٪ ٢٤,١٦	١٤٩

منهم في أي بلد آخر. وتبرز الحجاز في التوطن أكثر منها في الدراسة بسبب أهمية المجاورة فيهـا. أما الـروم فلم تبرز في مجال التوطن كما لم تبرز في مجال الدراسة فيها بـالنسبة لعلماء فلسطين ربما بسبب حاجز اللغة والبعد وانعدام التراث العربي الإسلامي فيها. ومن خلال كتب التراجم يتبين أن عدداً من علماء دمشق، فـاق أولئك من فلسـطين، قصـدوا الـروم للتـوسط لدى السلطة أو للحصول على المناصب أو للدراسة في مدارسها التي توصل إلى هذه المناصب. ويفسّر ذلك بأنّ دمشق مركز أهم ولاية عثمانية في بلاد الشام بينما فلسطين تتألف من صناجق تابعة لولاية الشام أو ولاية صيدا.

وبالنسبة للوظائف التي شغلها علماء فلسطين في القرون الثلاثة نلاحظ أنها تختلف في الأهمية من نوع إلى آخر، وبعضها يرتبط بتفسير الشريعة وتطبيقها في قضايا الخلاف، وبعضها يتجه لتثقيف الناس وتوجيههم التوجيه الديني. ويبين الجدول رقم (٣ ــ ٢٧) الوظائف الـرئيسية واختـلاف نسبها عبـر القرون الثلاثة، وقد أجملنا هذه الوظائف تحت عناوين مُفتٍ، قاضٍ ومدرّس وقائم بخدمات المصلّين التي تضمّ الإمامة والخـطابة والوعظ ومشيخة القراءة والأذان كما وردت في التراجم.

يلاحظ في الجدول رقم (٣ ــ ٢٧) تفوق أعداد المفتين على سواهم في العينات الثلاث. وبالرغم من أن المفتين ينتمون إلى أربعة مذاهب فإنّ الكثرة منهم في الجدول رقم (٣ ــ ٢٧) تنتمي إلى الإفتاء الحنفي وهو الرسمي في الدولة. وتدل كثرة المفتين على الحرص، من قبل السلطة الدينية والشعب، على تطبيق الشريعة في مختلف نواحي الحياة بأحسن ما يكون. ويدل هذا على التزام وتمسك بمبادىء الدين الإسلامي. ويزيد في أهمية الإفتاء أيضاً أن هذه الوظيفة، في الغالب، هي تتويج لتعمق العالم في الفقه وأصوله وبخاصّة لأن المفتي يبقى عادة في وظيفته حتى وفاته. ويلاحظ كذلك أن قلة أعداد القضاة بالنسبة للمفتين يفسرها كون القضاة الرئيسيين في المدن الكبرى هم من الأروام. وكانوا يبدّلون أو يجدد تعيينهم كل سنة أو حتى على فترات أقصر، الأمر الذي لا يتيح لمراقب دمشقي أن يتثبت من كفاءتهم، كما أن كفاءتهم لم تكن عالية باستمرار. ولم يستطع السكان المحليـون اختراق مناصب القضاة الكبار الحنفيين لأن العثمانيين حرصوا على أن يبقوها في أيدي الأروام بسبب أهميتها لهم، في حين أن السكان المحليين عُيّنوا في منصب الإفتاء الرسمي بالتدريج منذ القرن السـادس عشر إلى أن اقتصـر عليهم في القرن الثـامن عشر وما بعده. وفي هذا الأمر دلالته لأنه اعتراف عثماني بمقدرة المفتين العرب على تصريف واجبات هذا المنصب الهام. وتدل كثرة أعداد المدرّسين والقائمين على خدمة المصلّين بين علماء فلسطين على أهمية علمهم وخطابتهم وقراءتهم واعتراف الدولة والشعب بهم.

ومن الأهمية بمكان إجراء دراسات أخرى لأنواع العلوم الدينية التي برع فيها علماء فلسطين إبّان الفترة العثمانية ومقارنة مستواها بعلوم العلماء الآخرين في المناطق العربية والإسلامية في الفترة ذاتها لتبيان مدى إسهام علماء فلسطين في تطوير هذه العلوم والخصوصية التي يتميزون بها على سواهم. ويقتضي ذلك أيضاً دراسة ارتباط هذه العلوم بالمجتمع الذي ينتمي إليه هؤلاء العلماء وبالاحتياجات الثقافية للفئات الاجتماعية التي يتألف منها. كما أن التقويم العلمي للمنجزات الثقافية في فلسطين في فترة ما، لا يتأتى إلّا بوضع هذه المنجزات ضمن سياقها التاريخي لإظهار ما طرأ عليها من تطورات، ومدى ما أسهمت به الثقافة في فلسطين في مجموع الثقافة العربية الإسلامية على مسار الزمن.

الفصل الرابع
مظاهر من الحياة الاقتصادية في فلسطين

لا تفتقر دراسة الحياة الاقتصادية، على غرار الحياة الاجتماعية والثقافية، في فلسطين في العهد العثماني إلى المصادر فهذه كثيرة ومتنوّعة، منها العثمانية وأهمها الأوامر السلطانية وسجلات الطابو، والوثائق الأجنبية، والوثائق العربية وتأتي في طليعتها وثائق المحاكم الشرعيّة كما سبق القول. وتُعنى هذه الوثائق في الميدان الزراعي بملكية الأرض وطرق التصرف بها وارتباطها بالفئات الاجتماعية. وفي الميدان الصناعي تعرفنا بعمليات الإنتاج والخدمات والتسويق، كما تساعد في دراسة أثر السوق العالمية، قبل الثورة الصناعية وبعدها، على الإنتاج المحلي ومستوى الأسعار.

ودراستنا لبعض مظاهر الحياة الاقتصادية لفلسطين تحاول توظيف ما يتوفر من دراسات متخصصة وأوصاف معاصرة للرحّالة ومراسلات تجارية وسياسية للقناصل الأجانب الذين كانوا، قبل الثورتين الفرنسية والصناعية، مجرد وكلاء للشركات التجارية الأوروبية العاملة في بلاد المشرق.

ومن المصادر الهامة التي تعالج الجغرافية التاريخية الاقتصادية لفلسطين في القرن السادس عشر البحث الهام لمؤلفيه هوتروت وعبد الفتاح بعنوان **الجغرافية التاريخية لفلسطين وشرقي الأردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر**[١]. وكانت فلسطين تتألف من عدة صناجق أو ألوية يضم كل منها عدداً من النواحي وتشتمل كل ناحية على عدد من القرى. والهدف من هذا التقسيم إحصائي مالي. فالوحدة المالية تتألف من مدينة أو قرية أو مزرعة أو قبيلة في منطقة معينة يأتي كل منها بعائدات للدولة بحسب حجم سكانها وأرضها وبالتالي مدخولها. وتقسم العائدات المالية إلى ثلاثة أقسام: قسم يذهب للسلطان (باديشاه)، وآخر لأمير اللواء (أو الصنجق بك)، وفي الحالين يشكل ذلك القسم إقطاعاً من النوع الخاص، وقسم ثالث يذهب لأصحاب التيمار والزعامة وهم الجنود العثمانيون السباهيّة (الفرسان) وضبّاطهم الذين يعطون الاقطاع عوضاً عن المرتب.

وقد اختلفت أعداد المتصرفين بالإقطاع في فلسطين من زعماء وتيماريين من قرن إلى آخر، ويشمل ذلك تبدل نسبة أعداد كل فئة بالنسبة للأخرى. ثم تلا ذلك الانحطاط التدريجي لمؤسسة الإقطاع العسكري ككل في القرن الثامن عشر وإلغاؤها في القرن التالي. وحين يلغى إقطاع ما، تتحول الأرض إلى التزام ويخضع العاملون فيها إلى ابتزاز المال من قبل الملتزمين. وتكون النتيجة إفقاراً للريف وخراباً للكثير من قراه بسبب هرب سكانها منها. ويوضح الجدول رقم (٤ ــ ١) اختلاف أعداد الزعماء والتيماريين وأعداد الزعامة والتيمار في القرنين السادس عشر والسابع عشر وهو مبنيّ على إحصاء هوتروت وعبد الفتاح[٢] بالنسبة للقرن السادس عشر، وعلى أرقام أوليا جلبي[٣] بالنسبة للقرن السابع عشر:

الجدول رقم (٤ ــ ١)

أعداد الزعامة والتيمار في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد

	القرن السادس عشر للميلاد		/ القرن السابع عشر للميلاد	
اللواء	**زعيم**	**تيماري**	**زعامة**	**تيمار**
صفد	١	٩٠	٥	١٣٣
اللجون	١٤	٣٠	٩	٢٦
نابلس	٢٥	٣٦	٧	١٢٤
القدس	١٨	٤٣	٩	١٦
غزة	٤١	٨٦	٧	١٠٨
المجموع	**٩٩**	**٢٨٥**	**٣٧**	**٤٠٧**

يجب الإشارة أولاً إلى ما يقوله هوتروت وعبد الفتاح من أن أعداد الزعماء والتيماريين قد لا تتطابق مع أعداد الزعامة والتيمار لأن التيمار قد يعطى لأكثر من تيماري وكذلك الزعامة لأكثر من زعيم. وهذا يعني أن أعداد الزعامة والتيمار في القرن السابع عشر لا بد وأن تعطي أعداداً أكبر منها من الزعماء والتيماريين. وبقطع النظر عن مدى تطابق أعداد الزعماء والتيماريين مع أعداد زعاماتهم وتيماراتهم فإن جدول القرن السابع عشر يدلنا على تناقص الزعامة وازدياد التيمار، ولهذا الأمر أهميته لأن التيماري صاحب الإقطاع الأصغر يعيش في العادة على إقطاعه في حين أن الزعيم الذي قد يكون لديه أكثر من إقطاع زعامة يعيش عادة في المدينة ويوكل أمر إقطاعاته إلى أشخاص من قبله يكونون أكثر شدة على الفلاحين من التيماري الذي يعيش بينهم، وربما كان في

تفتيت الإقطاع الأكبر ــ الزعامة ــ إلى إقطاع أصغر ــ تيمار ــ فائدة لمستغلي الأرض والعاملين فيها. أما تحويل الأرض إلى الالتزام فكانت له آثار اقتصادية سيئة لأن العاملين فيها يتعرضون إلى ابتزاز الملتزمين.

ويتبين من الضرائب التي كانت تُجبى من مختلف الوحدات، النشاط الاقتصادي الذي كانت تمارسه تلك الوحدة. وهكذا نستدل على نشاط ميناء ما من مبلغ الضرائب التي يدفعها ذلك الميناء. كما أن دفع القبائل للضرائب يعني أن هذه القبائل مستقرة وتقوم بالأعمال الزراعية. ويلاحظ هوتروت وعبد الفتاح[٤] أن حدود العمران جنوبي غزة امتدت إلى مسافات بعيدة بسبب التربة الجيدة والمياه القريبة من سطح الأرض، في حين أن مشارف جبال الخليل الغربية خالية تقريباً من السكان وأن الكثافة السكانية ممثلة بأعداد القرى تزداد أيضاً في مناطق الغور الشمالية وكذلك في جبال القدس ونابلس وفي الخليل. ولا تبعد القرية عن الأخرى في هذه المناطق بأكثر من ثلاثة كيلومترات. ولكن حجم هذه القرى يكون في العادة صغيراً. وتقع القرى فوق التلال وعلى أطراف الجبال لأسباب أمنية مثل مقاومة هجمات البدو أو الدولة عليها.

وخلافاً للرأي السائد أن فلسطين قد شهدت انحطاطاً سكانياً وبالتالي زراعياً في القرن السادس عشر للميلاد وبخاصة في آخره، كما حدث في الأناضول مثلاً في تلك الفترة، يتساءل هوتروت وعبد الفتاح حول صحة تعميم التراجع السكاني بالنسبة لفلسطين لأنه لا توجد أدلّة من سجلات الطابو العثمانية تؤكد ذلك. وهناك أدلّة على أنه إذا لم تكن توجد زيادة سكانية كبيرة فلم يكن هناك بالمقابل تناقص سكاني[٥].

وبالاستناد إلى الضرائب التي فرضها العثمانيون على الإنتاج الزراعي في فلسطين تتبين نوعيات هذا الإنتاج وأهمها الحنطة والشعير والقطن فضلاً عن الذرة والعدس والزيتون والكرمة والتين والخروب والسمسم. وتشير الدراسات الحديثة من الفترة نفسها[٦] إلى أن زراعة الحنطة كانت مزدهرة في السهول وبلغت ضعف إنتاج الشعير في المناطق الشمالية، ولكن زراعة الشعير كانت هي الطاغية في المنطقة بين غزة والخليل بسبب مقاومة هذا المحصول لجفاف الأرض. وتكثر زراعة الزيتون في المناطق المرتفعة، كما يكثر محصول السمسم في سهول غزة. أما القطن فتكثر زراعته في الجنوب الغربي من لواء صفد وفي سهل عكا ومنطقة الجليل الغربي. ويُربّى الماعز والنحل بكثرة في فلسطين.

وقد سبق أن لاحظنا في كتابات الرحالة عن فلسطين وصفهم لطبيعة الأراضي التي مرّوا فيها ومدى صلاحيتها للزراعة ووجود المياه فيها. وما يلفت النظر في مناطق السهول التي اجتازوها المسافات القصيرة التي تفصل القرية الواحدة عن الأخرى، سواء في طريقهم من عكا إلى جنين فنابلس فالقدس، أو من يافا إلى الرملة فالقدس، أو من جسر بنات يعقوب فالمنية فخان عيون التجار فنابلس فالبيرة فالقدس. وهذا يدل على وجود تجمعات بشرية كثيرة قائمة في مناطق الإنتاج. وبالرغم من اختلاف أحجام القرى من منطقة إلى أخرى فإن وجودها دليل على استغلال الأرض المحيطة بها. وتقوم بين مجموعات القرى مراكز المدن الرئيسية مثل صفد ونابلس والرملة وغزة والقدس والخليل التي تفيد كأسواق كُبرى لتبادل المنتجات الزراعية وتسويقها. وتنشط في هذه المدن ــ الأسواق الصناعات الحرفية لتلبي احتياجات الريفيين إلى جانب احتياجات سكانها.

وقد لفت نظر الرحّالة طرق الزراعة في فلسطين وبخاصة في المناطق الجبلية فوصفوها لأهميتها. ومن ذلك ما ذكره موندريل في عام ١٦٩٧[٧] في المنطقة بين خان اللبّن والبيرة على طريق القدس، والتي تبدو جبلية ولكن السكان تمكنوا من زراعتها بتجميع الحجارة على الأطراف بشكلٍ أشبه بالجدران لمنع انزلاق التربة. ويقول موندريل ان هذه الطريقة عامة في فلسطين. وإذا لم يمكن زراعة القمح فيها فإنها تزرع بأشجار الزيتون والكرمة. ويضيف أنه حتى في السهل الكثير الأملاح المجاور للبحر الميت والذي يظن أنه غير صالح للزراعة فإنه يربّى فيه النحل لإنتاج العسل. وقد شمّ رائحة العسل وشمعه حين زار هذا السهل. ويشير موندريل أيضاً إلى زراعة القطن في منطقة خان اللبّن ــ نابلس[٨].

وأشار الرحالة الإنكليزي بوكوك في عام ١٧٣٧م إلى خصب سهل عكا والمناطق المجاورة له في الجليل وغناها بزراعة القطن والقمح. ويقول إن القطن هناك لا يحتاج إلى ري وانه سنوي المحصول يزرعونه في أوائل أيار/مايو ويقطفونه في أيلول/سبتمبر. وشاهد بئراً عند أسفل تلّة تقوم عندها قرية البروة حيث تستخرج المياه ليس بالدولاب وإنما بدلو يربط بحبل يجرّه ثور. وتحمل النساء المياه بجرار إلى أعلى التلّة لسقاية أغراس التبغ. ووصف بوكوك وادي اعبلّين بقرب خربة اعبلّين والتلال المحيطة بها بأنه مغطى بالأشجار وبخاصة الخرُّوب. ووصف كذلك السهل الممتد بين اعبلين ومرج ابن عامر بأنه خصب تغطيه مزروعات الحبوب[٩].

وقد تأثرت الزراعة ومنتجاتها، كما تأثرت مراكز تسويقها

والطرق التي تنقل عليها، بالوضع الأمني سواء من ناحية سيطرة البدو على بعض المناطق وتخريبها أو من ناحية تقاتل زعماء القرى فيما بينهم وانتظامهم في حزبي القيسية واليمنية المتصارعين[١٠]، ونتج عن هذا التخريب والصراع تدمير المزروعات وقطع الأشجار وبخاصة الزيتون، بهدف الإمعان في الإضرار بالموارد الاقتصادية للخصم. وإذا أضفنا إلى ذلك تعسف ملتزمي الضرائب وإرهاقهم الفلاحين بمتطلباتهم تتبين لنا أسباب فقر الريف وثورات الفلاحين بقيادة الزعماء المحليين وهجر القرى، وبالتالي خرابها.

وقد وصف الرحالة الفرنسي دارفيو الذي زار فلسطين في صيف عام ١٦٦٤م ثورة الفلاحين في منطقة نابلس على حاكم هذه المدينة، وهو الملتزم الأعلى للضرائب فيها. ففي أعقاب قضاء الجراد على محاصيلهم في عام ١٦٦٣م، وهو ما لم يمكّنهم من دفع الضرائب للملتزمين، استخدم هؤلاء القسوة مع الفلاحين لتحصيل الضرائب، فثار الفلاحون وسيطروا على مناطقهم وأرغموا حاكم نابلس المسؤول عن الالتزام على اللجوء إلى هذه المدينة والتحصّن فيها، وطلب النجدة من والي دمشق المسؤول عنه. فأمر الوالي الأمير محمد زعيم بدو طراباي بالتوجه لإخضاع الفلاحين الثائرين. واستنفر هذا الأمير أمراء طراباي الخاضعين له والمنتشرين من حوله على مسافة فرسخ (٨ كم) أو اثنين (١٦ كم) في منطقة الكرمل، وبلغت أعداد قواتهم الجاهزة للقتال أربعة آلاف مقاتل مسلّحين بالرماح والفؤوس والدبابيس. واستعرض الأمير محمد طراباي كل أمير مع قواته. وحين بدأوا مسيرتهم في الصباح الباكر ضد الفلاحين رافقهم دارفيو الذي كان بزيارة الأمير محمد قادماً من صيدا. وقد انتشرت راية الأمير محمد وارتفعت أصوات أبواق أتباعه، واتخذ كل أمير منهم مساراً جبلياً لتيسير مسيرتهم، ثم اجتمعوا في سهل جنين حيث اتخذوا وضعاً قتالياً. وفوجىء الفلاحون بهجوم البدو هؤلاء، فحاولوا صدهم ببنادقهم ولكنهم فشلوا وهربوا إلى الجبال المجاورة. ويقول دارفيو ان اثنين من البدو قتلا وجرح أحد الأمراء، في حين خسر الفلاحون وعددهم خمسة آلاف مسلّح مائة وأربعين قتيلاً طُعنوا بالرماح وحوالي مائتي جريح. واستولى البدو على حوالي ألفي بندقية وغيرها من الأسلحة وأتي بالبنادق إلى مخيم الأمير محمد طراباي الذي وزعها على أشجع أفراد قواته، فباعها هؤلاء إلى تجار دمشق الذين يرافقون عادة تحركات الأمير لشراء الأسلاب.

وكان المتوقّع أن يخرج حاكم نابلس بقوّاته لقطع الطريق على الفلاحين الهاربين، ولكن أمراء البدو، كما يقول دارفيو، يعرفون بطء الأتراك (أي القوات العثمانية) حين الخروج إلى القتال، وحرصهم على الانفراد بشرف الظفر، لذا لم ينتظروا خروج الأتراك للقتال، وقد فوجىء هؤلاء بانتصار البدو، ومع ذلك خرجوا ولحقوا بالهاربين من الفلاحين وأخذوا معظمهم أسرى وقتلوا بعضهم على الخوازيق. ودعا الأسرى من الفلاحين زملاءهم لتسوية الأمر، فدفع أغنياء الفلاحين القروض إلى الفقراء منهم لتمكينهم من دفع الضرائب إلى حاكم نابلس. وبذلك تم الصلح بين الطرفين. وعاد البدو إلى مخيّماتهم في جبل الكرمل بعد غياب دام عشرة أيام[١١].

ونتبين من هذه الثورة انتشار البنادق بين الفلاحين، وكان بعضها يشترى من الجنود العثمانيين السباهية والانكشارية في فلسطين، وبعضها يهرَّب عن طريق المراكب الأجنبية التي تؤمّ موانىء فلسطين. ويدفع ثمن هذه البنادق للأجانب بالحنطة والشعير التي يحملونها على مراكبهم ويتاجرون بها[١٢]. وأدّى انتشار الأسلحة بين الزعماء المحليين إلى ازدياد حدة الصراع بين حزبيهم الرئيسيين القيسية واليمنية. وتشير عدّة أوامر عثمانية من النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى قلق السلطة من انتشار هذه البنادق بين سكّان فلسطين[١٣]. وتدلنا الثورة كذلك على الظلم الذي لحق بالفلاحين من جراء الضرائب التي لا تأخذ بعين الاعتبار طبيعة الموسم والآفات الزراعية التي تتعرض لها المحاصيل. وأحياناً تزاد الضرائب بالتواطؤ مع المحصّلين. وما لجوء الفلاحين إلى الثورة إلا دليل إحباط من قبلهم. ولكنهم بالرغم من كثرتهم أعوزهم التنظيم والزعامة التي توفرت بين البدو. ويدل استخدام البدو من قبل السلطة العثمانية لضرب الثائرين على أن بعض البدو، على الأقل، كانوا خاضعين للدولة التي كانت قوية آنذاك في عهد الوزراء من آل كوبريلي. ولم تدم هذه القوة كثيراً، وبالتالي لم يستمر خضوع البدو للدولة طويلاً إذ انقلب بعضهم في القرن التالي إلى تهديد الأمن وفرض مال الخفارة على المسافرين. ويذكر المرادي[١٤] أن يحيى الدجاني، أحد علماء القدس من الشافعية، قد استشهد على يد قطّاع الطريق ما بين القدس والخليل في عام ١١٣٣هـ / ١٧٢٠ – ١٧٢١م.

ونتج عن عدم استتباب الأمن في الريف وتعسُّف جامعي الضرائب، وخاصة في القرن الثامن عشر، إهمال زراعة سهول خصبة كما أشار إلى ذلك الرحالة الإيطالي ماريتي[١٥] (في الستينات من القرن الثامن عشر) الذي وصف مروره بقريتي البرج وصرفند في منطقة حيفا وتبعد الواحدة عن الأخرى قرابة كيلومترين، وذكر كيف أن السكان هناك حين يختلفون بعضهم

مع بعض يعمدون إلى إتلاف أشجار الزيتون للإضرار بالخصم. وعلى الطريق الرئيسية المؤدية إلى غزة ومصر ذكر ماريتي حين وصوله قرب قرية اللطرون تمركز قطّاع الطرق من البدو في عدة نقاط على هذه الطريق، وكانوا يطالبون المسافرين بدفع مال الخفارة[١٦]. وقد أجرى ماريتي مقارنة بين خصب الأرض وجودة مزروعاتها إلى حد أدهشه، وبين خوف الفلاحين ولجوئهم إلى أكواخ أشبه بالحصون لتحاشي هجمات البدو عليهم وسرقة أدواتهم الزراعية التي يخبئونها معهم[١٧].

وقد وصف فولني في عام ١٧٨٥م الأراضي المحيطة ببيت لحم بأنها الأحسن تربة في جميع المناطق المجاورة وتنجح فيها زراعة أشجار الفاكهة والكرمة والزيتون والسمسم ولكن يعوزها العمل. فالفلاحون منشغلون بمقاومة الباشا العثماني ومحاربة فلاحي القرى المجاورة الذين تفرّق بينهم الحزبية القيسية واليمنية. ووصف منطقة الخليل بأنها صالحة لزراعة أشجار الزيتون والكرمة والقطن ولكن فلاحيها من القيسية لاهون بحروبهم مع يمنية بيت لحم، ويتلف الطرفان خلال ذلك محاصيلهم من الحنطة والذرة والسمسم والزيتون كما يخطفون المواشي. ويشكّل البدو كتلة ثالثة تعارض الفلاحين ويستخدمها بعضهم لضرب البعض الآخر[١٨].

وبعد حوالي أربع عشرة سنة من زيارة فولني وصف الرحالة الإنكليزي براون منطقة بيت لحم بأنها حسنة التربة والماء والهواء وتزرع فيها أشجار الزيتون والكرمة. ولكنه أضاف أن أشجار الزيتون بتناقص مستمر لأنها ضحيّة الأحقاد بين سكان القرى الذين يقتلعونها للإضرار بخصومهم. ويقول براون انه نظراً لبطء نمو شجرة الزيتون فإن ما يقطع منها قلما يعوّض[١٩].

ويصف براون أسلوب الزراعة المتبع في المنطقة الجبلية المجاورة للقدس بأنه حري بالملاحظة. وللحد من انجراف التربة تبنى جدران صغيرة من حولها تشكل ما يشبه الشرفات، وتستخدم محاريث صغيرة لفلاحتها. وتقتضي هذه مهارة كبيرة من الفلاح في استخدام المحراث وإدارته دون أن يلحق الأذى بالجدار. وفي حديثه عن الحيوانات يقول: إن الماشية السوداء اللون (ربما يقصد الماعز) تتناقص، والخيول قليلة العدد وتستخدم الحمير بدرجة كبيرة في الأسفار[٢٠].

ويصف براون المنطقة بين نابلس والناصرة بأنها جبلية في بدايتها ونهايتها تخترقها الأودية الخصبة وتضم سهل مرج ابن عامر ذا التربة المتميزة التي تكثر فيها مياه الأمطار ولم يشاهد في القسم الأول الجبلي سوى ثلاث قرى في مدى ثلاث ساعات، ولكن الأودية ممتلئة بأشجار الزيتون والعنب والتين. ويصف فلاحي السامرة بأنهم يحملون سلاحهم معهم[٢١]. وفي الواقع روّع فلاحو نابلس بزعامة مشايخهم من آل جرّار أحمد باشا الجزار والي دمشق بالرغم من سلطته وبطشه. ويصف القنصل الفرنسي في يافا في رسالة له بتاريخ ٦ حزيران/يونيو ١٧٩١م كيف أن هؤلاء الفلاحين، بزعامة آل جرار، المتحصّنين في قلعة سانور، أجبروا الجزّار على رفع الحصار عنهم في ٢٨ أيار/مايو ١٧٩١ بالرغم من أن أعدادهم تتراوح بين ألف وألف ومائتين فقط وأعداد قوات الجزّار تبلغ أربعة عشر ألفاً، وبالرغم، أيضاً، من سياسة الجزار في إضعاف الزعماء المحليين بإثارة الواحد منهم ضد الآخر[٢٢].

ولا تتوفر معلومات كثيرة عن الصناعة في فلسطين في هذه الفترة المبكرة من تاريخها الحديث بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. وقد أشار أكثر الرحالة إلى صناعات محلية معروفة في الزمن القديم والحديث في المناطق التي زاروها وهي مرتبطة بإنتاج المنطقة مثل غزل القطن وصناعة الصابون واستخراج زيت الزيتون وزيت السمسم وصنع الأدوات التذكارية الدينية والزجاج ونسج الأقمشة التقليدية التي تلبّي حاجات السكان المحليين.

ومن صناعات فلسطين التي اهتمت بها الدولة العثمانية في أوائل السبعينات من القرن السادس عشر صناعة البارود وذلك حين كانت تخوض حروباً كبرى في أوروبا وتحتل قبرص وتصارع الأوروبيين في البحر. ويشير إلى ذلك فرمان مؤرخ في ١٧ شوال ٩٧٨هـ / ١٤ آذار/مارس ١٥٧١م موجه من استانبول إلى حاكم القدس أحمد باشا يأمره فيه بالتحقق من نوعية ملح البارود المكتشف في منطقة الخليل وكميته الإنتاجية في السنة وكلفة القنطار، وفيما إذا كان الفحم المستخرج من الحطب الخاص بذلك متوفراً، ومقدار كلفته. ويستدل من فرمان لاحق مؤرخ في ١٤ شوال ٩٨١هـ / ٦ شباط/فبراير ١٥٧٤م أنّ البارود قد أنتج فعلاً في أريحا لأن صانعيه تشكّوا آنذاك من الثمن البخس الذي تدفعه الدولة لشراء بارودهم[٢٣]. والجدير بالذكر أن مصنعاً للبارود أقامته الدولة العثمانية في حماة في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٧ ــ ٩٧٤ هـ /١٥٢٠ ــ ١٥٦٦م) كان يعمل في تلك الفترة لتأمين احتياجات الدولة[٢٤].

وقد ازدهرت صناعة الصابون في فلسطين وصدّرت كميات منه إلى الخارج. وقد أشار الرحالة الفرنسي بول لوكاس إبّان زيارته إلى فلسطين في ١٧١٦م أن المركب الذي كان سيستقله إلى

مصر من يافا سينقل الصابون إلى دمياط. ولم يذكر مصدر هذا الصابون ولكنه قال انه آتٍ إلى يافا من الرملة أو عن طريقها[٢٥]. وقد أشار الرحالة بوكوك، إبان زيارته إلى يافا، في آذار/مارس ١٧٣٧م، ان ليافا تجارة كبيرة في الصابون الذي يصنع فيها وفي القدس والرملة واللد ويباع تحت اسم صابون يافا، ويصدّر منها إلى مصر ويشكل معظم واردات مصر من الصابون[٢٦]. وقد أشار فولني في ١٧٨٥م إلى وجود مصانع للصابون في الخليل تستخدم القِلي الذي يأتي به البدو من الصحراء وينتج عن حرق نبات قلوي (الاشنان) ينمو في البادية ويستخدم في صناعة الصابون والزجاج. وأشار كذلك إلى وجود مصبنتين أو ثلاث في غزة لصناعة الصابون. وكما في الخليل يأتي البدو بالقِلي إلى غزة. ولكن احتكار حاكم غزّة لتجارة القِلي وتحديده لسعرها جعل البدو يمتنعون عن الإتيان بها إلى غزّة. كما أهمل أصحاب صناعة الصابون في غزة هذه المهنة لتحاشي الضرائب التي فرضها الحاكم عليهم[٢٧].

واشتهرت صناعة الزجاج في فلسطين وبخاصة في مدينة الخليل التي برع أهلها في إنتاج أشكال منوعة منه للاستخدام المنزلي وللزينة النسائية والأساور. ويصف فولني صناعة الزجاج في الخليل بأنها قديمة، والوحيدة في سورية، وتصدر منتجاتها إلى مناطق تمتد حتى استانبول، وقد جعلت هذه الصناعة من الخليل مدينة قويّة اقتصادياً وعسكرياً في المنطقة لأنها تسلّح ما يقرب من ثمانمائة إلى تسعمائة رجل يدعمون نفوذها محلياً[٢٨]. ويبلغ من شهرة صناعة الزجاج في الخليل أن الرحالة ماريتي أشاد بهذه الصناعة في عام ١٧٦٧م حين زيارته للمدينة. وذكر الأطواق والأساور التي تستخدم لزينة النساء البدويات وأيضاً للجمال، وقال ان هذه المنتجات تصدّر إلى مصر وأنحاء سورية عن طريق يافا. وذكر أن هذا الزجاج يصنع من خليط من التربة التي يجلبها البدو من مناطق تبعد عن الخليل مقدار خمسة وعشرين إلى ثلاثين كيلومتراً[٢٩].

وأكّد الفرنسي دو توت de Tott[٣٠] الذي زار فلسطين في أواسط سبعينات القرن الثامن عشر شهرة مصنوعات الخليل الزجاجية التي تصدر إلى دمياط عن طريق يافا مثلما يصدّر إليها غزل القطن والكمون من منطقة مرج ابن عامر والصابون، وهو أكثر ما يصدَّر، ويتمتع في دمياط بتعرفة جمركيّة مخفضة تبلغ النصف مما يشجع تصديره إليها. وبالمقابل تصدّر دمياط إلى يافا الرز ونسيج الخام لاستهلاك نابلس والرملة والقدس واستهلاك البدو في منطقة غزة. ويبدو أن أنوال النسيج في غزة لا تفي بحاجة سكان منطقتها بالرغم من أهمية صناعة النسيج فيها. ويصف فولني نسيج الخام في غزة بأنه من الصناعات الرئيسية لسكانها وقدّر عدد الأنوال فيها بخمسمائة نول[٣١].

ومن الصناعات الهامة في فلسطين التي أشار إليها فولني وأعجب بها صناعة البناء. ويعتقد أن المِلاط المستخدم تعود أصوله إلى أيام اليونان والرومان. ولتصنيعه يحرصون على استخدام الكلس المغلي الذي يمزجونه مع ثلث كميته من الرمل وثلث آخر من الرماد والرخفة (خفّان، وهو حجر خفيف هشّ). ويستخدمون هذا الملاط في صقل الآبار والأحواض والسقوف المعقودة لمنع تسرّب المياه من خلالها. ويخص فولني بالذكر ما شاهده في فلسطين من بناء عقد القبّة. ويتألف هذا العقد من أشكال أسطوانية آجرّيّة طول واحدتها بين ثماني إلى عشر بوصات (تساوي البوصة آنذاك ٢٧ مم). وهذه الأسطوانات مجوّفة ويبلغ قطرها من الداخل بوصتين، وشكلها مخروطي، ويكون الطرف الأعرض منها مغلقاً والآخر مفتوحاً. ولبناء القبة يصفّون هذه الأسطوانات الواحدة بجانب الأخرى واضعين الطرف المغلق باتجاه الخارج، ويوصَل بعضها مع بعض بملاط يستجلب من القدس أو نابلس. ويحتاج بناء القبة إلى عمل أربعة عمّال خلال يوم واحد، كما يقول فولني. وقد تتسرب الأمطار الأولى من خلال السقف لذا يحتاط لذلك بطلي القبة بطبقة من الزيت لجعل سطحها عازلاً. وتغلف أطراف الأسطوانات من الداخل بطبقة من الملاط. وبذلك يتم بناء سقف متين وخفيف. ويضيف فولني أنهم في جميع أنحاء سوريا يصفّون مثل هذه الأسطوانات على أطراف شرفات بيوتهم للحيلولة دون رؤية النساء من الخارج وهن ينشرن الغسيل. ويستطرد قائلاً انهم بدأوا منذ مدة قصيرة باستخدام هذه الطريقة في البناء في باريس علماً بأنها مستخدمة منذ الماضي السحيق في بلاد المشرق[٣٢].

وتعدّ التجارة، بنوعيها الداخلي والخارجي، المؤشر الحقيقي للوضع الاقتصادي. وقد عمد العثمانيون، في القرن السادس عشر، في عهد قوة الدولة، في حكم السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني، إلى بناء عدد من القلاع في فلسطين أو ترميمها لتوطيد الأمن على الطرق الرئيسية ومواجهة خطر الأمراء المتمرّدين بهدف تأمين طرق التجارة. كما أُقيمت أو جددت الحصون في بعض الموانىء الهامة لتأمين الملاحة البحرية وصدّ غارات القراصنة ومعظمهم من المالطيين. ولتسهيل سفر التجار وغيرهم اعتني بالخانات حيث ينزل المسافرون على الطرق الرئيسية فمنها ما جدد بناؤه ومنها ما أُقيم.

ومن المراكز الرئيسية التي أقيمت فيها الخانات أو الحصون بأمر السلطات العثمانية جسر بنات يعقوب وجبّ يوسف والمنية وعيون التجار، وتقوم على المقطع الرئيسي للطريق الدولي الذي يربط دمشق بالقاهرة وبالقدس، وفي عيون التجار يفترق المسافرون فمنهم من يذهب إلى مصر مروراً بقاقون ورأس العين، ثم غزة فالعريش ومنهم من يذهب إلى القدس عبر جنين ونابلس والبيرة. وقد استخدم خان التجار، فضلاً عن إيوائه المسافرين، كسوق محلية. وأُقيم خان في اللبّن في الطريق بين نابلس والقدس، كما أقيمت خانات أخرى في رأس العين والعريش(٣٣). وتقدّر المسافة بين الخان والآخر بمسيرة يوم واحد إلا إذا كانت المنطقة جبلية(٣٤).

وفي حين اتخذت السلطات العثمانية إجراءات أمنية متعددة لتأمين خطوط المواصلات والتجارة البرية فقد قامت ببعض الإجراءات لحماية تجارة فلسطين البحرية فأقامت بعض الحصون في الموانىء أودعمت القائم منها بالمدافع كما في يافا وطنطورة. وكانت الموانىء البحرية تشكو من أمرين: التهدم الذي أصابها وخطر القراصنة في البحر. فبعض الموانىء كان سيئاً وبعضها الآخر معطلاً إما بسبب عمل مقصود من قبل الزعماء المحليين كما حدث مثلاً في عهد فخر الدين المعني الثاني الذي عطّل موانىء عكا وحيفا للحيلولة دون إنزال القوات العثمانية لقتاله أوخشية استعمالها من قبل القراصنة الأجانب أو بسبب الإهمال. ويذكر مثلاً الرحالة الفرنسي دارفيو كيف أن عاصفة بحرية في صيف عام ١٦٦٤م قذفت بمركب يحمل الخمر والجبن من قبرص إلى مصر إلى ميناء طنطورة وحطمته بسبب سوء الميناء(٣٥). ويقول بوكوك ان هناك ميناءين في عكا التي زارها في أيار/مايو ١٧٣٧م منهما واحد صغير إلى الشرق وهو ممتلىء بالأنقاض ثم هناك بقايا الميناء القديم الذي تؤمه المراكب الصغيرة في الصيف لتحميل البضائع(٣٦).

ولم يقتصر خطر القراصنة الذين هددوا الملاحة البحرية وهاجموا موانىء فلسطين على فترة محددة أو جنسية معينة. فقد أشارت المصادر إلى هجماتهم ونشاطهم طيلة القرون الثلاثة التي نعالجها. وانضم إلى المالطيين قراصنة إنكليز وإيطاليون وفرنسيون وغيرهم وأفادوا جميعاً من فوضى الأمور في منطقة البحر المتوسط والحروب بين الدول الأوروبية التي دارت فيه أو حوله. وكانوا يختبئون عند تلاقي جبل الكرمل مع البحر بانتظار اعتراض السفن المتجهة إلى بلاد الشام ومصر. كما كانوا يترددون على ميناء حيفا ويخطفون أناساً من أهلها ليبيعوهم عبيداً. ولهذا هجر سكان الساحل غير المحميّ أوغير المحصّن قراهم وهربوا إلى الجبال. ويذكر الرحالة الفرنسي جان دو ثيفينو Jean de Thévenot كيف أنه أُسر وهو على مركب يوناني من قبل قرصان فرنسي على مقربة من عكا في الخمسينات من القرن السابع عشر. وقد سمع العرب على الساحل يقولون إنه قرصان مالطي. ثم أطلق سراحه ولكنه أسر من جديد عند دمياط من قبل قراصنة إيطاليين(٣٧). ولم يكن أولئك بالضرورة مالطيين باستمرار كما اعتقد السكان العرب. ومهما يكن فإن القراصنة شكّلوا خطراً عظيماً على تجارة المشرق وتسببوا بردود فعل عنيفة ضد الأجانب من قبل السكان المحليين. وقد أشار بوكوك أثناء زيارته إلى عكا في أيار/مايو ١٧٣٧ إلى وجود مراكب فيها يمتلكها يونانيون كانوا بحماية دير اللاتين. ونصّت الحماية أن القراصنة المالطيين لا يعتدون عليهم خلال مسافة ثمانين فرسخاً بحرياً من فلسطين(٣٨). ومما يدل على استمرار خطر القراصنة المالطيين حتى أواخر القرن الثامن عشر على الأقل إحجام الرحالة المغربي أبو القاسم الزياني عن السفر البحري بين الشام ومصر بسببهم «قلت وسفر البحر من الشام لمصر خطر من مراكب المالطية»(٣٩).

وإذا كان العثمانيون قد اهتموا بإقامة الأمن على الطرق الرئيسية وبالمحافظة على راحة المسافرين في القرن السادس عشر فقد أخذ الأمن بالاضطراب في القرن السابع عشر وانهار بشكل كبير في القرن الثامن عشر خارج منطقة الجليل حيث كان يسيطر ظاهر العمر كما أشارت إلى ذلك كتابات الرحالة وغيرهم. أما على مستوى التجارة الخارجية فقد أدّى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الشرق الأقصى في عام ١٤٩٨م (مطلع القرن العاشر للهجرة) إلى إضعاف أهمية بلاد الشام في استقطاب هذه التجارة البعيدة المدى بين أوروبا والشرق الأقصى. ومع ذلك بقي لفلسطين أهميتها في التجارة الإقليمية وحتى الدولية كنقطة وصل بين دمشق وما يرتبط بها من طرق تجارية في الشمال والشرق ومصر. كما أنها أفادت من تجارة قافلة الحج الشامي التي كانت تمر فيها على الطريق الغزاوي حين تهددها الأخطار على الطريق السلطاني الرئيسي.

وكانت حلب، بحكم موقعها وتجارتها، تقدم للدولة العثمانية أرباحاً تفوق ما تقدمه أية مدينة أخرى(٤٠). لكن لما احتلت روسيا (حوالي ١٧٢١) المناطق المنتجة للحرير في بلاد فارس، انقطع مرور الحرير بحلب، وتقهقرت تجارتها. فضلاً عن ذلك، فإن تجارة شركة بلاد المشرق الإنكليزية المتمركزة في حلب انحطت عما كانت عليه. وقد ترافق انحطاط تجارة حلب مع

ازدهار التجارة في بلاد الشام الجنوبية وبخاصة فلسطين. وكان مردّ ذلك بالدرجة الأولى إلى اهتمام الفرنسيين بالمتاجرة معها منذ الربع الأخير من القرن السابع عشر. ويعد كولبير وزير الدولة لشؤون البحرية في عهد لويس الرابع عشر المشجع الرئيسي للتجارة الخارجية الفرنسية مع بلاد الشام. وقد أتت معاهدة أوترخت Utrecht مع بريطانيا في ١٧١٣م، بالسلام إلى فرنسا وأمّنت مواصلاتها في المتوسط، الأمر الذي نشّط تجارتها مع المشرق. يُضاف إلى ذلك منافسة البضائع الفرنسية للإنكليزية بسبب حرص أصحاب البضائع الفرنسية على الاستجابة للحاجات والرغبات المحلية. كما أن فرنسا جددت امتيازاتها التجارية مع الدولة العثمانية في عام ١٧٤٠م فخفف ذلك الأمر الرسوم الجمركية على صادراتها إلى الدولة العثمانية[٤١]. وقد التقت مصلحة ظاهر العمر مع مصلحة الفرنسيين في نمو النشاط التجاري في فلسطين في القرن الثامن عشر، كل حسب مصلحته.

ومن خلال هذا الإطار العام للوضع الاقتصادي في بلاد الشام والتبدلات الكبرى التي طرأت عليه خلال ثلاثة قرون ننتقل إلى دراسة موقع فلسطين الاقتصادي فيه. وفي هذا الميدان، ستولي هذه الدراسة عناية خاصة للتجارة الخارجية، من حيث تصدير بعض المواد الخام وغزو الأسواق المحلية بالمصنوعات الأوروبية، والتنافس الفرنسي ـ الإنكليزي في بلاد المشرق الذي كانت له انعكاساته القوية على تجارة فلسطين الخارجية، وبالتالي على اقتصادها ككل. وقد تجلّت بدايات الاهتمام الفرنسي بتجارة بلاد المشرق بتعيين أول قنصل فرنسي في طرابلس عام ١٥٤٨م وبعضهم يجعل قيام أول تمثيل فرنسي في سوريا في عام ١٥٤٤م، وذلك في أعقاب الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا من الدولة العثمانية في عام ١٥٣٥م، واستمر التمثيل منذ ذلك التاريخ[٤٢]. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر حلّت التجارة الفرنسية مع المشرق من حيث الأهمية محلّ تجارة البنادقة التي كانت مسيطرة قبلاً. وتشير المذكرات التي قدّمها نواب مرسيليا إلى الملك الفرنسي في عام ١٦٢٣م بأن مرسيليا قبل عام ١٥٦٠م لم ترسل إلى المشرق سوى خمسة أو ستة مراكب في العام الواحد. وكانت غرفة تجارة مرسيليا هي المسؤولة عن التجارة الخارجية لفرنسا. وساعدت على تطوير التجارة الفرنسية في المشرق الحروب التي اندلعت بين البندقية والأتراك بين عامي ١٥٧٠م و ١٥٧٣م. ومنذ ذلك الحين أخذت عدّة سفن تتجه كل سنة من مرسيليا إلى المشرق حاملة الأجواخ الفرنسية والورق والأدوات والبضائع الثمينة. وبالمقابل كانت تأتي بالمنتجات التي سبق أن احتكرتها البندقية مثل حرير بلاد فارس والصوف والجلد من آسيا الوسطى، والسجاد من إزمير، والعطور والصمغ من الجزيرة العربية، وكذلك التوابل من الشرق الأقصى التي تشكل أساس حمولتها.

ولكن هذا الازدهار للتجارة الفرنسية مع المشرق كان قصيراً. ويذكر سفير فرنسا في استانبول في عام ١٥٧٣م أن التجارة الفرنسية مع تركيا ضئيلة. واستفحل الأمر بعد ذلك بتأثير الحروب الدينية في فرنسا التي دامت ثلاثين سنة وأضرّت بصناعتها وتجارتها. ثم بدأت العلاقات الفرنسية تسوء مع الدولة العثمانية. واستفاد الإنكليز من هذه الأزمة الفرنسية فأرسلوا أول سفير ـ تاجر لهم إلى استانبول في عام ١٥٧٩م وكان يسمى وليم هاربورن William Harborne، وأُعطي امتيازات مشابهة لامتيازات فرنسا، وتأسست في عام ١٥٨١م شركة بلاد المشرق الإنكليزية The Levant Company وأنشأت مركزاً رئيسياً لها في حلب. ثم تحسنت التجارة الفرنسية مع المشرق في أواخر عهد ملك فرنسا هنري الرابع (١٥٨٠ ـ ١٦١٠م)[٤٣].

ونعمت صيدا والساحل المحيط بها ما بين عكا وطرابلس بسلام وطيد دام سبعة وعشرين عاماً في عهد فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف وجبل لبنان الذي مدّ حكمه من طرابلس وحتى الجليل. وأقام التجار الفرنسيون أولاً في طرابلس ثم انتقلوا إلى صيدا. وبعد قضاء الدولة العثمانية على الأمير فخر الدين في عام ١٦٣٥م أسيئت معاملة التجار الأجانب من قبل والي صيدا وعوانيته فانسحب الفرنسيون منهم إلى عكا في عام ١٦٥٨م، ثم عادوا إلى صيدا بعد عزل واليها. ويلاحظ الفرنسي ماسون Masson الذي أرّخ للتجارة الفرنسية في بلاد المشرق أن التجارة الفرنسية مع المشرق عانت حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر من عدم اهتمام المسؤولين الحكوميين الفرنسيين بها. كما أن تجار مرسيليا لم يكونوا أكثر اهتماماً بها. ونتج عن هذا أن التجار الفرنسيين، بدون توجيه وحماية من السلطات العليا، تُركوا لأنفسهم يعانون من عدم معرفتهم بالبلاد ومن الفساد والفوضى في المنطقة والتعرض للابتزاز (مال العوان بالعربية الذي يفرضه أعوان الحاكم من العوانية فعرف تبعاً لذلك في اللغات الأوروبية avanie بالفرنسية و avania بالإنكليزية). وتعرّض التجار حتى إلى ابتزاز قناصل بلدهم وسفرائه لهم، وهو ما أدّى إلى الإضرار بالتجارة[٤٤].

وفي الوقت الذي تعرضت فيه التجارة الفرنسية لهذه الأزمات كان الإنكليز يوسعون تجارتهم ونفوذهم في المشرق منذ أن أقاموا سفيراً لهم في استانبول في عام ١٥٧٩، وأخذت سفنهم

تصل إلى الموانىء تحمل العلم الإنكليزي بعد أن كانت تحمل العلم الفرنسي للإفادة من الامتيازات الفرنسية، وحصلوا في عام ١٦٣٠م، مثل الفرنسيين، على تخفيض الرسوم على بضائعهم من ٥ ٪ إلى ٣ ٪، وتمتعوا، مثل التجار الهولنديين، بثقة السكان المحليين لاحترامهم عهودهم ولجودة بضائعهم ولتمثيلهم شركات لها قواعد وأنظمة ثابتة ومحترمة من قبل جميع التجار[٤٥]. وبالرغم من أن شركة بلاد المشرق الإنكليزية أقامت لها قناصل أو نواب قناصل أو تجاراً في بيروت وصيدا وعكا بالإضافة إلى حلب والإسكندرونة وطرابلس ودمشق فإنها لم تهتم سوى بتجارة حلب عبر الإسكندرونة. وكانت تعليمات الشركة إلى قنصلها في حلب سنة ١٦٨٣ واضحة في هذا المجال إذ طلبت منه عدم تشجيع التجارة على الساحل لإضرارها بتجارتها في حلب[٤٦].

وبالرغم من هذا النفوذ الإنكليزي بقي النفوذ الفرنسي مسيطراً على سواحل بلاد الشّام وبخاصة الفلسطينية منها بسبب سياسة كولبير الذي جعل همّه في الستينات والسبعينات تطوير التجارة الفرنسية مع بلاد المشرق. وانتقى لهذا الغرض الرحالة دارفيو وكان من أسرة مرسيلية ومارس التجارة في صيدا وإزمير، للعمل على تحسين التجارة الفرنسية مع المشرق، ثم عيّنه قنصلاً في حلب في حزيران/يونيو ١٦٧٩م، وبقي في منصبه ست سنوات[٤٧].

وكانت تجارة فلسطين الخارجية طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر تابعة لصيدا. ويصف ماسون عكا في القرن السابع عشر بأنها فقدت أهميتها التي كانت عليها في العصور الوسطى وأن أسوارها المزدوجة قد سقطت في الخنادق المزدوجة المحيطة بها، وليس فيها سوى قصر فخر الدين المعني الثاني وبرج على الساحل للدفاع عنها وبقربه مقر الحاكم الخاضع لحاكم صفد. ويقول إن ميناءها متهدم ومكشوف ومع ذلك تقصده المراكب التي تلجأ في الأنواء السيئة إلى ميناء حيفا الذي تحميه جبال الكرمل. ويضيف ماسون أن منطقة عكا ـ حيفا هي الأكثر تعرضاً لغزوات القراصنة. ويقدّر عدد سكان عكا بحوالي مائتي بيت (حوالي ألف نسمة) في عام ١٦٣٠م. ويذكر أن الفرنسيين لهم تجارة كبيرة في عكا وأنهم كانوا الوحيدين بين التجار الأوروبيين الذين أقاموا فيها باستمرار. ولهم نائب قنصل في عكا من أصل هولندي يرعى مصالحهم. وبالرغم من قدوم مراكب إنكليزية وهولندية إلى عكا لنقل البضائع فإن التجار الإنكليز والهولنديين المقيمين في حلب فوّضوا التجار الفرنسيين فيها بشراء البضائع لحسابهم لقاء عمولة تقدّر بـ ٢ ٪. وتذكر رسالة من قنصل فرنسا في صيدا إلى غرفة تجارة مرسيليا بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٦٨٨م أن مراكب هولندية تأتي كل سنة إلى عكا لتشحن منها حوالي ٣٠٠ إلى ٤٠٠ بالة من القطن والصوف كما تشحن أحياناً لحساب التجار الفرنسيين بالات من الغزل موجهة إلى ليغورنة. وتردها كذلك ثلاثة أو أربعة مراكب إنكليزية في السنة لتحمل منها الصوف. ويحمل المركب منها مائتي بالة فقط، وأحياناً أربعين إلى خمسين بالة، ثم تذهب المراكب إلى الاسكندرونة لإتمام حمولتها[٤٨].

وقد حال القنصل الفرنسي في صيدا في عام ١٦٩٣م دون إقامة تاجر إنكليزي في عكا والرملة ليُبقي تجارة المنطقة حكراً على الفرنسيين، وقَبِل في الوقت نفسه تكليف قنصلي إنكلترا وهولندا في حلب له برعاية شؤون الرعايا الفرنسيين هناك وذلك خشية من أن يعيّنا نواباً لهما في عكا. ومع ذلك وبالرغم من معارضة القنصل الفرنسي في صيدا تمكن الهولنديون من أن يعيّنوا في عكا في عام ١٧٠٠م شخصاً هولندي الجنسية ليكون نائب قنصل لهم وللإنكليز في وقت واحد، وكان اسمه بول معشوق. ويبدو من اسمه أنه عربيّ. وقد اتهمه الفرنسيون بإثارة الدسائس، ونجح سفيرهم في استانبول في عزله من منصبه. ومهما يكن، فإن التجار الفرنسيين في عكا وجدوا في عام ١٧١٤م أنه من الأنسب لهم أن يكون نائب قنصل هولندا وإنكلترا في عكا نائب قنصل لهم أيضاً مما يدل على تناقض بين مصلحتهم ومصلحة القنصل الفرنسي في صيدا الذي انتقدهم بعنف على ذلك وبخاصة لأن أعداد التجار الفرنسيين في عكا تبلغ حوالي ١٧ ـ ١٨ تاجراً ولم يكونوا أقل أهمية من نظرائهم في صيدا[٤٩]. ويثير هذا الأمر قضية هامة عانت منها التجارة الفرنسية آنذاك بسبب عدم وجود مسؤولية مركزية فيها. فغرفة تجارة مرسيليا هي المسؤولة أساساً عن تعيين القناصل ولكن التجار يتبعون شركات خاصة تشرف الدولة على بعضها، ومن هنا تعارض المصالح بين هذه الجهات، في حين أن التجارة الإنكليزية تسيطر عليها إلى حد كبير شركة بلاد المشرق.

تألفت تجارة الفرنسيين في عكا من الصوف وغزل القطن، الذي يأتيهم من الجليل، والقِلي الذي يبيعونه بكميات كبيرة في مرسيليا والبندقية لصناعة الصابون والزجاج فيها. وكانت فرنسا تستورد في سنوات القحط كميات كبيرة من القمح والرز من عكا. وقد شاهد الرحالة الفرنسي فرمانل Fermanel في ميناء عكا في عام ١٦٣٠م اثنين وثلاثين مركباً حمولة أقلها ١٥٠ طناً وحمولة أكبرها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ طن وأحياناً تصل إلى ٦٠٠طن، قدمت لشحن القمح. وذكر أيضاً في عام ١٧١٤ مجيء أعداد كبيرة من المراكب إلى عكا لشحن الرز منها بعد أن ارتفعت أسعاره في

مصر بسبب كثرة الطلب عليه من الخارج. ولكن في الأوقات العادية لا ترد إلى عكا إلا قلّة من المراكب الفرنسية لتحميل بعض حمولتها منها، فيما تتم الحمولة من صيدا التي ترسل إليها البضائع من عكا عادة على مراكب محلية[٥٠]. وقد أصبحت عكا في عام ١٧٢٣م مقر نائب قنصل فرنسي تابع لقنصلية صيدا، واستمرت كذلك حتى عام ١٧٨٢م حين أصبحت قنصلية[٥١].

ويصف ماسون الرملة بأنها على بعد حوالي ١٦ كم من يافا باتجاه الداخل وأنها قرية بائسة خرائبها أكثر من بيوتها. وتقتصر تجارة الفرنسيين المقيمين فيها على شراء غزل القطن. وكان يقيم فيها في عام ١٦٧٠م ثمانية تجار فرنسيين، ولكن الفرنسيين لم يقيموا فيها باستمرار نظراً لانعدام الأمن فيها بسبب اعتداءات البدو والحكام على حد سواء. وقد غادرها في عام ١٦٩٠م نائب القنصل الفرنسي والتاجر الفرنسي الوحيد فيها بسبب اعتداءات البدو، ثم جاء إليها خمسة تجار فرنسيين في عام ١٧٠٠م. ولكن سرعان ما غادرها نائب القنصل من جديد في عام ١٧١١م بسبب الاضطرابات. وأُثيرت قضية نقل الجالية الفرنسية منها إلى يافا.

وكانت يافا، وهي ميناء الرملة، أكثر موانىء فلسطين بؤساً آنذاك، ومعظمها خرائب، وفيها برجان يُقيم فيهما أربعة أو خمسة جنود أتراك يرسلهم حاكم غزة لحمايتها. وتتحسن أوضاع يافا في أواخر القرن السابع عشر، فيظهر فيها بعض البيوت والدكاكين ويقام جامع. ولكنها مع ذلك تبقى مهددة من قبل البدو والقراصنة. وقد ذكر أن ثلاث سفن قرصنة فرنسية أطلقت في عام ١٦٨٩م على يافا أكثر من مائتي قذيفة مدفع. ولم يكن في يافا آنذاك تجار أو مقيمون فرنسيون، ولا يأتي هؤلاء إليها لشحن البضائع، إذ كانوا يشحنون البضائع الواردة من الرملة من ميناء عكا أو صيدا، وذلك لأن ميناء يافا لا يصلح إلاّ للزوارق الصغيرة ولا تأتي المراكب للرسو فيه إلاّ في الصيف. وقد جاء في رسالة لقنصل فرنسا في صيدا بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٦٨٨م أنه يرد إلى يافا في كل سنة، في الطقس المناسب، مركب إنكليزي ليشحن حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة كيس من الصابون وحوالي مائتي بالة من غزل القطن من الرملة لحساب أحد التجار الموارنة. وعلى خلاف عكا التي أصبحت مقر نائب قنصل فرنسي باستمرار منذ عام ١٧٢٣م فقد عُين في كل من الرملة ويافا نائب قنصل بشكل متقطع. وقد أُقيم في الرملة منذ عام ١٧٠١م نائب قنصل تابع لصيدا. ولكن هذا المنصب غالباً ما بقي شاغراً ثم أُلغي. وحين قام البارون دوتوت برحلته التفتيشية على القنصليات الفرنسية في فلسطين وغيرها في آب/اغسطس ١٧٧٧م أوصى بإعادة منصب نائب القنصل إلى الرملة. أما يافا التي أصبح فيها مركز لنائب قنصل تابع إلى صيدا فقد ألغي هذا المنصب في عام ١٧٧٦م[٥٢].

وبالرغم من إقامة قنصل فرنسي في القدس في أواخر حكم الملك لويس الرابع عشر (ـ ١٧١٥م) فإنه لم يقم فيها أي تاجر فرنسي. وكان الهدف من إقامة القنصل إثبات نفوذ فرنسا الديني في القدس وحماية الحجاج الفرنسيين القادمين إليها. ويذكر ماسون أن أول قنصلين فرنسيين أُرسلا إلى القدس طُردا منها بعد فترة قصيرة من إقامتهما فيها. ونجحت محاولة فرنسية ثالثة في إقامة قنصل دائم في القدس بدءاً من عام ١٧١٣م[٥٣].

وهكذا نلاحظ أن الأولوية في التجارة في بلاد الشام الجنوبية كانت للتجار الفرنسيين كما يؤكد مؤرخو هذه التجارة من الفرنسيين والإنكليز على حد سواء[٥٤]. واحتكر الفرنسيون، بدون منافسة تُذكر من قبل الإنكليز، تجارة الواردات والصادرات في موانىء صيدا وعكا ويافا. واستمر الأمر كذلك حتى قيام الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م[٥٥].

وقد استفاد ظاهر العمر من نمو التجارة الفرنسية مع فلسطين واستخدم العائدات المالية في إقامة جيش من الزيادنة والجنود المرتزقة وفي تحصين قلاعه وبصورة خاصة عكا. وقد سيطر ظاهر في أواسط القرن الثامن عشر على عكا وحيفا وقيسارية والناصرة وطبرية، وخضعت له نابلس لبعض الوقت[٥٦]. وكان بعض هذه المناطق تابعاً لوالي دمشق وبعضها الآخر تابعاً لوالي صيدا.

واشتهرت عكا تجارياً بفضل جهود ظاهر العمر مثلما اشتهرت صيدا تجارياً في القرن السابع عشر إبان حكم فخر الدين المعني لها. وقد تفوّقت عكا على منافستها صيدا في عهد ظاهر بالنسبة لعدد السكان الذي بلغ ستة عشر ألفاً وللنشاط التجاري. وبلغ عدد التجار الفرنسيين المقيمين في عكا في عام ١٧٦٤م واحداً وعشرين يتوزعون على أربعة عشر من البيوتات التجارية الفرنسية[٥٧]. وأصبحت المراكب تبحر مباشرة إلى عكا وهو ما جعل القنصل الفرنسي في صيدا يكتب إلى غرفة تجارة مرسيليا ناصحاً بالتخلي عن صيدا إذا كان تجار مرسيليا سيرسلون مراكبهم إلى عكا ويمرون بصيدا بشكل عابر. واحتدم التنافس بين التجار الفرنسيين في كل من عكا وصيدا حول احتكار تجارة القطن في المنطقة. ولم تقبل مرسيليا بإلغاء مركزها التجاري في صيدا لصالح عكا حتى عام ١٧٨٥م حين وافقت إرضاءً لوالي عكا أحمد باشا الجزار[٥٨].

وقد تخللت العلاقات بين الفرنسيين وظاهر العمر الكثير من الأزمات نشأ بعضها عن قضايا فردية وبعضها عن قضايا تجارية ومالية. فقد حدث مثلاً خلاف بين ظاهر وأحد كتبته المدعو يوسف الأرقش بسبب قضايا ماليّة. ولجأ الأرقش إلى ديلان de Lane، القنصل الفرنسي في صيدا وكتب الأرقش إلى وزير الدولة الفرنسي لشؤون البحرية الكونت دوموريبا Comte de Maurepas في ٢٦ شباط/فبراير ١٧٤٥م يشرح له ظلامته ضد نائب القنصل الفرنسي في عكا وتاجر فرنسي آخر وكذلك ضد ظاهر. وجاء في كتاب الأرقش:

«يعرض العبد الحقير أنني أنا عبد عبيد بابكم يوسف الأرقش الكاتب كنت كاتباً عند الشيخ ظاهر العمر ولما نظرته مرتكب العصيان على دولة آل عثمان قصدت أن أخرج من خدمته، وقبل خروجي من خدمته وضعت جميع ما تملكه يدي بطريق الأمانة عند الخواجة يوسف بلان (نائب القنصل في عكا) والخواجة مونيان [Mognan]...».

وكان احتجاج الأرقش أن هذين الفرنسيين لم يسلماه الأمانة(٥٩). وقد ردّ ظاهر إلى الكونت دوموريبا برسالة بتاريخ (؟) حزيران/يونيو ١٧٤٥م يشكو فيها القنصل الفرنسي في صيدا الذي عيّن الأرقش لديه وجاء فيها:

«سلطانم ـ الجناب العالي حضرة ولي النعم عالي الهمم وزكي الشيم الدستور المكرم والوزير المحترم أفندم ـ دام بقاه ـ غب إبلاغ الدعا بدوام بقاكم على الدوام وتم المعروض أنه ليس خافي على سعادتكم أنني حاكم في ديرة بلاد صفد ولي التسلّط بها بأمر ولات الأمور ومن حين وقوفنا إلى يوم تاريخه قايمين في لوازم أحبابنا طايفة الفرنساوية وجميع مسيرنا معهم بالمحبة وكمال الصدق والصداقة ولا ندع يذهب لهم قرش واحد في ساير بلادنا ولم نزل مقيمين لهم على حفظ المودة والله شاهد على ذلك. غير أن الذي ألزمنا لتحرير سطور العبودية لجنابكم السامي هو أنه من مضيت سنة من تاريخه كان عندنا كاتب متقيد في بابنا وجميع محاصيل بلادنا الذي تدخل لنا والخارجة منا في يده فطغاه الشيطان إلى أن خاننا بجانب دراهم هلقدر وفرّ من عندنا هارباً. وبعد مدة من الزمان تعين عند حضرة محبنا القنصل ديلان الذي في صيدا فلما أخذنا خبره حررنا مكتوب منا إلى القنصل ديلان وعرفناه أن الكاتب الذي تعين عندكم هذا كان في السابق عندنا كاتب وخاننا بجانب دراهم هلقدر وفرّ هارباً نترجاكم تحصلوا لنا منه الذي خاننا فيه كون أنه عندكم وتحت يدكم ونحن مأمولنا أن القنصل ديلان محب لنا ولا يطابق على ضررنا فطلع ضننا بطّال وأملنا بخلاف لأنه أرسل يتعدر لنا عنه عدورات فارغة ويذكر لنا أن دعوانا على الكاتب المذكور بغير حق... وقفنا على حقيقة الأمر من أناس صادقين بكلامهم أن الكاتب عمل مقدار دراهم إلى القنصل لأجل حمايته عنده...»(٦٠).

ويلاحظ في رسالة ظاهر إثارته لأمر حماية القنصل الفرنسي لأحد الرعايا المحليين وهذا أمر استفحل فيما بعد.

وفي رسالة أخرى من ظاهر العمر إلى الكونت دوموريبا ملحقة برسالته السابقة يشكو من أن أحد الفرنسيين الملتزمين لأموال الميري في عكا يمانع في تسليم الأموال إلى ظاهر. ويدل هذا على مدى نفوذ التجار الفرنسيين آنذاك وتعيين أحدهم ملتزماً. وقد جاء في رسالة ظاهر:

«أن موسو روسو الفرنساوي الذي قاطن في مدينة عكا صار له مقدار سبع سنين مقارش مال الميري وفي كل سنة يأخذ أرزاق من بلادنا تحت دراهم الميري الذي في كل سنة يدفعها إلى وزير مدينة صيدا في أصل مال الميري الذي في عهدتنا ففي هذه السنة وقعت فتنة فيما بيننا وبين صاحب المقاطعة الذي موسو روسو عميله ومتعهد لنا في الميري المتوجبة عليه ولأن باقي لنا على صاحب المقاطعة جانب دراهم من الميري المذكورة لزم أننا جينا إلى عند موسو روسو بأنفسنا وطلبنا منه أن يعطينا دراهم الميري الذي دخلت جواته من بلادنا لأجل ما ندفعها إلى الدولة فما أمكن يدفع لنا شيء... فهذا الأمر سلطانم قوي عسر علينا نترجا سعادتكم إن شيتم تحرروا إلى قنصل صيدا وإلى طايفتكم يكونوا ماشيين معنا بالصدق والصداقة كما نحن ماشيين معهم لأنهم من خالص أحبابنا وغايت الرجا عدم إخراجنا من فيض خاطركم العاطر ويدوم لنا بقاكم»(٦١).

ولم يكن تدخل الفرنسيين في قضايا الأموال الميرية كملتزمين أو وسطاء للملتزمين مقتصراً على هذا الحادث فهناك إشارة أخرى إلى توسط غير ناجح من قبل قنصل صيدا السيد ديلان لاثنين من آل حمود وهما أحمد ويوسف ليحصل لهما على الالتزام كما تشير صورة ورقة شهادة صادرة عنهما بتاريخ ١٠ صفر ١١٦٠هـ / ٢١ شباط/فبراير ١٧٤٧م:

«وجه تحرير الحروف هو أنه قبل تاريخه تفاوضنا مع عزيزنا ديلان قنصل طايفة الفرنساوية سابقاً بمدينة صيدا أن يأخذ لنا عن يديه التزام لثلاث مقاطعات الميري وهما مدينة صيدا وعكا وبيروت في سنة مارت(*) سبعة وخمسين وماية وألف من يدي جناب الدستور الوقور علي باشا، فبعد إقراره إلينا بذلك أردنا ندفع له ألفين غرش نظير الخدمة وحررنا له تمسك بذلك ثم منع رجا القنصل ديلان وما صار لنا التزام والتزم بالمقاطعات من علي باشا محمد كتخدا في سنة سبعة وخمسين وماية وألف وثم باقي التمسك عند القنصل ديلان إلى هذا الآن فطلب منا هذه الشهادة

(*) تعني آذار وفق التقويم الرومي الذي يتبع السنة الهجرية ويستخدم الأشهر الشمسية الميلادية وبه تبدأ السنة المالية العثمانية.

فهو كما جرى وتحررت في هذا الصك لثبات الشهادة تحريراً في عشرة أيام من شهر صفر الخير سنة ستين ومائة»(٦٢).

وقد تخللت العلاقات بين الفرنسيين وظاهر العمر الكثير من الأزمات بسبب تحديد ظاهر لأسعار القطن وإجبار الفرنسيين على شرائه بالسعر الذي يريد(٦٣). واستاء الفرنسيون من ذلك لأنّ أحداً من التجار الأجانب لم يستطع منافستهم في احتكار تجارة المنطقة. ومما زاد في العداء بينهم وبين ظاهر محاولة هذا الأخير استعداء الإنكليز ضدهم، ولكن اهتمام هؤلاء كان منصبّاً على تجارة شركة بلاد المشرق The Levant Company في حلب ولم يبالوا كثيراً بالمتاجرة مع فلسطين(٦٤). كما أن تودد ظاهر العمر إلى أوزغيت Usgate نائب القنصل الإنكليزي في عكا، الذي كان التاجر الإنكليزي الوحيد فيها ويرعى فضلاً عن ذلك مصالح كل من هولندا والبندقية، لم يكسبه دعم الإنكليز لأن أوزغيت نفسه عانى كالفرنسيين من ابتزاز ظاهر العمر وفرضه الأسعار التعسفية. ولهذا توجه بالشكوى، مثلهم، إلى رؤسائه في استانبول للضغط على ظاهر العمر ولكن بدون جدوى بسبب انشغال سلطات استانبول بأمور أكثر إلحاحاً، وكذلك بسبب شراء ظاهر الدعم في استانبول(٦٥).

وشعر الفرنسيون أخيراً أن سلطة ظاهر مستتبة ويجب التعامل معه لحماية مصالحهم التجارية، لذا توصلوا إلى اتفاق معه في ١٢ تموز/يوليو ١٧٥٣م ينظّم أمور التجارة بينهم. وقد وقّع الاتفاق كل من ظاهر العمر وقنصل فرنسا في صيدا دو فرايون de Verrayon(٦٦).

ويبدو أنه حدث تلكؤ من جانب الفرنسيين في تطبيق بنود الاتفاق وهو الأمر الذي حمل ظاهر على أن يكتب إلى وزير الدولة الفرنسي لشؤون البحرية في ٨ رجب ١١٦٧هـ / ١ أيار/مايو ١٧٥٤م ويثير معه ذلك، ويشكره أيضاً على استدعاء قنصل صيدا الذي كان معادياً له. وجاء في كتاب ظاهر بالعربية:

«الأن قد عرفتونا أن سعادتكم رأيتم وجه الصواب بحضور القنصل صيده إلى بابكم العالي فمن ذلك حصل الفرح الزايد عند العال والدون من رعايا وغيره لأن في مدة إقامته في هذه الأطراف لم حصل إلّا الضيق والضجر أولاً للتجار وثانياً إلى الفقراء بسبب عناده في عدم سلوك الحال وبقلة توفيقه لهم في الأخذ والعطا وتشهيل المتجر كالمعتاد... وسبب عدم الوفق ما بيننا وبينه فقط لأجل قيام العناد ولم يزل مضاددنا ومعاندنا في كل أمر يغثني ويغمني ونحن لأجل الاحترام الواجب إلى الباب العالي الفرنساوي وإكراماً إلى سعادتكم احتملت جميع ذلك ومضيته بالصبر والاحتمال... فأولاً أرمى الفتنة ما بيني وبين أحد مشايخ المتاولة الذي كان ما بيننا محبة أكيدة وثانياً كتب إلى وزير الشام ضدّي بيترجاه حتى يعين واحد من أولادي الذي كان خارج من طاعتي حتى ان الولد المذكور يستمر على غروره ويخرب نظام البلاد وهكذا صار. وثالثاً كتب إلى آغة حيفا التي هي من حكمنا أن يمنع تفريغ وسق الأقواف في ذلك الطرف بل انه حالاً يوجههم إلى صيدا ويفرغوا وسقهم هناك... لأجل أن يعدمنا عوايد الكمرك العايد إلينا بأمرها في تفريغ الوسق في أسكلة صور العايد كمركها إلى صيده... وتم الوفق الذي صار من مدة يسيرة ما بيننا وبين القنصل دفرايون [de Verrayon] عن يد وكيله قنصل فوكيه في عكا فيا صار إلا على شرط أن الحال يسلك والمتجر يدرج والقسمة تبطل وكل شيء يرجع إلى مجراه وكل هذا اعتمدنا عليه وصدّقناه والحال أن إلى الآن لم نرى شيء من الشرط المذكور وكل شيء باقي على ما كان... ولكن لنا رجا أن سعادتكم قريباً تامروا التجار يتاجروا بالأخد والعطي كعادتهم ولم يشاهدوا منا إلا وجوه الرعاية والغيرة على حفظ أموالهم وأخذهم وعطاهم كمثلما يكون عين رزقنا وكذلك في تحصيل الذي لهم في بلادنا فأخيراً المرجوا من سعادتكم أن رسمتم من غير مأموراً على جنابكم تأمروا بانتخاب قنصل جديد لصيده من انتخابكم الحميد لأجل راحة الطايفة وغيرها...»(٦٧).

والطريف في الأمر أن النص العربي لرسالة ظاهر يحمل توقيعه بدون ألقابه في حين أن النص الفرنسي للرسالة الذي لا يشكّل ترجمة حرفيّة لها يحمل توقيع ظاهر وألقابه بالعربية: (ظاهر عمر ضابط عكا وبلاد الجليل)، ولعل الترجمة تمّت من قبل ظاهر أو استعير خاتمه للتصديق عليها.

وتتجلّى في لهجة ظاهر ليونة وحرص، في الوقت ذاته، على إبقاء التعامل مع التجار الفرنسيين وتعهد من قبله برعاية مصالحهم. ولا شك أن تطور إمارته والجيش الذي أقامه والتحصينات التي أخذ بتشييدها تقتضي منه موارد اقتصادية مستمرة. كما أن ثورة أحد أبنائه عليه التي أشار إليها واتهم القنصل الفرنسي المعزول بإثارتها لا بد وأنها أضعفت موقفه تجاه أعدائه وعلى رأسهم والي دمشق. لذا كان من مصلحته كسب الفرنسيين إلى جانبه.

وهكذا أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا بين التجار الأجانب في المتاجرة مع فلسطين. فالإنكليز يهتمون بتجارتهم في حلب والهولنديون لا يتاجرون مع سواحل فلسطين إلّا نادراً لأن نشاطهم التجاري يتمركز في الخليج العربي، والبنادقة انهارت تجارتهم في المنطقة، والجنويّون يتاجرون تحت علم فرنسا، ولا تزداد أهميتهم إلّا في أوقات الحروب بين فرنسا وإنكلترا كما حدث مثلاً في حرب السبع سنوات ١٧٤٦ ــ ١٧٥٣م حين

استخدم الفرنسيون مراكب الجنويين في نقل بضائعهم. ولم يكن لأية دولة من الدول الألمانية ومنها بروسيا والامبراطورية الجرمانية المقدسة في فيينا أي قناصل في سوريا حتى نهاية القرن الثامن عشر[٦٨]. ويقدّر شارل ــ رو Charles-Roux أعداد التجار الفرنسيين والذين يعملون لحسابهم في عام ١٧٦٤م فيما يسميه سوريا وفلسطين، أي بلاد الشام، وفق الجدول رقم (٤ـ ٢)[٦٩]:

الجدول رقم (٤ ــ ٢)
أعداد التجار الفرنسيين والعاملين لحسابهم
في سوريا وفلسطين في ١٧٦٤م

المركزالتجاري	موظفون	تجار	حرفيون وخدم	وكلاء	المجموع
الاسكندرونة	١	٢	ــ	١	٤
حلب	١٢	١٢	٦	١٢	٤٢
طرابلس الشام	٥	٥	ــ	٥	١٥
اللاذقية	١	٢	ــ	ــ	٣
صيدا	٦	١٣	٢	١٣	٣٤
عكا	٣	١٠	٢	ــ [٨]	٢٣
يافا	ــ	١	ــ	ــ	١
الرملة	٢	٤	ــ	٢	٨
المجموع	٣٠	٤٩	١٠	٣٣ [+ ٨]	١٣٠

يـلاحظ في الجدول رقم (٤ ــ٢) كثـرة أعـداد التجـار الفرنسيين ومن يعمل لحسابهم في حلب، ولا غرابة في ذلك لأهمية حلب من ناحية وَلِقِدم الوجود التجاري الفرنسي فيها الذي يرقى إلى الأربعينات من القرن السادس عشر. ولكن يلفت النظر أن الفرنسيين المتعاملين مع حلب وموانيها الاسكندرونة وطرابلس واللاذقية يبلغ مجموعهم ٦٤ فرداً في حين أن المتعاملين مع صيدا والموانىء الفلسطينية يعدّون ٦٦ فرداً، مما يدل على الأهمية التي أصبحت عليها تجارة الجنوب ومن خلالها تجارة فلسطين.

وإذا اعتبرنا أن أعداد التجار الفرنسيين دون غيرهم في الجدول رقم (٤ ــ ٢) تمثل فعلاً النشاط الفرنسي في المنطقة فإن أعداد هؤلاء في المنطقة الجنوبية تبلغ ٢٨ من أصل ٤٩ تاجراً. ويلاحظ خطأ في مجموع من هم في خدمة التجارة الفرنسية في عكا وربما سقط عدد الوكلاء خطأ وعددهم يجب أن يكون ثمانية. وفي إحصاء آخر مبني على سجلات غرفة تجارة مرسيليا قُدّر عدد تجار عكا في السنة ذاتها (١٧٦٤) بأنهم واحد وعشرون[٧٠]. ومما يدل على التزايد الحثيث في أعداد التجار الفرنسيين في المنطقة في أواسط القرن الثامن عشر أن عددهم في صيدا في عام ١٧٥٦ قُدّر بخمسة وعشرين[٧١]، في حين أنه أصبح بعد ثماني سنوات أربعة وثلاثين.

وعانت فلسطين في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر كثيراً من الاضطرابات السياسية التي عمّتها والغزوات الخارجية التي دهمتها بدءاً بثورات أبناء ظاهر، ثم بهجوم المماليك من مصر عليها في عهد علي بك ومحمد بك أبي الذهب بين ١٧٧٠ و ١٧٧٥م، ثم سيطرة أحمد باشا الجزار وتعسفه، وأخيراً هجوم نابليون بونابرت في ١٧٩٩م، يُضاف إلى ذلك حدوث نكبات طبيعية كانتشار الجراد والقحط والطاعون[٧٢].

وقد انعكست هذه الأحداث على الوضع الاقتصادي في فلسطين وجوارها فزادته إرباكاً وانحطاطاً، فقد ذكرت رسالة القنصل الفرنسي في صيدا بتاريخ ٢١ أيار/مايو ١٧٧٢م بأن التجارة متوقفة بسبب الاضطرابات[٧٣]. وقد وصف تقرير فرنسي من صيدا في عام ١٧٧٣م الأوضاع التجارية السيئة وبخاصة ما يتعلق بصادرات فلسطين التي قاست في السنوات الأربع أو الخمس الماضية، كما يقول التقرير، من الاضطرابات والحروب التي عمّت المنطقة. فالفلاّح أصبح جندياً، وزراعة الأرض أُهملت، وتناقصت معظم المنتجات، والقليل من القطن الذي ينتج ارتفعت أسعاره بحدة. ومما زاد الأمر سوءًا، استبداد الحكّام وجشعهم واحتكاراتهم التي تبتلع كل شيء. ويذكر التقرير أن صادرات المنطقة تشتمل بدرجة رئيسية على القطن من صيدا والقدس والصوف من عكا والقِلي من غزة لصناعة الصابون في مقاطعة البروفانس Province في فرنسا، وقد تضاءلت صادراته. وتستورد فرنسا كذلك الرز والقمح في أوقات الأزمات منها[٧٤].

وجاء في رسالة أُخرى لقنصل صيدا بتاريخ ١٢ كانون الثاني/يناير ١٧٧٣م أنه يصدّر في الأوقات العادية بين ثلاثة إلى أربعة آلاف بالة من غزل القطن سنوياً ولكن الأوضاع الحالية خفضت الكمية في عام ١٧٧٢م إلى خمسمائة بالة[٧٥]. وتذكر رسالة أُخرى من عكا بتاريخ ١٩ أيلول/سبتمبر ١٧٧٥م بأن الطبيعة أكثر خيراً من الإنسان لأن موسم القطن ذلك العام ممتاز جداً ويبتهل صاحبها إلى الله أن يعم الهدوء في عكا والريف لتشجيع السكان على الاستقرار والزراعة[٧٦].

وقد وصل إلى فلسطين، في تلك الأثناء، البارون دو توت موفداً من فرنسا بمهمة التفتيش على المراكز التجارية الفرنسية،

ونزل في يافا في ٢٨ آب/اغسطس ١٧٧٧م. ويذكر أن يافا قليلة الازدهار وسكانها بتناقص. وتقوم تجارتها على تصدير غزل القطن إلى أوروبا وتصدير زجاج الخليل واستيراد الرز من دمياط لسد حاجة القدس ونابلس والرملة. ويشيد بمستقبل الرملة التي تتاجر بالقطن المغزول من القدس بسبب موقعها التجاري بالنسبة للقدس وغزّة ويافا ومصر. ويصف خصوبة الأرض بين البحر وجبال القدس، ويطري الهدوء الذي ساد عكا ومنطقتها في عهد ظاهر وتشجيعه للتجارة التي أخذت بالانحطاط بعد موته(٧٧).

وتصف رسالتان قنصليتان فرنسيتان من عكا (٢٧ أيلول/سبتمبر ١٧٧٧م) وصيدا (١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٧٧٧م) أوضاع التجارة السيئة في المنطقة بسبب استمرار الحروب المحلّيّة واستبداد الحكام. فالفلاحون هربوا من قراهم، والأرض بمعظمها غير مزروعة، والمحاصيل بالتالي قليلة جداً(٧٨). وتتهم رسالة لاحقة الجزّار بفرض ضريبة جمركية مضاعفة على تصدير قِلي غزّة من ميناءي عكا ويافا الخاضعين له(٧٩).

وقد ذكر أن الجزار هدم خلال السنوات الثلاث الأولى من حكمه (١٧٧٥ ــ ١٧٧٨م) كل الأعمال الحسنة التي بناها ظاهر العمر خلال خمسين عاماً(٨٠). وبناء على طلب غرفة تجارة مرسيليا حاول السفير الفرنسي في استانبول أن يوغر صدر الباب العالي ضد الجزّار ففشل. ولهذا سعى الفرنسيون إلى كسب وُدّ الجزار وتوسطوا له في استانبول، كما ذكرت مراسلاتهم، للحصول على رتبة وزير في عام ١٧٨٤م وعلى تعيينه على ولاية دمشق في عام ١٧٨٥م(٨١). ولكن هذه الخدمات للجزار أتت بمردود عكسي للفرنسيين إذ أخذ الجزار بمضايقتهم وابتزاز المال منهم.

ومما أضرّ بالتجارة الفرنسية في فلسطين، فضلاً عن الاضطرابات، التنافس بين البيوتات التجارية الفرنسية في تسليف مشايخ القرى مبالغ من المال، قبل الموسم بثلاثة أو أربعة أشهر، شريطة أن يحصلوا على المحصول. ويقوم مشايخ القرى بتسديد ضرائب الميري من هذه المبالغ وكانوا يدخلون في خلافات مع التجار حول نوعية المحصول من القطن الذي يجبرون على شرائه. وتشكّى تجار عكا الفرنسيون كذلك من شراء تجار حلب والقاهرة الفرنسيين أيضاً قطن عكا بأسعار منافسة لهم. والسبب في ذلك أنه لا توجد شركة واحدة يتبعونها كما هو الحال بالنسبة للتجار الإنكليز(٨٢).

وقد أضرّ بسمعة الإنتاج المحلي عدم تقيد البائعين بشروط البيع. فقد جاء في رسالة للقنصل الفرنسي في عكا بتاريخ ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٨٧٤م أن قطن صفد قد أتى بربح قدره ٢٠ ٪ لدى وصوله إلى مرسيليا. ولكن مزجه من قبل بائعيه بقطن نابلس الأقل قيمة أدّى إلى انهيار سعره(٨٣).

ويشتد الخلاف بين التجار الفرنسيين في عكا والجزار في عام ١٧٩٠م. ولم يكن زملاؤهم في صيدا أحسن حالاً. ولكن السكان المحليين كانوا بحاجة إلى بقاء هؤلاء التجار لبيع منتجاتهم. ومع ذلك طرد الجزار تجار عكا وصيدا الفرنسيين وأبلغهم ذلك بواسطة كاتبه يوسف قرداحي. وكان هذا أحد المتنفذين لدى الجزار إلى جانب مستشاريه ميخائيل وبطرس سكروجة وابن الأول يوسف سكروجة وكذلك أبو الوفا العلمي قاضي عكا. وبالفعل غادر الفرنسيون هاتين المدينتين في ٢٦ تشرين الأول/اكتوبر ١٧٩٠م، فذهب قسم منهم إلى طرابلس وقسم آخر إلى يافا التي تتبع دمشق. وكان ممن ذهب إلى يافا قنصل عكا. وبلغ عدد الذين ذهبوا منهم إلى طرابلس سبعة وأربعين شخصاً، وعدد الذين ذهبوا إلى يافا ثمانية عشر شخصاً(٨٤) واستغل تجّار حلب الفرنسيون أزمة زملائهم في عكا وصيدا فأخذوا يتاجرون مع هاتين المدينتين(٨٥).

وحاول الفرنسيون من ناحيتهم العمل على تنحية الجزّار لتحسين تجارتهم، وكتب بذلك قنصل عكا ريناندو Renandot في أيار/مايو ١٧٩٠م إلى غرفة تجارة مرسيليا يذكّرها بخصوبة سهول الجليل وصفد ونابلس وبالكميات الكبيرة التي يصدّرها الفرنسيون من عكا من القطن والصوف والقمح والشعير والذرة وزيت الزيتون والعفص والقِلي وبعض الحرير، وتعمل اثنتا عشرة مؤسسة تجارية فرنسية على تبادلها بمنتجات فرنسا. كما أن يافا تصدر غزل القطن الذي يحمل اسم القدس والقِلي وبعض الزيت وكميات كبيرة من القمح. ويقوم بهذا التصدير ست مؤسسات فرنسية مقيمة في الرملة، وهناك حاجة إلى زيادة عددها. ويشير القنصل إلى الوضع المأساوي الذي يعيشه وزملاؤه في عهد الجزّار(٨٦).

وتبعاً لذلك تقدم رئيس غرفة تجارة مرسيليا وأعضاؤها بشكوى إلى وزير الدولة الفرنسي لشؤون البحرية يعرّفونه بوضع التجارة الفرنسية في فلسطين وبطرد التجار الفرنسيين من صيدا وعكا وبالخوف من مداهمة مراكب الجزّار للمراكب الفرنسية في عمليات قرصنة، ويوصون بإرسال قوات إلى سورية لحماية التجارة الفرنسية، كما يطالبون بإقالة قنصل عكا ريناندو الذي يتحمل بعض مسؤولية ما حلّ بالتجار الفرنسيين، ويطلبون بأن يعوّض الباب العالي في استانبول للتجار الفرنسيين لقاء

خسارتهم[٨٧]. ولكن باريس كانت آنذاك تتأجج فيها الثورة الفرنسية. وكل ما فعلته سلطاتها هو إغلاق القنصليات التي يقوم فيها نواب قناصل مثل عكا ويافا والرملة وشمل ذلك صيدا أيضاً[٨٨]. وتأجل العمل العسكري في فلسطين لحماية التجارة الفرنسية حتى حملة نابليون بونابرت في عام ١٧٩٨م.

وإذا ما ترجمنا الأحداث السياسية والأزمات الاقتصادية السابقة إلى أرقام نصل إلى واقع التجارة الفعلي في فلسطين التي تأثرت بفعل هذه الأحداث، وباستعراض أرقام الصادرات (١٧٨٥ ـ ١٧٨٩م) بانحدار سريع من نسبة ١٢ ٪ من صادرات الدولة العثمانية في أعوام ١٧٦٥ ـ ١٧٦٩م إلى ٧ ٪ في فترة ١٧٧٣ ـ ١٧٧٧م ثم إلى ٥ ٪ في الفترة التالية. وهذا دليل ملموس على أن الاضطرابات التي عصفت ببلاد الشام بعامة وبقسمها الجنوبي، بما فيه فلسطين، بخاصة، في أعقاب هجومين مملوكيين ومقتل ظاهر العمر وقصف الأسطول الروسي بيروت، كانت لها انعكاساتها الحادة. ويلاحظ ذلك في تدنّي نسبة صادرات سوريا الجنوبية بالنسبة لصادرات سوريا ككل.

الجدول رقم (٤ ـ ٣)

جدول متوسط صادرات سوريا ككل وصادرات سوريا الجنوبية ونسبتها إلى الصادرات العثمانية ككل إلى مرسيليا[٩٠]

السنوات	صادرات سوريا	نسبتها العثمانية	صادرات سوريا الجنوبية	نسبتها العثمانية	نسبة صادرات سوريا الجنوبية إلى سوريا
١٦٧١ ـ ١٦٧٥م	١,٩٤٧,٠٠٠	٢٩,٠٠[٩١]	٩٦٥,٠٠٠	٪ ١٤,٤٠	٪ ٤٩,٥٦
١٦٨٦ ـ ١٧٠٠م	١,٩٧١,٠٠٠	٪ ٢٥,٠٠	١,٢٣٥,٠٠٠	٪ ١٦,٠٠	٪ ٦٢,٦٦
١٧١١ ـ ١٧١٥م	٣,٥٠٢,٠٠٠	٪ ٢٥,٢٥	٢,٢٧٨,٠٠٠	٪ ١٦,٠٠	٪ ٦٦,٠٥
١٧١٧ ـ ١٧٢١م	٤,٤٣٥,٠٠٠	٪ ٢٨,٠٠	٣,٢٥٦,٠٠٠	٪ ٢٠,٥٠	٪ ٧٣,٤٢
١٧٢٤ ـ ١٧٢٨م	٣,٨٠٦,٠٠٠	٪ ٢٨,٠٠	٢,٢٢٤,٠٠٠	٪ ١٦,٨٠	٪ ٥٨,٤٣
١٧٣٦ ـ ١٧٤٠م	٥,٠٣٩,٠٠٠	٪ ٣٤,٧٥	٣,٣٧٣,٠٠٠	٪ ٢٣,٢٥	٪ ٦٦,٩٤
١٧٥٠ ـ ١٧٥٤م	٥,٧٨٠,٠٠٠	٪ ١٦,٠٠	٣,٧٠٢,٠٠٠	٪ ١٦,٦٥	٪ ٦٤,٠٥
١٧٦٥ ـ ١٧٦٩م	٥,٧١٦,٠٠٠	٪ ٢٢,٠٠	٣,١٣٨,٠٠٠	٪ ١٢,٠٠	٪ ٥٤,٩٠
١٧٧٣ ـ ١٧٧٧م	٤,٢٥٨,٠٠٠	٪ ١٥,٢٥	١,٩٦٥,٠٠٠	٪ ٧,٠٠	٪ ٤٦,١٥
١٧٨٥ ـ ١٧٨٩م	٥,٣٢٧,٠٠٠	٪ ١٤,٠٠	١,٨١٠,٠٠٠	٪ ٥,٠٠	٪ ٣٣,٩٨

والواردات وأنواع السلع تتبين لنا الكميات المصدرة والمستوردة وأنواعها. وقد اصطلح التجار الفرنسيون على تقسيم سوريا (بلاد الشام) إلى قسمين جنوبي وشمالي، وتضم سوريا الجنوبية المراكز التجارية في طرابلس وصيدا وعكا ويافا والرملة، في حين تضم سوريا الشمالية حلب والإسكندرونة واللاذقية. ويبين الجدول رقم (٤ ـ ٣) صادرات سوريا ككل وصادرات القسم الجنوبي منها مقدّرة بالليرة الفرنسية. ويعادل القرش العثماني الصاغ ليرتين ونصف[٨٩].

يلاحظ في الجدول رقم (٤ ـ ٣) أن صادرات سوريا، أو بلاد الشام بعامة، قد بلغت أعلى نسبة لها بين صادرات الدولة العثمانية ككل إلى مرسيليا في الفترة بين ١٧٣٦ ـ ١٧٤٠م. ثم أخذت بالتراجع في الفترة بين ١٧٧٣ ـ ١٧٧٧م التي تعد فترة أزمات بالنسبة لسوريا بعامة وجنوبها بصورة خاصة، ويتأكد تأثر صادرات سوريا الجنوبية في تلك الفترة والفترة التي تليها

ومما يلفت الانتباه كذلك أن صادرات سوريا الجنوبية شكّلت أكثرية صادرات سوريا إلى مرسيليا في معظم الفترات، وهذا دليل على غنى سوريا الجنوبية بما فيها فلسطين، وتجمع الثروات الطبيعية فيها، ومساهمتها في تعديل الميزان التجاري الخارجي. وينقلنا هذا إلى نوعية الصادرات من سوريا الجنوبية إلى فرنسا والواردات الفرنسية إلى سوريا الجنوبية ومقدارها عبر فترات زمنية منتقاة من أوائل القرن الثامن عشر وأواسطه وأواخره مقدرة بالليرات الفرنسية[٩٢]. انظر الجدول رقم (٤ ـ ٤).

يلاحظ في جدول الصادرات والواردات رقم (٤ ـ ٤) بالنسبة للصادرات عدة حقائق أولها زيادة ثمن الصادرات من سوريا الجنوبية إلى مرسيليا على الواردات منها بصورة مطلقة. ثانياً، بلوغ نسبة الوفر أعلى مستوى لها في عينة ١٧٥٠ ـ ١٧٥٤م حيث زادت الصادرات على الواردات بمقدار ٢,٨٦١,٠٠٠ ليرة، مما يدلّ على نشاط زراعي محلي بلغ الأوج

الجدول رقم (٤ ــ ٤)
السلع الرئيسية المصدرة من سوريا الجنوبية إلى مرسيليا والمستوردة منها (بالليرات الفرنسية)

الصادرات	١٧٠٠ ــ ١٧٠٢م	١٧٥٠ ــ ١٧٥٤م	١٧٨٦ ــ ١٧٨٩م
المجموع العام	١,٤٤٦,٠٠٠	٣,٧٠٢,٠٠٠	١,٣٩٩,٠٠٠
غزل القطن	٧٤٥,٠٠٠	١,٣٠٥,٠٠٠	٤٢١,٠٠٠
قطن خام	٩٥,٠٠٠	١,١٣٤,٠٠٠	٦٩,٠٠٠
حرير	٤٣٧,٠٠٠	١,٠١٢,٠٠٠	٥٧٨,٠٠٠
منسوجات	ـ	٤٠,٠٠٠	٧٣,٠٠٠
عفص	٣٣,٠٠٠	٤٣,٠٠٠	٤٧,٠٠٠
عصارة الفوّة(*)	ـ	ـ	٩٣,٠٠٠
الواردات			
المجموع العام	ـ	٨٤١,٠٠٠	٨٢٤,٠٠٠
أجواخ	ـ	٥٦٧,٠٠٠	٣٥٣,٠٠٠
منسوجات	ـ	٧,٠٠٠	١٠٥,٠٠٠
أصبغة	ـ	١٢٠,٠٠٠	٨٨,٠٠٠
سكر	ـ	٦٨,٠٠٠	١٠٤,٠٠٠

(*) الفوّة نبات له عروق ينبت برياً في الشرق، يصبغ ويداوى به، وتُسمّى أيضاً عروق الصبّاغين.

بسبب ما شهدته سوريا الجنوبية آنذاك وبخاصة فلسطين من نشاط واهتمام وعناية بالزراعة في عهد ظاهر العمر، بالنسبة للتجار الفرنسيين، وذلك قبل أن تؤثر عليهم حرب السنوات السبع في أوروبا (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣م) بسبب الضرر الذي ألحقته بالملاحة الفرنسية. ثالثاً، هبطت قيمة الصادرات في الفترة بين ١٧٨٦ و١٧٨٩ إلى حوالي ٦٢٪ عما كانت عليه في فترة ١٧٥٠ ــ ١٧٥٤م بسبب سياسة الجزّار الجائرة وتعسفه بالنسبة للسكان المحليين وبخاصة النابلسيين وقتاله لزعمائهم من آل جرّار، وكذلك بالنسبة للتجار الفرنسيين. رابعاً، تشكّل المواد القطنية والحريرية الجزء الأكبر من الصادرات في العينات الثلاث وهذا يدل، كما في الفترة التي تلت الثورة الصناعية، على ارتباط الإنتاج الزراعي بالسوق العالمية وتأثره بالتالي بالأسعار التي تفرضها عليه. وتدلّ النسبة المتدنية لغزل القطن، في العينة الثالثة، على عدم الاستقرار الذي عانت منه اليد العاملة في غزل القطن بين الفلاحين وسكّان المدن. أما التدني الأكبر لصادرات القطن الخام فدلالته أهم لأنه يظهر إهمال الأراضي الزراعية من قبل أصحابها وبخاصة في فلسطين حيث تجود زراعة القطن. وبالمقابل، فإن عدم تناقص الحرير بنسبة مماثلة مردّه إلى أن مناطق إنتاجه الرئيسية هي في طرابلس وبيروت ولم تتأثر بالاضطرابات كما حدث في فلسطين.

ويُلاحظ أن الواردات من مرسيليا إلى سوريا الجنوبية تكاد أن تكون ثابتة في الفترتين الأخيرتين مما يدل على الحاجة إلى المنتجات الأوروبية، ولكن نسب الاستيراد لهذه المنتجات تتبدل فالأجواخ تتضاءل بنسبة ٣٨٪ تقريباً مما يدل على عدم قدرة السكان على شراء هذا النسيج الغالي الثمن وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار هبوط قيمة الصادرات بحوالي ٦٢٪، أما الزيادة في الاستيراد فتتناول المنسوجات الأقل ثمناً وكذلك السكر، في حين أن الأصبغة تتضاءل.

وإذا ما انتقلنا من الصادرات والواردات الرئيسيّة في منطقة واسعة مثل سوريا الجنوبية إلى دراسة أكثر التصاقاً بفلسطين نجد أن أرشيف غرفة تجارة مرسيليا يزوّدنا بمعلومات دقيقة في هذا الميدان. ونلاحظ في الجدول التالي الخاص بصادرات صيدا ما يحمل منها أسماء فلسطينية وبخاصة فيما يتعلق بالقطن وهو الإنتاج الرئيسي لفلسطين. وتعطي غرفة تجارة مرسيليا معلومات دقيقة حول كميّة الصادرات بالوزن أو بالحجم أو بالعدد (الدزّينة أو الصندوق) وسعر الوحدة فيها. وسنكتفي بذكر نوعية الصادرات القطنية الفلسطينية ومجموع قيمة كل مادة منها بالليرة الفرنسية[٩٣]. الجدول رقم (٤ ــ ٥):

الجدول رقم (٤ ــ ٥)

صادرات القطن من فلسطين إلى مرسيليا ونسبتها إلى مجموع صادرات صيدا خلال العقدين الأولين من القرن الثامن عشر للميلاد

المادة المصدرة	القيمة في ١٧٠٠م	النسبة	القيمة في ١٧١٠م	النسبة	القيمة في ١٧٢٠م	النسبة
غزل قطن ناعم من القدس	٢٢٧,٣٧١ (سعر الكنتال ٨٦)	٢٢,٣٤ ٪	١٤٨,٠٥٠ (سعر ١٠٠)	٢٦,٥٩ ٪	٥٣٢,١٤٠ (سعر ١٢٠)	٢١,٥٠ ٪
غزل قطن من القدس	٢٧,٤٦٥ (سعر ٧٧)	٢,٧٠ ٪	٣٤,٩٣٣ (سعر ٩٠)	٦,٢٧ ٪	٢٦,٧٠٠ (سعر ١٠٠)	١,٠٨ ٪
غزل قطن ناعم من الرملة	٧٢,٤٤٣ (سعر ٧٠)	٧,١٢ ٪	٢٣,١٨٥ (سعر ٧٨)	٤,١٦ ٪	٤٢,١٢٢ (سعر ٩٠)	١,٧٠ ٪
غزل قطن وسط من الرملة	١٧,٩٠٠ (سعر ٥٦)	١,٧٦ ٪	٩,٠٧٨ (سعر ٦٨)	١,٦٣ ٪	—	
المجموع	٣٤٥,١٧٩	٣٣,٩٢ ٪	٢١٥,٢٤٦	٣٨,٦٥ ٪	٦٠٠,٩٦٢	٢٤,٢٨ ٪
مجموع صادرات صيدا	١,٠١٧,٨٠٤		٥٥٦,٨١٨		٢,٤٧٥,٠٥٢	

وبالرغم من أن مجموع الصادرات من صيدا لا بدّ أنه يضم منتجات كثيرة أخرى من فلسطين مثل القطن الخام الذي لم يذكر مصدره أو أنواع الأقطان الأُخرى والأصواف والقلي والرز والكتان وغيرها، فإننا نلاحظ في الجدول رقم (٤ ــ ٥) أن غزل القطن المنسوب إلى فلسطين يشكل ٣٣,٩٢ ٪ من مجموع صادرات صيدا في سنة ١٧٠٠م و٣٨,٦٥ ٪ من مجموع صادراتها في عام ١٧١٠م و٢٤,٢٨ ٪ من مجموع صادراتها في عام ١٧٢٠م. ويلفت النظر أن غزل القطن الناعم المنسوب إلى القدس اما لأنه ينمو في منطقتها أو يحمل اسمها كنوعية متميّزة يشكّل في العينتين الأولين حوالي ثلثي صادرات فلسطين من غزل القطن. وفي العينة الثالثة يشكل حوالي ٨٨ ٪ من مجموع ذلك. كما أن سعر الكنتال منه[٩٤] يتفوق في العينات الثلاث على أسعار غزول الأقطان الأخرى. ويلاحظ كذلك أن سعر الكنتال من غزل القطن بالنسبة لكل فئة منه يزداد من عينة إلى أخرى. وقد يكون سبب ذلك الارتفاع في الأسعار انخفاض العملة أو كثرة الطلب على شراء غزول القطن من فلسطين.

ويصبح لعكا بعد أن غدت في عام ١٧٢٣ مقر نائب قنصل فرنسي مكانة تجارية خاصة بها وتذكر في إحصاءات غرفة تجارة مرسيليا إما منفردة أو تذكر مع صيدا وطرابلس. ففي عام ١٧٣٩م مثلاً ذكرت عكا على انفراد بالنسبة لقيمة البضائع التي صدرتها البيوتات maisons التجارية الفرنسية القائمة فيها. ويبين

الجدول رقم (٤ ــ ٦)

البيوتات الفرنسية في عكا في ١٧٣٩م وقيمة مشترياتها (بالليرات الفرنسية)

أسماء أصحاب البيوتات		مشترياتها بالليرات
باستور وجوف	(Pastour et Jouve)	٤٣,٧٦٠
كوز مانيان	(Cuze Magnan)	٦٨,٣٠٠
برجريه ولومباردون	(Bergeret et Lombardon)	٨٠,٠٠٠
جوزيف رو	(Joseph Roux)	٤,٣٠٠
بوسيه ورينو	(Beaussier et Reynaud)	١٦,٢٠٠
لامبير وشركاه	(Lambert et Comp^e^.)	١,٩٠٠
بلان وشركاه	(Blanc et Comp^e^.)	١٧,٠٠٠
المجموع: ٧ بيوتات		٢٣١,٤٦٠ ليرة

الجدول رقم (٤ ــ ٦) أسماء هذه البيوتات وقيمة المشتريات بالليرات الفرنسية التي صدرها كل بيت إلى مرسيليا.

المراكز الثلاثة في عام ١٧٣٩م كما وردت في الجدول رقم (٤ ــ ٧) مقدرة بالليرات الفرنسية.

الجدول رقم (٤ ــ ٧)
أعداد البيوتات الفرنسية في بعض المراكز التجارية في المشرق ومشترياتها في ١٧٣٩م

المركز	عدد البيوتات	النسبة	مجموع المشتريات	النسبة
صيدا	١٤	٣٥,٩٠٪	١,٧٩٧,١٦٠	٣٣,٩٩٪
عكا	٧	١٧,٩٥٪	٢٣١,٤٦٠	٤,٣٨٪
حلب	١٢	٣٠,٧٧٪	١,٩٢٢,٩١٠	٣٦,٣٦٪
طرابلس	٣	٧,٦٩٪	٧٩٠,٠٠٠	١٤,٩٤٪
قبرص	٣	٧,٦٩٪	٥٤٦,١٦٠	١٠,٣٣٪
المجموع	٣٩	١٠٠,٠٠٪	٥,٢٨٧,٦٩٠	١٠٠,٠٠٪

ويمكن أن نتبين أعداد البيوتات وقيمة مشترياتها في بعض المراكز التجارية الأخرى في المشرق من المقارنة المدرجة في الجدول رقم (٤ ــ ٧).

يلاحظ في الجدول رقم (٤ ــ ٧) أن حلب تتفوق على ما عداها في مشتريات الفرنسيين تليها صيدا فطرابلس ثم عكا. وينسجم هذا الترتيب مع الأهمية التي كانت لكل من هذه المراكز التجارية آنذاك. وبالمقارنة مع حلب التي يعود الوجود التجاري الفرنسي فيها إلى الأربعينات من القرن السادس عشر فإن عكا تبدو متفوقة وبخاصة أن هذا الإحصاء من عام ١٧٣٩م كان في بداية ازدهارها الاقتصادي وقبل أن يجعل منها ظاهر العمر مقر إقامته ومركز إمارته حين حصل على التزامها في عام ١٧٤٦م.

ويلاحظ كذلك أنه بالرغم من تفوق حلب في قيمة المشتريات الفرنسية فيها، فإنّ صيدا تتفوق عليها في عدد البيوتات الفرنسية المقيمة فيها. وهذا يدل على اجتذابها أعداداً أكبر من الفرنسيين بسبب التوقعات المستقبلية بالنسبة للتجارة فيها. وينطبق ذلك على عكا التي تحتل المركز الثالث في عدد البيوتات الفرنسية فيها بعد صيدا وحلب.

وتتأثر التجارة الفرنسية مع بلاد المشرق إبان حرب السنوات السبع (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣م) ومضايقة البحرية الإنكليزية للسفن الفرنسية في المتوسط، وينعكس هذا على أرقام الصادرات إلى مرسيليا كما في الجدول رقم (٤ ــ ٨) الذي يذكر صادرات صيدا وعكا وقبرص معاً في عام ١٧٥٩م[٩٥]. وسنقارن ذلك بقيمة الصادرات إلى مرسيليا من

الجدول رقم (٤ ــ ٨)
جدول الصادرات إلى فرنسا في عـامي ١٧٣٩ و ١٧٥٩م
(بالليرة الفرنسية)

العـام	مراكز صيدا وعكا وقبرص
١٧٣٩م	٢,٥٧٤,٧٨٠
١٧٥٩م	١,٢٨٤,٨٤٧

ونتبين التطورات التي طرأت على نشاط عكا وصيدا وطرابلس التجاري، حيث تذكر المراكز الثلاثة معاً، بالمقارنة مع مراكز تجارية أخرى في المشرق وذلك بالنسبة لصادراتها إلى مرسيليا وصادرات مرسيليا إليها خلال فترتين تتألف كل منهما من سبع سنوات: الأولى بين عامي ١٧٤٩ و١٧٥٥م، والثانية بين عامي ١٧٦٣ و١٧٦٩م[٩٦]، كما تبيِّن ذلك الجداول رقم (٤ ــ ٩) إلى رقم (٤ ــ ١٣) والقيمة فيها مقدرة بالليرة الفرنسية.

فإذا وضعنا البضائع المصدرة من مرسيليا إلى صيدا وعكا وطرابلس ضمن أبعادها الشامية والعربية تتبين لنا اهتمامات غرفة تجارة مرسيليا بالنسبة للتجارة مع الأقطار العربية ودور صيدا وعكا وطرابلس ضمن هذا الاهتمام. فالأولويّة في صادرات مرسيليا تخص حلب والإسكندرونة، تليها مصر، ثم صيدا وعكا وطرابلس، وبعد ذلك المغرب. والذي يلفت النظر أن صادرات مرسيليا إلى كل من حلب ومصر والمغرب كانت بتناقص بين عام

الجدول رقم (٤ ــ ٩)
قيمة البضائع المصدرة من مرسيليا في الفترة بين ١٧٤٩ ــ ١٧٥٥م (بالليرة الفرنسية)

السنة	صيدا وعكا وطرابلس	حلب والإسكندرونة	مصر	المغرب العربي[٩٧]
١٧٤٩م	٨١٧,٣١٧	٣,٧٧١,٧٠٢	٢,١٩٠,٥٠٧	٧٥٦,٢٩٢
١٧٥٠م	١,٠٦٢,٥٤٥	٢,١٤٥,٩١٨	٢,٣٠١,٢٠٩	٦٥٣,٣٧٨
١٧٥١م	٩١٥,٩٥٤	١,٩٥٧,٧٥٧	٢,٥٨٦,٦٣٢	٦١٨,٩٦٩
١٧٥٢م	١,٠٦٦,٢١٤	١,٧٩٢,٠٤٧	١,٥٠٥,٤٥٣	٤٨٦,٨٥٤
١٧٥٣م	٧٩١,٤٢٧	١,٩٤١,٧١١	١,٥٨٤,١٧٢	٤٤٧,٦٣٦
١٧٥٤م	١,٠١٩,٢٠٣	٢,٨٩٣,٩٩٦	١,٦٧٠,٢٨٢	٦١٧,٤٣٩
١٧٥٥م	١,٢١٧,٩٥٤	٢,٣٥٥,٥٥٠	١,٥٣٠,٤٧٣	٤١٦,٥٧٥
المجموع	٦,٨٩٠,٦١٤	١٦,٨٥٨,٦٨١	١٣,٣٦٨,٧٢٨	٣,٩٩٧,١٤٣
مجموع عدد السفن والمراكب	٧١	٧١	٨٠	١٠٩

١٧٤٩م الذي يمثل الذروة وعام ١٧٥٥م الذي يمثل الحضيض بالنسبة لمصر والمغرب وعام ١٧٥٢م بالنسبة لحلب. ولكن الصادرات إلى صيدا وعكا وطرابلس، على نقيض المراكز الأخرى، كانت في ازدياد بلغ ذروته في عام ١٧٥٥م، وهذا يدل على الاهتمام الفرنسي بسوريا الجنوبية من ناحية، وعلى مقدرة السكان المحليين على استهلاك هذه البضائع بسبب ازدهار الزراعة والتجارة بعامة في هذه المناطق، من ناحية أخرى. ويستمر هذا الازدياد في صادرات مرسيليا بالنسبة لصيدا وعكا وطرابلس، وكذلك بالنسبة للمغرب بشكل لافتٍ للنظر في الفترة التالية بين عامي ١٧٦٣ و ١٧٦٩م:

الجدول رقم (٤ ــ ١٠)
قيمة البضائع المصدرة من مرسيليا في الفترة بين ١٧٦٣ ــ ١٧٦٩م (بالليرة الفرنسية)

السنة	صيدا وعكا وطرابلس	حلب والإسكندرونة	مصر	المغرب العربي
١٧٦٣م	١,٨٠٢,١٠٣	٣,٢٣٠,٦٠٦	٢,٣٤٢,٣٩٥	٧٨٨,٣٢٣
١٧٦٤م	٢,٧٢١,٨٨٧	٢,٠٣٩,٧٥١	٢,٢٨٠,٢٢٤	١,١٢٩,٨٥٣
١٧٦٥م	١,١٣٦,٤٩٢	٢,٥٨٨,٦٣٨	٢,١١٤,٦٣٦	٩٧٩,١٤٦
١٧٦٦م	٩٢٩,٨٥٥	١,٩٩٦,٢٠٧	١,٦٠٢,١٢١	٦٩٨,٧١٧
١٧٦٧م	١,٤٣٠,٣٨٠	٢,٨٥٨,٨٢٥	٢,١٥٤,٤٤٥	٨٤١,٦١٧
١٧٦٨م	٢,١٢١,٦٣٧	٢,٢٥٢,٧٢٠	١,٧٨١,١٩٢	١,٣١٤,٨٩٧
١٧٦٩م	١,٥٢٤,٧٣٥	٢,٢٢١,٤٠٣	١,٩٨٣,٦٢٠	١,٥٤٠,٧٩٩
المجموع	١١,٦٦٧,٠٨٩	١٧,١٨٨,١٥٠	١٤,٢٥٨,٦٣٣	٧,٢٩٣,٣٥٢
مجموع عدد السفن والمراكب	٢٢٢	٧١	٩٩	٢٠١

يـلاحظ في الجـدول رقـم (٤ ــ ١٠) أن حـلب والاسكندرونة، كما في الجدول رقم (٤ ــ ٩)، تتصـدران قائمة البلدان التي تتلقى صادرات مرسيليا، تتلوها مصر ثم صيدا وعكا وطرابلس، وبعدها المغرب. ولكن مما يلفت النظر مدى ازدياد النشاط التجاري الفرنسي بالنسبة لصادرات مرسيليا إلى صيدا وعكا وطرابلس التي ازدادت بشكل كبير. ولا يتفوّق عليها في ذلك سوى المغرب العربي. فخلال أربعة عشر عاماً، بين عامي ١٧٥٥ و ١٧٦٩م، ازدادت الصادرات الفرنسية إلى صيدا وعكا وطرابلس بنسبة ٦٩,٣٢ ٪ في حين بلغت زيادتها بالنسبة إلى حلب والاسكندرونة ١٩,٥٤ ٪، وبالنسبة إلى مصر ٦,٦٦ ٪ وإلى المغرب ٨٢,٦٤ ٪. وتشير هذه الزيادات إلى الأهمية التي أولتها غرفة تجارة مرسيليا للمغرب العربي الأقرب إليها وكذلك إلى سوريا الجنوبية من بين كل المناطق في المشرق. كما أنها تدل على فترة الهدوء التي عمّت فلسطين والمناطق المجاورة في جبل لبنان في عهد ظاهر العمر قبل أن تضطرب أوضاعها في السبعينات من القرن. ويلاحظ كذلك أن سنوات الذروة في الصادرات الفرنسية بالنسبة لصيدا وعكا وطرابلس كانت سنة ١٧٦٤م، بعد انتهاء حرب السنوات السبع، وسنة ١٧٦٨م. ولعلّ التراجع في عام ١٧٦٩م مردّه إلى نشاط الأسطول الروسي المعادي للعثمانيين في شرقي المتوسط بسبب اشتباك الدولة العثمانية في حربها مع روسيا بين عامي ١٧٦٨ و ١٧٧٤م. أما حلب ومصر فكانت الصادرات الفرنسية إليهما ضئيلة جداً ربما بسبب منافسة دول أخرى للفرنسيين في المتاجرة معهما، وأيضاً بسبب ضعف النشاط التجاري عموماً بعد خسارة حلب لتجارة الحرير الفارسي وتهديد البدو خطوط القوافل عبر العراق وكذلك تهديد قطّاع الطرق نقل البضائع بين حلب والاسكندرونة وبالعكس. وبالنسبة لمصر قد يكون ذلك ناتجاً عن فوضى المماليك فيها بسبب محاولة علي بك المملوكي الترزعّم في مصر، وهو ما اقتضى اصطدامه بمنافسيه من أمراء المماليك. واضطر العثمانيون إلى الاعتراف به شيخاً للبلد، أي الحاكم الفعلي لها، ثم أعطوه في أواخر ١٧٦٨م لقب قائمقام وحلّ بذلك محل الحاكم العثماني.

ونلاحظ زيادة أعداد السفن والمراكب الفرنسية التي أمّت صيدا وعكا وطرابلس بشكل فاق أعدادها بالنسبة إلى حلب ومصر بمقدار الضِّعف. وكانت العادة أن تمر هذه السفن والمراكب بعكا وصيدا وطرابلس أولاً قبل أن تفرغ شحناتها في الموانىء السورية الشمالية. وربما كانت المراكب الأصغر، وبالتالي الأكثر عدداً، هي التي أمّت عكا وصيدا وطرابلس، كما في المغرب، بسبب قلّة الشحنات إليها بالمقارنة مع حلب والاسكندرونة مثلاً.

وتنعكس الاضطرابات السياسية في فلسطين وصيدا في أوائل السبعينات وكذلك سياسة الجزّار التعسفية واضطهاده للتجار الأجانب عموماً وللفرنسيين بخاصة بعد ذلك، على حجم التجارة في هذه المناطق فتتجه إلى التناقص، كما يوضّح ذلك الجدول رقم (٤ ــ ١١):

الجدول رقم (٤ ــ ١١)
قيمة البضائع المصدرة من مرسيليا إلى المشرق
في عامي ١٧٧٩ و ١٧٨٩م (بالليرة الفرنسية)

المنطقة	١٧٧٩م		١٧٨٩م
صيدا وعكّا	٤٤٢,٩٠٥	٦٦٧,٠٧٩	١,١٣٥,٨٢٢
طرابلس	٢٢٤,١٧٤		
الاسكندرونة وحلب	٧٥٠,٤١٦		١,٩٣٨,٢٦٦
المجموع	١,٤١٧,٤٩٥		٣,٠٧٤,٠٨٨

يلاحظ أن البضائع المصدرة من مرسيليا إلى صيدا وعكا وطرابلس في عام ١٧٧٩م والبالغ مجموع قيمتها ٦٦٧,٠٧٩ ليرة فرنسية تشكّل ٤٣,٧٥ ٪ من قيمة البضائع المصدرة من مرسيليا إلى هذه المناطق في عام ١٧٦٩م. ويدل هذا على أثر الاضطرابات في سورية الجنوبية خلال عشر سنوات على الصادرات إليها. وإذا كان الوضع قد تحسن في عام ١٧٨٩م فارتفعت الصادرات إلى المناطق ذاتها إلى ١,١٣٥,٨٢٢ ليرة فإن ذلك ما زال يقل عن رقم عـام ١٧٦٩م البـالـغ ١,٥٢٤,٧٣٥. وتـظهـر حلب والاسكندرونة تراجعاً أكبر بكثير خلال هذه السنوات العشرين بسبب فقدان حلب الكثير من أهميتها في تجارة المرور.

ولم تكن قيمة البضائع المصدرة من هذه المناطق إلى مرسيليا بأحسن حالاً كما يبين ذلك الجدول رقم (٤ ــ ١٢):

الجدول رقم (٤ ــ ١٢)
قيمة البضائع المصدرة من المشرق إلى مرسيليا
في عامي ١٧٧٩ و ١٧٨٩م (بالليرة الفرنسية)

المنطقة	١٧٧٩م	١٧٨٩م	
صيدا وعكّا	٤٢٩,٢١٠	١,٢٧٠,٣٥٥	١,٦٨٨,٥٥٧
طرابلس	؟	٤١٨,٢٠٢	
الاسكندرونة وحلب	٩٠٢,٣٨٥	٢,٣٨٦,٩٧٩	
المجموع	؟	٤,٠٧٥,٥٣٦	

لا تتوفر إحصاءات عن قيمة البضائع المصدرة من المشرق إلى مرسيليا من فترة قريبة من عينتنا في الجدول رقم (٤ ـ ١٢) لمقارنة التطور الذي حدث بالنسبة إليها. وفي إحصاء يعود إلى عام ١٧٥٨م[٩٨] بلغت قيمة صادرات صيدا (وربما ضمت معها عكا أيضاً) إلى مرسيليا ٩٩٦,٢٨٩ ليرة فرنسية، وبلغت صادرات طرابلس ٩٨,٠٩٠ ليرة أي بمجموع قدره ١,٠٩٤,٣٧٩. وبالمقارنة مع صادرات صيدا وعكا في عام ١٧٨٩م والبالغة قيمتها ١,٦٨٨,٥٥٧ يتبيّن أن الزيادة عن عام ١٧٥٨م تبلغ ٦٥٪.

وبمقارنة قيمة البضائع المصدرة من صيدا وعكا وطرابلس إلى مرسيليا في عام ١٧٨٩م والبالغة ١,٦٨٨,٥٥٧ مع قيمة البضائع المصدرة من مرسيليا إلى هذه الأماكن في العام نفسه والبالغة ١,١٣٥,٨٢٢ ليرة يظهر لنا أن الميزان التجاري في تلك السنة كان لصالح صيدا وعكا وطرابلس. ويُلاحظ كذلك أن الميزان التجاري كان أيضاً لصالح الاسكندرونة وحلب في عام ١٧٨٩م. وهكذا يزيد مجموع قيمة الصادرات من موانىء سوريا عموماً إلى مرسيليا والبالغة ٤,٠٧٥,٥٣٦ ليرة على قيمة صادرات مرسيليا إليها والبالغة ٣,٠٧٤,٠٨٨ ليرة. ولكن الوضع يتبدل جذرياً في عام ١٧٩٠م بطرد الجزّار التجّار الفرنسيين من عكا وصيدا وبمجيء حملة نابليون بونابرت في أواخر القرن.

يبقى أخيراً أن نتعرف على نوعية البضائع التي صدرتها مرسيليا إلى صيدا وعكا وطرابلس كما وردت مثلاً في جدول عام ١٧٨٩م، وتطلعنا هذه على طبيعة الاستهلاك المحلّي والاحتياجات التي تُلبيها هذه المتاجر ومستوى أسعارها التي يمكن مقارنتها بأسعار غزل القطن في العينات السابقة. أما نوعية الصادرات من سورية إلى الخارج فلم تتبدل كثيراً لأنها اشتملت في الغالب على المواد الخام التي تنتجها المنطقة[٩٩].

يلاحظ في الجدول رقم (٤ ـ ١٣) أن المواد الكمالية مثل القبّعات (٩٤,٦٠٠ ليرة) والأجواخ (٥٥٢,٠٠٠) والكحول (١٥,٩٣٦) والخمور (٦,٧٦٥) ورصاص الصيد (١٢,٦٨٣) والبهارات (٦,٩٦٣) والسكاكر المنوعة (١٢٢,٤٣٦) تشكل بمجموعها ٨١١,٣٨٣ ليرة من المستوردات أي ان نسبتها ٧١,٤٤٪ من المجموع العام. وتمثل هذه النسبة مؤشراً لسيطرة الاقتصاد الأوروبي الصناعي في القرن التاسع عشر على الاقتصاد المحلي عن طريق ربط المستهلك بمنتجات الغرب الكمالية والضرورية على حد سواء مقابل الحصول على المواد الخام وهي عصب الاقتصاد الوطني. وستكون بداية القرن التاسع عشر انطلاقة عهد جديد في تاريخ فلسطين والأقطار العربية بعامة. فقد جددت فيه الدولة العثمانية قوتها باعتماد التنظيمات والإصلاحات ولكنها شأن الشعوب الخاضعة لها تعرضت لاقتحام أوروبا الرأسمالية لها على مختلف المستويات.

الجدول رقم (٤ ـ ١٣)
أنواع البضائع التي صدرتها مرسيليا إلى صيدا وعكا وطرابلس في عام ١٧٨٩م وكمياتها وقيمتها

نوع السلعة	الكمية بالكيلوغرام أو الصندوق أو البالة	القيمة بالليرة الفرنسية
حجر الشب	٢٠,١٢٢ كغ	٧,٢٤٤
لوز	٢٢,٤٣٣ كغ	٥,٢٠٠
فولاذ	٤,٥٧٢ كغ	١,٠٠٥
خشب من فرنامبورغ	٥,١٢٥ كغ	٤,٣٠٥
خشب من سان مارت	١,٥٣١ كغ	٧٦٥
قبعات	٨٦ صندوقاً	٩٤,٦٠٠
بن	٧٥,٦٣٠ كغ	٧٥,٦٣٠
صباغ قرمزي	٢,٠٢٧ كغ	٣٦,٤٨٦
مربيات	٣,٨١٠ كغ	٢,٨٥٧
أجواخ	٤٦٠ بالة	٥٥٢,٠٠٠
أقمشة حريرية	١١ صندوقاً	٢٦,٤٠٠
قصدير	٢٥ صندوقاً	٧,٨٦٠
خزف	٢٧ صندوقاً	١,٣٥٠
قضبان حديد	١٤٨,٧٥٥ كغ	٢٠,٨٢٥
نيلة	٥,٧٨٥ كغ	٤٦,٢٨٠
قطع نيلة	٥,٨٣٤ كغ	٤٠,٨٣٨
كحول	٣٣٢ صندوقاً	١٥,٩٣٦
خردوات	١٢ صندوقاً	١٤,٤٠٠
سمك (غاوس)	٧,٠٢١ كغ	١,٢٦٣
لفات ورق	١٨٨ بالة	٨,٦٤٨
ورق ناعم	٥١ صندوقاً	٦,١٢٠
كتل رصاص	٤,٧٢١ كغ	١,٠٣٨
رصاص للصيد	٥٠,٧٣٥ كغ	١٢,٦٨٣
بهارات	٤,٣٥٢ كغ	٦,٩٦٣
آنية نحاسية	٣٢ صندوقاً	٩,٦٠٠
كبريت	١٦,٠١٢ كغ	٨٠٠
سكاكر منوعة	٢٥٥,٠٧٧ كغ	١٢٢,٤٣٦
سكر	١١,٠٥٠ كغ	٥,٥٢٥
خمور	؟	٦,٧٦٥
المجموع		١,١٣٥,٨٢٢ ليرة فرنسية

الخاتمــة

يمكننا في نهاية هذه الدراسة عن فلسطين من مطلع الحكم العثماني إلى نهاية القرن الثامن عشر أن نُجمل في بضع نقاط عدداً من الثوابت والمتغيرات التي تبدّت فيها. فعلى الصعيد السياسي جَهِد العثمانيون، في فترة أوج قوّتهم، في القرن السادس عشر، أن يقيموا الأمن في المدن والأرياف، وبخاصّة على طرق القوافل، فبنوا الخانات والقلاع وأقاموا فيها الحاميات. وانحسر خطر البدو وقطّاع الطرق بشهادة الرحالة الذين أمّوا فلسطين في ذلك القرن، بالمقارنة مع ما حدث قبل ذلك القرن وبعده. وقد تعامل العثمانيون مع الزعماء المحليين من أعيان الريف وزعماء البدو بنوع من السياسة الواقعية فاعترفوا بهم وعيّنوهم ملتزمين للضرائب وأمراء لقافلة الحج الشامي، وبذلك استفادوا منهم وجعلوهم يدورون في فلك الدولة عوضاً عن استعدائهم وإنفاق الجهود في إخضاعهم دون طائل. ثم أصاب الضعف والانحطاط الدولة العثمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية، وتبدّى ذلك بانكماش الحدود ثم تراجعها وخسارة العثمانيين لمناطق يسكنها أتراك مسلمون، كما في شبه جزيرة القرم التي خسرتها لروسيا القيصرية إثر الحروب الخاسرة معها وتوقيع معاهدة كجك قاينارجه (١٧٧٤م)، وانعكس ذلك على اضطراب علاقة الدولة العثمانية بالزعماء المحليين، فلجأ هؤلاء إلى التمرّد في غياب الإدارة الحازمة. وحلّ في إدارة الدولة في ولايتي دمشق وصيدا اللتين تتبعهما ألوية فلسطين، موظفون اشتروا في الغالب وظائفهم، عن طريق حُماتهم في استانبول، فاستخدموها للإثراء لا سيما وأن مرشّحين آخرين لهذه الوظائف، بدعم من حماة آخرين، كانوا ينتظرون تعيينهم بدورهم.

واضطربت الإدارة العثمانية في فلسطين، كما في غيرها، بنتيجة هذه التغيرات في بنية الدولة السياسية والعسكرية والاقتصادية. ونرى من كتابات الرحالة ومن الأوامر العثمانية الموجهة من استانبول إلى الولاة في بلاد الشام كيف انعدم الأمن وعاث قطّاع الطرق في الأرياف والقرى وحتى في أطراف المدن، وأحياناً في داخلها، يروّعون المسافرين والسكان ويفرضون عليهم المال، ولم تتعدّ سلطة الحاكم العثماني، في كثير من الأحيان، أبواب المدينة التي يقيم فيها. وفي غياب السلطة، أو ضعفها في أحسن الأحوال، استشرت الخلافات المحلية بين القرى لأسباب قبلية أحياناً وحزبية (قيسيّة ـ يمنيّة) أحياناً أخرى. وانعكس ذلك في تقلّص المساحات المزروعة ونزوح الفلاحين من قراهم خشية التعديات وإتلاف المحاصيل، وأيضاً لتحاشي الضرائب الثقيلة التي يفرضها ملتزمو الضرائب. وقد دهش الرحالة الذين أمّوا فلسطين لخصب أرضها وجودة محاصيلها واستغربوا عدم استغلالها بشكل جيد.

وفي أوقات الاضطرابات وضعف السلطة يتسع المجال للزعماء المحليين وللمغامرين للظهور، من داخل المؤسسة الحاكمة أو من خارجها، وسرعان ما يثورون. ويتجلّى ذلك في مثال الأمير فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥م) أمير الشوف الذي اعترفت به الدولة ملتزماً وزعيماً محلياً. وسرعان ما وسّع مناطق التزامه، وبالتالي سيطرته، إلى خارج الشوف لتضم البقاع ومناطق الجليل في فلسطين وموانئها. وحين قتلته الدولة نشأ فراغ سياسي في المناطق التي سيطر عليها لم يتمكّن أتباعه ولا السلطة العثمانية من ملئه لسنوات طويلة. وأفاد ذلك ظاهر العمر الذي ورث الالتزام عن أبيه في منطقة صفد ـ طبرية وأسس إمارة في منطقة الجليل، ضمن الإطار العثماني، مستغلاً الموارد الاقتصادية المحلية التي نشطت في القرن الثامن عشر، نتيجة المتاجرة مع الفرنسيين بخاصة. فأنشأ جيشاً وبنى تحصينات، ولكنها لم تُفِده حين شعرت الدولة بخطر تحالفه مع مماليك مصر الثائرين، فحطّمته. واستغلّ الفراغ السياسي الذي أوجده غياب ظاهر العمر مغامر عسكري مملوكي الأصل، غريب عن المنطقة هو أحمد باشا الجزّار، الذي نقل مركز الثقل السياسي في بلاد الشام الجنوبية إلى عكا، حيث كان مقرّه وأفقد دمشق زمام المبادرة السياسية في المنطقة معتمداً على مماليكه ومتحدياً الدولة العثمانية ورافضاً عزلها له.

ولم تَسْتَعِدِ الدولة العثمانية زمام المبادرة حتى القرن التاسع عشر حين أدخلت الإصلاحات إلى الإدارة، وعلى رأسها الجيش، وعادت لتمسك بزمام الأمور بشكل أقوى من قبل، وبخاصة في أعقاب انتهاء الحكم المصري في بلاد الشام (١٨٣١ ـ ١٨٤٠م)، فبطشت بالزعماء المحليين المتمرّدين في فلسطين، كما استخدمت بعضهم في الإدارة كموظفين خاضعين لها.

وإذا كانت الأوضاع السياسية في فلسطين قد تأثرت بالأوضاع السائدة في استانبول وفي الامبراطورية ككل فإن الحياة الاجتماعية والثقافية تابعت مسيرتها التقليدية بمعزل عن أية تطورات أو تأثيرات هامة في استانبول. وبقيت الحياة الثقافية بخاصة، إحدى الثوابت الرئيسية التي تعبّر عن هوية الأمة العربية ـ الإسلامية. وهذا دليل على غياب أية سياسة ثقافية ـ إسلامية في

إدارة الدولة وقد دام ذلك إلى أن جاء السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩م) الذي أعلن نفسه خليفة للمسلمين ودعا إلى الجامعة الإسلامية.

وقد شهد القرن السادس عشر ذروة بناء الأبنية الدينية من جوامع وتكايا ومدارس، ثم انحسر ذلك فيما بعد بسبب انهيار مستوى الإدارة العثمانية وبالتالي الولاة الذين انصرفوا إلى الإثراء. وبقيت مراكز الثقافة في فلسطين، كما في غيرها، بأيدي أهلها تموّلها وارداتُها الوقفية ويشرف عليها علماؤها المحليّون الذين تثقفوا ثقافة عربية ــ إسلامية في مراكز الثقافة والعلم العربية في مصر والشام. وقلّ من ذهب منهم إلى استانبول. وفي غياب تدخّلات السلطة العثمانية وتأثيراتها، إلاّ فيما ندر، بقيت الكفاءة العلمية وحدها هي الفيصل في تصنيف العلماء في مراتب العلم.

وفي المجال الاقتصادي يمثّل القرن السادس عشر أيضاً الذروة في إقامة الأمن وحسن استغلال الأرض والالتزام بالضرائب المقرّرة وعدم ابتزاز المال من الفلاحين، وهو الأمر الذي أكثر من عدد القرى وبالتالي وارداتها. ثم انعكست الأوضاع السياسية والإدارية المضطربة في القرنين التاليين على الحياة الاقتصادية فلم تعد الطرق آمنة، وحدثت الاعتداءات على المزروعات والأشجار والمحاصيل، وهاجم القراصنة موانىء فلسطين أكثر من قبل، وهدّدوا طرق المواصلات البحرية. وحين جاء ظاهر العمر ووفّر الأمن في الجليل انتعشت الزراعة في مناطقه لحاجته للموارد المالية، وأيضاً بفعل الاهتمام الأوروبي، وبخاصة الفرنسي، في التعامل التجاري مع فلسطين. وكانت البورجوازية التجارية الأوروبية في أساس هذا الاندفاع للمتاجرة مع الخارج. وتحوّل هذا الاهتمام التجاري الأوروبي، في أعقاب الثورة الصناعية، إلى استعمار أوروبي، في القرن التاسع عشر، يبحث عن الأسواق والمواد الخام في الخارج. وعندها جوبهت الدولة العثمانية بتحديات خارجية، على مختلف المستويات، لم تستطع مقاومتها. فسقطت الأقطار العربية، الواحد تلو الآخر، بدءاً من الجزائر في ١٨٣٠م وانتهاء ببلاد الشام في ١٩٢٠، في أيدي المستعمرين. وكان نصيب فلسطين أقسى من غيرها إذ دعم الاستعمار توجّه الحركة الصهيونية إليها.

الحــواشي

الفصل الأول:

(١) توجد عدة نسخ مخطوطة لهذه الرحلة. وقد اعتمدنا نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم ٦٨٢٤ وتتألف من ١٤٩ ورقة. وقد طبع مختصر لهذه الرحلة في القاهرة في ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م، انظر ورقة ٨٣أ ــ ٨٣ب.

(٢) يشير النابلسي في الحضرة الأنسية، ورقة ٩٠أ، إلى تاريخ الحنبلي أنه أنس الجليل. وينقل مصطفى أسعد اللقيمي عن هذا التاريخ ويسميه: **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**. وصاحبه هو مجير الدين بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي المعروف بابن الحنبلي (ــ٩٢٧هـ / ١٥٢١م).

(٣) ورقة ٢٣أ.

(٤) اعتمدنا نسخة المكتبة الوطنية في برلين الغربيّة برقم We. 1104 وتتألف من ٦٧ ورقة. وكان الفراغ من نسخها في ٢٢ جمادى الأولى ١١٤٣هـ / ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٧٣٠م.

(٥) هو إبراهيم السيوطي، وهو غير جلال الدين السيوطي الذي ينسب إليه الكتاب أحياناً، خطأً. وقد أكّد ذلك مصطفى الصديقي البكري في مؤلفه: **الخمرة الحسيّة في الرحلة القدسيّة**، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين الغربية برقم 6149 Mq 460 يتألف من ٣٧ ورقة. انظر ورقة ٥أ حيث يقول: «قال شيخنا قال السيوطي في **إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى** الشيخ إبراهيم السيوطي هو غير الشيخ جلال الدين السيوطي المشهور».

(٦) انظر الحاشية (٢).

(٧) مصطفى أسعد اللقيمي، **لطايف أنس الجليل في تحايف القدس والخليل**، ورقة ٢أ.

(٨) المصدر نفسه، ورقة ٢ب ــ ٣أ.

(٩) انظر حول بني حارثة: محمد عدنان البخيت، «الأسرة الحارثية في مرج ابن عامر، ٨٨٥ ــ ١٠٨٨هـ / ١٤٨٠ ــ ١٦٧٧م»، **مجلة الأبحاث**، الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٨ (١٩٨٠).

(١٠) انظر تفاصيل أخرى حول هذه التقسيمات الإداريّة في: Wolf-Dieter Hütteroth and Kamal Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late Sixteenth Century,* p. 18.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٨ ــ ١٩.

(١٢) انظر: عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون، ١٥١٦ ــ ١٩١٦**، ص ١٩٢ ــ ١٩٤.

(١٣) انظر حول بناء الحصون والقلاع في فلسطين لإحكام الأمن فيها وبخاصة في القرن السادس عشر، بناء على أوامر السلاطين العثمانيين في استانبول، وكذلك وصف تمويلها وأنواع وأعداد الجند فيها: Muhammad Adnan Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century*, pp. 95ff; Uriel Heyd, *Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615*, pp. 102-116.

(١٤) انظر حول هؤلاء الزعماء في العهد المملوكي: محمد بن طولون، **مفاكهة الخلّان في حوادث الزمان**، انظر الجزء الأول؛ وانظر أيضاً كتاب: A.N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon, 1250-1900.*

(١٥) Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus*, pp. 11-12.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٩٩ ــ ١١٤.

(١٧) عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ ــ ١٧٩٨**، ص ٩٩ ــ ١١٤.

(١٨) انظر حول المواقع التي يمر بها طريق دمشق ــ القاهرة المعروف باسم (Via Maris): Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine...*, pp. 92-95; Heyd, *Ottoman Documents...*, front map.

ويسمى الطريق البحري بسبب اتجاه الطريق الواصل بين دمشق والقاهرة نحو البحر (أي الساحل) في فلسطين ثم مسايرته له فيها وفيما بعدها.

انظر: الدراسة التالية الخاصة بهذا الطريق: Richard Hartmann, «Die Strasse von Damaskus nach Kairo», *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, LXIV (1910), pp. 665-702.

(١٩) انظر حول هذه الأسرة: Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus*, pp. 209-212; Abdul Rahim Abu Husayn, *Provincial Leaderships in Syria, 1575-1650*, pp. 183-198.

(٢٠) Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus*, p. 21.

وانظر حول موقف العثمانيين من الأمراء المحليين، وبخاصة البدو منهم، في ولاية الشام: رافق، **بلاد الشام ومصر...**، ص ١١٨ ــ ١١٩؛ وانظر أيضاً: ابن طولون، **مفاكهة الخلّان...**، ج ٢، ص ١١٩، ١٢١.

(٢١) Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus*, p. 21.

ورافق، **بلاد الشام ومصر**، ص ١٢١.

(٢٢) الأقجة أقدم النقود الفضية العثمانية، وقد عرفت باسم «العثماني»، كما أشير إليها باسم «اسبر». وأصل كلمة اسبر يوناني (Aspron) وتعني الأبيض، وحين ترجمت إلى التركية أصبحت أقجة (Akçe). وقد انهارت قيمة الأقجة على مرّ الزمن، وبخاصة بعد تدفق الفضة من العالم الجديد ــ أمريكا ــ إلى أوروبا والدولة العثمانية في حوالي منتصف القرن

السادس عشر. وفقدت الأقجة نصف محتواها من الفضة حين مزجت بالنحاس في عام ١٥٨٤، وبذلك انهارت قيمتها بمقدار النصف بالنسبة للعملة الذهبية العثمانية المعروفة بالشريفي وأيضاً بالنسبة للعملات الأجنبية. وقد أوجدت الدولة العثمانية قطعتين نقديتين فضّيتين هما البارة والقرش إلى جانب الأقجة. وانحصر استخدام الأقجة في الحسابات المالية والمعاشات التي كانت تحدّد على أساسها ولكنها كانت تدفع بالعملات الأخرى. وقد توقف سك الأقجة في أوائل القرن الثامن عشر.

انظر حول ذلك: H.A.R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West*, Vol. 2, pp. 51-56.

وانظر أيضاً: أنطوان عبد النور، **تجارة صيدا مع الغرب منذ منتصف القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر**، ص ٩٧، حاشية ٣، ص ٩٩.

ويدلّ على انهيار قيمة الأقجة بين الناس في القرن الثامن عشر ما رواه البديري من أنه حين قتل القبقول (جند قلعة دمشق) أحد الأشراف دون أن يحاسبوا أخذوا يقولون: «إن قتلة الشريف قيمتها اخشاية (أي أقجة) فضة. والحكم لله والغيرة لله ورسوله».

انظر: أحمد البديري الحلّاق، **حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ ــ ١١٧٥هـ**، ص ١١١.

(٢٣) Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, pp. 41-42.

(٢٤) انظر مثلاً تعيين حسين باشا ابن مكي حاكم غزّة وهو من أصل غزي واليا على دمشق في عام ١٧٥٧، يراجع حول ذلك: Abdul-Karim Rafeq, *The Province of Damascus, 1723-1783*, pp. 208-216.

وانظر أيضاً: محمد خليل المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ٤ أجزاء، انظر: ج ٢، ص ٦٠ ــ ٦٢.

(٢٥) للاطّلاع على دراسة مفصّلة لتجمّع القافلة في دمشق وخروجها منها وعودتها إليها وكيفية حمايتها وهوية أمرائها وتمويلها وأهميتها التجارية، انظر: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 52-76.

(٢٦) ابن طولون، **مفاكهة الخلّان**، ج ٢، ص ١٢١.

(٢٧) رافق، **بلاد الشام ومصر**، ص ١١٨، ١١٩، ١٥٦.

(٢٨) نجم الدين الغزّي، **الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة**، ج ٣، ص ٢٠١ ــ ٢٠٢.

(٢٩) Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, p. 75, No. 3.

(٣٠) محمد أمين المحبّي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج ٤، ص ٤٢٦ ــ ٤٢٨؛ ونجم الدين الغزّي، **لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر**، ج ٢، ص ٦٦٦ ــ ٦٦٩؛ وإحسان النمر، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، ج ١، ص ٢٥ ــ ٢٦. وانظر أيضاً: شرف الدين بن موسى الأنصاري، **نزهة الخاطر وبهجة الناظر**، مخطوط في الظاهرية، رقم ٧٨١٤، الأوراق، ٣٣٧ب ــ ٣٣٨ب، ٣٩ب.

(٣١) انظر حول حكم أسرة قانصوه وتولّي أفراد منها إمارة الحج: Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus*, pp. 212-217; Abu-Husayn, *Provincial Leaderships in Syria, 1575-1650*, pp. 153-161.

(٣٢) الحسن بن محمد البوريني، **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**، تحقيق صلاح الدين المنجد، ج ١، ص ١٩١ ــ ١٩٢. ونظراً لأنّ نشر هذا المؤلّف كاملاً لم يتم حتى الآن، ولوجود اختلافات في نسخة فيينا للمخطوط التي لم يستعملها المحقق، بالمقارنة مع النص المطبوع، فسنستخدم هذه النسخة، ورقمها (Cod. Arab. 1190 Mixt. 346) حيث يفيد استعمالها.

(٣٣) المحبّي، **خلاصة الأثر**. . .، ج ١، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢؛ والبوريني، **تراجم الأعيان**. . .، ج ٢، ص ٢٧٣ ــ ٢٧٩.

(٣٤) المحبّي، **خلاصة الأثر**. . .، ج ١، ص ١٨٧، ٢٢١، و ج ٢، ص ٤١٧، و ج ٣، ص ٢٧١؛ والبوريني، **تراجم الأعيان**. . .، ج ١، ص ٢٠٢، و ج ٢، ص ٢٨٩، مخطوط فيينا، ورقة ١٢٣ب.

(٣٥) المحبّي، **خلاصة الأثر**. . .، ج ١، ص ٢٢١.

(٣٦) انظر تفاصيل هذه الثورة في: رافق، **بلاد الشام ومصر**. . .، ص ٢٠١ ــ ٢٠٦.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٦ ــ ٢١٠.

(٣٨) انظر مناقشة قيام ولاية صيدا في عام ١٦١٤م في: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 2-3.

(٣٩) الكلمة فارسية مؤلفة من مقطعي «سك» وتعني الكلب و «بان» وتعني الحامي. وتشير إلى الكلابي الذي يساعد الصيّاد، ثم أطلقت على القوات المرتزقة من الأناضول التي تساعد الثائرين والحكام على حد سواء في تدعيم سلطتهم، انظر حول ذلك: رافق، **بلاد الشام ومصر**. . .، ص ٧٧ ــ ٧٨. وانظر حول الأحداث السابقة: المحبّي، **خلاصة الأثر**. . .، ج ٣، ص ٢٦٧، و ج ٤، ص ٢٩٥؛ وأحمد الخالدي الصفدي، **تاريخ الأمير فخر الدين المعني**، نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، تحت عنوان: **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**، ص ٦٩ ــ ٢٠٢؛ وعيسى اسكندر المعلوف، **تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني**، ص ١٦٨ ــ ١٨٨؛ وطنوس الشدياق، **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، ج ١، ص ٣١٨ ــ ٣٧٢.

(٤٠) انظر تفاصيل هذه الأحداث في: رافق، **بلاد الشام ومصر**. . .، ص ٢١١ ــ ٢١٣.

(٤١) انظر حول الجردة وتعيين أمراء فلسطين عليها: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 65-68.

(٤٢) المحبّي، **خلاصة الأثر**. . .، ج ٤، ص ١٠٨ ــ ١١٠.

(٤٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٨.

(٤٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٨.

(٤٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠؛ ومحمد بن جمعة، الباب الرابع والسبعون في «ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحميّة»، في **ولاة دمشق في العهد العثماني**، باسم **الباشات والقضاة**. وفي مجموعة مخطوطات برلين نسخة أخرى غير منقوصة لمخطوط ابن جمعة هذا (رقم 9785.spr.188) سنشير إليها حين لا تتوفر المعلومات التي تذكرها في النسخة التي نشرها المحقق. انظر في هذا المجال، ابن جمعة، **ذكر الباشات والقضاة**. . .، مخطوط برلين، ورقة ١٤أ.

(٤٦) المحبّي، خلاصة الأثر. . . ، ج ١، ص ٤٤٢، و ج ٤، ص ١١٠؛ وإسماعيل المحاسني، (كنّاش المحاسني)، مخطوط في الخزانة التيمورية بالقاهرة، رقم أدب ٦٧٧. نشر بعض أخباره صلاح الدين المنجد تحت عنوان: «صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري»، ص ٨٠.

(٤٧) المحبّي، خلاصة الأثر. . . ، ج ٤، ص ٤٣٤؛ والمرادي، سلك الدرر، ج ٢، ص ٦٢.

(٤٨) انظر تفاصيل ذلك في: رافق، بلاد الشام ومصر. . . ، ص ١٩٢ ــ ١٩٤؛ و Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 30-33.

(٤٩) المحبّي، خلاصة الأثر. . . ، ج ١، ص ٢٢٢؛ والمحاسني، كنّاش المحاسني، ص ١٢٦.

(٥٠) ابن جمعة، ذكر الباشات والقضاة، ص ٤٥؛ والمحاسني، كنّاش المحاسني، ص ١٨٧؛ انظر أمثلة أخرى في: رافق، بلاد الشام ومصر. . . ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٧.

(٥١) رافق، بلاد الشام ومصر. . . ، ص ٢٢٨.

(٥٢) R.C. Anderson, *Naval Wars in the Levant*, p. 298; Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 293-294.

(٥٣) انظر تفاصيل ذلك في: رافق، العرب والعثمانيون، ١٥١٦ ــ ١٩١٦، ص ٢٢٩، ٣٢٦ ــ ٣٣٤.

(٥٤) انظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ٣١٠ ــ ٣١٨.

(٥٥) انظر الدراسة الهامة والوافية حول أصل الزيادنة في كتاب توفيق معمّر، ظاهر العمر، ص ٢٥ ــ ٣٠.

(٥٦) المرادي، سلك الدرر. . . ، ج ٣، ص ١٨٤.

(٥٧) انظر: رافق، بلاد الشام ومصر. . . ، ص ٢٣٧.

(٥٨) توفيق معمر، ظاهر العمر، ص ٢٤.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٤٤؛ وعبود الصبّاغ، الروض الزاهر في أخبار ظاهر، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس، رقم Arabe 4610، ورقة ٢ب.

(٦٠) ميخائيل الصبّاغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد، ص ٢٥، ٣١ ــ ٣٥.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٤٦ ــ ٥٢.

(٦٢) عبود الصبّاغ، الروض الزاهر. . . ، ورقة ٧أ؛ والمرادي، سلك الدرر. . . ، ج ٣، ص ١٨٤؛ وميخائيل بريك، تاريخ الشام (١٧٢٠ ــ ١٧٨٢)، ص ٢٩.

(٦٣) أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليوميّة، ص ٢١ ــ ٢٩؛ وعبود الصبّاغ، الروض الزاهر. . . ، ورقة ٧ب ــ ٨أ.

(٦٤) انظر حول هذه الأحداث ومصادرها: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 158-159.

وانظر حول توسط السفير الفرنسي في استانبول لظاهر العمر: Archives Nationales (Paris), Affaires Etrangères Sous-Série B[1], Vol. 420: Istanbul (Constantinople), 1/5/1743.

(سيشار إلى هذا المصدر باختصار كما يلي: A.E.B.[1] 420 = Istanbul 1/5/1743.

(٦٥) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٤٢ ــ ٤٧؛ وعبّود الصبّاغ، الروض الزاهر. . . ، ورقة ٩أ؛ وميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر. . . ، ص ٦٢ ــ ٦٣.

(٦٦) A.E.B.[1] 1027 = Seyde, 26/1/1748 (Mémoire Concernant le Commerce de l'Echelle d'Acre).

(٦٧) Rafeq, *The Province of Damascus*, p. 195.

وانظر كذلك: رافق، بلاد الشام ومصر، ص ٣٥١ ــ ٣٥٢.

(٦٨) عبود الصباغ، الروض الزاهر. . . ، ورقة ٩ب.

(٦٩) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ١٢٨ ــ ١٣٠.

(٧٠) A.E.B.[1] 1030 = Seyde, 12/7/1735, articles d'accommodement entre M. de Verrayon, Consul de France à Seyde et le Chêk Daher el-Omar, Commandant d'Acre.

(٧١) A.E.B.[1] 1030 = Seyde, 1/5/1754.

(٧٢) عبّود الصباغ، الروض الزاهر. . . ، ورقة ٩ب.

(٧٣) المصدر نفسه، ورقة ٩ب ــ ١٠أ؛ وميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر. . . ، ص ٤٦.

(٧٤) Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 197, 198.

(٧٥) L'Abbé Giovanni Mariti, *Voyages dans l'Isle de Chypre, la Syrie et la Palestine avec l'Histoire générale du Levant*, t. 2, pp. 89-90.

(٧٦) انظر حول أعمال عبد الله باشا الشتجي وشدّته: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 222-231.

(٧٧) A.E.B[1] 1032 = Seyde, 8/4/1758.

(٧٨) انظر: محمد أحمد دهمان، «زلزال سنة ١١٧٣ هجرية»، المشرق، ٤٢ (١٩٤٨)، ص ٣٣٣ ــ ٣٤٧؛ وانظر تفاصيل أُخرى من مصادر عربية وأجنبية في: Rafeq, *The Province of Damascus*, p. 127.

(٧٩) نص الرسالة في المصدر التالي: François Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine aux XVIII[e] Siècle*, pp. 209-210.

(٨٠) الصباغ، الروض الزاهر. . . ، ورقة ٨ب، ١١أ؛ وميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر. . . ، ص ٧١ ــ ٧٢.

(٨١) البديري، حوادث دمشق اليومية. . . ، ص ١٦٧.

(٨٢) ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر. . . ، ص ٨٢ ــ ٨٣، ٨٦ ــ ٨٧.

(٨٣) A.E.B[1] 1030 = Seyde, 1/4/1754.

(٨٤) انظر حول تدخّل مختلف هذه القوى المحلية في النزاع بين ظاهر وأبنائه: الصباغ، الروض الزاهر. . . ، ورقة ١٠أ؛ وميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر. . . ، ص ٥١، ٨٧ ــ ٨٩؛ وجرجي يني، «ظاهر العمر»، مجلة المقتطف، مج ٢٨، عدد ٤ (نيسان/ابريل ١٩٠٣م)، ص ٣١٧ ــ ٣٢١؛ و A.E.B[1] 1032 = Seyde, 22/9/1761; Mariti, *Voyages*..., t. 2, pp. 90, 97-98.

(٨٥) A.E.B.[1] 1032 = Seyde, 25/3/1762.

(٨٦) A.E.B.[1] 1033 = Seyde, 15/5/1766 (Bulletin) le 10 mai 1766).

(٨٧) ميخائيل الصبّاغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر. . . ، ص ٨٧ ــ ٨٩؛ A.E.B.[1] 1033 = Seyde, 28/9/1767, Seyde 29/9/1767 (Bulletin, le 20 septembre 1767), Seyde 2/10/1767, Seyde 26/10/1767 (Bulletin).

(٨٨) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٢٣٢؛ و A.E.B.[1] 1032 = Seyde, 6/6/1761.

(٨٩) A.E.B.[1] 1032 = Seyde, 24/5/1761, Seyde, 30/5/1761 (Copie d'une lettre écrite par les négociens d'Acre à M. de Clairambault, Consul de Seyde), Seyde, 1/6/1761; B[1] 1033 = Seyde, 25/5/1762.

(٩٠) انظر تفاصيل إضافية حول الصراع داخل هذه القوى في: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 244-246.

(٩١) A.E.B.[1] 1033 = Jaffe, 6/6/1767 (joint à Seyde, 30/6/1767); Ramle, 28/10/1767 (joint à Seyde, 21/12/1767); Jaffe, 28/10/1767 (joint à Seyde 26/10/1767); B[1] 1034 = Ramle, 9/11/1770 (joint à Seyde, 15/11/1770).

(٩٢) انظر نصّ البيان (الفرمان) في: حيدر أحمد شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزّار**، ص ٤٢ ــ ٤٤.

(٩٣) A.E.B.[1] 1034 = Seyde, 20/12/1770.

وانظر تفاصيل ضافية عن محاولة عثمان باشا الدفاع في فلسطين ثم انسحابه باتجاه دمشق في: حسن بن الصّدّيق، **غرايب البدايع وعجايب الوقايع**، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين الغربية، رقم 9832.We.II.417، ورقة ٨ب ــ ١١ب.

(٩٤) انظر تفاصيل وصول علي بك إلى السلطة والأسباب التي دفعت به إلى غزو بلاد الشام في: رافق، **بلاد الشام ومصر**...، ص ٤٠١ ــ ٤٠٨.

(٩٥) A.E.B.[1] 1034 = Seyde, 2/3/1770.

(٩٦) Anderson, *Naval Wars in the Levant*, pp. 286-289; Public Record Office (PRO), State Papers (SP), London, 97/47: Constantinople (C'ple), 4/2/1771.

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي: PRO, SP 97/47/:C'ple, 4/2/1771.

(٩٧) ابن الصديق، **غرايب البدايع**...، ورقة ١١أ، ١١ب، ١٧أ.

(٩٨) المصدر نفسه، ورقة ١٠ب، ١٢أ؛ و A.E.B.[1] 1035 = Seyde, 20/11/1770.

(٩٩) انظر تفاصيل ذلك في: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 257-259; A.E.B[1] 1035 = Seyde, 31/5/1771.

(١٠٠) المصدر نفسه.

(١٠١) انظر التفاصيل العسكرية في: ابن الصدّيق، **غرايب البدايع**...، ورقة ٤٢ب ــ ٤٤أ.

(١٠٢) انظر مناقشة الأسباب التي حملت أبا الذهب على الانسحاب في: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 271-277.

(١٠٣) انظر تفاصيل ذلك في: ابن الصدّيق، **غرايب البدايع**...، ورقة ٦٩ب ــ ٧٤ب؛ وعبود الصباغ، **الروض الزاهر**...، ورقة ١٩ب ــ ٢٠ب؛ وميخائيل الصباغ، **تاريخ الشيخ ظاهر**...، ص ١٠٠ ــ ١٠١؛ وانظر أيضاً: A.E.B.[1] 1035 = Seyde, 21/9/1771.

(١٠٤) A.E.B.[1] 1035 = Seyde, 21/5/1772 (Bulletin, Ramle, 13/5/1772), Seyde, 2/6/1772 (Bulletin, Ramle 22/5/1772).

(١٠٥) انظر حول هذه التطورات: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 293-298; A.E.B.[1] 1035 = Seyde, 28/6/1772, Seyde, 31/7/1772 (Bulletin, Beyrouth, 1/7/1772);

وانظر كذلك: حيدر أحمد شهاب، **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**، ج ١، ص ٩٣ ــ ٩٤؛ والشدياق، **أخبار الأعيان**...، ج ٢، ص ٤٥ ــ ٤٦؛ وحيدر أحمد شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزّار**، ص ٤٨ ــ ٤٩؛ وعبود الصباغ، **الروض الزاهر**...، ورقة ٢٣أ.

(١٠٦) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ١، ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧.

(١٠٧) A.E.B[1] 1036 = Seyde, 7/7/1773; Anderson, *Naval Wars*..., p. 302.

وعبود الصباغ، **الروض الزاهر**...، ورقة ٢٦ب ــ ٢٧أ؛ وشهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزار**، ص ٥٣.

(١٠٨) A.E.B[1] 1036 = Seyde, 28/8/1773, Seyde, 31/1/1774, Seyde, 15/10/1774.

(١٠٩) A.E.B[1] 1037 = Seyde, 7/4/1775, Seyde, 17/5/1775, Seyde, 25/6/1775; Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 305-307;

وعبود الصباغ، **الروض الزاهر**...، ورقة ٣٠أ، ٣٣أ.

(١١٠) مما يجدر ذكره أن الكاتبين الرئيسيين لسيرة ظاهر العمر هما ميخائيل الصباغ وعبود الصباغ من عكا، وهما من أقرباء إبراهيم الصباغ مدبّر أمور ظاهر ومستشاره. وكان الهدف الأساسي من كتابتهما تبرئة إبراهيم الصباغ من تهمة إساءة نصح ظاهر ومنعه من شراء القبطان حسن باشا بالمال، وكذلك إبراز الدور الهام الذي قام به إبراهيم، ومن خلاله، أسرة الصباغ في عهد ظاهر. ويتميز كتاب عبود، الذي وضعه في مصر، بالدقة والمصداقية في حين أن كتاب ميخائيل، الذي وضعه في فرنسا بسبب مرافقته لحملة نابليون بونابرت، مرتبك وغير دقيق في بعض رواياته وتواريخه. وتضم المكتبة الوطنية في ميونيخ بألمانيا كنّاشاً عن تاريخ آل الصبّاغ يضم الكثير من الوثائق والأخبار (رقمه Cod.Arab. 901).

(١١١) انظر تفاصيل هذه الأحداث في: A.E.B[1] 1037 = Seyde, 9/1/1775 (Bulletin), Seyde, 30/9/1776; B[1] 93 = Alep, 6/10/1775 (Nouvelles, No. 15, Acre, 13/9/1775, et Précis de résolutions d'Acre depuis le 20 du mois de mai jusqu'au 15 juin 1775); C.F. Chasseboeuf, Comte de Volney, *Voyage en Egypte et en Syrie*, pp. 262-265;

ومعمّر، **ظاهر العمر**، ص ٢٣٥ ــ ٢٥٤؛ وعبود الصباغ، **الروض الزاهر**...، ورقة ٣٣ب ــ ٣٩ب؛ وميخائيل الصباغ، **تاريخ الشيخ ظاهر**...، ص ١٤٣ ــ ١٤٩، ١٧٢ ــ ١٧٤.

(١١٢) انظر حول مصيرهم: توفيق معمر، **ظاهر العمر**، ص ٢٥٩ ــ ٢٦٢.

(١١٣) الطريف أن فخري البارودي السياسي الدمشقي المعروف يفاخر أنه ينحدر من ظاهر العمر، وقد ذكر ذلك في رسالة وجّهها من عمّان بتاريخ ٢١/٦/١٩٤٠ إلى توفيق معمّر مؤلف كتاب ظاهر العمر (الناصرة، ١٩٧٩) يرجوه فيها أن يهديه نسخة عن مخطوط كتابه ظاهر العمر لتبقى «في مكتبتي الصغيرة كذكرى من أحد عشّاق جدّي ظاهر إلى أحد أحفاده».

وأكّد البارودي نسبته هذه في مذكراته اللاحقة حين قال: «إن جدّي الأول، محمد بن أحمد بن ظاهر العمر، الذي تلقّب بالبارودي، دخل دمشق سنة ١٧٧٥م، وعلى هذا الأساس أكون أنا فخري بن محمود بن محمد حسن بن محمد بن حسن بن محمد الظاهر (الملقب بالبارودي) ابن أحمد بن ظاهر العمر.

انظر:

معمر، **ظاهر العمر**، ص ٢٦٥ حيث يرد نصّ الرسالة الكامل؛ وفخري البارودي، **مذكرات البارودي**، ج ١، ص ٩ ــ ١٠.

(١١٤) الكتاب الرئيسي عن سيرة الجزّار لمؤلف محلي معاصر هو: **تاريخ أحمد باشا الجزّار**، لمؤلفه حيدر أحمد شهاب.

(١١٥) انظر حول تعيين الجزّار على الشام: شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزّار**، ص ٤٠٣، ٤٢٠، ٥٠١، ٥٠٢؛ ورسلان القاري، **الوزراء الذين حكموا دمشق**، نشره صلاح الدين المنجد في **ولاة دمشق في العهد العثماني**، ص ٨٨، ٩٠.

(١١٦) شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزّار**، ص ٧٩١.

(١١٧) A.E.B[1] 979 = Acre, 1/5/1786, Acre, 10/7/1786, Acre, 20/8/1780, Acre, 6/9/1786, Acre, 18/4/1787; Archives de la Chambre de Commerce de Marseille (ACCM), J. 804, Acre, 18/4/1787.

(١١٨) A.E.B[1] 981 = Jaffe, 6/6/1791.

(١١٩) رسلان القاري، «الوزراء الذين حكموا دمشق»، في **ولاة دمشق...**، ص ٨٨.

(١٢٠) انظر تفاصيل ضافية حول الثورة في: شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجـزّار**، ص ٩٢ ــ ٩٥؛ وانـظر أيضـا: A.E.B[1] 980 = Acre, 28/5/1789, Acre, 12/7/1789; ACCM, J. 804 = Acre 29/5/1789, Acre 2/8/1789.

(١٢١) Ministère de la Guerre, Etat-Major de l'Armée, *Expéditions de Guerre hors d'Europe*, Archives Historiques, M.R. 1933: M. A. Feyrusse, *Expédition de Malte, d'Egypte et de Syrie depuis le départ de Tulon le 30 Prairial an VI (18 juin) jusqu'au retour de l'Armée à Marseille le 12 Brumaire an X (3 novembre 1801)*, Archives de la Guerre, Vincennes, M.R. 908, pp. 17-63; L.F. Hauet, *Précis historique et Journal de Campagne d'Egypte et de Syrie par l'Armée Française d'Orient en 1798, 1799, 1800, et 1801*, Ministère des Armées, Archives Historiques, Vincennes, M.R. 908, pp. 80-114; Armée d'Orient, *Exposé succinct de la Campagne de Syrie, an VII de la République*, Archives de la Guerre, Vincennes, M.R. 908; Armée d'Orient, *Ordres de la Division du Général Kléber*, Vincennes, B[6] 98; Armée d'Orient, *Ordres de la Division du Général Kléber depuis l'arrivée de l'Armée à Alexandrie jusqu'à la fin de la campagne de la Syrie, du 18 Messidor an VI au 20 Prairial an VII (6 juillet 1798 au 8 juin 1799)*, No. 5, B[6] 101.

(١٢٢) نشرت مذكرات القناص بيير ميلله في مقال مطوّل لأحد الآباء الـدومـيـنـيـكـان: R.P. Raymond Génier des Frères Prècheurs, «Bonaparte en Syrie, 1799», *Ecole pratique d'Etudes bibliques, 1910-1911*, pp. 145-192.

(١٢٣) هناك نصّان مطبوعان لمذكرات نقولا الترك عن الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام نشرا متباعدين مع ترجمة فرنسية. النص الأول تأليف نقولا الترك وعنوانه بالعربية: **ذكر تملك جهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشاميّة**، ويحمل الجانب الفرنسي منه العنوان التالي: *Histoire de l'Expédition des Français en Egypte.*
انظر: ص ٨١ ــ ١١٠ من النص العربي.
أما النص الثاني لمذكرات التّرك فهو: **مذكرات نقولا الترك**. انظر: ص ٣٥ ــ ٥٣، ويحمل الجانب الفرنسي منه العنوان التالي: Nicolas Turc, *Chronique d'Egypte, 1798-1804.*
أما كتابة الجبرتي فيمكن الاطّلاع على حملة بلاد الشام فيها في: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٣، ص ٤٤ ــ ٥٠، ٥٥ ــ ٥٧، ٦٧ ــ ٦٩؛ وكذلك في كتاب الجبرتي الآخر، **مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس**، انظر ج ١، ص ١٦٨ ــ ١٦٩، ١٧١ ــ ١٧٤، ١٧٨ ــ ١٨٢، ١٨٧، ١٩٠ ــ ١٩١، ١٩٤، ١٩٦ ــ ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٧ ــ ٢٠٩، وأهميّة كتابة الجبرتي تكمن حول ردود الفعل في مصر على أخبار الحملة والبلاغات الموجهة من الفرنسيين إليها حول سيرها.

(١٢٤) من البحوث الجيدة باللغة الانكليزية عن حملة نابليون على الشام المقال التالي لضابط بريطاني اهتم بفلسطين ونشر المقال بعد وفاته: Colonel Sir G.M. Watson, «Bonaparte's Expedition to Palestine in 1799», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement*, 1917, pp. 17-35.

(١٢٥) الجبرتي، **مظهر التقديس**، ج ١، ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩؛ ونقولا الترك، **مذكرات...**، ص ٥٢.

(١٢٦) يعطي نقولا الترك وصفاً لموقعة الفولة في: **ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية**، ص ٩٣ ــ ٩٧؛ وأيضاً في: الترك، **مذكرات...**، ص ٣٩ ــ ٤٢. ويتفق هذا الوصف مع المصادر الفرنسية الأخرى. وقد استخدم بعضها وصف الترك لهذه الموقعة، انظر مثلاً: Génier, «Bonaparte en Syrie, 1799», pp. 176, 180.
والمؤسف وقوع ناشر **ذكر تملّك جمهور الفرنساوية...**، الذي منه استقى الفرنسي (Génier) معلوماته ولكنه صححها، في أخطاء شنيعة. وربما لهذا رأى فييت ضرورة إعادة نشر مذكرات الترك التي نشر ديغرانغ رواية أخرى لها. ومن الأخطاء الغريبة أن ديغرانغ (ص ٩٤) يذكر أثناء وصفه لتوجه نابليون لدعم كليبر في الفولة أنه «وصل بالعساكر إلى بير البدوية وأرسل إلى امرأة قريبة منهم اسمها سافورا وطلب ما احتاجه من الذخيرة تلك الليلة» في حين أن النص كما نشره فييت (ص ٤٠) يصبح كالتالي: «وصلوا نصف الليل إلى موضع يقال له بير البداوية وهذا البير ملآن ماء فحطّوا هناك يرتاحوا فلكن أكل لم معاهم وكان قبالهم بلد يقال لها صفورة فأرسلوا لها حالاً وجابوا منها كامل ما يحتاجون من سمن وبقر وخلافه وباتوا تلك الليلة».

(١٢٧) يجب التعامل مع تواريخ وصول الحملة ومغادرتها للمدن بكثير من الحذر والدقّة لأن بعض المصادر تعتمد مثلاً تاريخ بدء مغادرة الحملة للمدينة في حين تعتمد مصادر أخرى تاريخ مغادرة مؤخرة الحملة للمدينة.

(١٢٨) الجبرتي، **مظهر التقديس...**، ج ١، ص ١٩٩.

الفصل الثاني:

(١) من الكتب الهامة التي تورد أسماء الرحلات وأصحابها، سنة فسنة، عبر القرون، إلى اليونان والشرق الأدنى والمناطق المجاورة، ومنها فلسطين، الكتـاب التـالي: Shirley Howard Weber (Compiler), *Voyages and Travels in Greece, the Near East and adjacent Regions made previous to the year 1801*, Vol. 1; *Voyages and Travels in the Near East made during the XIX Century*, Vol. 2.

(٢) Stéphane Yerasimos, «Voyageurs européens en Palestine ottomane au XVI[e] siècle (1517-1600)», *Revue d'Etudes Palestiniennes*, No. 11, Printemps 1984, pp. 77-104.

(٣) Fra Francisco Suriano, *Treatise on the Holy Land.*

(٤) المصدر نفسه، ص ١، ١١، ١٥، ٢٠١.

(٥) قدر وسطي سكان البيت أو الخانة آنذاك بخمسة أفراد قياساً على ما ذكره الباحث التركي: Omer Lutfi Barkan, «Essai sur les Données statistiques des Registres de Recensement dans l'Empire Ottoman aux XV[e] et XVI[e] Siècles», *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol. I, pt. 1, pp. 9-35, see pp. 21, 28;

وانظر حول تقديرات أخرى لوسطي الخانة، حواشي الفصل الثالث رقم ٤، وكذلك: Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography...*, p. 36, No. 1, 43.

(٦) Suriano, *Treatise...*, pp. 38-40.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٣، ١٥٠ ـ ١٥٢، ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٥٨، ١٥٩، ١٦٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٦٢ ـ ١٦٥، ١٨٣ ـ ١٨٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢، ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٨٠ ـ ٨٢.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٢١) *Voyage de Monsieur d'Aramon ambassadeur pour le Roy en Levant escript par Noble Homme Jean Chesneau l'un des secretaires du dict Seigneur ambassadeur.*

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١١٣ ـ ١٢٧، وانظر كذلك: Stéphane Yerasimos, «Voyageurs européens...», pp. 77-104.

(٢٣) Yerasimos, «Voyageurs européens...», p. 89.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٢٦) Bernard Lewis, «Studies in the Ottoman Archives — I», *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, Vol. XVI (1954), pp. 469-501, see p. 476.

(٢٧) Yerasimos, «Voyageurs européens...», p. 93.

(٢٨) Amnon Cohen and Bernard Lewis, *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century*, pp. 157-158.

(٢٩) Yerasimos, «Voyageurs européens...», p. 92.

(٣٠) Cohen and Lewis, *Population and Revenue...*, p. 94.

(٣١) Yerasimos, «Voyageurs européens...», p. 93.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٣٧) انظر: رافق، **العرب والعثمانيون**، ص ١٢٢ ـ ١٤٢.

(٣٨) Yerasimos, «Voyageurs européens...», p. 98-99.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٤١) انظر تحليل يراسيموس لهذه الفترات في المصدر نفسه، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤٢) John Sanderson, *The Travels of John Sanderson in the Levant 1584-1602*, Vol. LXVII.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٩٨. يجعله ناشر الرحلة (الحاشية ٧) نهر المقطّع في حين أن نهر المقطّع يذكر بأنه يتجه من وسط مرج ابن عامر ويحاذي جبل الكرمل إلى أن يصب عند حيفا. ويعرف بنهر قيشون، انظر رحلة موندريل Maundrell التي سيرد ذكرها فيها بعد، ص ٧٦، وانظر كذلك قسطنطين خمّار، **أسماء المواقع والمعالم الطبيعية والبشرية الجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨**، ص ٢١٨.

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٠٠ ـ ١١٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٤٨) العنوان الكامل للمذكرات هو: *Mémoires du Chevalier d'Arvieux, Envoyé Extraordinaire du Roy à la Porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, et autres Echelles du Levant*, 7 t.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٥٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٢ ـ ٢٧١، ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠.

(٥٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٢ ـ ٢٩١.

(٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣ ـ ١٢.

(٥٤) مما يجدر ذكره أن تدخين التبغ كان ممنوعاً دينياً من قبل العلماء. ولم يسمح بالتدخين بصورة شرعية حتى حوالي عام ١٧٢٠ حين أفتى بذلك الشيخ عبد الغني النابلسي في فتواه المشهورة التي يضمها مؤلف صغير بعنوان: **الصلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان**، نشرها الشيخ محمد أحمد دهمان، المكتبة السلفية، ١٣٤٣هـ. أما عادة شرب القهوة فقد أدخلت إلى بلاد الشام من اليمن في عام ١٥٤٠، ثم نودي بإبطالها في عام ١٥٤٦، ولكن شاع شربها في بيوت القهوة (المقاهي) في دمشق في الربع الأخير من القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد. انظر: الغزي، **الكواكب السائرة...**، ج ٢، ص ٢٢، ٣٦، ٣٩، ١٩٨، ٢٠٥؛ والمحبي، **خلاصة الأثر...**، ج ١، ص ١٦٦، ٣٠٢، ٤٢٠.

(٥٥) D'Arvieux, *Mémoires...*, t. 2, pp. 13-15, t. 3, pp. 88-97.

(٥٦) طريقة استخراج مياه الآبار بهذا الشكل كانت شائعة في منطقة دمشق، وعرفت بالناعورة.

انظر وصف الناعورة في محمد سعيد القاسمي (وآخرون)، **قاموس الصناعات الشامية**، ص ٤٩٠.

(٥٧) D'Arvieux, *Mémoires...*, t. 2, pp. 15-31.

(٥٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢ ـ ٤٦.

(٥٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦ ـ ٥٢.

(٦٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١ ـ ٧٣.

(٦١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٥ ـ ٨٢.

(٦٢) D'Arvieux, *Mémoires...*, t. 2, pp. 82-88.

(٦٣) لتقدير القوة الشرائية للأربعة عشر قرشاً نذكر أن المسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج كان يدفع من حلب إلى مكة المكرمة صحبة قافلة الحج في عام ١٦٣٦ مثلاً سبعين قرشاً لقاء أجرة النقل على الجمل وثمن الطعام والماء وغيرها من الخدمات، انظر: رافق، «قافلة الحج الشامي . . .» ، ص ٢٠٣.

(٦٤) D'Arvieux, *Mémoires*..., t. 2, pp. 101-105.

(٦٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٦ ــ ١١٠.

(٦٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٠ ــ ١٨٤.

(٦٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٧ ــ ٢١٧.

(٦٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٥ ــ ١٨٦.

(٦٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٨ ــ ١٩٨.

(٧٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٩.

(٧١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٦ ــ ٢٣٠.

(٧٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٠ ــ ٢٤٢.

(٧٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٧.

(٧٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٢ ــ ٢٧٣.

(٧٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٣ ــ ٢٨٠.

(٧٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٠ ــ ٢٨٤.

(٧٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٧ ــ ٢٩٥.

(٧٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٩ ــ ٤٣.

(٧٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣.

(٨٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٨ ــ ٣٢١.

(٨١) نشر هذه الرحلة رجا محمود السامرائي في ثلاثة أجزاء، بغداد ١٩٦٩ ــ ١٩٨٠. وستعتمد هنا النسخة المخطوطة للرحلة الموجودة في دار الكتب المصرية برقم جغرافية ٥٤٥.

(٨٢) انظر ترجمته في: المحبي، **سلك الدرر**. . .، ج ١، ص ٢٥ ــ ٢٨.

(٨٣) إبراهيم الخياري، **تحفة الأدباء وسلوة الغرباء**، ورقة ١٩٤أ ــ ١٩٤ب.

(٨٤) المصدر نفسه، ورقة ١٩٥أ. يخطىء الخياري بذكر مرج ابن عامر بأنه مرج دابق أو دابغ. ولكن ملاحظة على هامش المخطوط تصحح الكلمة إلى مرج بني عامر وتقول ان التسمية نقلت إلى الشيخ الخياري خطأ.

(٨٥) المصدر نفسه، ورقة ١٩٥ب.

(٨٦) المصدر نفسه، ورقة ١٩٦أ ــ ١٩٨ب.

(٨٧) المصدر نفسه، ورقة ٢٠٣أ ــ ٢٠٣ب. وورد أن باب المتوضئين وباب القطانين وباب الحديد ثلاثة أسماء لباب واحد. راجع: مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢، ص ٤٢٠.

(٨٨) المصدر نفسه، ورقة ٢٠٤أ ــ ٢٠٦ب.

(٨٩) المصدر نفسه، ورقة ٢٠٦ب ــ ٢٠٨أ.

(٩٠) ترك النابلسي رحلتين أخريين على الأقل لأنهما معروفتان وهما: **حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز** و **التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية**. وقد أشار النابلسي في رحلته **الحقيقة والمجاز** إلى ثلاث من رحلاته هذه وصفها كما يلي: الرحلة الكبرى إلى مكة، والوسطى إلى القدس، والصغرى إلى بعلبك. وقد نشرت رحلة القدس مختصرة في مصر في عام ١٩٠٢. كما نشرت الرحلة الطرابلسية محققة من قبل الألماني هريبرت بوسه، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، بيروت ١٩٧١. ونشرت رحلة البقاع محققة من قبل صلاح الدين المنجد مع **الرحلة إلى طرابلس الشام**، لرمضان العطيفي المحققة من قبل ستيفان فيلد Stefan Wild، في منشورات المعهد نفسه، بيروت، ١٩٨٠. وبشأن النابلسي تراجع الدراسة الوافية والمختصرة في كتاب بوسه السابق، كما تراجع ترجمة النابلسي في: المرادي، **سلك الدرر**. . .، ج ٣، ص ٣٠ ــ ٣٨. وانظر الدراستين الحديثتين التاليتين حول رحلات النابلسي في فلسطين: Elizabeth Sirriyah, «The Journeys of Abd al-Ghani al-Nabulsi in Palestine (1101/1690 and 1105/1693)», *Journal of Semitic Studies*, Vol. XXIV, Spring 1979, pp. 55-69; «The Mystical Journeys of Abd al-Ghani al-Nabulsi», *Die Welt des Islam*, Vol. XXV (1985), pp. 84-96.

(٩١) اعتمدنا فيما يتعلق برحلة: **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**، على مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم ٦٨٤٤، ١٥٠ ورقة. كما اعتمدنا في **رحلة الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز**، على مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم ٣٢٢٦، ورقة ٨٣ب ــ ١٤٨أ.

(٩٢) النابلسي، **الحضرة الأنسية**. . .، ورقة ١٧ب ــ ١٨أ، وانظر أيضاً: ورقة ١١أ ــ ١٧أ.

(٩٣) انظر: عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦ ــ ١٧٩٨**، ص ٢٢٨.

(٩٤) النابلسي، **الحضرة الأنسية**. . .، ورقة ٢٢ب ــ ٢٣أ.

(٩٥) المصدر نفسه، ورقة ٢٤أ.

(٩٦) المصدر نفسه، ورقة ٢٧أ، ٢٩أ.

(٩٧) المصدر نفسه، ورقة ٢٨أ.

(٩٨) المصدر نفسه، ورقة ٣٢أ ــ ٣٢ب.

(٩٩) المصدر نفسه، ورقة ٣٣أ ــ ٣٣ب.

(١٠٠) المصدر نفسه، ورقة ٣٣ب ــ ٣٤ب.

(١٠١) الخياري، **تحفة الأدباء**. . .، ورقة ٢٠٣أ ــ ٢٠٣ب.

(١٠٢) النابلسي، **الحضرة الأنسية**. . .، ورقة ٣٤أ ــ ٣٥ب.

(١٠٣) المصدر نفسه، ورقة ٣٦أ ــ ٥٧ب.

(١٠٤) يشير إليها محمد خليل المرادي باسم «مأمن الله»، **سلك الدرر**. . .، ج ٣، ص ٦٢، ١٦٦.

(١٠٥) النابلسي، **الحضرة الأنسية**. . .، ورقة ٧٥أ.

(١٠٦) المصدر نفسه، ورقة ٨٠ب ــ ٨١أ.

(١٠٧) المصدر نفسه، ورقة ٨٩ب.

(١٠٨) المصدر نفسه، ورقة ٩٥أ.

(١٠٩) المصدر نفسه، ورقة ٩٥ب ــ ٩٦ب.

(١١٠) المصدر نفسه، ورقة ٩٩ب ــ ١٠٠أ.

(١١١) المصدر نفسه، ورقة ١١٦أ.

(١١٢) المصدر نفسه، ورقة ١١٨أ ــ ١١٨ب.

(١١٣) المصدر نفسه، ورقة ١٢٠ب ــ ١٢١أ.

(١١٤) المصدر نفسه، ورقة ١٣٢ب.

(١١٥) النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ورقة ٨٦أ ــ ٨٦ب.

(١١٦) المصدر نفسه، ورقة ٨٧أ.

(١١٧) Yerasimos, «Voyageurs européens...», p. 98.

(١١٨) النابلسي، الحقيقة والمجاز. . .، ورقة ٨٨ب ـ ٨٩أ.

(١١٩) المصدر نفسه، ورقة ٩٠أ.

(١٢٠) المصدر نفسه، ورقة ٩٦ب.

(١٢١) المصدر نفسه، ورقة ١٠١أ.

(١٢٢) المصدر نفسه، ورقة ١٠١ أ.

(١٢٣) الخياري، تحفة الأدباء. . .، ورقة ٢٠٣أ ـ ٢٠٣ب.

(١٢٤) النابلسي، الحقيقة والمجاز. . .، ورقة ١٠٦ب.

(١٢٥) المصدر نفسه، ورقة ١٠٧ب ـ ١٠٨أ.

(١٢٦) المصدر نفسه، ورقة ١٠٩أ.

(١٢٧) المصدر نفسه، ورقة ١١٩أ.

(١٢٨) المصدر نفسه، ورقة ١٢٠أ.

(١٢٩) المصدر نفسه، ورقة ١٢٢أ.

(١٣٠) المصدر نفسه، ورقة ١٢٤أ ـ ١٢٤ب، ١٢٥ب ـ ١٢٧أ.

(١٣١) المصدر نفسه، ورقة ١٢٧ب.

(١٣٢) المصدر نفسه،ورقة ١٢٨أ.

(١٣٣) المصدر نفسه، ورقة ١٣٠أ.

(١٣٤) المصدر نفسه، ورقة ١٣١أ.

(١٣٥) المصدر نفسه، ورقة ١٣٤أ، ١٣٤ب.

(١٣٦) انظر: عبد الكريم رافق، غزة، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية، ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م، دمشق، ١٩٨٠، ص ٢٦، (أعيد نشرها بالتصوير وبالصفحات نفسها في: عبد الكريم رافق: بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث).

(١٣٧) النابلسي، الحقيقة والمجاز. . .، ورقة ١٣٤ب.

(١٣٨) المصدر نفسه، ورقة ١٣٥ب.

(١٣٩) المصدر نفسه، ورقة ١٤٧ب.

(١٤٠) Henry Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697.*

(١٤١) المصدر نفسه، ص ٦٩ ـ ٧٢.

(١٤٢) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(١٤٣) المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٧٩.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٥.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ٨٥ ـ ٨٨.

(١٤٦) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(١٤٧) المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ١١٦.

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١٢٦، ١٤٧ ـ ١٤٨.

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٥٦.

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(١٥١) انظر حول ترجمته: المرادي، سلك الدرر. . .، ج ٤، ص ١٩٠ ـ ٢٠٠.

(١٥٢) استخدمت النسخة المخطوطة في المكتبة الوطنية ببرلين الغربية، رقم (6149. Mq. 460) وتتألف من ٣٧ ورقة.

(١٥٣) الصديقي، الخمرة الحسية. . .، ورقة ٥ب، ٩أ.

(١٥٤) المصدر نفسه، ورقة ٣أ.

(١٥٥) المصدر نفسه، ورقة ٩ب؛ وانظر أيضاً: ورقة ٤أ.

(١٥٦) المصدر نفسه، ورقة ٦ب.

(١٥٧) انظر: النابلسي، الحضرة الأنسية. . .، ورقة ١٧ب ـ ١٨أ، ١١١أ ـ ١١٧أ.

(١٥٨) الصديقي، الخمرة الحسية. . .، ورقة ٧أ.

(١٥٩) النابلسي، الحضرة الأنسية. . .، ورقة ١٨أ.

(١٦٠) الصديقي، الخمرة الحسية. . .، ورقة ٧أ.

(١٦١) المصدر نفسه، ورقة ٧ب.

(١٦٢) المصدر نفسه، ورقة ٨أ.

(١٦٣) المصدر نفسه، ورقة ٩أ.

(١٦٤) المصدر نفسه، ورقة ١٢أ.

(١٦٥) المصدر نفسه،ورقة ١٠أ ـ ١٤ب.

(١٦٦) المصدر نفسه، ورقة ١٨ب ـ ١٩أ.

(١٦٧) المصدر نفسه، ورقة ٢٢أ.

(١٦٨) المصدر نفسه، ورقة ٢٠ب.

(١٦٩) المصدر نفسه، ورقة ٢٣ب.

(١٧٠) المصدر نفسه، ورقة ٢٥ب.

(١٧١) المصدر نفسه، ورقة ٢٧أ.

(١٧٢) المصدر نفسه، ورقة ٢٧ب، ٢٨أ، ٢٨ب.

(١٧٣) المنجد (محقق)، ولاة دمشق، ص ٥٣؛ وانظر أيضاً: ص ٥١.

(١٧٤) الصديقي، الخمرة الحسية. . .، ورقة ٣٤أ.

(١٧٥) المصدر نفسه، ورقة ٣٦أ؛ المرادي، سلك الدرر. . .، ج ٤، ص ١٩١.

(١٧٦) عنوان الرحلة: *Voyage du Sieur Paul Lucas fait en 1714 par ordre de Louis XIV dans la Turquie, l'Asie, Sourie, Palestine, Haute et Basse Egypte, etc.*

(١٧٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(١٧٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(١٧٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(١٨٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٨ ـ ٣٨١.

(١٨١) انظر ترجمته في: المرادي، سلك الدرر. . .، ج ٤، ص ١٥٤ ـ ١٦٦.

(١٨٢) استخدمت النسخة المخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم ٥٢٤٨، ١٢٣ ورقة.

(١٨٣) استخدمت النسخة المخطوطة في المكتبة الوطنية في برلين رقم We. 1104.

(١٨٤) اللقيمي، موانح الأنس. . .، ورقة ٢٦ب.

(١٨٥) المصدر نفسه، ورقة ٩أ.

(١٨٦) المصدر نفسه، ورقة ٩ب.

(١٨٧) المصدر نفسه، ورقة ١٠أ ـ ١٧ب.

(١٨٨) المصدر نفسه، ورقة ١٨أ.

(١٨٩) المصدر نفسه، ورقة ٢٠أ.

(١٩٠) انظر استعراضه لها في المصدر نفسه، ورقة ٢٠أ ـ ٢١أ.

(١٩١) المصدر نفسه، ورقة ٢١ب.
(١٩٢) المصدر نفسه، ورقة ٢٢ب ــ ٢٣أ.
(١٩٣) المصدر نفسه، ورقة ٢٣أ ــ ٢٣ب.
(١٩٤) المصدر نفسه، ورقة ٢٦ب.
(١٩٥) المصدر نفسه، ورقة ٤٥ب.
(١٩٦) المصدر نفسه، ورقة ٤٧أ.
(١٩٧) المصدر نفسه، ورقة ٥٠أ ــ ٥٠ب، ٥٨ب.
(١٩٨) المصدر نفسه، ورقة ٥٣أ.
(١٩٩) المصدر نفسه، ورقة ٦٧أ.
(٢٠٠) المصدر نفسه، ورقة ٦٧ب.
(٢٠١) المصدر نفسه، ورقة ٦٩ب ــ ٧١ب.
(٢٠٢) المصدر نفسه، ورقة ٧٨ب ــ ٧٩أ.
(٢٠٣) تذكر نسخة المخطوط ورقة ٨٤ب تاريخ ٢٧ ربيع الأول وهذا خطأ، والصحيح هو ١٧ ربيع الأول لأن اللقيمي وصل دمشق بعد ذلك في ٢٢ ربيع الأول بدليل أنه أمضى خمسة أيام في الطريق بين نابلس ودمشق، وكذلك بدليل أن اللقيمي ذكر أن يوم مغادرته نابلس هو يوم الأربعاء وهذا يصادف يوم ١٧ ربيع الأول لا ٢٧ ربيع الأول.
(٢٠٤) المصدر نفسه، ورقة ٨٤ب ــ ٨٥أ.
(٢٠٥) المصدر نفسه، ورقة ٨٥ب.
(٢٠٦) المصدر نفسه، ورقة ٨٥ب ــ ٨٧ب.
(٢٠٧) Richard Pococke, *A Description of the East and some other Countries.*
(٢٠٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢ ــ ٣.
(٢٠٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥.
(٢١٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧ ــ ٨، ١٢، ١٩.
(٢١١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠ ــ ٣٣.
(٢١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٥ ــ ٤٦.
(٢١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧ ــ ٤٩.
(٢١٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩ ــ ٥٠.
(٢١٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١ ــ ٥٤.
(٢١٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٥ ــ ٦٠.
(٢١٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٠ ــ ٦٢.
(٢١٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤ ــ ٦٦.
(٢١٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦ ــ ٦٩.
(٢٢٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١ ــ ٧٣.
(٢٢١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٨ ــ ٨٧.
(٢٢٢) L'Abbé Giovanni Mariti, *Voyages dans l'Isle de Chypre, la Syrie et la Palestine avec l'Histoire générale du Levant.*
ولا تبين الترجمة الفرنسية بدقّة كامل تنقلات ماريتي بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٦٧ ولكن أبعاد الرحلة الزمنية تتوضح في عنوان أصل الرحلة الايطالي وهو التالي: *Viaggi per l'isola di Cipro e per la Soria e Palestina, fatti da Giovanni Mariti Fiorentino, dall Anno MDCCLX al MDCCLXVIII.*
وبالرغم من أن Weber, *Voyages and Travels...*, part 1, p. 122 يعطي العنوان الإيطالي الذي يوضح تواريخ الزيارة بأكثر من العنوان الفرنسي فإنه يصنف رحلة ماريتي تحت رحلات عام ١٧٦٠.
(٢٢٣) Mariti, *Voyages...*, t. 1, pp. 248, 257-262.
(٢٢٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٨ ــ ٨٩.
(٢٢٥) Lucas, *Voyage du Sieur Lucas...*, t. 2, p. 370.
(٢٢٦) Mariti, *Voyages...*, t. 2, pp. 110-111.
(٢٢٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٢ ــ ١١٦.
(٢٢٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٦ ــ ١٢٦.
(٢٢٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٧ ــ ١٣٥.
(٢٣٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٦ ــ ١٤٠.
(٢٣١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٠ ــ ١٥٢.
(٢٣٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٢ ــ ١٥٤.
(٢٣٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٢ ــ ١٥٩.
(٢٣٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٠ ــ ١٦٧.
(٢٣٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٨ ــ ١٧٥.
(٢٣٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.
(٢٣٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١١ ــ ٢٢٢.
(٢٣٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٨.
(٢٣٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦١ ــ ٢٦٩.
(٢٤٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٥ ــ ٣٣٥.
(٢٤١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٠ ــ ٣٩٠.
(٢٤٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٠، ٣٦٢ ــ ٣٦٣.
(٢٤٣) C.F. Chasseboeuf, Comte de Volney, *Voyage en Egypte et en Syrie.*
(٢٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٣٣.
(٢٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٣٤.
(٢٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٨.
(٢٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٠ ــ ٣٤٢.
(٢٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٤٤ ــ ٣٤٥.
(٢٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٤٣ ــ ٣٤٧.
(٢٥٠) المصدر نفسه، ص ٣٤٧ ــ ٣٤٩.
(٢٥١) W.G. Browne, *Travels in Africa, Egypt and Syria from the year 1792 to 1798.*
(٢٥٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٨ ــ ٣٦٠.
(٢٥٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٠ ــ ٣٦٢.
(٢٥٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.
(٢٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.
(٢٥٦) المصدر نفسه، ص ٣٦٤ ــ ٣٦٦.
(٢٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٦٧ ــ ٣٧١.
(٢٥٨) حققه وعلّق عليه عبد الكريم الفيلالي، الرباط، غشت [آب/أغسطس]، ١٩٦٧.
(٢٥٩) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، ص ٢٦١.
(٢٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٦٥.
(٢٦١) المصدر نفسه، ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦.

(٢٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٢٦٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٥.

(٢٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

(٢٦٥) النابلسي، الحضرة الأنسية. . .، ورقة ١١٦أ.

(٢٦٦) المصدر نفسه، ورقة ١٢٠أ، ١٢٠ب، ١٢١أ.

(٢٦٧) النابلسي، الحقيقة والمجاز. . .، ورقة ١٠٨ب ـ ١٠٩أ.

(٢٦٨) المصدر نفسه، ورقة ٨٤أ.

(٢٦٩) النابلسي، الحضرة الأنسية. . .، ورقة ٢٣أ.

الفصل الثالث:

(١) يذكر ذلك: Beshara B. Doumani, «Palestinian Islamic Court Records: A Source for socioeconomic History», *Middle East Studies Association Bulletin*, Vol. 19, No. 2 (December 1985), p. 156.

(٢) انظر دراستنا لمدينة غزة المبنيّة على وثائق المحكمة الشرعية في غزة وعنوانها: غزة، دراسة عمرانيّة واقتصاديّة واجتماعيّة من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م.

(٣) انظر تقديرات الراهب سريانو في Francisco Suriano, *Treatise on the Holy Land*, pp. 1, 11, 15, 201;

ومناقشة ذلك في المصادر التالية: Yerasimos, «Voyageurs européens...», pp. 90, 93; Cohen and Lewis, *Population and Revenue*.., pp. 157-158; Lewis, «Studies in the Ottoman Archives», pp. 469-501.

(٤) يقدّر سريانو عدد السكان بالبيوت وقد اعتمدنا الرقم ٥ كوسطي لعدد سكان البيت أو الخانة بالتركية. انظر مناقشة ذلك في المصادر التالية: Barkan, «Essai sur les Données Statistiques», pp. 21, 28; «Quelques observations sur l'organization économique et sociale des villes ottomanes des XVI^e et XVII^e siècles», *Recueils de la Société Jean Bodin VII — La ville*, 2^e partie, pp. 289-311, voir p. 293; Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine*..., pp. 36, No. 1, 43; Bernard Lewis, «Nazareth in the Sixteenth Century according to the Ottoman Tapu Registers» in *Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A.R. Gibb*, pp. 416-425.

(٥) Yerasimos, «Voyageurs européens...», p. 81.

(٦) المصدر نفسه، ص ٨١ وهذا تقدير لرحالة إسباني مرافق لصاحب التقدير السابق وهو إسباني أيضاً.

(٧) بدءاً من رحلة ١٥٢٥ وحتى عام ١٥٩٥ جميع تقديرات السكان مبنية على كتابات الرحالة الأوروبيين الذين سبق استعراضهم ويراجع بشأنهم: Yerasimos, «Voyageurs européens...», pp. 82, 83, 85, 87, 92, 100.

(٨) Mariti, *Voyages*..., t. 1, p. 262.

(٩) Volney, *Voyage en Egypte et en Syrie*, p. 334.

(١٠) Browne, *Travels in Africa*..., p. 364.

(١١) Ministère des Armées, Archives historiques, Vincennes, M.R. 908, «Précis historique», pp. 223a-226b.

(١٢) Yerasimos, «Voyageurs européens...», pp. 90, 93; Cohen and Lewis, *Population and Revenue*..., pp. 157-158; Lewis, «Studies in The Ottoman Archives-I», pp. 469-501.

(١٣) أحدث بحث هو: Mohammad Adnan Bakhit, «The Christian Population of the Province of Damascus in the Sixteenth Century», in *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, Vol. 2, pp. 19-66.

(١٤) ذكر رقم ٦ في السجل تحت عنوان اليهود وهذا خطأ يجب أن يكون «المسيحيون» كما أشار إلى ذلك: Lewis, «Nazareth in the Sixteenth Century», p. 417, No. 1.

(١٥) Lewis, «Studies in the Ottoman Archives — I», p. 476.

(١٦) Cohen and Lewis, *Population and Revenue*..., pp. 81-83.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٩٢ ـ ٩٤.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٨٩ ـ ٩١.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٢٠) انظر لتبيان الاختلافات في أعداد السكان في الألوية وأعداد القرى فيها المصادر التالية: Bakhit, «The Christian Population...», pp. 45-56; Lewis, «Studies in the Ottoman Archives — I», pp. 473-476; Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography*..., pp. 55-61.

(٢١) Barkan, «Essai sur les Données Statistiques...», p. 292.

(٢٢) Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography*..., pp. 55-61.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٩؛ وقارن مع: Cohen and Lewis, *Population and Revenue*..., p. 160.

(٢٤) Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography*..., p. 53.

(٢٥) Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, pp. 85-86.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨٩؛ وانظر كذلك، ص ٩٠ ـ ٩٥.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٨١، ٨٣ ـ ٨٤، ٨٥، ٨٧ ـ ٨٨.

(٣٠) D'Arvieux, *Mémoires*..., t. 3, pp. 99-109.

(٣١) De la Roque, *Voyage dans la Palestine (fait par ordre du Roi Louis XIV)*.

(٣٢) D'Arvieux, *Mémoires*..., t. 1, pp. I-XVI, t. 3, pp. 3-340.

(٣٣) يذكر الأب لابا (Labat)، ناشر مذكرات دارفيو، في مقدمة الجزء الثالث من هذه المذكرات (ص ١ ـ ٣) أن دو لا روك نشر رحلة دارفيو التي قام بها في عام ١٦٦٤ إلى الأمير محمد طراباي زعيم بدو جبل الكرمل، في باريس في عام ١٧١٧، وقد لاقت قبولاً كبيراً من قبل المهتمين. ولكن نظراً للأخطاء التي ارتكبها دو لا روك في نشر الرحلة، كما يقول لابا، فقد رأى هذا الأخير، بناء على نصيحة أشخاص يحترمهم، أن يصحح الأمور وينشر مذكرات دارفيو عن زيارته لآل طراباي.

(٣٤) D'Arvieux, *Mémoires*..., t. 3, pp. 19-23, 158-159; De la Roque, *Voyage*..., pp. 103-110.

(٣٥) D'Arvieux, *Mémoires*..., t. 3, pp. 154, 157-160, 163-164; De la Roque, *Voyage*..., p. 17.

(٣٦) D'Arvieux, *Mémoires*..., t. 3, pp. 102, 162, 164-176; De la Roque, *Voyage*..., pp. 108-111.

وانظر حول سكين البندقية الذي تعامل به آل طراباي وأهميته في الدولة العثمانية وتفوّق قيمته على قيمة الأشرفي الذهبي العثماني، ونسبته إلى عملات أوروبية أخرى تحمل اسم «سكين»: أنطوان عبد النور، تجارة صيدا مع الغرب منذ منتصف القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، ص ١٠١.

(٣٧) Mariti, *Voyages*..., t. 2, pp. 94-95.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣٩) انظر: يعقوب العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين؛ وأحمد سامح الخالدي، أهل العلم والحكم في ريف فلسطين.

(٤٠) حسن عبد اللطيف الحسيني، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، ص ٣٩٩.

(٤١) المرادي، سلك الدرر...، ج ١، ص ٤.

(٤٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤.

(٤٣) في ثلاثة أجزاء، حققه وضبط نصّه جبرائيل سليمان جبّور.

(٤٤) في جزءين، تحقيق محمود الشيخ، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨١ و ١٩٨٢.

(٤٥) انظر ترجمته في: المحبّي، سلك الدرر...، ج ٢، ص ٥١ ـ ٦٣.

(٤٦) حقق جزءين منه صلاح الدين المنجد، ومخطوط المكتبة الوطنية في فيينا برقم Cod.Arab.1190, Mixt. 346 الذي يحتوي على معلومات لا تتوفر في الجزءين المطبوعين.

(٤٧) الغزّي، لطف السمر...، ج ٢، ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤؛ والمحبي، سلك الدرر...، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٤٨) انظر حول مدارس القدس الدراسة الوافية التالية: كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس.

(٤٩) انظر حول مدارس دمشق: عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال.

(٥٠) الغزي، الكواكب السائرة...، ج ٢، ص ١٩١ ـ ١٩٣.

(٥١) في أربعة أجزاء، طبع مصر، بولاق، ١٢٨٤هـ / ١٨٦٩م (طبعة مصورة، بيروت، خياط، بدون تاريخ).

(٥٢) ج ٣، ص ٢١٢ ـ ٢١٣. وانظر مثلين آخرين في المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٩٤، و ج ٤، ص ٢٧٣.

(٥٣) انظر الدراسة التالية حول ذلك: John Voll, «The Non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth-Century Damascus», *Der Islam*, Vol. 49, pt. 2 (November 1972), pp. 277-293.

(٥٤) عندما يتمرّس عالِم ما بتدريس المبتدئين ثم المتقدمين في العلم في مدارس دمشق وجوامعها ويعترف به الخاصّ والعام ينتقل للتدريس في الجامع الأموي حيث يصبح له مكان خاص به يسمى بُقعة التدريس. انظر: المحبي، خلاصة الأثر...، ج ٣، ص ١٢٤؛ والبوريني، تراجم الأعيان...، ج ١، ص ٢٩٤.

(٥٥) بدران، منادمة الأطلال...، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٥٦) الغزي، لطف السمر...، ج ٢، ص ٦٩٨ ـ ٧٠٧؛ والمحبي، خلاصة الأثر...، ج ٤، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠؛ والبوريني، تراجم الأعيان...، مخطوط فيينا، ورقة ١٥٤ب ـ ١٥٥ب.

(٥٧) المحبي، خلاصة الأثر...، ج ٢، ص ١٣٤ ـ ١٣٩.

(٥٨) انظر ما كتبه عن خير الدين الرملي كل من: إحسان عباس، «الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين أثناء القرن السابع عشر (١٠١٠ ـ ١١١٢هـ)»، الحلقة الثانية، ص ٤٩ ـ ٧١، وبخاصة ص ٦٦ ـ ٧١؛ وكذلك: Samir M. Seikaly, «Land Tenure in 17th Century Palestine: The Evidence from the al-Fatawa al-Khairiyya», in *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East*, ed. Tarif Khalidi, pp. 397-408.

(٥٩) المحبي، خلاصة الأثر...، ج ٤، ص ٤٣٥.

(٦٠) طبعت لأول مرة في بولاق عام ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م، وصدرت طبعة ثانية لها في ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م، وقد صدرت مؤخراً في جزءين، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٤.

(٦١) انظر تحليل جوانب من الفتاوى تعنى بالزراعة في بحث: Seikaly, «Land Tenure...», pp. 401-406.

(٦٢) المحبي، خلاصة الأثر...، ج ٢، ص ١٣٧.

(٦٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٩.

(٦٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٩.

(٦٥) انظر حول عدم وجود اليهود بين سكان الرملة حتى عام ١٨٨٩ المصادر التالية: Bakhit, «The Christian Population...», p. 56; Cohen and Lewis, *Population and Revenue...*, pp. 16, 135-140; Philip J. Baldensperger, «The Immovable East III, The Sister Towns of Ramleh and Lydda», *The Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1917), p. 160.

(٦٦) صدر في أربعة أجزاء، مصر، بولاق، ١٣٠١ (صدرت طبعة مصورة له في بغداد، مكتبة المثنّى).

(٦٧) انظر كدليل على هذا الغموض ما ذكره سلامة النعيمات، محقّق كتاب حسن بن عبد اللطيف، تراجم أهل القدس...، ص ١٢٥ ـ ١٢٧، ٣٢٦ ـ ٣٢٨، ومقارنة ذلك بما ورد في: المرادي، سلك الدرر...، ج ٣، ص ٨٩، ١٢٤ ـ ١٢٦. وانظر أيضاً: إحسان عباس، «تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري»، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية)، مج ١٣، العدد ١، ص ١٨٧ ـ ١٩٠.

(٦٨) حسن بن عبد اللطيف، تراجم أهل القدس...، ص ٣٩٩.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٨٦ ـ ١٩٦؛ والمرادي، سلك الدرر...، ج ١، ص ٧٠ ـ ٧٢، وانظر أيضاً ما ذكره النابلسي عن أبي الوفا هذا في الحضرة الأنسية...، ورقة ٦٩أ، ٧٩ب، ١٢٢أ؛ والحقيقة والمجاز...، ورقة ٩٧أ وما بعدها.

(٧٠) المرادي، سلك الدرر...، ج ١، ص ٤٩، ١١٦، و ج ٤، ص ٥٨، ٩٤ ـ ٩٧، ١٠٢ ـ ١٠٨، ٢٢٨؛ وحسن بن عبد اللطيف، تراجم أهل القدس...، ص ١٤٥ ـ ١٥٧، ١٩٧ ـ ٢٠٣، ٢٤٢ ـ ٢٤٩، ٢٥٠ ـ ٢٥٣، ٢٦٧، ٢٨٥.

(٧١) المرادي، سلك الدرر...، ج ٢، ص ٧٧ ـ ٧٨، ٢٢٩؛ وحسن بن عبد اللطيف، تراجم أهل القدس...، ص ٣٣٧.

(٧٢) انظر حول الزلازل والطاعون الذي تلاها: محمد أحمد دهمان، «زلزال سنة ١١٧٣هـ»، ص ٣٣٣ ـ ٣٤٧، المشرق، العدد ٤٢، سنة ١٩٤٨، ص ٣٣٣ ـ ٣٤٧؛ و Rafeq, *The Province of Damascus*, p. 227; Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine...*, pp. 209-210.

(٧٣) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٩. وعمواس قرية تابعة للقدس حدث فيها طاعون جارف مات فيه نحو ٢٥ ألفاً في خلافة عمر بن الخطاب في عام ١٧هـ / ٦٣٨م.

(٧٤) انظر: عبد الكريم رافق، «مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني»، دراسات تاريخية، العددان ١٥ و ١٦، كانون الثاني/يناير ـ أيار/مايو ١٩٨٤، ص ٥ ـ ٢٨.

(٧٥) المرادي، سلك الدرر...، ج ٢، ص ٣، ٣٤، ٨٣، ١١٥، ٢٥٤

(٧٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٣.

(٧٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩١.

(٧٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٩.

(٧٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٨٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٠ ـ ٢٠٠.

(٨١) حسن بن عبد اللطيف، تراجم أهل القدس. . .، ص ١٥٨.

(٨٢) انظر الفصل الثاني.

(٨٣) المرادي، سلك الدرر. . .، ج ٤، ص ١٩٤.

(٨٤) انظر: رافق، غزة. . .، ص ١٧ ـ ١٨.

الفصل الرابع:

(١) Wolf-Dieter Hütteroth and Kamal Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century.*

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) Evliya Efendi, *Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the Sixteenth Century,* Vol. 1, part 1, p. 104.

(٤) Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography...,* pp. 46-47.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٥ ـ ٦١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٧) Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem,* pp. 88-89.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٩) Richard Pococke, *A Description of the East and some other Countries,* pp. 60-62.

(١٠) انظر حول الصراع القيسي ـ اليمني في فلسطين: E.N. Haddad, «Political Parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni)», *Journal of the Palestine Oriental Society,* Vol. 1, No. 4, (September 1921).

(١١) De la Roque, *Voyage...,* pp. 74-79.

(١٢) D'Arvieux, *Mémoires...,* t. 3, pp. 99-109; De la Roque, *Voyage...,* pp. 74-79.

(١٣) Heyd, *Ottoman Documents on Palestine,* pp. 79-89.

(١٤) المرادي، سلك الدرر. . .، ج ٤، ص ٢٢٨.

(١٥) Mariti, *Voyages...,* t. 2, p. 226.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨، ٢٦٣ ـ ٢٦٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٦٢.

(١٨) Volney, *Voyage en Egypte...,* pp. 341-342.

(١٩) Browne, *Travels in Africa...,* pp. 362-363.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٦٥.

(٢٢) A.E.B[1] 981 = Jaffe, 6.1.1791.

(٢٣) Heyd, *Ottoman Documents on Palestine,* pp. 137-138, No. 3.

(٢٤) حول مصنع بارود حماة انظر: عبد الودود يوسف، «صناعة البارود في حماة في القرن السادس عشر»، ص ٦٧ ـ ٨٢؛ وانظر حول صناعة البارود: عبد الكريم رافق، «مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر»، مجلة دراسات تاريخية، العدد الأول، آذار/مارس ١٩٨٠، ص ٦٦ ـ ٩٥، ص ٨٨ ـ ٩٢.

(٢٥) Lucas, *Voyage du Sieur Paul Lucas...,* p. 271.

(٢٦) Pococke, *A Description of the East...,* Vol. 2, pp. 3-4.

(٢٧) Volney, *Voyage en Egypte...,* pp. 341-342, 347-348.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٢٩) Mariti, *Voyages...,* t. 2, p. 390.

(٣٠) Baron de Tott, *Mémoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares,* pt. 4, pp. 111-113.

(٣١) Volney, *Voyage en Egypte...,* p. 347.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٩١.

(٣٣) انظر حول هذه القلاع والحصون: Heyd, *Ottoman Documents on Palestine,* pp. 102-107, 111-115.

(٣٤) Hütteroth and Abdulfattah, *Historical Geography...,* pp. 92-94.

(٣٥) De la Roque, *Voyage...,* p. 65; D'Arvieux, *Mémoires...,* t. 3, p. 88.

(٣٦) Pococke, *A Description of the East...,* Vol. 2, p. 52.

(٣٧) Paul Masson, *Histoire du Commerce français dans le Levant au XVII siècle,* p. 16; d'Arvieux, *Mémoires...,* 1, pp. 289-291.

(٣٨) Pococke, *A Description of the East...,* Vol. 2, p. 51.

(٣٩) الزيّاني، الترجمانة الكبرى. . .، ص ٢٦١.

(٤٠) Masson, *Histoire du Commerce français...,* pp. 371-372.

(٤١) Rafeq, *The Province of Damascus,* pp. 73-76.

(٤٢) Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine...,* p. 176.

(٤٣) Masson, *Histoire du Commerce français...,* pp. XIV-XXXIII.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٦ ـ ٢٠، ١١٦ ـ ١١٨، ٣٧٢ ـ ٣٧٤، ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١١٨ ـ ١١٩، ٣٧٤، ٣٧٩.

(٤٦) Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company,* p. 123.

(٤٧) De la Roque, (Avertissement); Masson, *Histoire du Commerce français...,* pp. 137;140, 183-216.

(٤٨) Masson, *Histoire du Commerce français ..,* pp. 389-391.

ورد أنّ بالة صيدا التي يعبّأ فيها القطن تزن ٢٣٠ رطلاً أي ٥٧٥ كـغ. وذهب بعضهم إلى أنها تساوي ١٢٨ كغ على أساس ١٠٠ أقة اسطنبولية. انظر: عبد النور، تجارة صيدا، ص ١٠٩.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٩٠؛ وانظر كذلك: Wood, *A History of the Levant Company,* p. 124; Robert Paris, *Histoire du Commerce de Marseille, de 1660 à 1789,* t. V, p. 400.

(٥٠) Masson, *Histoire du Commerce français...,* pp. 390-391; Paris, *Histoire du Commerce de Marseille,* p. 399.

(٥١) Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine...,* p. 169.

(٥٢) Masson, *Histoire du Commerce français...,* p. 391-392; Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine...,* pp. 169-170.

(٥٣) Masson, *Histoire du Commerce français...,* p. 393.

(٥٤) Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine...,* p. 82; Wood, *A History of the Levant Company,* pp. 123-124.

(٥٥) Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine...,* p. 82.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٨٧؛ و Mariti, *Voyages*.... tome 2, pp. 89-90.

(٥٧) Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, p. 400.

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٤٠٠.

(٥٩) A.E.B[1] 1026 = Seyde, 26/2/1745.

(٦٠) A.E.B[1] 1026 = Seyde, (?)/6/1745.

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) A.E.B[1] 1027 = Seyde, 10/3/1747.

(٦٣) Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine*...., p. 68.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٦٨، ٨٢.

(٦٥) Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 195-197.

(٦٦) A.E.B[1] 1030 = Seyde, 12/7/1753 (Articles d'accommodement entre M. de Verrayon, Consul de France à Seyde et le Chek Daher el-Omar, Commandant d'Acre).

(٦٧) A.E.B[1] 1030 = Seyde, 1/5/1754.

(٦٨) Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine*...., p. 83.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٧٠) Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, p. 400.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٣٩٩.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥؛ وانظر أيضاً: Rafeq, *The Province of Damascus*, pp. 314-316.

(٧٣) A.E.B[1] 1035 = Seyde, 21/5/1772.

(٧٤) A.E.B[7] Marine = Seyde, (?) 1773 (Description Topographique des Lieux).

(٧٥) A.E.B[1] 1036 = Seyde, 12/1/1773.

(٧٦) Archives de la Chambre de Commerce de Marseille (ACCM), *Répertoire Numérique des Archives*, t. 1. *Archives antérieurs à 1881*, L. IX 771, Acre, 19/9/1775.

(٧٧) Baron de Tott, *Mémoires du Baron de Tott*..., 4ème partie, pp. 111-118; Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine*, pp. 116-120.

(٧٨) A.E.B[1] 1037 = Acre, 24/9/1777; Seyde, 17/7/1777.

(٧٩) A.E.B[1] 1038 = Seyde, 13/10/1780.

(٨٠) Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, pp. 405-406.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٤٠٦.

(٨٢) A.E.B[1] = Acre, 18/1/1783, 2/6/1783; ACCM; J. 879 = Acre 4/7/1783, 6/7/1783 (Aperçu du Commerce que font les étrangèrs dans le Département du Consulat Général de Syrie et de Palestine en temps de paix, Mémoires sur le Commerce des Français dans le Département du Consulat Général de Syrie et de Palestine), Acre, 22/8/1783, 11/2/1784; Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, p. 409.

(٨٣) A.E.B[1] 979 = Acre, 20/1/1784; Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, p. 409.

(٨٤) ACCM, J. 807=Tripoli de Syrie, 10/12/1790.

(٨٥) ACCM, J. 804 = Acre.25/9/1790, Jaffe, 22/10/1790, 27/10/1790, J. 805, Jaffe, 1/11/1790, 3/2/1791, 20/4/1791, 1/12/1791; A.E.B[1] 981 = Acre, 25/9/1790, Jaffe, 22/10/1790, 12/11/1790.

(٨٦) Charles-Roux, *Les Echelles de Syrie et de Palestine*.... pp. 138-140.

(٨٧) A.E.B[1] 981 = Marseille, 5/1/1791, 7/1/1791, Jaffe, 2/1/1791, 6/2/1791.

(٨٨) ACCM, J. 807=Tripoli de Syrie, 20/3/1791.

(٨٩) قياساً على استخدام فولني لليرة الفرنسية في عام ١٧٨٥ (Volney, *Voyage en Egypte*..., p. 365) فإن الكيس الذي يضم عادة خمسمائة قرش يساوي ١,٢٥٠ ليرة فرنسية، أي أن القرش يساوي ٢,٥ ليرة فرنسية، ويشير إلى هذه القيمة أيضاً: Gibb and Bowen, *Islamic Society and the West*, Vol. I, pt. 2, p. 45, No. 3.

ويؤيد أنطوان عبد النور، تجارة صيدا، ص ١٠٤، الحاشية ٥٤، أن القرش يساوي ٢,٥ livre de France، ولكنه يسمي هذه العملة الجنيه الفرنسي في حين أن الليرة الفرنسية أكثر استعمالاً.

(٩٠) هذه الإحصاءات مبنيّة على جدولين إحصائيين في: Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, pp. 393, 404.

(٩١) الاستثناء الوحيد في الجدول الذي لا تتطابق فيه السنوات بالنسبة لسورية وللدولة العثمانية هو ١٦٧١ ـ ١٦٧٥ في سورية تقابلها سنة ١٦٧٠ ـ ١٦٧١ في الدولة العثمانية.

(٩٢) هذا الإحصاء مبنيّ على: Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, p. 407

(٩٣) انظر تفاصيل ذلك في: ACCM, Série I, 26.

(٩٤) الكنتال هو وزن مئة (مشتق من كلمة تفيد مئة). وأصل الكلمة لاتيني (Centenarium)، ثم انتقلت إلى العربية وعرفت باسم قنطار، ومنها انتقلت إلى اللاتينية في العصور الوسطى باسم (Quintale). ويختلف وزن الكنتال بحسب الزمان والمكان وكذلك نوع المادة الموزونة. وقد شاع وزن الكنتال على أنه مائة رطل. وتشير المصادر في فترة بحثنا إلى أنواع من الرطل الحلبي والدمشقي والرملي والعكاوي. وكان يوزن به الحرير وغزل القطن والصوف والمعادن. وبالرجوع إلى كتاب عبد النور، تجارة صيدا...، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وكتاب Paris, *Histoire du Commerce de Marseille*, *pp. 350-352* يتبين أنّ الرطل الدمشقي من الحرير وغزل القطن يزن ١٩٣٠ غراماً، وأحياناً ٢٠٠٠ غرام، والرطل العكاوي من القطن الخام يزن ٢,٤٠٠ غرام. وعلى هذا فالكنتال أو القنطار بالرطل الدمشقي يزن بين ١٩٣ و ٢٠٠ كغ، وبالرطل العكاوي ٢٤٠ كغ، وفي المواد الثقيلة يزن ٢٥٥,٦٠٠ كغ.

(٩٥) انظر: ACCM, Série I, 27.

(٩٦) انظر: ACCM, Série I, 19.

(٩٧) يسميه الفرنسيون (Barbarie) أي بلاد البربر.

(٩٨) ACCM, Série I, 27.

(٩٩) ACCM, Série I, 20, 28.

المـــراجع

أولاً ـ المراجع العربية:

إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري، رحلة الخياري: **تحفة الأدباء وسلوة الغرباء**، مخطوط في دار الكتب المصرية، القاهرة، رقم جغرافية ٥٤٥، تحقيق رجا محمود السامرائي، ٣ أجزاء، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٦٩ ـ ١٩٨٠.

إبراهيم العورة، **تاريخ ولاية سليمان باشا العادل**، تحقيق قسطنطين الباشا، صيدا، دير المخلّص، ١٩٣٦.

أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، ١٩٦١.

إحسان عباس، «تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري»، (مراجعة لكتاب)، **مجلة دراسات (العلوم الإنسانية)**، مج ١٣، العدد ١، جمادى الأولى ١٤٠٦هـ / كانون الثاني ١٩٨٦م، عمّان، عمادة البحث العلمي في الجامعة الأردنية.

ـــــ، «الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر (١٠١٠ ـ ١١١٢هـ)»، الحلقة الأولى، **المستقبل العربي**، العدد ٣، السنة ٦، تموز/يوليو ١٩٧٩.

إحسان النمر، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، الجزء الأول، دمشق، مطبعة ابن زيدون، ١٩٣٨، أعيد طبعه مع أجزاء ثلاثة لاحقة، نابلس، مطبعة النصر، ١٩٦١ ـ ١٩٧٥.

أحمد البديري الحلاق، **حوادث دمشق اليومية**، نقّحها محمد سعيد القاسمي، ووقف على تحقيقها ونشرها أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٩.

أحمد الخالدي الصفدي، **تاريخ الأمير فخر الدين المعني**، نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني تحت عنوان: **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٩.

أحمد سامح الخالدي، **أهل العلم والحكم في ريف فلسطين**، عمّان، دار الثقافة والعلوم، ١٩٦٨.

إسماعيل المحاسني، «صفحات من تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري»، تحقيق صلاح الدين المنجد، **مجلة معهد المخطوطات المصورة**، القاهرة، مج ٦ (١٩٦٠).

ـــــ، (كناش إسماعيل المحاسني)، **صفحات من تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر**، مخطوط في الخزانة التيمورية، القاهرة، رقم أدب ٦٧٧. نشر بتحقيق د. صلاح الدين المنجّد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٥.

أنطوان عبد النور، **تجارة صيدا مع الغرب من منتصف القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر**، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٨٧.

توفيق معمّر، **ظاهر العمر**، الناصرة، مطبعة وأوفست الحكيم، ١٩٧٩.

جرجي يني، «ظاهر العمر»، **المقتطف**، مج ٢٨، عدد ٤ (نيسان/إبريل ١٩٠٣).

حسن بن الصِّدِّيق، **غرايب البدايع وعجايب الوقايع**، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين الغربية، رقم 417 (II) 9832, We.

حسن بن عبد اللطيف الحسيني، **تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري**، دراسة وتحقيق وتقديم سلامة صالح النعيمات، عمّان، مطبعة كتابكم، ١٩٨٥.

الحسن بن محمد البوريني، **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**، صدر منه جزءان، تحقيق صلاح الدين المنجّد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠. انظر أيضاً مخطوط فيّينا وهو أحسن النسخ
National Bibliothek, Vienna, Cod. Arab. 1190 Mixt. 346

حيدر أحمد شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزّار**، نشره انطونيوس شبلي وأغناطيوس عبده خليفة، بيروت، مكتبة أنطوان، ١٩٥٥.

ـــــ، **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**، ٣ أجزاء، تحقيق فؤاد أفرام البستاني وأسد رستم، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٣.

رسلان القاري، **الوزراء الذين حكموا دمشق**، نشره صلاح الدين المنجد في **ولاة دمشق في العهد العثماني**، دمشق، ١٩٤٩.

شرف الدين بن موسى الأنصاري، **نزهة الخاطر وبهجة الناظر**، مخطوط في الظاهرية، رقم ٧٨١٤.

صلاح الدين المنجّد، «صفحات من تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري»، **مجلة معهد المخطوطات المصورة**، القاهرة، مج ٦ (١٩٦٠).

ـــــ، (جامع ومحقق)، **ولاة دمشق في العهد العثماني**، وهو يتضمن: **الباشات والقضاة** لمحمد بن جمعة المقار، و **الوزراء الذين حكموا دمشق** لرسلان القاري، ومصادر عن تاريخ دمشق أيام الدولة العثمانية، دمشق. لا. ت. ١٩٤٩.

طنوس الشدياق، **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، جزءان، بيروت، مكتبة العرفان، ١٩٥٤.

عارف العارف، **تاريخ غزّة**، القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م.

ـــــ، **تاريخ القدس**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١.

عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٤ أجزاء، القاهرة، بولاق، ١٢٩٧هـ.

ـــــ، **مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس**، جزءان، تحقيق أحمد زكي عطية وعبد المنعم عامر ومحمد فهمي عبد اللطيف وحنفي عامر، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٦١.

عبد الغني النابلسي، **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**، مخطوط في الظاهرية بدمشق، رقم ٦٨٤٤ (نشرت الرحلة مختصرة في القاهرة، ١٩٠٢).

ـــــ، **الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز**، مخطوط في الظاهرية بدمشق، رقم ٣٢٢٦.

عبد القادر بدران، **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال**، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٦٠.

عبد الكريم رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٨٥.

——، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦ – ١٧٩٨، الطبعة الثانية، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٦٨.

——، العرب والعثمانيون، ١٥١٦ – ١٩١٦، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٤.

——، غزّة، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية، ١٢٧٣ – ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ – ١٨٦١م، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٨٠.

——، «قافلة الحج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية»، دراسات تاريخية، العدد السادس، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١، ص ٥ – ٢٨ (أعيد نشره بالتصوير في بحوث في التاريخ الاقتصادي، ص ١٩٣ – ٢١٦).

——، «مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني» دراسات تاريخية، العددان ١٥ و ١٦، كانون الثاني – أيار/يناير – مايو ١٩٨٤، ص ٥ – ٢٨ (أعيد نشره بالتصوير في بحوث في التاريخ الاقتصادي، ص ٢١٧ – ٢٤٠).

——، «مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر»، دراسات تاريخية، العدد الأول، آذار/مارس ١٩٨٠ (أعيد نشره بالتصوير في بحوث في التاريخ الاقتصادي).

عبد الودود يوسف، «صناعة البارود في حماة في القرن السادس عشر»، مجلة الحوليات الأثرية، مج ١٨.

عبود الصبّاغ، الروض الزاهر في أخبار ظاهر، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس، رقم Arabe 4610.

عيسى إسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٦.

فخري البارودي، مذكرات البارودي، جزءان، الجزء الأول، بيروت، دار الحياة، ١٩٥١، الجزء الثاني، دمشق، مطابع عجة واتحاد، ١٩٥٢.

قسطنطين خمار، أسماء المواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٣.

كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨١.

——، وثائق مقدسية تاريخية، مج ٢، عمّان، مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٥.

مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي (ابن الحنبلي)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣.

محمد أحمد دهمان، «زلزال سنة ١١٧٣هـ»، المشرق، ٤٢ (١٩٤٨)، ص ٣٣٣ – ٣٤٧.

محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء، القاهرة، بولاق، ١٢٨٤هـ / ١٨٦٩م (تصوير مكتبة خياط)، بيروت، (لا.ت.).

محمد بن جمعة المقار، الباشات والقضاة في ولاة دمشق في العهد العثماني، نشر صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩.

محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ٤ أجزاء، مصر، بولاق، ١٣٠١هـ (تصوير مكتبة المثنى)، بغداد، لا.ت.

محمد سعيد القاسمي، كتاب قاموس الصناعات الشامية، ج ١، وجمال الدين القاسمي وخليل العظم، ج ٢، تحقيق ظافر القاسمي، باريس، لاهاي، ١٩٦٠.

محمد عدنان البخيت، «الأسرة الحارثية في مرج بني عامر، ٨٨٥ – ١٠٨٨هـ / ١٤٨٠ – ١٦٧٧م»، الأبحاث، الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٨ (١٩٨٠).

——، «من تاريخ حيفا العثمانية، دراسة في أحوال عمران الساحل السوري»، مجلّة مجمع اللغة العربية الأردني، مجلد ١، عدد ٢، عمّان، ١٩٧٨.

محمد عزة دروزة، العرب والعروبة، ٣ أجزاء، دمشق، دار اليقظة العربية ١٩٥٩ – ١٩٦٠.

محمد بن علي بن طولون، مفاكهة الخلّان في حوادث الزمان، جزءان، نشرهما محمد مصطفى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢، ١٩٦٤.

محمد بن محمد نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ٣ أجزاء، حققه وضبط نصّه جبرائيل سليمان جبور، ج ١، بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٩٤٥، ج ٢، جونية، مطبعة المرسلين اللبنانيين، ١٩٤٩، ج ٣، حريصا، المطبعة البوليسية، ١٩٥٩.

——، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، جزءان، تحقيق محمود الشيخ، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨١، ١٩٨٢.

مصطفى أسعد اللقيمي، لطايف أنس الجليل في تحايف القدس والخليل، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين الغربية، رقم We. 1104.

——، موانح الأنس برحلتي لوادي القدس، مخطوط في الظاهرية بدمشق، رقم ٥٢٤٨.

مصطفى الصديقي البكري، الخمرة الحسية في الرحلة القدسية، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين الغربية، رقم 6149, Mq 466.

مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ٨ أجزاء، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٥ – ١٩٧٤.

——، الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين، جزءان، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١ – ١٩٨٢.

ميخائيل بريك الدمشقي، تاريخ الشام (١٧٢٠ – ١٧٨٢)، نشره قسطنطين الباشا، حريصا، مطبعة القدّيس بولس، ١٩٣٠.

ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد، جزءان، نشره قسطنطين الباشا، حريصا، مطبعة القديس بولس، ١٩٣٥.

نقولا الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، نشره مع ترجمة فرنسية ديغرانج اينيه (Desgranges Ainé)، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٣٩.

——، مذكرات نقولا الترك، نشرها مع ترجمة فرنسية غاستون فييت (Gaston Wiet)، القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٠.

يعقوب العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمّان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦.

٢ ـ المراجع الأجنبية :

Archives de la Chambre de Commerce de Marseille (ACCM), *Répertoire Numérique des Archives*, tome 1, *Archives antérieurs à 1881, Fonds Particulier de la Chambre*, publié par Jean Reynaud, Marseille, 1947, Série J. 883-913.

Archives Nationales, Affaires Etrangères, Paris.

a. Répertoire numérique de la sous-Série B1, Correspondance consulaire — Lettres Reçues:

Jerusalem, 1 vol., No. 628 (1699-1717).

St. Jean d'Acre, 4 vols., Nos. 978-981 (1721-1791).

Seyde, 21 vols., Nos. 1021-1041 (1719-1790).

b. Archives de la Marine, B7, Lettres Reçues. Mémoires et documents divers.

Ministère des Armées, Archives Historiques, Vincennes. M.R. 908.

Ministère de la Guerre, Etat-Major de l'Armée —Archives Historiques, M.R. 1933.

Expéditions de Guerre hors d'Europe, Archives Historiques.M.R. 1933; M.A. Feyrusse, *Expédition de Malte, d'Egypte et de Syrie depuis le départ de Tulon le 30 Prairial an VI (18 juin) jusqu'au retour de l'Armée à Marseille le 12 Brumaire an X (3 novembre 1801)*, Archives de la Guerre, Vincennes, M.R. 908, pp. 17-63; L.F. Hauet, *Précis historique et Journal de Campagne d'Egypte et de Syrie par l'Armée française d'Orient en 1798, 1799, 1800 et 1801*, Ministère des Armées, Archives Historiques, M.R. 908 (1801-1816), pp. 80-114; Armée d'Orient, *Exposé succinct de la campagne de Syrie, an VII de la République*, Archives de la Guerre, Vincennes, M.R. 908; Armée d'Orient, *Ordres de la Division du Général Kléber*, Vincennes, B^6 98; Armée d'Orient, *Correspondance du Général Kléber depuis l'arrivée de l'Armée à Alexandrie jusqu'à la fin de la campagne de Syrie du 18 Messidor an VI au 20 Prairial an VII* (6 juillet 1798 au 8 juin 1799), N. 5, B^6 101.

Abu-Husayn, Abdul-Rahim, *Provincial Leaderships in Syria, 1575-1650*, Beirut, American University of Beirut, 1985.

Anderson, R.C., *Naval Wars in the Levant*, Liverpool, 1952.

d'Aramon, M., *Voyage de Monsieur d'Aramon Ambassadeur pour le Roy en Levant escript par Noble Homme Jean Chesneau l'un des secrétaires du dict Seigneur ambassadeur*, publié et annote par M. Ch. Shefer, Paris, Ernest Leroux, 1887.

D'Arvieux, Laurent Chevalier, *Mémoires du Chevalier d'Arvieux Envoyé Extraordinaire du Roy à la Porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, et autres Eschelles du Levant*, par le R.P. Jean-Baptiste Labat, de l'Ordre des Frères Prêcheurs, 6 tomes, Paris, Charles-Jean-Baptiste Delespine le Fils, 1735.

Bakhit, Muhammad Adnan, «The Christian Population of the Province of Damascus in the Sixteenth Century», in *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, eds. Benjamin Braude and Bernard Lewis, 2 vols, New York, London, Holmes and Meier, 1982.

———, *The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century*, Beirut, Librairie du Liban, 1982.

Baldensperger, Philip J., «The Immovable East, III, The Sister Towns of Ramleh and Lydda», *The Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1917), pp. 159-165.

Barkan, Omer Lutfi, «Essai sur les Données Statistiques des Registres de Recensement dans l'Empire Ottoman aux XV^{e} et XVI^{e} Siècles», *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol. 1, pt. 1, Leiden (August 1957), pp. 9-35.

———, «Quelques Observations sur l'Organization économique et sociale des villes Ottomanes des XVI^{e} et XVII^{e} Siècles», *Recueils de la Société Jean Bodin VII — La Ville*, (Bruxelles, 1955), pp. 289-311.

Browne, W.G., *Travels in Africa, Egypt, and Syria from the years 1792 to 1798*, London, T. Cadell Junior and W. Davies, 1799.

Charles-Roux, François, *Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIII^{e} Siècle*, Paris, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1928.

Doumani, Beshara B., «Palestinian Court Records: A Source for socioeconomic History», *Middle East Studies Association Bulletin*, Vol. 19, No. 2 (December, 1985).

Evliya Efendi, *Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the Sixteenth Century*, 2 vols, translated from Turkish by the Ritter Joseph von Hammer, London, Johnson Reprint Corporation, 1984.

Génier, R.P. Raymond, «Bonaparte en Syrie, 1799», *Conférences de Saint-Etienne*, Ecole Pratique d'Etudes Bibliques, 1910-1911, Paris, Librairie Victor Lecoffre, 1911.

Gibb, H.A.R. and Bowen, H., *Islamic Society and the West*, Vol. 1.2, London, Oxford University Press, 1950, 1957.

Haddad, E.N., «Political Parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni)», *Journal of the Palestine Oriental Society*, Vol. 1, No. 4, (September, 1921).

Hartmann, Richard, «Die Strasse von Damaskus nach Kairo», *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, LXIV (1910), pp. 665-702.

Heyd, Uriel, *Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615*, Oxford, The Clarendon Press, 1960.

Hütteroth, Wolf-Dieter, and Abdulfattah, Kamal, *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century*, Erlangen, Erlanger Geographische Arbeiten, 1977.

Lewis, Bernard, «Nazareth in the Sixteenth Century, according to the Tapu Registers», in *Arabic and Islamic Studies in honor of H. A.R.Gibb*, ed. George Makdisi, Leiden, E.J. Brill, 1965.

———, «Studies in the Ottoman Archives — I», *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, Vol. XVI (1954), pp. 469-501.

———, and Cohen, Amnon, *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century*, Princeton, Princeton University Press, 1978.

Lucas, Paul, *Voyage du Sieur Paul Lucas fait en 1714 par ordre de Louis XIV dans la Turquie, l'Asie, Sourie, Palestine, Haute et Basse Egypte, etc.*, 3 tomes, Rouen, Robert Machue, 1728.

Mariti, l'Abbé Giovanni, *Voyages dans l'Isle de Chypre, la Syrie et la Palestine avec l'Histoire générale du Levant*, 2 tomes, traduits de l'Italien, Paris, Belin Libraire, 1791.

Masson, Paul, *Histoire du Commerce français dans le Levant au XVII^{e} Siècle*, Paris, Librairie Hachette, 1896.

Maundrell, Henry, *A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697*, reprinted from the edition of 1810, with a new introduction by David Howell, Beirut, Khayats, 1963.

Paris, Robert, *Histoire du Commerce de Marseille, de 1660 à 1789, Le Levant*, T.V., Paris, Plon, 1957.

Pococke, Richard, *A Description of the East and some other Countries*, 2 vols., London, W. Bowyer, 1945.

Poliak, A.N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon, 1250-1900*, London, Royal Asiatic Society, 1939.

Rafeq, Abdul-Karim, *The Province of Damascus, 1723-1783*, Beirut, Khayats, 1970.

Roque, M. de la, *Voyage dans la Palestine fait par ordre du Roi Louis XIV*, Amsterdam, Steenhouwer et Uytwerf, 1718.

Sanderson, John, *The Travels of John Sanderson in the Levant 1584-1602*, ed. Sir William Foster, printed for the Hakluyt Society, Vol. LXVIII, London, Cambridge University Press, 1931.

Seikaly, Samir M., «Land Tenure in 17th Century Palestine: The Evidence from the al-Fatawa al-Khairiyya», in *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East*, ed. Tarif Khalidi, Beirut, American University of Beirut, 1984.

Siriyyah, Elizabeth, «The Journeys of ʿAbd al-Ghani al-Nabulsi in Palestine (1101/1690 and 1105/1693), *Journal of Semitic Studies*, Vol. XXIV, No. Spring 1979, pp. 55-59.

———, «The Mystical Journeys of ʿAbd al-Ghani al-Nabulsi», *Die Welt des Islams*, Vol. XXV (1985), pp. 84-96.

Suriano, Francisco, *Treatise on the Holy Land*, translated from Italian by F.

Theophilus Bellorini and Eugene Hoade, Jerusalem, Franciscan Press, 1949.

Tott, Baron de, *Mémoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares,* 4 parties, Amsterdam, 1984.

Turc, Nicolas, *Chronique d'Egypte, 1798-1804,* éditée et traduite par Gaston Wiet, Le Caire, 1950.

El-Turk, Nakoula, *Histoire de l'Expedition des Français en Egypte,* publiée et traduite par M. Desgranges Ainé, Paris, Imprimerie Royale, 1839.

Voll, John, «The Non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth Century Damascus», *Der Islam,* Vol. 49, pt. 2 (November, 1972), pp. 277-293.

Volney, C.F. Chasseboeuf, Comte de, *Voyage en Egypte et en Syrie,* publié avec une introduction et des notes de Jean Gaulmier, Paris, Mouton, 1959.

Watson, G.M., «Bonaparte's Expedition to Palestine in 1799», *The Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement,* (1917), pp. 17-35.

Weber, Shirley Howard (Compiler), *Voyages and Travels in Greece, The Near East and Adjacent Regions made previous to the year 1801,* Vol. 1, N.A.; *Voyages and Travels in the Near East made during the XIX Century,* Vol. 2, Princeton, New Jersey, The American School of Classical Studies at Athens, 1952, 1953.

Wood, Alfred C., *A History of the Levant Company,* London, Oxford University Press, 1935.

Yerasimos, Stéphane, «Voyageurs européens en Palestine ottomane au XVI[e] siècle (1517-1600)», *Revue d'Etudes Palestiniennes,* No. 11, Printemps, 1984, pp. 77-104.